

وهي الرسائل التي كتبها على اوروبا



رئيس قلم مجلس النظار

ومساعد السكرتير العام في الجمعية الجغرافية الخديوية

سافروا تصحوا وتغنموا
(حديث كريم)

...نما الارض والفضاء كتاب
فاقرأوه معاشر الاذكاء
(ا. صبرى)

الطبعة الثانية

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر المحمية

سنة ١٣١١ هـ / ١٨٩٤ م

قررت نظارة المعارف العموميه بناء على رأى اللجنة العلمية استعمال هذا الكتاب لتدريس المطالعة فى بعض مدارسها الثانويه والخصوصية والعالية

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى * وصلاة وسلاما على نبى الهجرة الذى اختصه مولاه بمحامد لا تستقصى * وعلى آله وصحبه الذين انتشروا فى الأمصار * وطافوا الاقطار * فرفعوا للعلم أعلى منار * وضربوا للناس الامثال فأصبح التمدن كما نراه جليل المقدار * سامى الاعتبار

وبعد فان لكل عامل غاية يتوخاها ولكل مرتاد ضالة ينشدها وضالتى التى نشدتها فى هذه المجموعة العناية بتخييل ماشاهده العيان من المناظر الشائقة والمرائى الرائقة تخييلا تتجلى به للقارئ مواثل يتقراها بيده ويسبرها بساعده فانى حاولت ان أمثل له تأثير الحس وانفعال النفس اذ الباصرة تعقل والخيال ينقل والمفكرة تخبر والضمير يسبر فتنفعل الحواس فتملى على اليراع بحسب مايقع عليها من التأثير وحكمها فى ذلك راجع الى مزاج الانسان وطبيعته ومشربه وتربيته فقد كنت أعرف قبل تطوافى ببعض البلدان أمورا كثيرة لكننى لما طوحت بى الايام الى تلك النواحى تناسيت الصور التى كانت

مرتسمة فى مخيلتى فنلها الى الانفعال النفسانى بصورة توافق أو تخالف ما كنت أعرفه فهذا هو التأثير النفسانى الذى ابتغيت المبادرة بتمثيله بوقته فى رسائلى هذه قبل ان يضيع شئ منه أو يعرض مؤثر آخر عليه حتى إننى كنت اكتب رسائلى هذه وأنا بين حل وترحال نطوح بى الاسفار ولا يستقر لى قرار وليس لى من الوقت ما يكفى للمراجعة والتنقيح واعادة النظر والترجيح لأننى كنت أخذت على نفسى قبل السفر ان أمضى نهارى فى التنقل من مكان الى مكان أصعد الى أعالى كل مدينة نزلت بها وأدخل فى جميع آثارها وأطوف كل شوارعها وأزور كافة متاحفها وبالجملة أشاهد كل ما يمكن مشاهدته فى اليوم وأقضى شطرا من الليل ليس بقليل فى إتمام ما يتسنى أو تلزم رؤيته بالليل وتعليق المفكرات وكتابة البريد وكنت فى كل لحظة متخوفا من فوات القطر حتى لقد صدق على قول بديع الزمان الهمذانى

إسكندرية دارى * لو قر فيها قرارى
لكن بالشام ليلى * وبالعراق نهارى

أو ما قاله عبد الله بن أحمد بن الحرث شاعر ابن عباد

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالـ * ـعذيب يوما و يوما بالخليصاء
وتارة أنتحى نجدا وآونة * شعب العقيق وأخرى قصر تيماء

بل قد كان وقتى من أقصر ما يكون حتى لقد كنت أسعى فى توفير الزمن

وتكثيره باتعاب نفسى وحرمانها من الراحة فافضل السفر ليلا فى أغلب الاحيان الا أذا لم يكن ذلك فى الامكان ولقد صدق رسول الله الكريم فى قوله (عليكم بالدلجة فان الارض تطوى بالليل مالا تطوى بالنهار)

وقد أفرغت وسعى فى التحقيق والتدقيق كما يشهد به المنصفون من الناظرين فى هذه الرسائل التى يعلى من رايتها ويرفع من ذكرها أنى حررتها وأنا أنظر الاشياء بعينى مصرى بحت ينفعل بانفعال المصريين ويكتب للمصريين فلم أعبأ بقول مصنف غربى ولم ألتفت الى نبأ مؤلف عربى الا حينما تدعو الضرورة الى تحقيقات جغرافية أو علمية وذكر بعض الاحصائيات وفيما عدا ذلك أشهد الله انى لم يكن لى من معتمد فى استكناه الحقائق واستجلاء الماهيات سوى شعورى المصرى الخالص من أثر الشوائب والاستفسار ممن يوثق بعلمه وخبرته من أهل هاتيك الديار

هذا وقد باشرت طبعها بغاية العناية وأوردت الجمل التى كانت حذفت فى غيبتى أثناء طبعها فى الجرائد لاسباب اقتضاها الزمان فرددتها كما كانت يوم كتبتها باوروبا بالتمام غير انى أضفت هنا كثيرا من الحواشى والتعليقات لزيادة التحقيق والتدقيق فى بعض المواضع

وأنى أنبه القارئ الى أن الرسالة الكبيرة على باريس لم يسبق طبعها فى الجرائد هى وكمالة الرسالة الاندلسية فى بيان امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا والاستشهاد على ذلك بالاعلام وكذلك الخاتمة فضلا

عن الزيادات الكثيرة والاضافات الوافرة وانى أستلفت النظر الى رسالة باريس الثانية (وهى الخامسة عشرة) فانها تصور تلك المدينه للقارئ تصويرا وافيا جامعا بحيث ان من تمعنها واستكمل قراءتها امكنه ان يقول انه يعرف باريس وماتحويه مما قد لايعرفه كثير من المقيمين بها سواء كانوا من أهلها أو النازحين اليها وأكثر مما يقف عليه السائح الذى قد يقيم فيها شهرا أو أكثر من شهر وأما كمالة الرسالة الاندلسية فهى تستحق من العناية مالايقل عن ذلك وحسبى انى طرقت بها بابا جديدا توصلت منه الى منهاج من التحقيق يشهد الله بمقدار ما عانيته فيه من التعب والتنقيب والمراجعة وكل ذلك لايخفى على فطانة أهل الانصاف ومحبى الحقائق العلمية

وأقول ان مادونته فى هذه الرسائل هو شئ قليل فى جانب ماعندى من البيانات والمعلومات التى عنيت بتعليقها وجمعها لتدوينها فى الرحلة الكبرى وغاية سؤالى للملك المتعالى ان يقدرنى على إتمامها ويبسر الطريق الى طبعها وتعميمها فانى عزمت على إدارة سياجها وانتهاج منهاجها بحيث يكون موضوعها علميا محضا أتحرى البحث فيها بصفة كونى مسلما شرقيا يعنينى من عملى التنقيب عن آداب الشرقيين والغربيين والمقارنة بين اخلاقهم وعلومهم ومذاهبهم ونحلهم ومبلغ ارتقائهم ومقدار تأثير

الاولين على الآخرين أو الآخرين على الاولين فى القديم أو الحديث ومرجع ذلك فى الاغلب الى دواوين الفلاسفة ومصنفات الجهابذة من الفريقين والله الهادى الى سواء السبيل



مقدمة الطبعة الثانية

هذه الطبعة الثانية أقدمها للافاضل الاجواد الناطقين بالضاد فى جميع البلاد وقد كان السبب فى بروزها حضرة الوزير الجليل والمشير الخطير الآخذ بناصر المعارف المؤيد لابناء الوطن ممهد السبيل لكل مجتهد فى الكسب والتحصيل معين المشتغلين بعضده القوى المتين محط رحال الآمال صاحب الدولة والاقبال مصطفى رياض باشا رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية الجليلة والمعارف العمومية حفظه الله وأبقاه وأكثر من المستظلين بحماه

هذا وانى أجتزئ عن الرسائل الكثيرة والتقاريظ العديدة التى وردت لى أو ظهرت فى الجرائد العربية والافرنكية بالنبذة الآتية التى كتبها رئيس المنشئين وفخر الكاتبين حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الكريم سلمان وكيل ادارة الجرائد الرسمية قال حفظه الله

فوائد السفر ولو لغير المؤتمر

أرانى وأنا أقص على قومى مثل هذا القصص قد أحدث عن معلوم وأتعرض لبيان مفهوم ولكنى مع ذلك لا إخالهم الا موافقين على أن فى الاعادة افادة وعلى أنه ربما سنح للمتأخر من فكر المتقدم بعض لوازم كانت غير بينة فادركها ثم صاغها على أسلوب يزيد فراقة للناظرين ولكل زمان مقال كما أنه لكل مقال مجال

القرآن الشريف والسنة النبوية يحضان على الرحلة من دار الاقامة الى غيرها من الديار (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) (أولم يسيروا فى الارض) (قل سيروا فى الارض) الى غير ذلك من الآيات وعمل النبى صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة رضوان الله عليهم من بعده أكمل وأجلى فى الاستدلال

الحكمة فى مشروعية هذا الامر مبينة فى الآى الكريمة وهى تذكر حال الماضين والاعتبار بما كان لهم فى زمانهم وما انتهى اليه أمرهم من عمار أو دمار وليس هذا الا ليزداد الفكر تنورا والعقل تبصرا وينفسح أمامه مجال النظر والتصرف وترتيب المسببات على الاسباب سنة هذا الشرع الحنيف فيما كلفنا به من الاعمال

أتذكر أنه وأنا فى التاسعة أو العاشرة كان يفد الى مقر اقامتى مع والدى وأهلى سفن شراعية كبيرة فيها تجار من الافرنج يبيعون

على أهل شواطئ النيل أمتعة المنازل و زينتها وحاجات الحياة فكنت ممن يخرجون مع آبائهم للشراء ولكن غرضى وغرض أترابى غير ما كان للوالدين فلم نك لنقصد الامشاهدة تلك السفن وكان اسمها عندنا (الغليون) وتعرف من فيها من الباعة الافرنج أن كانوا من جنسنا وعلى زينا كما يقول آباؤنا أوهم على ما فى خيالنا يخالفوننا فى الطول والعرض والصورة والوضع فلما كنا نراهم طبق الاصل كما أخبرنا لامخالفين كما تخيلنا نرجع وقد استفدنا بانتقالهم الينا وانتقالنا اليهم فى سفينتهم شيأ جديدا ما كان يتأتى لنا لولم يحضروا عندنا أو بقينا فى دورنا واندفع عنا ذلك الخيال قبل أن نصل الى سن الرجال فهذه فائدة صغيرة تناسب ذلك السن سن الاطفال

المشاهد أن أهل القرى وهم طبقات كثيرات يكون أولادهم مختلفين فى النجابة والذكاء الفطريين ولكن النجباء منهم يمتاز ابن التاجر من بينهم بان له معلومات أوسع من سواه فتراه يحدث أترابه بمجالس لهم به علم اذا رجع مع أبيه من بعض الاسفار ينبئهم بان البلد الذى كان فيه مع أبيه أطول بنيانا وأوسع عمرانا وباعمال البيع والشراء والكيل والميزان وغير ذلك من أطوار الآدميين مما يسعه عقل الصبى فى صباه وكذلك نجد طلاب العلم فى الازهر والمدارس فى مصر وبقية المدائن يحصلون شيأ آخر غير ذلك العلم الذى طلبوه فنجدهم وهم من أهل الريف يقتبسون معلومات عن

أحوال الناس وعشرتهم ليست من منقولات الكتب ولا مباحث تلك العلوم وكذلك نرى البدوى وهو فى بيته الشعر وعيشه الضيق ليس حوله غير الاجمال تنوء بالاجمال يتغير حاله اذا نزل البادية وحل بالحاضرة ونظر المزارع والزراع والدور والمتاع ولو غادرها وعاد ذكر لقومه أسماء ووصف لهم مادلت عليه من المسميات التى هم عنها بمعزل بعيد وكذلك توجد فى قطرنا قرى يشط مزارها و يتباعد جوارها ليس لأهلها بالناس اختلاط ولا للناس بهم ارتباط فنرى أهلها كأنهم قريبون من أول الخليقة أوحوالى زمن الطوفان وهذا على العكس من حال القرى المتجاورة وأهلها المتزاورة فانهم أوسع مدارك وأكثر معلومات ونرى الفرق بين كل طبقة مما تقدم و بين مقابلها بمقدار الانتقال عن المواطن عدما ووجودا وقلة وكثرة والتفصيل فى هذا مما لايحتمله المقام فلابد من الرجوع الى الاجمال

الفائدة العائدة من الانتقال ليست قاصرة على ذات المتنقلين ولكنها من الامور المتعدية للآخرين نعم انها لنفس المنتقل أكبر وأجمع فانه وحده الذى يمكنه التلذذ بالمناظر البهجة والتأثر بالمبصرات الغريبة والانفعال فى الرائين أشد منه فى السامعين الا أن هذا اذا رجع لقومه وحدثهم بما رأى عن علم وكمال توصيف أوجد عندهم شيأ مما ذاقه و بث فيهم روح الطلب الى

خير مما هم فيه من حيث المعيشة ولوازم الحياة الطيبة وقد يجد
بهم السير الى اختيار الحسن مما سمعوه واجادة التقليد فيه فما
هي الا أزمان قلائل حتى يعرف الحسن فى البلاد وتتسابق اليه
الهمم فتنتشر المنفعة ويتقدم النفع كلما تقدمت الاجيال

• الامة بالقياس الى غيرها من الامم لاتختلف عن القرية بالقياس
الى سواها من القرى فان كانت احدى الامم راكدة فى موطنها
ليس للكثير من أفرادها تردد على مجاوريهم كانت أقل معلومات
وأقرب الى السذاجة عن سعة الادراك فكانت كالقرية البعيدة
المزار المتنائية الجوار وحالها ماقدمناه من وقوف حركة الافكار
فانها لم تشاهد ما ينبهها الى الجولان وان كانت واحدة من الامم قد
نجب فيها أقوام وهموا بنيل الاوطار فاكثروا من الاسفار استفادوا
مالم يعتادوا فافادوه مواطنيهم وانتشرت بذلك بين أهليهم أخبار
مجاوريهم فأخذوا أحاسنها وترقت الامة بتمامها من حال الى حال

الشاهد على صدق هذه القضايا هو حال أمتنا المصرية فى
زمانيها الغابر والحاضر فانها لما كانت غريبة فى باب الحضارة وأقل
تنورا مما هى عليه الآن كان أمر السفر منها الى غيرها يعد من
الاعاجيب ولاننسى أننا كنا نفزع غرابة اذا قيل ان فلانا منا سافر
الى (بحر برا) أو قدم منه كان هذا اللفظ عندنا عنوانا على ماسوى

ديارنا سواء كان من البلاد الاوروبية أو الآسيوية (عدا الحجاز) أما الآن وقد تنورت العقول فقد بدلت تلك الغرابة عند العامة بشبه العادة وكثر تردد أهلينا على تلك الديار الخارجة عنا وعرفت الفائدة مما نقلوه الينا من أحوالهم العامة والخاصة وقد رأينا أن التقدم والتأخر فى حركة الفكر والاقبال على الانتقال والتناكص عنه متلازما الحصول حتى كأن كلا منهما علة لوجود الثانى والفصل بينهما من المحال

المأخوذ مما تقدم أن فائدة السفر تعود على المسافر نفسه وعلى قومه وقد ترجع أيضا على البلاد التى اليها السفر وليس ذلك بالامر البعيد على الادراك ولا نذهب فى التمثيل له الى غير هذه البلاد المصرية فان أهل الديار الاوروبية كانوا لا يعتقدون فينا الا أننا من متوحشة الافريقيين فيصدقون عنا كل خبر سمعوه ولا يرون منا الا قوما عطلا من كل فضيلة وكان لا يكفيهم ما ينقله لهم عنا رجالهم الينا من أننا مثلهم فى قابلية الكمال فلما كثر ترددنا اليهم فى ديارهم وخالطوا رجالنا فيهم ورأوا منهم أناسا مهذبين ورجالا عارفين يخوضون معهم فى كل حديث عن القديم والحديث يضربون فى كل علم عن دراية وفهم أيقنوا بان الانسان واحد فى الغرب والشرق وسووا بيننا وبينهم فى الحكم باننا من نوع

واحد يجوز على أحد المثلين مايجوز على الثانى من العلم بعد
الجهالة ومن التمدن بعد الوحشية ومن الرفعة بعد الضعة
والانحطاط فهذه فائدة لهم بانتقالنا اليهم عرفونا بعد ماجهلونا
وحكموا صوابا بعد أن كانوا خاطئين نعم اننا شاركناهم فى هذه
الفائدة فقدصرنافى أعين الغائبين عنا من نوع الانسان لنا مالهم
وعلينا ماعليهم من الحقوق والواجبات فكانت الفائدة من سفر
المصريين الى الديار الاوربية مزدوجة بين الطرفين وهذا مايعظم
شأو الاسفار ويجعلها هينة على النفوس وان كان عذابها لايحتمل
وفيها مالايطاق من الاهوال

· البرهان على أن هذه الفوائد حصلت من أسفار المصريين
وعلى حصرهافى السفر أن البلاداتى لم تجر رجلنا اليها ولم يشاهد
لنا فيها شبح قد بقيت فينا على ذلك التصور ولم يعلم أهلها من
أخلاقنا غيرأخبار النقلة خطأ كان أوصوابا يدلنا على هذامارواه
بعض الصينيين الموجودين فى ديارنا الآن من أنهم جاؤا مصر
وهم على عقيدة أن المسلمين لايفلتون من يحل فى ديارهم وان كان
من المسلمين ولما شاهدوا غير ماسمعوه من لطف المعاملة وكريم
المجاملة لم يسعهم الا الاقرار بالمروءة العربية وقالوا اننا سننشرضد
ذلك المسموع ونذيعه فى أنحاء بلادنا و بذلك ربما ارتفع الوهم

عن النفوس ولا نرتاب فى أن بعض البلاد المشرقية التى لم يتعرفها
سواها ولم يشارف أهلها غيرها من الديار الاوربية قد بقيت على
حال لاترى معها فى أعين الغائبين عنها الاعا كانرى به نحن قبل أن يكثر
سفرنا الى الديار الاوربية ويرتفع مقدارنا فيها من أنهم لا يقبلون الكمال
بحال من الاحوال وكذلك لانشك فى أن أهل تلك البلاد المشرقية
الباقية على الخمول لو اتجهت رغباتهم الى ما اتجهنا اليه من الاسفار
لارتفع ذلك الحجاب عنهم كما ارتفع عنا وأخذوا من قلوب القوم مكانا
وكذلك لو زادت رغبتنا نحن فى الاسفار الى غير ما شاهدناه من الديار وكثر
رحالنا فى أقاصى الارض وجوانبها من مشارقها ومغاربها لاستحلبنا من
الفوائد واستجمعنا من الشوارد ما يجعلنا فى الوجود كبارا وينقل أقدامنا
فى سبيل الاجتماع المدنى خطوات بها نحل محل الاعتبار والاجلال

الفضل كل الفضل فى اتصال العالم ببعضه وتمكن الانسان
من مجاوزة أرضه لما تجدد من المخترعات البخارية برية كانت أو
بحرية فأهل الاجيال الاول كانوا معذورين ولا نحسبهم مقصرين
اذا لاحظنا طول المسافات ووعورة المسلوكات فقد كانوا مع ذلك
يتجشم بعضهم المشقة على بعد الشقة ويخترق البحار الى القفار
تحمله الناقة وزاده وزادها ويضطر الى الاقتصاد منهما خوف ضاربة
الجوع على الحامل والمحمول ولا يعود الا وقد صاحب الارب وتزود

الادب ورجع الى أهله فعلمهم ماعلم وأفادهم ماغنم (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم) وكفى بفرض الحج على كل المسلمين والسفر اليه جم غبالهم ومعينا على هاتيك الاسفار الصعاب التى هى فى الحقيقة قطعة من العذاب وساعد على تحمله أيضا مشروعيته لطلب العلم (اطلبوا العلم ولو بالصين) وسرى ذلك الى كل الامم المختلفة فكان لكل أمة النصيب الكافى من السفر الى غيرها على قدر الاستطاعة فى تلك الازمان وان كان لا يحسب شيأ فيما هو حاصل فى هذا الزمان ثم ان الاسفار فى زماننا هذا تعد قليلة بالنسبة لسهولة الاتصالات وقلة النفقات فلا بد أن نرى الامم كلها أو غالبها يوما من الايام كأنها أمة واحدة بما يكثر من تردد أفراد كل واحدة على الثانية فى ديارها وتبادل المنافع بينها وتعرف كل منها أحوال صواحباتها وهنالك تكون الفائدة الحقيقية من الاسفار وتحل الحقيقة محل هذا الخيال المظنون أن قد تبينت فوائد السفر فى هذه النبذة الصغيرة وان كان ذلك على وجه مجمل بغاية الاختصار ولما كان المناسب فى هذا المقام أن يذكر بعض الفوائد الخاصة لبعض الاسفار الخصوصية رأيت أن أذكر طرفا مما يناسب هذه الرحلة التى كانت لاحد الشبان الافاضل من المصريين الى الديار الاوربية وما ينجم عنها من الفوائد فى حد ذاتها مضافا الى تلك الفوائد العامة للاسفار العمومية

فأما الراحل فشهرته بالفضل واقباله على العمل وأعماله المنتشرة بيننا مما يغنينا عن الاطناب فى تعريفه والتنويه بتوصيفه وأما الرحلة فالى مجتمع العلوم الشرقية سنة ١٨٩٢ فى مدينة لوندرة وأما الغرض منها فالنيابة رسميا عن الحكومة الخديوية فى هذا المؤتمر وأما الفائدة منها فنبينها موجزة ولا نطيل فيها المقال

الواجب على هذا الراحل ليس الا الوصول الى مكان الاجتماع فى وقته المعين وتقديم شئ من التأليف العربى الى هيئته وحضور جلساته على الانتظام وابداء رأيه فيما تدور عليه المذاكرة فيه وان نيط من قبله بعمل أتاه على الوجه المطلوب كما أجمع عليه رأى أهليه هذا كل ما كان يلزم حضرة هذا المندوب المصرى واذا أتاه كما وجب فقد خلص من تبعة التقصير واستحق الثناء من مرسله عليه الا انه لم يكتف بهذا الواجب بل أحاطه بنوافل أداها قبله وبعده وفى أثنائه كان القصد منها استفادة ما عليه أصناف الانسان الآخرون من حيث عملهم فى دنياهم وعيشهم وبناؤهم وصناعتهم وعلومهم وكيفية التربية عندهم وما لهم من الاخلاق والعادات والمشارب والمعتقدات وما هم فيه من نعمة ورخاء وشغل وعناء وما جددوه من المخترعات الى غير ذلك مما هم عليه من جميع الاحوال

النوافل التى أداها حضرة هذا الفاضل كان يتأتى لمشاهدتها

وأن تقتصر عليه لذاتها ولما يعود يحدثنا عنها حديث الرائين ولكنه لم يرد أن تكون المنفعة من رحلته قاصرة عليه أومتعدية لنا ولكن لا تبقى بعدنا لأبنائنا فلذلك قيد كل مارآه من الاوابد والشوارد و بعد رجوعه ضمها الى بعضها واستخرج منها هذه الرسائل الفعالة فى النفوس الآخذة بمجامع القلوب عجبا واستغرابا ولقد كان من الممكن أن يأخذ فى سفره هذا طريقا واحدا فى الذهاب والاياب وأن لا يتغيب عن بلده أكثر من الزمن الذى يستلزمه ما كلف به فيقتصد من زمانه وماله ولكن أحب استجماع الفوائد فنحا منحى السائحين الاقدمين واختار أن يشهد له الطريقان طريق الغدو وطريق الرواح وقد أخذت الاقطار أمامه فى رجوعه برقاب بعضها فكلما خاص من بلد تذكر الثانى فانساق اليه بحكم حب الاستطلاع وان لم يكن فى طريقه ولا فى حسبانه وقت مبارحته دار اقامته الاولى وطوحت به الرغبة فى الاستكناه الى أن عرج على بلاد الاندلس العربية الاصل وليست من احدى طرقه الى بلده وأضاف اليها بلاد البرتقال وهى كذلك لم تتعين طريقا له وتغيب عن بلاده تلك الشهور الطوال

المعجب فى كتاب هذه الرحلة هو استنهاض همة قومه كلما رأى لذلك فرصة وتنبيههم على ماجر العظمة والفخار لاولئك الاقوام ومقابلة أعمالهم بأعمالنا والتنبيه على مواضع انتقاصنا واستحسان بعض

العوائد عندنا مع مقارنتها بما هم فيه واستجماع ملاك البيان في التوصيف، بعبارات كأنها فوتغراف نقلت الشاخص ومعانيهم بالتدقيق فلم يفتنا مما تحمل الاحاطة به فائتة وكان هو عندهم حاكيا عما صرنا اليه من التقدم ومحبة التعلم واجتلاء الحقائق على ماهى عليه والرغبة فى الاستفادة والتقاط الحكمة من أىّ طريق وان هذا لهو السحر الحلال

المسطور فى عبارات هذا الكتاب أن مؤلفه الفاضل آخذ عنى نفسه أن يفصل رحلته الى تلك الديار فى كتاب أوسع من هذا يأتى فيه على مالم يتح له فى هذا الكتاب من مقابلات الاخلاق والعوائد والبحث فى أصولها ومرجع اللغات والاعلام وما أخذها بعبارات علمية مؤسسة على البراهين العقلية والنقلية ولا نظنه الا فاعلا لانه عوّدنا الجدّ والنشاط وقد استبان مع ذلك ما توخينا من الفائدة الخاصة بهذه الرحلة فى حد ذاتها كما يفهمه القارئ مما تخلل عباراتها من حكمة وضعها وأسلوب صنعها وما قصده واضعها منها نسأل الله أن يوفقنا واخواننا الى معرفة الفضل لذويه وأن يكثر من أمثال هذا الفاضل فى البلاد حتى تتجسم منافع السفر للعيان وتنشر بها الارواح والابدان فيزداد فينا عدد السائحين والغادين والرائحين ويعمل كل منهم على نشر ما استفاد من السياحة فى البلاد فيكون كلنا عونا الاخيه فى الحط والترحال ونصل الى ما قصدناه من الكمال

عبد الكريم سلمان

الرسالة الاولى

من نابولى فى يوم السبت ٢٧ محرم سنة ١٣١٠
(٢١ أغسطس سنة ١٨٩٢)

لقد صدق من قال انه اذا كان للعلم مجال فللعمل ألف مجال — فراق الوطن وان حقائق الاشياء وهى فى عالم التصور، أقل منها بكثير حينما تبرز الى حيز الوجود، وتتجلى فى مظاهر الشهود — فطالما قرأت ما أتى به الكتاب من الآيات البينات، وما ترنم به الشعراء من الابيات الابيات، فى الحنين الى الاوطان، والتشوق الى الاهل والخلان، والتوجع من مفارقة المألوف، والتفجع من مبارحة الديار، والربوع، ولم تكن نفسى تتأثر من ذلك الا بمقدار اعجابها ببراعة الكاتب، واقتدار الناظم على صوغ المعانى فى أجمل القوالب، وسبك الالفاظ على أبدع طرازة وتمثيل التخييل بما ترتاح له النفس وينشرح منه الفؤاد، وكنت أظن أن ذلك انما مصدره تنميق الكتاب، وتزويق الشعراء، حتى قضى على طالب المعالى بمفارقة مصر السعيدة المحروسة، وديارها المحبوبة المأنوسة، فانجلت لى هذه العواطف الجليلة فى أجلى جلبابها، وحلت هذه الشعائر الحميدة فى فؤادى باحلى معانيها، فتمنيت حينئذ لو كنت من المنشئين المجيدين، لاصور لك أيها القارئ العزيز والمواطن القطين، حب الوطن مجسما فى أجمل حال، وعلى أكمل منوال، ليكون ذلك

باعثا يدفعك الى تعزيز شأنه، والسعي بما فى قدرتك على رفع مناره، والاجتهاد بما قسمه الله لك من العرفان فى تهذيب أبنائه، وبث نور العلم فى انحائه، فانى وعينيك حينما اقترب الوقت المضروب لمبارحة القاهرة (يوم السبت ١٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ ٢٠ محرم سنة ١٣١٠) كنت أمتع الطرف وأزود الناظر، بما فى القاهرة من باهر المناظر، وأجتلى محاسنها الكرة بعد الكرة، وأتزود من رؤية معاهدها المرة بعد المرة، ليكون لى ذخرا منها الى أن أعود اليها بسلامة الله وحسن توفيقه. وما زلت على هذه الحال، مشغول البال، هائج البلبال، وأنا كالباهت الحيران حتى حان وقت السفر وحل يوم الرحيل.

احتفال الاخوان

فاحتشد الاخوان الافاضل والخلان الاماثل لتوديعى على محطة العاصمة وكان الكثير منهم يقول « انما جئنا لنودعك حتى تتقوى بذا عزيمتك وينشرح برؤيتنا صدرك فتبذل قصارى ما عندك فى حسن القيام بالمأمورية الجليلة التى عهدت اليك وتأتى بأصدق برهان على ان فى مصر من الشبان من اذا شملهم بنظره الكريم أمير مصر مولانا العباس أصبحوا من أنفع الناس للناس وجعلوا للوطن العزيز بين الامم المتمدنة مقاما محمودا وفضلا مشهودا »

فكنت أنظر الى نفسي ومن أنا ثم أردد الفكر فى هذا

الإحتفال وفى أمثال هذا المقال فأرى أن هذا التظاهر العظيم وان هذا الاحتفال والتكريم انما يقصد به اعلاء كلمة الوطنية واتحاد القلوب على تنشيط كل من يقوم بعمل يرجى منه نفع البلاد بقطع النظر عن مقام القائم بهذا العمل فى هيئتنا الاجتماعية صغيرا كان أو كبيرا فانى لم أبلغ الى الآن ما يجعل القوم يتقاطرون على بهذه الحفاوة فلا ريب فى ان الباعث لذلك الاحتفال والاجلال هو الاخلاص فى التكاتف على تأييد كل مسعى علمى وتعضيد كل عمل وطنى وان اخواننا أيدهم الله بروح منه قد أحسوا بوجوب الدعوة الى رفع شأن الوطن وتعزيزه فلهم من وطنهم أخلص الشكر وأجزل الثناء اذ ليس فى وسعى ان أوفيهم حقهم من الاعتراف بجميل فضلهم .

ولقد لاقيت فى الاسكندرية (عروس المشرق وعنوان المغرب) عند مقدمى اليها وقيامى منها مثل ما لقيت فى القاهرة وفى ذلك برهان قاطع على ان الشعور بحب الوطن والدأب على استمرار حركة النهضة الوطنية قد سرى فى عامة الفضلاء سريان الارواح فى الاجساد وكيف لا يكون الامر كذلك وامير نا الهمام وولى نعمتنا المقدام مولانا العباس وطد الله دعائم ملكه ونشر فى الخافقين ألوية

مجده انابه أحسن اسوة وأتم قدوة فانه أول من يسعى فى النهوض بالوطن المحبوب الى ذروة العز ومنصة الشرف .

شرف المثول بين يدى ولى النعم

وقد قال لى حينما تشرفت بلثم أيديه الكريمة وشكر أياديه العميمة ان بعضهم اعترض على تعيينى فى هذه المأمورية العلمية العلية بانى مازلت فى دور الشبيبة والفتوة فأجاب بلفظه الفاخر المنيف

«ان هذا هو ذات الواجب وعين الصواب فان زكى من نوابغ الشبان وبه يمكننا أن نبرهن لعلماء أوروبا على ان عندنا من الشبان من يجارونهم فى ميادين الفضل والعرفان»

فكيف لا أتيه فخارا وأختال ابتهاجا بهذا القول الذى هو أفضل من جميع علامات التشريف ودرجات التكريم وكيف لاأدأب على البحث والاجتهاد حتى يبقى اعتقاد ولى النعم فى عبده المخلص هكذا على الدوام وكيف لايكون فى ذلك المقال أعظم تنشيط لامثالى من الشبان يدعوهم الى اطراح الكسل وترك الخمول والاقبال على كل عمل يرفع شأن وطنهم ويستوجب رضا ولى نعمتهم ولمثل هذا فليعمل العاملون وبمثل هذا فليتنافس المتنافسون

ركوب البحر وزيادة الأشجان

قمت من الاسكندرية فى صباح يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس سنة ١٨٩٢ فى باخرة من بواخر شركة اللويد النمساوية اسمها فورورورد قد

جمعت الى النظافة أسباب الراحة بحيث لم يكن ينقصنا فيها شيء مما
نراه فى المدائن سوى قرب تناوله وسهولة الحصول عليه بمجرد الضغط
على الجرس الكهربائى ولم يكن فيها كثير من السواح ولكنها
أقلعت بعد الوقت المضروب بربع ساعة على التقريب وسارت
الهوينا الى ان خرجت من بوغاز الاسكندرية وابتعدت عن الشطوط
المصرية فكنت أحدق النظر المجرد ومستعينا بالنظارة المقربة إلى
رؤية أطراف الاراضى المصرية حتى سترها حجاب الافق واذذاك
أخذتنى كآبة وتولانى حزن وتملكنى انقباض مما لم يكن لى به عهد
من ذى قبل فاغرورقت الدموع فى فؤادى وتلهفت نفسى الى
معاهد بلادى ولم تذهب عنى هذه اللوعة الابعد ان أطات الفكرة
فى انى أسعى الى مجد مؤثل قد يدركه أمثالى وأعود الى وطنى سالما
غانما رابحا ناجحا باذن الله تعالى فشاغلت نفسى عن تيار هذه
الافكار بالنظر الى تمايل السفينة ذات اليمين وذات اليسار وتلاعب
الامواج وصفاء الماء الذى اكتسب فيما أمام الاسكندرية لونا
أزرق باهيا جميل اللجة كأنها قطعة واحدة من الفيروزج
الجميل

ومازالت السفينة توالى سيرها حتى أتى ميعاد الطعام فاكلت تعب البحر
قليلا منه لانى عجزت عن الاتمام ولم الـ وحقك من القادرين بسبب

مااعترانی من دوار البحر وان* كانت الدوخة خفيفة جدا فقد أخبرنا أهل الخبرة ان هذه الحالة من اخف السياحات شدة على من ليس لهم عادة بالاسفار فی البحار ولكن هذا القول لم يمكننی من الامتناع عن الاضطجاع على فراشی فلما حان العصر خرجت الى ظهر السفينة لاجرب الحالة فعاودتنی الدوخة ودوران الرأس فقفلت معجلا الى مضجعی ولم تتيسر لی الاستراحة الا بعد ان صارت معدتی صفرا من الصفراء مدة الليلة الاولى واليوم الثانی والليلة الثانية ولم اتمكن من تناول شیء سوى قليل من اللبن بالقهوة وبعض الفاكهة وقد كان صاحبی حضرة الشيخ محمد راشد قد أصابه ما اصابنی فلبثنا فی حجرتنا مضطجعين على الاسرة متقابلين فكنا فی هذه الحالة أشبه بالمرضى فی المستشفى النمساوی ووجه الشبه الجامعة فی الجنسية بين المستشفى والباخرة ونظافة الخدمة واتقانها وقيام عمال من صنف واحد بها وقد شعرنا بشدة اضطراب السفينة وتزايد ارتجاجها (أو نَوَدانها أو مَيَدانها) حينما اقتربنا من جزيرة كريد (١)

(١) كنت تصورت أن اشتقاق لفظة القند بمعنى السكر عند العرب من اسم هذه الجزيرة الآن الذی هو كنديا لاشتهارها باصطناع العسل الجيد ولو أن علماء اللغة نصوا على ان القند عربية واردة فی الشعر الفصيح وقال بعضهم انها فارسية ولذلك تحريت الحقيقة فعلمت بعد البحث والتنقيب أن المسلمين لما فتحوا هذه الجزيرة فی سنة ٢١٠

وفى اليوم الثالث مررنا أمام سواحل اليونان وبين بعض جزائرها وكان من معنا من بنى الاغريق (الجريج) فرحين مبتهجين برؤيتهم سواحل بلادهم يرنون اليها بلحظ متوال والانشراح ملء فؤادهم ثم مررنا قبالة جزيرة كورفو Corfou (قرفس فى كتب العرب) ذات

اختطوا بها مدينة سموها * (الخندق) * ثم حرف الروم والافرنج هذا الاسم الى كلمة ياو تعارفه العرب بهذا الاسم وتناسوا الاسم العربى القديم كما حصل مثلا فى «دار الصنعة ودار الصناعة» فانه اسم عربى معتبر يدل على المكان الذى تصنع فيه السفن ذكره بهذا المعنى المقرى وابن بطوطة وابن الاثير والادريسى وابن خلدون وابن جبير والمسعودى وغيرهم وهو عند العرب يدل أيضا على المكان الذى يصنع فيه شئ من الاشياء ولكنه بالسفن أخص حرفه الاسبانيون الى Darsena و Aterzana و Arsenal وقلها الطليانيون هكذا Arsenale و Darsena والانكليز الى Arsenal والفرنساوية الى Arsenal و Darse ومن المعلوم ان أهل مصر فى هذا الزمان أى من أيام محمد على استعملوا فيما يتعلق بفن البحر كلمات كثيرة نقلوها عن اللغات الافرنكية وأخصها الطليانية فلم يلتفتوا الى أن كلمة Darsena أصلها عربى بل أضافوا لفظة (خانه) التركية وقالوا ترساخانه لاعتيادهم على اضافة «خانه» الى أسماء جميع الاماكن العمومية الاميرية جريا على الاصطلاح الخاص باللغة التركية ثم انهم أحسوا ببعض المخالفة بين لفظتى (ترساخانه) و (دارسنا Darsena الطليانية) فحذفوا خانه واقتصروا على قولهم «ترسانه» ومثل هذه الكلمة كثير نقله الافرنج الى لغتهم ثم استرجعها العرب من غير أن يعيدوا اليها شكلها بل أبقوها بكيفية لا يكاد يتعرفها الباحث وليس هذا محل استقصائه وأرجع الى الموضوع فاورد هنا ما أتحفنى

المناظر الجميلة والحدائق الغناء التى اشتهرت فى السنة الماضية بقيام أهلها على بنى اسرائيل وفتكهم بهم الفتك الذريع

وصول برندزى — ومازال البحر صاحيا والهواء موافقا والشهية حاضرة فعوضنا مافاتنا من الطعام وخسر متعهده ما أكسبه اياه اشتداد البحر فى اليومين الاولين حتى وصلنا فى ذلك اليوم الى برندزى واسمها فى كتب العرب ابرندس وعند الفرنساوية برند (Brindes) وعند الرومانيين

به حضرة صديقى المهذب محمد افندى كامل تيمور من أعيان التجار بالاسكندرية لكون هذه الجزيرة وطنه وله بها علم تام — كانت هذه الجزيرة تسمى عند قدماء اليونان (ايدا) لكون أعلى جبل فيها كان معروفا بهذا الاسم ولما كان طولها يضاهى عرضها سبع مرات أو ثمانية سميت بما معناه (الطول السعيد) ثم سميت بما معناه (ذات الهواء) لكون هوائها جيدا وجافا للغاية ثم أطلق عليها اسم جديد معناه (العظمة) لكونها أعظم جزائر بحر الروم وفى آخر الامر سماها الاغارقة (كريت) تشريفا لها لكون زوجة أحد حكامها كانت تسمى كذلك — قد وردت هذه الاسماء فى تاريخ يونانى قديم ألفه من هذه الجزيرة أحد الفلاسفة والمؤرخين واسمه باكوفانون — وقد قال حسين بك كامى فى تاريخ كريد الذى ألفه باللغة التركية ان العرب حرفوا كلمة (كريت) الى اقريطش والعثمانيين الى (كريد) لسهولة التلفظ بها

ولمناسبة كون العرب بنوا فى مدينة ايراقليو (Hiraklio) المعروفة الآن باسم (قندية وكندية) خنادق وطوابى جسيمة لازالت موجودة الى الآن حرف الروم والاوروباويون لفظة (خندق) الى كندك ثم الى كنديه وجعلوا هذا الاسم للدلالة على جزء من الجزيرة فجاء البنادقة وأطلقوه عليها كلها وبقى ذلك متعارفا عند الإفرنج الى الآن

برنتسيون أو برندزيوم (Brindisium و Brintision) وكنا نعتقد أننا نجد من وكلاء كوك فيها أعظم مساعدة فلم يتحقق أملنا وأقول انه اذا كان جميع عماله فى الجهات الاخرى من الكسل والخمول مثل ماهم عليه فى هذه الفرضة فالاحسن للغريب أن يسترشد بكتب الدليل ويباشر شؤنه بنفسه ولعلهم لايكونون كذلك فى بقية المدائن التى سنمر عليها وقد سمعنا عنهم خيرا كثيرا ونحن بمصر وسنكتب عما شاهدناه منهم بعد ذلك ان شاءالله

كان وصولنا الى ابرندس أوابرنطس (كمايسميها العرب) بعدقيام قطار الصباح (الساعةالسادسة) المتوجه الى نابولى عن الطريق القريب فخيرنا بين المقام فى هذه المدينة الحقيرة (بالنسبة لأوروبا) وبين اتباع الطريق المنحنى مع القطار الذى يقوم الساعة تسعة وخمسة وعشرين دقيقة ففضلنا الرأى الثانى لكى نتخلص من أخلاق أهل برنديس وأخلاطها الذين هم أحط فى المدنية من جعيدية مصر وأرذل من سفهائها وأشد الحافا والحاحا من شحاذى السيدة زينب

الطريق من برندزى الى نابولى

فتوجهنا الى المحطة وكان مع رفيقى شنطتان ومعى أيضا ثنتان فابى رجال المحطة الا أن يكون ارسال ثنتين منها بعد دفع الاجرة

عنهما فامتثلنا ودفعنا نحوا من ستة وثلاثين قرشا وهـذا ليس من الغرابة فى شئ بل الاغرب ان أحـد مستخدمى المحطة (وهو الذى ألزمنا بحمل متاعنا الى المخزن) جاء الينا بعد أن تبوّأنا مقعدنا من القطار وطلب أن نتحفه بشئ من النقود فقلت له عجبا منك ومن فعالك تغرّمنا ماليس بواجب علينا للسكة الحديدية ثم تجئ وتطلب منا الاحسان ولكنه أظهر المذلة والمسكنة وباء فرحا مبتهجا حينما أتحفته بنصف فرنك ثم قام القطار فاذا الارض حوالى ابرندس مكتسية بحلة خضراء مزينة باشجار ورقاء كل ذلك وهى صخرية قد أذابت الامطار قشرتها وأودعت فيها الخصوبة والبركة باذن الله بحيث اننا كنا نرى كثيرا من الاشجار نابتة بين شقوق الأحجار ونرى الاراضى بارتفاع وانخفاض واستواء وانحدار وكلها مجللة بثياب سندسية فى غاية البهاء وقد رأينا الكرم فيها وفى بعض جزائر اغريقية (Grèce أى بلاد اليونان) * لايرتفع عن شبرين فكان منظره كنبات الحس فى مصر ولكنه يأتى بالمحصول الكثير والعنب الجيد اللذيذ على مابلغنا من أهل هاتيك الديار وهذا دليل على ان اتخاذ العروش والتكاعيب لاشجار الكرم مما لايجديها نفعا بل قد يترتب عليه قلة المحصول لان العصارة تتصرف فى ساق النبات وأغصانه بدلا

من ان تتكون ثمرا حنا ومع ذلك فالحكم لعلماء النبات فقد قال ان العنب صنفان

وبعد ان ابتعدنا عن ابرندش (برندزى) رأينا الارض قاحلة فيها نبات شائك شاهدنا القوم يحرقونه فى بعض الجهات لتسميد الارض كما يفعل بعض أهل مصر ولما تجاوزنا هذه الضواحى رأينا السهول قاحلة ماحلة ثم مررنا على بلاد عامرة وكان مرورنا على ساحل البحر الادرياتيكى (المعروف عند العرب بجون البنادقيين) وكانت معنا فى الوابور فرقة من الجنود فلما مررنا على محطة أوستونى (Ostuni) رأينا فيها كثيرا من النساء العجائز ينتظرن من لهن من الاقارب فكن يودعنهم ويقبلنهم ببكاء وانتحاب مثل ما يراه الانسان ببعض محاط مصر سوى انهن لا يولولن بالعويل والصياح ومازال الوابور يسير بنا بين جبال وتلال وقيعان ووديان حتى قدمنا مدينة نابولى الزاهرة الباهرة بعد أن اخترقنا ثلاث مقاطعات فى الجنوب والشرق الشمالى لجنوب ايطاليا وكلها تستقى من مياه الامطار تخزنها فى صهاريج ورأينا فيها سواقى ونواعير وآبارا يشبه ماؤها مياه الآبار فى مصر وقد علمت ان المهندس (زنبارى) قدم مشروعا مقتضاه شق ترعة تأتى بالمياه من نهر سيلى (Sele) الذى يصب فى خليج سالرنو (Salerno)

لتروى منه مقاطعات فودجا وبارى ولتشى (و Foggia و Bari و Lecce وفى كتب العرب فوج وبارى ولج) وان نفقاته تبلغ مائة مليون ليرة طليانية (والليرة الطليانية تعادل فرنكا فرنساويا فتكون مساوية بجزء من ستة وعشرين جزأ من الجنيه المصرى) قدم هذا المشروع من نحو ١٥ أو ٢٠ سنة ولكنه لم يبرز الى حيز الوجود لقلة المال وعدم تيسر الحصول عليه

هذه عجالة يسيرة من أمور كثيرة علقت بها مذكرات ومفكرات سأفصلها فى الرحلة ان شاء الله

*

الرسالة الثانية

عن رومه فى يوم الاثنين ٢٩ محرم سنة ١٣١٠
(٢٢ أغسطس سنة ١٨٩٢)

لعلى أكون أحرزت برسالتى الاولى رضا حضرات القرّاء فوائد السفر
الالباء والافان العذر واضح لكون كتابتها كانت بعد تعب شديد وتسهيلاته
عانيته من سفر ثلاثة أيام فى البحر تتلوها عشر ساعات بلا انقطاع
فى باخرة البر وليس فى ذلك من غرابة لعدم العادة ولقد كان سمعى
ينبو من مقال القائل (بل العذاب قطعة من السفر) فلما حقق
الخبر الخبر زال عنى الاستنكاف مما كنت أحسبه ضربا من المجازفة
فى المبالغة خصوصا وان أسلافنا لم يكن لهم ما أفاضه عرفان هذا
القرن (التاسع عشر) على أبنائه من تسهيل الانتقال وتأمين
الارتحال وتقليل المسافات وتناهى البخس فى النفقات بالنسبة لما
كان ينبغى صرفه فى هاتيك الاوقات وتيسير أسباب السير والنظر
والتأمل فى آثار من غبر ومصنوعات من حضر وتوسيع دائرة العقل
بالاطلاع على نتائج أفكار الغير الى ما هنالك من الفوائد والمكاسب
فى المتاجر والمصانع مما لا ينكره الا المكابر ولذلك فانى بعد المقارنة
أحسب هذا التعب راحة وهذا الشقاء نعيما فلم أتربص حتى تجيئنى

الانباء من الاصدقاء بما كان لبا كورة رسائلى من الشأن عند الادباء فانى (على كل حال) أشعر فى نفسى بما يدفعنى بالرغم عنى الى الكتابة حتى أكون كأنى بين الخلان والاخدان فقد وجدت مجال القول ذاسعة وألفيت مقام الكتابة صالحا فاقول .

نابولى ورؤية أول مدينة من اوروبا

ان نابولى والحق يقال لتستحق أن يكتب عليها مجلد ضخم لاصفحات قليلة تتلى (أولا تتلى) ثم تتطاير فى الهواء وذلك لانها ضمت الى بهاء المنظر جمال الطبيعة وقرنت بين حسن الصناعة ونشاط السكان مما يجعلها جديرة بان تشد اليها الرحال وينزل بها أولوا البصائر والابصار الايام الطوال بل الشهور بل الاعوام

عود لوصف الطريق الى نابولى

والذى يضاعف حسنها فى نظر القادم اليها من الطريق التى اتخذناها (طريق فودجا) انه يوافيها بعد أن يقطع كثيرا من الفيافى والقفار ويسير خلال الجبال الموحشة والارض اليباب وتحت الانفاق المنقورة فى الصخور (Tunnels) وفوق القناطر المقامة على الوديان والاغوار وبين الهاويات الخاويات وكل ذلك يجعله غير مستأنس ولا بنفسه متوجسا خيفة من كل ما يحيط به حتى ان الخيال (أو الحقيقة) ليصور له ان الباخرة البر ذاتها قد انتعشت بقوة الحياة فتولاها الرعب وتملكها الجزع فاخذت تتلمس فى مشيتها وتسير الهوينا (لا عن تبختر) بعد ان كانت تسعى على عجل فينقلب

الصفير الخارج من صدرها زحيرا يمازجه صوت أبح خافت يعاون على إكمال الوحشة وابعاد الائتناس وهى فى غضون ذلك تنساب فوق الوهاد وتحت النجاد كأنها الافعوان (يخرج ليكون قاتلا أو مقتولا) ولايزال هذا حال الراحل وحال مطيته حتى يصل بالسلامة الى نابلس الغرب الاوروبى ولكن (شتان بين مشرق ومغرب) فيحمد غب السرى اذ يرى نفسه فى مدينة هى فى الحقيقة كالحديقة الانيقة ناعم البال منشرح الفؤاد ويصدق قول من أنشا (وبضدها تتميز الاشيا) ولكنى أترك الاسترسال مع هذا التيار فقد ألقيت عصا التسيار وقرت العين باجتلاء محاسن هذه المدينة اليانعة الرائعة الناصعة ومعاهدها الباهرة الزاهرة الفاخرة وخذمنى حديثا وجيزا على عجلة وانتظر اذا أردت التفصيل فى الرحلة

• هذه المدينة أسسها أقدم قدماء الاغريق فى الزمان العتيق وسموها بلسانهم نيابوليس (Neapolis) أى المدينة الحديثة وكان لها اسم آخر غيرشائع وهو پارتنوب (Parthenope) وقد حرف الطليانيون اسمها المشهور الى نياپولى ثم ناپولى (Neapoli) والفرنساوية الى ناپل (Naples و Napoli,) وعرب هذا الزمان الى ناپولى وقد ورد اسمها فى كتب الجغرافية العربية القديمة (نابل ونابل الساحلية ونابل الكتان

عجالة على نابولى

لكثرة هذا الصنف ومنسوجاته بها فى قديم الزمان) واما نابلس (أو نابلوس) المعروفة فى الشام فقد أطلق الرومان عليها هذا الاسم غصبا وألغوا اسمها القديم وهو شكيم (Sichem) الوارد فى التوراة وقصص الانبياء ولقد أخطأ ياقوت الرومى حيث جهل الاصل اليونانى لهذه التسمية فانتحل لها اشتقاقا من عندياته أو نقلا من غير تثبت فقال فى معجمه انها مركبة من « ناب » أى سن ومن « لوس » أى التنين بلسان السامرة فيكون الحاصل من معنى اسمها «ناب التنين»

وليست أهمية هذه المدينة وبهجتها بسبب أقدميتها وما بقى بها من آثار أهلها السالفين فانها خلو من المخلفات والاطلال التى يقصدها عادة الزوّار فى المدائن القديمة العهد مثل نابولى وانما هو موقعها الذى لا يزيد عليه فى العالم كله سوى موقع القسطنطينية وحسبى هذا التمثيل للدلالة على انها جمعت المحاسن الطبيعية الشائقة والمناظر البهيجة الرائقة فهى على هيئة مدرج ينحدر على سفح تلال تنتهى الى البحر وفى شرقيها بركان فيزوفيو (Vesuvio المعروف عند العرب بجبل النار) وحواليها تلال ترى المنازل نازلة من أعلى قللها تترى الى منتهى سفحها فاذا ارتقى الانسان احدها نظر الى المدينة بجملتها فرأى من شوارعها الصاعد والنازل والمنحدر

.والمستوى والمنحط والعالى ومع ذلك فالهواء فيها كلها جيد والحركة مستديمة لانها من أهم موانى هذه الديار وأكثر مدائنها فى العمار ويعتبرها أهل السياحة والاسفار من أجل الامصار وأبهج مواقع الدنيا على الاطلاق وقد كان خليجها العجيب يجذب الى نواديها الاغراب من جميع الاصقاع وما زالت الآلاف منهم تتردد أيضا فى هذا الزمان على ربوعها الغناء وحدائقها الفيحاء للرياضة والنزاهة ومن الغريب أن حسن موقعها جعل الاجانب يطمعون اليها كما ان رخاء العيش فيها أوجب رخاوة أهاليها فلم يذودوا عن حياضهم ولم يصدوا الفاتحين وغاراتهم فتوالى عليهم حكم اليونان فالاوسكيين (Osques) فالرومانيين فالقوط (Goths) فالبوزنطيين (Byzantins) فالنورمانديين (الذين يذكرهم العرب باسم المجوس) فالالمانيين فالاسبانيين

ومدينة نابولى المذكورة هى مدينة كبيرة ذات شوارع واسعة ومبان شاهقة تفرجنا فيها على مربى الاسماك (Aquarium) ورأينا معيشتها وهى فى نفس ماء البحر على أحجار الصخر وفى خلال الاعشاب المائية بشكل غريب ومنظر معجب وتفرجنا على القصر الملوكى وقد كان تشييده فى سنة ١٦٠٠ وفيه من الصور

والرسوم والتماثيل والموائد مايدهش الانظار ويحير أفكار أولى الالباب ويقضى بالعجب العجاب وهو متسع الارجاء فيه منازه فسيحة جدا ترى فيه الاشجار منضودة على شكل الاسوار وهيئات المثلثات والمربعات والمنحنيات وأغصانها مشتبكة محتبكة منضودة ممدودة مقصوصة مرصوصة بحيث تتكون منها أشكال وتراكيب على طراز غريب وترتيب عجيب ورأينا فيه مربى للطيور ولكنه ليس بالشئ العظيم ورأينا الاشجار الباسقة والمياه الدافقة والخضرة النضرة التى تتشحذ بمرآها الاذهان وتكتحل بطلعة نَوْرها الاجفان فلا عجب اذا كان بنو الطليان من أجود أهل الارض فى اتقان الشعر واجادة التصوير واحكام الرسم والبلوغ فى الصنائع المستظرفة والفنون الجميلة غاية لا تكاد تدركهم فيها أمة أخرى فقد رأينا فى هذا القصر الطائل من الرسوم والنقوش وأساليب العمارة والتفنن فى النحت والاغراب فى التمثيل والتخييل مالا تفى هذه العجالة بعشر معشار مايستحقه من البيان ثم جلنا فى شوارع المدينة صاعدين هابطين متأملين اقتدار الاهالى وشغفهم بتجميل أماكنهم وتزويقها بما يستوقف الانظار ويقضى على الناقد المنصف بان يقضى لهم بسلامة الذوق وحسن الاختراع

حيطة فى المحاسن

وهنا أستميحك أيها القارئ أن تقف معى برهة امام الجمال وتؤدى له واجب الاتاوة مقرونة بالتسبيح والتهليل والتكبير (سبحان الله — الله الله — ماشاء الله — الله أكبر)

فاننا من عهد ما بارحنا الاسكندرية وفارقنا سان ستفانو (ملتقى الغادات الحسان ومجمع الغانيات المحجبات) لم يستقر طير نظرنا على شيء من اغصان الملاحة سوى اننا كنا نرى فى طريقنا من برندزى الى فودجا الى نابولى بعض أشباح ينتسبن الى حواء ولانسبة وهن من قبح الصورة وسماجة الوجه بحيث لو رآهن شيخ الاباسة لعدل عن الوسوسة واستبدل الاغراء بالفرار والاغرب من ذلك ان وجوههن تكون جافية واقدامهن حافية وشعورهن منتوفة ورؤسهن مكشوفة ومع ذلك فلا بد لهن من العُظّامة أو ما يقوم مقامها كأن تأتزر الواحدة بالفستان وتتشح بالصدار لاظهار قد هو أشبه بالقدر وما زلنا على هذه الحال حتى ظننا ان أوروبا انما ترسل الى بلادنا أفضل ما فيها من العيون الناحرات الساحرات واللحاظ الفاتنات الفاتكات فلما قدمنا هذه المدينة رأينا غير ما ظننا ولقد كان منظرنا وخصوصا الرفيق الموافق والصديق الصادق الشيخ محمد راشد يسترعى منهن الانظار فكان لى بذلك فرصة أغتنمها لتعويض مافات والتأمل فى صنع ربك ذى الجلال والاكرام فكانت الواحدة تحملق الينا فترسل سهاما من فاتر

الالحاظ والاخرى تستغرب من شكلنا فيفتر فهاعن درّ يأخذ بحبات القلوب ومنهن من كانت تترك عملها الذى خرجت لاجله من كنائسها وتسعى خلفنا تستغرب شكلنا بينما نحن معجبون بشكلها ومنهن من كنّ يطللن من الشبابيك فيشبكن الفؤاد ولا حرج عليهن ومنهن من كانت الخواتم بخصورهن أليق من الحياصى وغير ذلك مما يطول شرحه ويقصر يراعى عن بيانه حتى اننا لم نر حيلة للتخلص من شراك هذه الشبابك سوى التعجيل بالرحيل فقصدنا المحطة

ع وعدا به سفر

فوقعنا فى شبكة لم تكن انا فى حسبان ولم تخطر لنا على بال وذلك ان عمال السكة الحديدية أبوا الا أن يدفعونا الرسم على ثلاث شنطات من متاعنا وابقاء شنطة واحدة تحت يدنا فأظهرنا لهم شدة الغرابة من تنوّع المعاملة فى برندزى أولا وفى نابولى ثانيا وقلنا لهم أليس القانون واحدا فى ايطاليا كلها أم هل يختلف تطبيقه بحسب الازمنة والامكنة والاشخاص فكان جوابهم لنا (برندزى هى برندزى وأما نابولى فهى نابولى) فلم نر بدّا من نقدهم ماطلبوا ولكنى حررت هذه الجملة فى مذكراتى واذ لم يكن لى من الوقت مايكفى للتعمق فى البحث عما حوته هذه الكلمة الجامعة من دقائق المعانى وعويص الافكار آثرت أن أطرحها الآن على

حضرات علمائنا الاعلام ليجعلوها موضوعا للمتون والشروح والحواشي والتتميمات والتكميلات والتذييلات والتعليقات والاخذ والرد والتوجيه والاعتراض والقيل والقال حتى اذا رجعت السلامة ووقفت على خلاصة الابحاث أخذتها عن الثقات غنيمة باردة وزينت بها صفحات الرحلة

ثم سارت بنا الباخرة البرالى رومة فى طريق تحف به من الجانبين الطريق لرومه أشجار مدت أغصانها فاشتبكت فكانت أشبه بعذارى الجان خرجن من الجبال المحيطة وتهيأن للرقص على أجمل منوال فمدت كل واحدة منهن ذراعيها الى أختها ذات اليمين والى تربها ذات الشمال ووقفن فى انتظار القطار حتى اذا اقترب منهن تحركن حركات منتظمة معجبة بقدود ميادة وأصوات مطربة واستمر الحال على هذا المنوال بين الجبال الصماء تتخللها الخضرة الزهراء والاشجار الشماء حتى بلغنا رومة بسلام وتوجهنا الى الفندق واسترحنا

الرسالة الثالثة

رومة (١)

من فلورانسه فى الثلاثاء عشر صفر الخير سنة ١٣١٠
(٢٣ أغسطس سنة ١٨٩٢)

الاندهاش من رؤية رومة

يا للعجب يا للعجب كأنى نسيت الكتابة بلسان العرب أو كأن مقامى بهذا البلد أضاع اللب وأذهب الرشد فكيف العمل فكيف العمل وأنا كلما حاولت التحرير أو أخذت فى التحبير استعصى القلم وحرن جواد التفكير وانهالت على المطالب انهيالا لا يجعلنى أعرف بم يجب الاستهلال ومتى يكون الختام وكيف أتخلص الى تلخيص شئ من المذكرات الجمة والمفكرات العديدة التى اقتطفتها أو جمعتها على هذه المدينة المختالة فى حلل البهاء والجمال المجللة بما أودع فيها من آثار العظمة ومشاهد الجلال ففيها العمائر الفاخرة الفائقة والقصور الواسعة الشاهقة والمزارات المتعددة المتنوعة والبقايا الكثيرة مما خلفه فيها القياصرة والامبراطرة والقناصل والامراء والاشراف والكبراء والسادات والباباوات فانها من يوم نشأتها الى الآن مازالت عاصمة السياسة والحل والعقد وكعبة الديانة الوثنية

فخامة رومة

(١) رومية ورومية الكبرى ورومية المدائن فى كتب العرب ويشقها نهر التيبر (Tibre و Tevere) المعروف عند العرب بنهر الصُّفْر

ثم النصرانية وكل من تولى الامر فيها يسعى بما فى وسعه لتوسيع نطاقها و يبذل جهده فى زخرفتها بما يوجب له الفخار و يستبقى ذكره على ممر الايام فلذلك ترى شوارعها فسيحة وميادينها أنيقة وفى كل ساحة فسقية يتدفق الماء منها وفيها باشكال معجبة وأصوات مطربة وقد نصبوا فيها كثيرا من المسلات التى استجلبوها من بلادنا مع أن عاصمتنا القاهرة خلو منها بالمرة (والذى بقى عندنا من المسلات مازال فى موضعه يندب التمدن الذى كان حوله و يتحسر على عدم العناية به مثل أمثاله فى أوربا وأمريكا)

وللمبانى فى رومة منظر رائق بهيج بالوان زاهية براقة تعجب النظار غرام أهلها بالتجمل والتجميل وعلى جميع جدرانها وأبوابها ونوافذها ومطلاتها وشرفاتها وأفاريزها ترى التماثيل من النقوش البارزة والتصاوير المختلفة والرسوم المتعددة كأن كل واحد من أهاليها أراد أن يستوقف السائحين والجائلين والرائحين والجائين بل هذا غرام قام بهم وشغف لازمهم فلا مندوحة لهم عنه لانك ترى حتى الجزار (القصاب) يزوق حانوته بأغصان الاشجار و يعرض اللحم على الانظار مقطعا قطعا ملتفا أعلاها بقراطيس من الورق الابيض الناصع تنضم ثنياته الى بعضها فتجمعها زهرة من الزهر المختلف الألوان ومثله بائع الخضار فى حسن الترتيب

وجمال العرض ولا ينقص عنهما غيرهما فكل واحد يتفنن فيما يلزم الخلائق بالاقبال عليه (واللى مايشترى يتفرج)

كنائس رومة

وقد اغتنمنا فرصة مقامنا بهذا البلد لزيارة مابه من الكنائس التى يضرب بها المثل فى الضخامة والفخامة والمتانة والجلالة والتناهى فى الابداع واللاتناهى فى الاغراب والتشييد الهائل والزخرفة التى تلهى ولاشك المتعبدين والمتعبدات وتشغل المتنسكين والمتنسكات بالنظر اليها (والى بعضهما خصوصا) وإن العقل ليحار فى كيفية تشييدها ويذعن باقتدار ذلك الذى صورها بالقلم على القرطاس ثم أبرزها مجسمة على سطح البسيطة حاوية كمال التناسق وتمام التناسب وإحكام الصنع واتقان الوضع فى كل نوع من جدرانها وعمدانها وسواريها الى عقودها الى سقوفها الى قبابها حتى انه لم يترك مقالا لقائل ولم يدع مجالا لاستعمال ليت ولو وفوق ذلك فان للقوم بحفظها عناية لابعدها ولا قبلها ففى كل كنيسة منها سلالم للتعمير والترميم والتجبير والتتميم ومع كثرة الكنائس والبيع بها (فانها تكاد تناهز نصف الالف) رأينا القوم مشتغلين بتشييد غيرها وأنت تعلم ماحاق فى هذا الزمان بالحكومة البابوية والسلطة الدينية من الضعف والاضمحلال فى بلاد أوربا على العموم وايطاليا على الخصوص

هـذا وقد زرنا معرض الصور والرسوم ومصنع الفصوص وبعض مشاهد الفسيفساء فى قصر الفاتيكان ورأينا بهما من الغرائب والعجائب التى يقصر عن تفصليها هذا الاجمال ثم شاهدنا ما بالمدينة من آثار القدماء والمتاحف والمعارض والقصر الملوكى والاطلال القديمة والاسراديب المنقورة فى قلب الجبل حيث كان النصارى فى مبدإ أمرهم يلجؤن اليها أيام الاضطهاد ويتقون بالاختفاء فيها شر عباد الاوثان

رومة

وقد رأينا فى كل ساحاتها وباحاتها وميادينها وبساتينها وفى كافة الارجاء من منازهها وشوارعها تماثيل كبارهم وعظمائهم الذين قاموا بخدمة الوطن وترقية شأن البلاد وتعزيز مقام الامة بحيث ان ذكرهم لا يمكن أن يمحوه الزمان وبذلك عرف الاهلون عالمهم وجاهلهم كبيرهم وحقيرهم مقدار الاجر العظيم الذى يصيبه من ينفع الوطن من أىّ وجه كان وبأىّ عمل كان ووقف السكان عموما على تواريخ أولئك الذين استفادت منهم البلاد فائدة حسية أو معنوية قليلة أو جليلة واتخذوهم نموذجا لتهذيب الابناء الناشئين وتربيتهم على السير فى جادّتهم ومحاكاتهم فى خدمة الاوطان

تخليد ذكر الاعيان والاماجد

وهنا ينبغى لى ان أقف قليلا كاسف البال متحسرا على كون أهل بلادنا يهملون تخليد ذكر من له فيهم منفعة بأية وسيلة تكون مع انه وايم الحق هو أفضل الاعمال وأجل ما تشد

تأسف على عظماء مصر واهمال ذكراهم

لاجله الرحال فان الذى يعلم أنه اذا خدم وطنه عرف قومه قدره وأجلوا ذكره وشادواله الآثار والمبانى التى تضمن له عمرا غير العمر الفانى وتستديم حياته الى كل جيل لاشك انه يضحى النفس والنفيس و يواظب على السعى والعمل لنيل هذا الشرف الذى ليس بعده شرف . ألاترى أن الكثير من علمائنا وفضلائنا قد انقرض ذكرهم بمجرد دخولهم فى رمسهم اللهم الا أن يكون لهم كتاب متداول مشهور (وهم الاقلون) وهل يصح لى أن أعرف بنى وطنى الكرام بان السعى فى تخليد ذكر الاماجد الاماثل الذين يخدمون الوطن هو أكبر باعث ينهض بالنفوس ويحرك العزائم و يحد القرائح ويوجب الاقدام على العظائم فتغتنم الامة والوطن أجل المغانم ويربحان باجتهاد أفرادهما وسعى أبنائهما من غير أن يكونا على الدوام فى حاجة الى الاجنبى والدخيل لانسير الا بمشكاة نورهما ولا نهتدى الا بهدايتهما وارشادهما أما آن لنا أن نفطن الى هذه الحقائق وندرك ماوراءها من المنافع فنطرح الحسد منا لبعضنا ونسعى جميعا فى وجهة واحدة اصالح الوطن العزيز كل بقدر ماعنده ونعضد بعضنا لنكون كالبنيان المرصوص فلعل أهل بلادنا تهزهم الاريحية المصرية وتثور فيهم النخوة الوطنية والحمية الاهلية فيتشبهون بامم أوروبا لنوال الفلاح والنجاح

أواه . تحدثني نفسي عند كتابة هذه السطور بان الكثير من القراء لابد أن يستخف بهذا المقال ولكني أنادي من له حياة أو كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فتلك لعمرك عواطف وطنية واحساسات قومية وددت لو يشعر بها أهلي كما تملكتني حينما رأيت الخاصة والعامة في هذه المدينة واقفين تمام الوقوف على جميع ماجريات أولئك العظماء الذين أقيمت لهم التماثيل والانصاب وتزينت بصورهم قصور الملوك وقاعات الدواوين حتى كان ذلك باعثا للامة الطليانية على مباراة الامم العظيمة ففتحت المعامل الكبيرة وألفت الشركات الجليلة وأقدمت على مهام الاعمال فحفظت ثروة البلاد في البلاد وروّجت الصنائع الوطنية فاكتسبت أيما اكتساب نعم لاننكر أن الدولة الطليانية واقعة الآن في أزمة مالية وقد برك فيها جمل الفقر ولكن لها عذر واضح من حيث انها في وقت قصير انشأت موانى حربية بحرية وأنجزت كثيرا من الاعمال العظيمة ذات المنفعة العمومية لكي تضاهي الدول الكبيرة والامم المثرية فكانت كالزراع ينفق كل ماعنده ثم ينتظر الغلة والريع وقد بدأت تجني ثمار ماغرست وأخذ الخير يدرّ عليها وأظن أنه لايمضي عليها نحو النصف مائة حتى تنفض ماعليها من غبار الفاقة وتفوق مما حاق بها من الارتباك والاعسار

نهوض ايطاليا في طريق التقدم

أمور ثانوية والقيظ بأوروبا

وكأنى بك أيها القارئ قد مللت من هذا الاستطراد وتود منى بدل ذلك ان اكاشفك بما رأيته فى هذه البلاد من الامور العرضية الثانوية التى قد يكون وراءها فائدة مجملة جزئية يمكن ادخالها فى بلادنا مثل العربات والسكة الحديدية والبريد والتلغراف والبواخر والشرطة (البوليس) وما أشبه ذلك من التنظيمات من انهم يضعون اسماء الشوارع على رقع مربعة من الرخام لكى لا يتطرق اليها البلاء بسرعة كما حصل عندنا فى الاخشاب التى وضعتها نظارة الاشغال فى القاهرة بمصاريف باهظة ولكنى أقول لك ان الحر شديد جدا وانى أقاسى منه أكثر منك من عهد مبارحتى للاسكندرية الى هذا اليوم حتى كأنى ذهبت الى اسوان أو السودان فعافنى من ذلك الآن عافاك الله واعتقد أن الحر فى هذا العام بأوروبا اشد منه فى كل عام بل لم يعهد القوم له مثيلا قبل الآن ولقد كنت أستغرب ذلك فى أرض أوروبا حتى قرأت فى جريدة التريبونا الصادرة فى يوم الاثنين ٢٢ أغسطس تلغرافا من باريس ينبئها بان اشتداد الحر فوق العادة قد أتلف صحة الجنود الذين فى المناورات فى جملة جهات وآخر من ويانة يقول ان القيظ مستمر فيها وانه وردت عليها الاخبار من جملة مدائن ان الحر سبب وفيات كثيرة وان سبعة من العساكر

زهقت أرواحهم من اشتداد الحر بينما كانوا فى المناورات وان الفلاحين قد اضطروا لترك أعمالهم وان الفاكهة قد أصابتها أضرار بليغة فكيف لاتشفق على مع ذلك كله وقد كنت أيضا بالامس (يوم الاحد) أتريض فى رومة ورأيت فى منازهها من رأيت ومارأيت وحسبك منى هذه الاشارة ...... لانك لبيب فهيم

الرسالة الرابعة

مدينة فلورانسة

تأسف لفراق رومة

لولا وجوب الوجود بلندرة فى يوم موعود وميقات محدود لحضور احتفال مشهود والاشتراك فى مؤتمر معدود لأطلت المقام برياض رومة الغناء وأكثرت من التجوال فى ساحاتها الفيحاء ولكنى تزودت من شميم عرارها وتشبعت من محاسن آثارها فودعتها بالعين والنفس متطلعة اليها والقلب شغف بها ورددت الدعاء لدولتها بالثروة واليسار وماركبت القطار حتى بادرت فأعقبت ذلك بالدعوات الصالحات المستجابات لوطنى وخلانى وأهلى ونفسى وذلك لانه خيل لى أن الدعاء مقبول فى هذه الاقطار لانى ماخرجت منها الا بعد أن التزمت بالمساعدة على إغناء ماليتها (وأول مايجنى على المرء اجتهاده)

عذاب المتاع

فان عمال المحطة قالوا لابد من دفع أجرة النقل على الشنطات الاربع التى مع رفيقى ومعى فأفهمت ناظر المحطة ما وقع ببرندزى ثم بنابولى من أخذ الاجر فى الاولى على ثنتين ثم فى الثانية على ثلاث فقال ان هذه الشنطات تزيد طولا وعرضا فى القياس عما يبيحه القانون لافراد الناس فأخذ العجب منى كل مأخذ اذ لم يكن لى ذلك فى حساب وقلت لعل القوم لايعرفون الهندزة وقد أتقنوا

بالمتوالية العددية من علم الحساب فتوليت الدفع فى المدينة الثالثة من ايطاليا على الشنطات الاربع ووطنت نفسى على اتباع هذه الخطة فى كل محطة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا

وصول فلورانسة

ثم سار بنا القطار يجوب البلاد جوبا وينهب الارض نهبا الى ان بلغ بنا مدينة فلورانسة المصطلح على تسميتها عند أهلها بمدينة فيرنتزا التى تكلم عليها الشريف الادريسى فى نزهة المشتاق وسماها فلرنسة من غير إشباع (كما نفعل نحن اليوم تقربا من اللفظ الافرنجى) فنزلنا فندقا لبثنا فيه ريثما استرحنا ونفضنا غبار السفر (هذه العبارة من باب المجاز لوجهين الاول ان سفرنا كان بالليل والثانى ان السكة الحديدية فى ايطاليا لاتثير قط عثيرا مهما كانت سرعة القطار لان المصلحة معتنية كل الاعتناء بوضع الزلط والحصباء على طول الطريق فهى نعمة للمسافر تمتعه بما يبدو أمامه من المناظر من غير ان يخشى ضررا ما على النواظر) وبعد ذلك خرجنا لنروح الروح بارواح ريحان هذه المدينة ونتزه الطرف فى طرقها القديمة وطرقها الثمينة

عليك بالشباب

وأخذنا عربة قلنا لسائقها ان يدلنا على دليل خبير فخيرنا بين شاب وشيخ كبير وقال لنا ان الثانى أفضل لمعرفته بالمدينة وطول ممارسته لهذه الصناعة فاخترناه على بركة الله راجين منه الافادة بالدلالة اللفظية والمعنوية ولكن وقار الشيب كان مستوليا

عليه أكثر من دلالة اللزوم حتى ألزمه السكوت والسكون فكان جالساامامنا كأنه ثالثنا .... بل رابعنا (بحساب العربجى) يجيل ناظره ذات الشمال وذات اليمين يتأمل و يتفكر تشبها بالمتصوفين أوالمتفلسفين ولايجيب عن أسئلتنا المتعددة الا بما فيه قليل الفائدة فأسفنا على اختيار الاختيار ورجعنا على أنفسنا بالملامة ولات حين ندامة ولكنا تسلينا أملا بان غيرنا يكون له خير موعظة بما جرى لنا والعاقل من اتعظ بغيره

هيئة فلوراسة ومحاسنها

أما المدينة فلها من الداخل منظر بعيد عن الرشاقة مجرد من الملاحة لانك ترى القصور القديمة فيها شاهقة متواصلة والعمائر الجسيمة شامخة هائلة وعليها من الرزانة جلباب ومن الجمودة والجفوة أثواب ليست قائمة من الخارج على أعمدة ولا بواكى معقدة ولا أمامها أشجار نضرة أو خضرة مزدهرة حتى تروق خاطر الخطار وتقر ناظر النظار فهى بالمعاقل والمحاصن أشبه منها بالاماكن المساكن شادها سادات المدينة وأشرافها فى القرون الوسطى للتحرز بها والالتجاء اليها ولكنك اذا سرت بعيدا عن سرة المدينة سررت برؤية الرياض الاريضة والجنات الطويلة العريضة والساحات التى هى أكثر من أن تحصى والميادين الشائقة بما حولها من الاشجار والازهار التى أوجبت تسميتها بمدينة الازهار فترى حينئذ عليها

من الجمال حلة باهية ومن المحاسن ماتختال فيه كالغادة الهيفاء خصوصا اذا ارتقيت ربواتها أوقصدت منتزهاتها ولاسيما المنتزه الكبير فانه من أنزه المنازه التى رأيناها وأبهج المباهج التى عرفناها اذ هو من الاتساع والامتداد وجمال المنظر ورونقة الترتيب بحيث يجيد الفكر ويحسن الذوق ويجلو صدأ العقل ويغذى الروح ويصفى القرائح فلا عجب اذا تفرد أهلها فى تعشق الطبيعة وبرعوا فى الفنون الظريفة

استعداد الطليانية للفنون المستظرفة

ولابدع اذاقلت فى هذا المقام ان كل طليانى لابد أن يخلق نابغا بالطبع فى الرسم والتصوير والنقش والنحت والتعمير أو التحبير والتحرير أو الموسيقى والاغانى ونظم القريض والمعانى فقد زرت معرض الصور المعروف بالرواق ورأيت فيه آثارا صناعية جليلة وبقايا فنية جميلة مما لاتكاد تضاهيه مجموعة فى الدنيا القديمة والجديدة حتى لقد مللت من كثرة التأمل والمشاهدة وتعبت من الاستمرار فى التسيار مع تيار هذا المعرض العريض الطويل فعدلت (للعجز لاللنقص) عن اتمام مناظرة مابه من التحف الثمينة العجيبة وعولت على الخروج منه معجبا بما فيه قادرا اياه حق قدره ثم طفنا بالمدينة وتفرجنا على مافيها من بدائع الصناعة وعجائب الطبيعة مما أدخر شرحه للرحلة

عناية الافرنج بالصغائر

فرأيت فى منتزهها هرما صغيرا مبنيا بالاحجار الكبيرة فحسبته من مصنوعات أجدادنا المصريين وقد نقل الى هذه الديار كما نقل غيره من أحاسن الآثار ووضع بجانب المتنزه عناية به وحفاوة ولكنى علمت من التسآل أن بعض العمال ابتناه على نفقته لاصطناع الثلج وحفظه به فعجبت من هذا التفنن فى الاتقان واستغربت من اقتدار بنى الانسان وعلى ذكر الثلج والتفنن أذكر أنى رأيت رجلا يبيع الماء المثلج فى برميل لطيف ظريف نظيف خفيف ذى حنفيتين من الخارج وأنبوبة لوضع الثلج من الداخل يحمله على ظهره ويسعى به ليبيع الماء من غير عناء أينما شاء واحدى الحنفيتين مخصصة لغسل الكاس التى يستقى منها الناس وقيل لى ان الرجل اخترع ذلك الطراز منذ عشرة أيام وأما غيره فلا يزال يبيع الماء المثلج فى أحواض من الاخشاب يقف بجانبها ولابد للظمآن من الورود اليها وقد رأيت فى جميع المحاط التى مررت عليها شبانا وفتيات بل فتيات وشبانا يحملن ويحملون بأيديهن وأيديهم وعاء مركبا من اسلاك ينقسم الى عيون عدتها ثمان أو عشر فيها أكواب مترعة يمررن ويمرون بها على القطار لتقديم الماء المثلج لمن شاء من المسافرين فى نظير ملدى واحد (أكثر من مليمين بشىء قليل)

ومما رأيته بهذه المدينة رجل مقعد سطيح ولكنه يسعى بنفسه كما يسعى غيره بقدمه ويستمنح الاحسان من كل انسان فى أى مكان فانه اتخذ عربة صغيرة بقدر مايجلس عليها ولها أربع عجلات وبما أن الشوارع منتظمة والارض ممهدة والسير ميسر فى جميع أنحاء المدينة فما على صاحبنا الا أن يضغط بيده على الارض قليلا لتحريك العجلات والتنقل من طريق الى طريق وقد استغنى بهذه الكيفية عن اتخاذ أعمى يحمله ويسعى به فى نظير ارشاده اياه على الطريق ومقاسمته مايصيبه من الرزق ولاشك عندى أنى سأرى رفيقه الاعمى (بحسب ماجاء فى حكايات شارح المقامات الشريشى الاندلسى وفلوريان الفرنساوى) يدبر له وسيلة يتوصل بها الى نوال الحسنة من غير احتياج لنظر المقعد وتكلفه حمله على كتفه لان أهل هذه البلاد بلاد أوروبا أهل حركة وعزيمة وتفنن واقدام وهنا أستوقف القلم مرة ثانية بالرغم عن البواعث الكثيرة التى تجيش فى الصدر كغليان القدر فتدعوه للاندفاع فى هذا التيار وانى لأعانى هذا العناء خشية على القارئ من الملال وشفقة على نفسى

فقد برح بى التشوق الى الاوطان واشتد بى التشوف الى الاخوان لعدم استقرارى فى مكان وتعذر استطلاعى

التشوق للوطن

الاخبار التى تتوق اليها النفس ويحوم حولها الفؤاد فيالله من البعاد ويالله من غالب شعرائنا كيف يصفون وهم فى مستقرهم عواطف واحساسات لايشعرون بها ولكنها تجىء كأنها طبق المراد أهذا من صدق الحدس أو من سلامة الفطرة . . . ؟ . ويا ليتنى كنت تخرجت فى الشعر حتى كان ينفتح أمامى المجال ويتسع لى المقال

*

الرسالة الخامسة

(مدينة بيزا Pisa)

تأوه على عدم رؤيته مدينة البندقية

لقد أبدعتم يا أهل البديع فى تنويع الطباق فهو لعمركم من سلامة الاختراع ولقد برعتم يا أهل المنطق والكلام فى بيان التناقض والتضاد ومعانى الاجتماع والارتفاع فان وقتى على كل حال أعتبره ثمينا نفيسا ولكنى أجده الآن طويلا قصيرا — أما الاول — فلكثرة الشجن بالحنين الى الاهل والوطن — وأما الثانى — فلتقصيره عن مساعدتى على زيارة مدينة البندقيـة (فنسيا) فانى كنت بفلورنسه وليس بينى وبينها سوى ست ساعات ومع ذلك لا يصح لى أن أتعجب وأقول ان المشتهى قريب وما اليه وصول فان الطريق ميسر والوصال أسهل من أن يدبر والبخار مسخر والقطار حاضر ولكن الوقت سلطان قاهر فكيف لا أتمكن من زيارة تلك المدينة التى قامت فيها الخلجان مقام الحارات والجداول مقام الشوارع والمراكب مقام المركبات والزوارق مقام العـربات والمقاذيف والمدارى مقام الخيول الجوارى ... ألا ان الوقت محسوب والقيام الى جنوة أمر محتوم فالبدار البدار الى دار الوفادة والعجل العجل لتأدية واجب الرسالة.

ولكنى استعضت عما فاتنى بقسمة طريقى الى قسمين للوقوف فى بيشة أكثر من ساعتين كانتا فى الحقيقة أبرك من يومين فاتخذت دليلا من أهل الشباب معدن القوة والفتوة وأمل المستقبل فطاف بنا المدينة وأطلعنا على محاسنها فعوّض علينا ماخسرنا بسبب اختيار الشيخ فى فلورنسه رأيت أمورا كثيرة فى هذه المدينة الصغيرة (التى لايتجاوز عدد سكانها ٤٠٠٠ نسمة ومصرنا القاهرة فيها نحو ٤٠٠٠٠٠ نفس) وانى أحيط علم حضرات القراء بالنبا القليل من غير تفصيل

عجالة على بيشة

هذه المدينة تسمى فى كتب الجغرافية العربية القديمة بيش وبيشة وقد وردت باسم بزا فى بعض كتابة الشريف الادريسى مر عليها حين من الدهر كانت فيه خاضعة لملوك تونس فى أيام دولة الموحدين (أو الملثمين لاأتذكر الآن ذلك بالتحقيق) فانى رأيت بدار المحفوظات فيها التى تشبه الدفترخانة المصرية عندنا (من غير تشبيه ولا تمثيل) صكوكا كثيرة وعهودا متنوعة وإجازات غير قليلة وبعضها يتضمن الضمان لاهلها بالحرية التامة والامان فى كافة المعاملات واقامة شعائر الاديان وهى صادرة لهم من أولئك الملوك (وقد اعتنى العالم الطلليانى أمارى بنشرها وترجمتها) ورأيت اسم البلد فيها هكذا — بيشة — وقد شاهدت فى هذه الدار

أيضا غير ذلك من الاوراق الرسمية التى اتخذتها كل دولة توالت عليها أوكان لها علاقة بها ورأيت فيها على صغرها كثيرا من التماثيل التى تحيى ذكر أهم رجال ايطاليا أخص منها تمثال الطبيب الدكتور فكتور عمانويل مؤسس الدولة الطليانية الحالية الملقب عندهم بأبى الوطن ولكنه كان كله مغطى بالاخشاب المنضودة بحيث لايرى منه شيء ما وذلك لانه أقيم حديثا وسيحتفل بازاحة الستار عنه قريبا بحضرة الملك والملكة والاسرة الحاكمة ورجال الدولة وأهل الحل والعقد

نظام المكتبات والمتاحف

ثم زرت المدرسة الجامعة ومكتبتها العظيمة ورأيت فيها من النظام مايوجب الاعجاب بها مثال ذلك ان الكتاب الذى يستعار منها يوضع مكانه قطعة من الخشب بمقدار حجمه وعلى شكل الكتاب وتكتب عليها نمرته وعنوانه الى أن يرد الكتاب الى محله وفى ذلك فائدتان أولاهما حفظ نظام الكتب وعدم ميلها على بعضها بسبب الخلو بينها مما يضيع استقامتها واعتدالها وثانيتها التنبيه على أن هذا المكان يشغله كتاب مستعار الآن مع حفظ عنوانه ونمرته لاعلام من يريد ان يحيل ناظره على الكتب فقط ورأيت فيها أيضا صناديق من الخشب على شكل الكتب توضع فيها المجلات الدورية وأخرى لحفظ الكراريس والاجزاء التى تظهر فى أوقات معينة من كتاب

واسع كبير حتى لايتولاها التلف والضياع ومتى تمت الكراسات والاجزاء جلدوها مع بعضها وأودعوها فى المحل اللائق بها ثم زرنا مدرسة المعلمين العليا وتفرجنا على معرض التاريخ الطبيعى وهو وان لم يكمل لكنه حاو الكثير من التحف والطرف وفيه كثير من الحيوانات النادرة الغريبة من حشرات ودبابات وأطيار وأسماك ومعادن وأحجار ونباتات وأشجار وثمار وأزهار وغير ذلك مما يدخل فى هذه الدائرة

البرج المائل وغرائب الصدى

ثم زرنا كنائسها وبيعها وأغربها كنيسة بجانبها برج للناقوس منعزل عنها وهو شامخ فى الهواء لا باعتدال بل بانحراف فانه يميل بكليته على سطح الارض بمقدار خمسة أمتار أى انك لو أنزلت من أعلى قمته خطا عموديا على مستوى الارض لكانت المسافة بين نقطة مسقطه وبين جدار الاساس خمسة أمتار بالقياس ثم عمدنا الى قبة التعميد وهى بناء آخر مستدير بجانب الكنيسة من الجهة الاخرى وبينما نحن نتأمل فى عجيب تركيبها وبديع هندامها وحسن نظامها واتقان رسومها و ... و ... و ... الخ واذا بالدليل صفق بيديه مرتين ثنتين فانزعجنا منهما انزعاجا شديدا لايخطر على البال اذ أعقبهما دوى ولا قصيف الرعود وهزيم أين منه فرقعة المدافع المتوالية فى ساحة الوغى.

حتى ظننا أن القيامـة قـد قامت وأن الارض زلزلت زلزالهـا وأخرجت الارض أثقالها وأن الجبال اندكت والسماء انفطرت (وامؤتمراه . . . وامؤتمراه . . .) واستمر الصدى على هذا المدى عشر ثوان فعجبنا كل الاعجاب من هـذا الصـنع المحكم الذى لايجاريه صنع فى العالم

وقد كنا رأينا شـيأ مثل ذلك فى كنيسة رومة من حيث تدبير الهواء فى صلب البناء اذ يقف الانسان بجانب سارية من سواريها ويكلم صاحبه من خرق صغير فيها فيسمع كلامه واضحا ظاهرا من خرق آخر فى السارية الثانيـة أو أن يقف بجانب باب فى أعلى القبة ويسمع صاحبـه وهو يناجيه بجانب الباب المحاذى له على مسافة تقرب من المائتى متر ولكن ذلك كله ليس شيأ فى جانب مارأيناه فى بيشة ثم أخـذ الدليل يوءوء ويوهوه على عادة الافرنج فى المغنى والصدى يجيبه بأجمل أسلوب وألطف معنى

ثم تفرجنا على قرافة المدينة ويدعونها (كامبوسانتو) أى «الميدان المقدس أو ماأشـبه ذلك فرأينـا فيها رسوما كثيرة بارزة ومجوفة وقبورا فى صلب الحيطان وتحت الاقدام ولكن ذلك ليس من الغرابة فى شئ بل الغريب أن فى وسطها مربعا كسرا

طينه كله مجلوب من أرض بيت المقدس (أورشليم) جلبته من الشام ٦٦ مركبا من سفائنهم تبركا بتلك الطينة الطيبة ولكى يكون فى بلادهم قطعة من الارض المقدسة تخرج الازهار والاعشاب الخاصة بتربتها فى معدنها الاصلى وقد دعانى الدليل لاخذ شئ من تلك الازهار على سبيل التذكار

كنيسة بديعة — وقد رأيت أيضا بيعة صغيرة على حافة النهر لا يفصلها عن الماء شئ وهى فى غاية الابداع والجمال مبنية بقطع صغيرة من المرمر المختلف الالوان على شكل معجب وأسلوب جميل وأغرب ما فيها أن سقفها من الداخل يشبه السقوف المصرية العربية القديمة من حيث التطعيم بالخشب والابنوس والتلقيم بالصدف والعاج ولكنه ليس كذلك بل كله من الحجر المركب مع بعضه على شكل الفص والفسيفساء فله منظر جميل بهيج يزيد فى محاسن المتنزه الكائن على الضفة الاخرى من النهر وهو فى غاية الحسن

أحاسن بيشة — وبودى أن أختم هذه الرسالة بذكر شئ من الجمال فى بيشة فلا شك عندى انه كان أكبر شفيع لنوالها الحرية والامان من ملوك تونس أيام كانت خاضعة لهم ولا يمنعنى من الافاضة فى هذا الموضوع سوى خوفى من أن تتطاول علىّ ألسنة السوء ولكنى

أقطعها واستريح منها حتى لا تبقى لى بالمرصاد فيما ربما ينساق اليه الحديث فى غير هذه المدينة مما لا يرى الكاتب بدا من ذكره من باب الاحاطة ليس الا فقد كان مرورى عليها وقت الظهيرة وقت القيلولة وقت اشتداد الحرارة ومع ذلك رأيت الغانيات الرائحات والغادات الغاديات المشوقات الممشوقات الهائفات المهفهفات ذوات القدود والخدود والصدور والنحور والخصور والشعور و .. و .. وغير ذلك مما ألقيه على الشعراء ذوى الوهم والخيال ليتكفلوا بشرح حقيقة الحال

الرسالة السادسة

مدينة جنوة

فراق بيشة ووصف الانفاق

لم أبارح مدينة من ايطاليا وفى جوانحى من اللهف عليها والشغف بها مثل ماحصل لى فى بيشة حتى ان قلبى قد طغى على وبودآن لايتكلم الا عليها ولم يكن فى وسعى سوى مفارقتها ولسانى يكرر على جنانى مافى وطابه من قليل الاشعار الخاصة بالغزل والنسيب والغرام والتشبيب ولكن أين ذلك كله مما كنت أشعر به ومما زاد توجعى على مفارقة محاسنها وأحاسنها أن القطار صار يسير بين الجبال وعلى حافة البحر بالتمام فبينما هو يجرى تحت الجبل وفى ظلام حالك اذ ترى نوافذ منقورة فى الصخر الذى يحيط بك من الجهات الست ترسل النور الى النَّفَق والامواج الى جسم السكنة والطمأنينة والسكينة الى الباخرة ومن فيها فتتجدد فيها وفيهم عوامل القوة وتدب روح النشاط

ثم استمر الامر على هذا النهج نخرج من نَفَق وندخل فى نَفَق يوصلنا الى ثالث يتبعه آخر فآخر وهكذا والمسافة بين كل واحد والذى يليه قدر الدقيقة أو أقل ترى الوابور يقترب فيها من الطود الشامخ اقترابا شديدا حتى كأنه يستند عليه أو يأوى اليه ليعصمه من الانزلاق فى بحر الروم ولكنه متى دخل النفق

بجل السير واندفع بسرعة كأنه نجا من خطر لا اقل منه أو لشجاعة أوجدتها فيه العادة بل ... فى المسافر الذى مر تحت كثير من الانفاق فما بقى يعبأ بها أو يسأل عنها فضلا عن أن أرضها ممهدة مطمئنة وليست منحدرة كما فى جنوبى ايطاليا والخلاصة أننا وصلنا جنوة ونزلنا بها لنتفرج عليها أولا ثم على مظاهر الاحتفال الذى سيقام بها احياء لذكرى أحد بنيها وهو المخلد الذكر كرستوف كولمب مكتشف قارة أمريكا

اسم جنوة

هذه المدينة تسمى جنوا (Genova) فى لغة أهلها وجين (Gênes) عند الفرنسويين وورد اسمها كما رسمته فى كتب الجغرافية العربية القديمة وان كان أبناء العرب فى هذا الزمان يكتبونها جنوا أوجنوى و كثيرا ما كان اسمها موجبا للخلط بينها و بين مدينة جنيف (Genève) فى سويسرة عند بعض الذين لم يعتادوا التحقيق والبحث بالتدقيق أما الذين وقفوا على الفرق وعرفوا وجوب التمييز فيسمون الثانية (أى مدينة سويسره) جنيفة أوجنيفا ولكنها وردت فى كتابة الشريف الادريسى هكذا (جنبرة) وسأبين لك تعليل هذه التسمية وكثير من أمثالها بالتفصيل فى الرحلة ان شاء الله

منظر جنوة

أما منظرها ففى غاية البهجة والجمال ولا أقول مثل كتاب الافرنج أو الذين حذوا حذوهم من أبناء العرب انها على شكل نعل الفرس

أوحـدونه بل أقول انها كالنون وجوفها هوجونها ومتى خيم الليل ترى هـذه النون ساطعـة كالهلال بل تتلاقى من طرفيها بأضواء السفائن الراسية فيها فتكون كحلقة مفرغة قد ملئت من الانوار ثم ألقى بها فى تيار البحار ولا يقرب من مشابهتها فما أعلم سوى مدينة دمياط فى أيام الزينة والمواسم الكبيرة

ولما أصبح الصـباح نزلنا من نزلنا واتخـذنا دليلا لنا (من الشبان) فشاهدنا عظمة المعدات وجمال الاحتفال الذى سيكون لمن جعل العالم نوآمين و بلغنا أن الاسطول البريطانى بعد أن رسا قبـل غيره على مقربة من المدينة أقلع على نيـة الرجوع قبل الاجل المضروب ولم يكن فى المينا سوى ثلاث مراكب طليانية و واحدة هولاندية فوطنا النفس على زيارتها فى عصر النهار

براهين الوطنية فى أوروبا

ثم طفنا المدينة صاعدين هابطين وشاهدنا حصونها وأبراجها وآثارها ومفاخرها ثم دخلنا دار البلـدية فأنستنا نظيرتها فى الاسكندرية فان كل غرفة من غرفها وكل قاعـة من قاعاتها مفروشة بالاثاث الفاخر ومزينة بالنقوش الاصلية البالغة فى الاتقان وفيها من التماثيل والرسوم والابسطة والستائر والموائد والمعدات مايجعلها أشبه بديار التحف منها بديار الادارة والسياسة ورأيت فى احدى قاعاتها تمثال كرستوف كولمب وتحت التمثال صندوق من

المرمر مغلق منيع فيه كتابات الرجل ورسائله التى كتبها بخط يده لكنهم لاجل أن لايحرموا الناس من مشاهدتها وقراءتها أخذوا صورتها بالفوتوغراف وعرضوها على الانظار تحت ألواح من الزجاج ثم انك ترى صور وقائعه وأسفاره واكتشافاته وكل ماقاساه فى آخر أيامه مصورا محفوظا فيها بحيث انك بمجرد الاطلاع عليها تعرف تاريخه وماجرياته عن ظهر قلب وفى دار البلدية المذكورة غير ذلك من تماثيل العظماء مما لا أرى حاجة للكلام عليه الآن غير أنى أقول ان القصر الفاخر الذى هى فيه كان ملكا لاحدى العائلات الكبيرة فتنازلت عنه لها وعلى ذكر ذلك أقول أيضا ان أعظم منتزه فى وسط البلد كان لعائلة غنية أخرى فتنازلت عنه للبلدية وهى جعلته منتزها للعامة ومربى لبعض الاطيار الغريبة والازهار النادرة ومتحفا للتاريخ الطبيعى ولقد بلغنى أن احدى السيدات تبرعت للمدينة أيام حروبها بمبلغ يوازى ٢٠٠٠٠ فرنك لتعزيز الحصون وتقوية القلاع والمحافظة على أكبر أبواب المدينة فأقامت لها البلدية بعد موتها التماثيل والانصاب اقرارا بفضلها على وطنها واشهارا لحبها لقومها وعلى ذكر ذلك أقول وأقول وأعيد وأعيد ماستراه مفصلا فى الرحلة وان غدا لناظره قريب

غير أني أسألك كلمة واحدة ثم أنتقل من هذا الموضوع وذلك أني قرأت تواريخ بلادي ووقفت على وقائع قومي وتحسرت لما رأيت أني لا أتذكر شيأ يشبه ذلك أو يقرب منه فان كان على بالك أمر من هذا القبيل أو أقل منه بقليل فاني أناشدك الوطنية الا ما أتحفتني به لتزول عني الغصة وليكون في تذكير القرم به أعظم اسوة.

العمامه والطربوش في أوروبا

هل أحدثك بحديث العمامة والطربوش في أكبر كنائس هذه المدينة فانه يدل على أنه لم يزرها أحد قبلنا بشكلنا وان قسوسها لم يبرحوا قطمنها . دخلنا هذه الكنيسة وقلنا لسائق العربة ينتظرنا ولكنه لما رآنا دخلنا من الباب ولم نرفع عمائرنا (العمارة في اللغة كل ما يوضع على الرأس من طربوش وعمة وطرطور و برطول وقلنسوة الخ وتقابلها بالفرنسويه لفظة Couvre-chef و Coiffure) أشار الينا باتباع هذه السنة فلم ألتفت اليه ولما دخلنا نبهنا الدليل الى ذلك فأضفت جهله الى جهل السائق وأفهمته أن ذلك غير لائق و بعد خطوتين جاء الحارس يتبختر في ملبوسه الارجواني وأزراره النحاسية و يتوكأ على صولجانه وقال لنا لابد من كشف الرأس احتراما للمعبد الكاثوليكي فأفهمته أن هذه عادتنا في بلادنا فذهب وأحضر لنا شماسا أوشكت أن

أقنعـه ولـكن رآنا المطران فأقبـل الينا ووافق على ملاحظات أولئك فقلت له ياسـيدى اننا ولله الحمد نعرف واجب الادب فى كل مقام ونعتبر كشف الرأس اخلالا بالاحترام فلا ندخل قط على عظيم أوفى مسجد الاورؤسنا مغطاة ولا شك أنه سـيقدم اليكم كثير من أمثالنا بمناسـبة الاحتفال بمهرجان كرسـتوف كولمب وكلهم يصنعون صنعنا

فأظهر الاقتناع ثم قال لى سلمنا بذلك لرفيقك فان شكله شرقى قح وأما أنت فانك بالملابس الاوروبيـة وحيث انك قد اخترت ملبوس الافرنج على ملبوس بلادك فاقتد بالافرنج فى نزع القبعة قلت له كلا فهـذا هو الشكل الرسمى فى بلادنا وهذا الذى على رأسى ليس بقبعـة وقد زرنا قبـل الآن كثـيرا من الـكنائس وأهمها كنيسة مار بطرس برومة فحيانا رهبانها وأكرموا مثوانا وكلمونا بالعربيـة وأطلعونا على ذخائرها ونفائسها وفرجونا على الاعمدة الرخامية التى أرسلها اليها ساكن الجنان أفندينا محمد على باشا حينما احـترقت وساعد ملوك الارض على اقامتها وحينئـذ اقتنع تماما وقال للحارس يطلعنا على ما عندهم من الذخائر القديمة الصحيحة من سـلاسل وأخشاب وغير ذلك مما لا يحتمـل المقام تفصيله .

الضرر فى اتخاذ الملابس الافرنجيه

ثم خرجت من الكنيسة وفى نفسى غصة من ملبوسى هذا الذى ترتب على اتخاذه فى بلادنا إماتة كثير من صنائعنا وصناعنا واحياء بعض صناعات الافرنج السريعة العطب ومساعدة التجارة الاجنبية على انتزاف مابقى لنا من قليل الثروة فضلا عن أن الحذاء الافرنجي يوجب فى الارجل سقاما قد تكون سببا فى نكد العيش ومرارة الحياة اما البنطلون المحزق والصديرى المضيق والسترة أو الجكته أو السالك والردنجوت أو السموكن أو الفراك والقميص المكوى ورباط الرقبة الملوى وغير ذلك من الازياء والانواع فانها ليست موافقة لطبيعة الاقليم فى بلادنا بالمرة وأما الطربوش فليس فيه من مزية سوى حبس الهواء فوق المخ وعدم تمكينه من الخروج لاحتباك أطرافه على الرأس فهو أجود وأنفع فى البلاد الباردة وليس وراءه الا الضرر فى البلاد الحارة وأما العمامة وخصوصا اذا كانت مقرونة بالعذبة فانها مفيدة جدا للصحة تمنع تأثير الشمس وأوارها عن الوجه وعما يحاذيه من الخلف خصوصا وأن البياض أوفق الملابس فى البلاد الحارة ومن جهة أخرى فان عرب مراكش لايزالون الى الآن (وهم على ماهم عليه من التمسك بالاسلام) يلبسون على مابلغنى شيأ شبيها بالقبعة له حواف تمنع وهج الشمس عن الوجه وعن نقيضه

هـذه ملحوظات عنت لى إثر دخولى الكنيسة وقد كان شئ شبيه بها دار فى رأسى حينما رأيت ان الملبوس الشرقى أجلب للانظار (كما وقع فى نابولى وغـيرها) فكنت أود أن أكون مثلا كلا لرفيقى بعمامة وقفطان وجبـة مرخاة الاردان ولا أبقى على هذه الحالة التى اختارها أهل بلادنا فكانوا أشـبه بالغراب أراد أن يتشـبه بمشية طائر جميـل (هو الطاووس أوغـيره) فلم يتمكن من التقليد ونسى سـيره القـديم — لكن الطربوش والحق يقال جعـل لى فى أوروبا مزايا كثـيرة منهـا ان القوم كانوا يفسحون لى فى كل مكان واذا أقبلت على حانوت قابلونى بالبشاشـة والاكـرام ولابد أن يكون السبب فى ذلك أن بعض أغنيـائنا وكـبرائنا يتوجهون بشكل مثـل شكلى وينفـقون الدرهم والدينار من غير حساب يأخذون ما حصلوا عليه فى بلادهم بأية الوسائط وينفقونه فى أوروبا من غير فائدة لهم ولا لأوطانهم بل فى قضـاء أوطار باطلة وخـلاعات زائلة تبقى بعدها حسرات متواصلة والشواهد أكثر من أن تعد وانى لا أشكرهم مطلقا على كونهم جعلوا أهل التجارة يرحبون بى ويوسعون لى مقاما محمودا بل كان أولى لهم ثم أولى لهم أن يتخيروا الصرف فى نفس بلادهم

*

بما هو أفضل لهم وأجدى لوطنهم كما رأينا فى مدائن أوروبا ـ هذا موضوع يدوخ منه رأس الكاتب والقارئ فأتركه لغيرى وأريح منه نفسى

معامل الشفتشى

ولما كانت مدينة جنوة متفردة على غيرها باصطناع الشفتشى توجهنا الى أحد المعامل ورأينا كيفية الاصطناع من أولها الى آخرها من أخذ الفضة وهى كتلة قائمة واصطناعها أسلاكا مختلفة فى الحجم تتراكب مع بعضها بجميع الاشكال مما يندهش له العقل خصوصا وان القائمين بها أطفال وطفلات تحت ادارة معلمين ومعلمات وسأكتب عليها بالتفصيل عند التيسير.

أول رؤية مسلم باوروبا

ولما خرجنا من المعمل تلاقينا بغتة برجل لابس طربوشا فوقف ووقفنا ثم تبادرنا التحية بالعربية وحصل لنا برؤيته فرح كثير اذ لم نصادف أحدا من أبناء الشرق من يوم خروجنا من الاسكندرية الى ٢٥ أغسطس يوم وجودنا بجنوة ثم عرفنا انه السيد محمد بن عبد الغنى وكيل سلطان مراكش فى ايطاليا وأراد أن يستضيفنا فاعتذرنا لان الوقت لا يساعدنا وبعد ذلك أردنا ان نزور المدائن البحرية فأخذنا زورقا كانت الامواج تصده والتيار يمنعه الى أن أقررنا بوجوب الرجوع وسلينا النفس باننا سنجد فى انكلترة ماهو أعظم وأكمل وكل الصيد فى جوف الفرا

الرسالة السابعة

من تورينو الى مودان الى باريس

فراق جنوة وقرافتها

فارقت جنوة وأنا معجب بنشاط أهلها ووطنيتهم وغريب اقدامهم حتى لقد رأيتهم يزحزحون الصخور ويقيمون مكانها القصور ويصعدون الى أعالى الجبل فيبنون المساكن الأنيقة والدور الرشيقة ولقد أطلت التفكير فى زخرفتهم حتى لقرافتهم التى فاقت كل مارأيته فى غير مدينتهم بابداع التماثيل وكثرة العناية بحيث انها تعدّ من أحسن منازههم وأنظفها وأبهجها ولا يصح للسائح ان لايزورها وقد رأيت بعض العائلات تقيم لمن يتوفى من أفرادها أثرا جليلا من المرمر الناصع بالتمثيل المحكم والاتقان التام مما يكلفها ١٠٠٠٠ فرنك فنازلا واعتنت البلدية بتنظيمها على هذا النسق المعجب وقسمتها أقساما بقدر اللحود تبيعها لمن يريد وهى تتكلف بتشييد القبور واقامة الانصاب لمشاهير المدينة قديما وحديثا

وكانت جنوة أول مدينة شعرنا فيها بالبرد الخفيف وفيها تنازل الغيث علينا مدرارا ثم قمنا منها قاصدين باريس ولكنا التقينا فى القطار برجل من أهل تورينو أشار علينا بشطر الطريق

نصفين حتى لاتفوتنا الفرصة من مشاهدة هذه المدينة الفاخرة التى تسمى فى كتب قدماء العرب طرون وطرونة واطرونة وحتى لانتعب من طول الطريق

منظر تور ينو فعملنا بنصيحته وكنا أرسلنا متاعنا الى باريس مباشرة فدخلنا المدينة وقد أرخى الليل سداله وجر الظلام أذياله فرأينا شوارعها أنيقة تضىء الكهربائية أرجاءها فتساعد على زيادة جمال المبانى الفخيمة التى تحف بها وأمضينا بقية الليلة بثياب النهار حتى اذا أصبح الصباح (وانتشر نوره ولاح وأشرقت الشمس على جميع البطاح وانتعشت بنورها الارواح الخ قافية الحاء) قمنا من الفندق وطلبنا من البوّاب أن يتحفنا بدليل من أولى الالباب فاحضر لنا (١)

(دليل عجوز) شيخا يقصادر دحا درد بيسا مع كونه أنساً دحدحاً جعسوسا أصعل أصلع سلنطع أسلع سمعمع وله جفن أمرط وحاجب أطرط وجبين أبهق وصدغ أقهب باآذان مسترخاة فيها أو بارمدلاة يبرز من وجهه أنف فيه القَطَس والخَنَس وفوقه نقبان مُلَوَّزان كأنهما عينان جاحظتان يعتريهما الحَوَص والحَوَص من كل مكان وتحت ذلك الخرطوم مشفر مشؤم أحلى ما فيه الهَدَل وأخف ما فيه الثقل وهو محشوّ بعظام نخرة أو أحجار مكلسة مجيرة بمثابة الاسنان فى بقية بنى الانسان ولكنها القَقَم تميزت وأنواع الثعل فيها تميزت حلق شواربه للتحقيف وزين هذا الوجه

---

(١) أرجو القارئ قبل أن يوجه الىّ سهام الانتقاد والملام أن يتفضل و يصبر على تلاوة هذا الوصف حتى يأتى على آخره ثم ينظر الى القاموس الذى وضعته فى آخر هذه الرسالة من صحيفة ٧٧ الى ٨٥ ليعلم دخيلة الامر و يقف على مواطن السر

اللطيف بعارضين كالخنيف وجعل لذقنه حلية باعدام اللحية فصارت حمراء مستبردة أشبه بشئ فى الحمامة بل فى القردة . وقد أقبل علينا بهذا المحيا الدميم والخلق الشتيم وهو ساهم من العبوس والهم يرفع القدم بعد القدم ويدب متمهلا متثاقلا من الهرم فكلمنى بحبسة فى اللسان ورتة فى البيان ولقف مع مقلة وغمغمة وحنة وحكلة وطمطمة فراعنى منظره وهالنى مخبره وكدت أرده من حيث أتى وأبحث لى على فتى ما ذلا فائدة لى من هذا الشيخ الاخنس الاتعس ذى الظهر المقوس والمنظر المخنبس فقد أخلقت جدته وقبحت نضرته وأظلم ضياؤه وذهب بهاؤه ونقض الدهر مرته وأذهب كدنته وأكل عليه وشرب ونحله حتى احدودب قد تكسرت قواريره وساء مصيره فأصبح كالشبح الباطل أو الظل الزائل بل العفريت ذى الرجل المسلوخة أو الغول ذى السحنة الممسوخة أو أبو خديشة وأبو غرارة المشهورين فى كل حارة أو «بركة الله والعافية» الذى يخوف به كل غلام أو البحشوم المعروف عند العوام أو البعبع وأبو زبعبع أو الجدع والجيلع والخوامع أو العكنكع والكعنكع فنظرت اليه نظر المزدرى ولكننى حرت فى أمرى حينما رأيته قد ابتقع لونه وانتقع وامتقع فدبت فى نفسى حينئذ عوامل الرأفة والحنان وتحرك عندى عواطف الشفقة والاحسان وقلت لا شك انه قد ألجأته الحاجة الى إخلاق الديباجة ولعل هذا الرجل المستطار المقفع المدقوع خلفه صبية يتضورون من الجوع الديقوع اليرقوع فجاء يبحث لهم على غفة وبراض لتخفيف ما ألم بهم من الضنك والشظف والمضاض فرثيت حينئذ لحاله هذا المتجع وتحننت عليه فأذهبت عنه الروع وآمنت خيفته وخفضت جاشه وأنجزته حاجته وأدركته طلبته

ثم ركبنا عربة وهو معنا نتفرج على المدينة وما فيها من الغرائب وكانت كلها تزيد فى عينى جمالا واعتدالا وليس الفضل فى ذلك لمنظر صاحبنا فقط بل لانها فى الحقيقة تحتوى بعداء شكلهم (عاصمة السويد) على أجمل حدائق الدنيا وقد طفنا منازهها وارتقينا ربواتها وأهم مرتقى صعدنا اليه هو جبل شامخ يكاد يكون رأسيا عليه أربعة قضبان كشريط السكة الحديدية وفوق كل اثنين منها عربة عجلاتها السفلية كبيرة والعلوية صغيرة جدا بحيث يكون الجالس على هذه العربة كأنه على الارض المنبسطة ومتى دق الحارس الجرس الكهربائى صعدت بانتظام من غير أدنى ارتجاج تجذبها قوة الغاز ثم ترسلها الى مكانها الاول عندما تجىء الاشارة وسأصف لك هذه الآلة فى رحلتى فقد كتبت الى مخترعها أطلب منه البيان الشافى ولما تسنمنا ذروة هذه الربوة رأينا متحفا فيه الحيوانات والاحجار والاعشاب والازهار الخاصة بالقسم من جبال الالب المجاور للمدينة ثم صعدنا على سطح المتحف فرأينا النظارات المقربة قد قربت لنا الجبال حتى كأنها صارت تحت يد المتناول وقد كلل الثلج هاماتها فكأنها هرمت من طول العهد إذ ترى السحب فوقها متراكمة على الدوام ولكن سفحها مازالت فيه قوة الشبيبة والانبات فتراه مجللا بالحلل السندسية البديعة

آثار مصر في توريبو

ثم هبطنا عن هذه الربوة وقصدنا متاحف المدينة ولا أذكر منها الآن الا القسم المصرى فقد رأيت لهم عناية تامة بحفظ الآثار التى صرفوا فى جلبها من بلادنا الابيض الوضاح والاصفر الرنان ورأيت فيه مجموعة كاملة من ورق البردى المزين بالاشكال والرسوم الباهية فيها تصوير الاحوال التى تمر على المصرى القديم من يوم منبته الى يوم منيته الى يوم دينونته الى يوم مستقره (فى جنة أو جهنم) ثم نزلنا تحت الارض فى قاعات طويلة فيها الآثار المصرية الضخمة كاملة وصورة لابى الهول وهى فى غاية الجمال وانى لاعجب كيف يصح اطلاق لفظ أبى الهول على هذا التمثال الذى وجهه وجه غادة حبشية مفرطة فى الملاحة اللهم الا أن يقال ان حسنه يهول من يراه كما يقال فى لغتنا الواسعة (لهذه الفتاة محاسن رائعة) ولولم يكن التمثال الهائل الذى بجانب الاهرام ما كان هذا التعبير يصح فى الاذهان ولكن قدكان ما كان فالاجدر بنا أن نحمل هوله على ما به من فرط الحسن وصباحة المحيا

ثم خرجنا من هذا المتحف الى غيره مما فى المدينة فشاهدنا أسواقها عامرة وحوانيتها مشحونة باصناف البضائع ثم إن الفاكهة فيها بمل فى كل ايطاليا من أجود مايكون حتى انى رأيت البرقوق فيها بحجم الكمثرى بحيث لايصح أن نسمى نظيره فى

بلادنا الا بلفظة بريقيق (بالتصغير) ثم خرجنا منها قاصدين بلاد « فرانسة الغراء » فسار القطار تجره باخرة من الامام وتدفعه أخرى من الخلف لان الارض كانت آخذة فى الارتفاع

نفق جبل سينيس

وقبل أن نصل الى مدينة مودان الفاصلة بين تخوم فرنسا وايطاليا دخلنا نفقا منقورا فى جبل يناطح السحاب فداخلنى منه خوف شديد ورعب زائد فاخرجت الساعة بنوع من الالهام لكثرة فزعى من هذه الكتلة المتناهية فى الجسامة والضخامة التى ستكون فوقنا وقد كنت أحسب نفسى قد تعودت على السير فى الانفاق فاذا الامر ليس كذلك لان القطار صار يسير ويتعثر فى مشيته ثم يخفف من وطأته ثم يستريح ثم يصفر ثم يتنهد ثم ينحدر فيكتم نفسه خوفا من الانزلاق على المنحدر وينتقل على قضبان يوشك ان تكون مضرسة لحفظه من السقوط وقد استطال السير حتى كادت النفوس تزهق من انحصار الهواء ومن الرعب الشديد الذى قد تضاعف بمرور باخرة أخرى بجانبنا مالبثت ان بارحتنا وتركت باخرتنا كالفرس أجهدها الضنى وحضرتها ساعة الوفاة ومع ذلك لايرحمها الفارس بل ينخسها ويستنزف مابقى فيها من حول وقوة (ولاحول ولاقوة) وكنت وأنا تحت هذا الجبل المتعالى أخشى أن يسقط حجر واحد منه

فينهار ويروح القطار شهيد هـذا الدمار الذى ليس بعـده دمار وكنت أخشى أن يصح على السائق نص الحديث النبوى (لاأرضا قطع ولاظهرا أبقى) وكان الطل متساقطا والنور فى العربة أسـفر باهتا (مثل فانوس اللصوص) فتوسلت الى الله جل شأنه أن يهيئ لنا الخروج من هوة الظلمات الى فضاء النور فتقبـل الدعاء وأنعش أرواحنا بالضياء وليس هـذا الوصف الحقير شـيئا بجانب الحقيقة على الاطلاق وان لم تصدقنى فتعال ايطاليا ومرّ بهذا النَفَق (ولاتنس بيشـة) فانك ستمضى به ان شاء الله تعالى أكثر من نصف ساعة وترى أكثر مما جاء فى هذا البيان وليس الخبر كالعيان

ولقد اعترفت حينئذ بصدق من قال ان الحادثات تمر على الانسان ثم ينساها حتى كأن لم يكن منها ما كان وانه عرضة للنسيان فى كل زمان ومكان فانى بعد الخروج من هذا المسلك الحرج افتكرت انى نسيت أمرا خطـيرا وذلك انى خرجت من ايطاليـا ولم أتنـاول شـيأ من المكرونة أوالمعكرونة أوالمَقَرُونة (طعامها المشهور) حتى وددت لو رجعت اليها لآكل منها بالارطال أو بالامتار (فقد بلغنى وأنا بمصر انها تؤكل فى بعض النواحى من هذه البلاد بالامتار) ولكن هيهات هيهات رد ما فات خصوصا وقد خشيت

عودة المرور من ذلك الطريق فى النفق المضيق ومع ذلك فقد سهل الامر لانى تذكرت حينئذ الجران بار (أرجوك السماح فان المقرونة مقرونة فيه بالاتقان)

صف جنوب فرنسا

ولما وصلنا الى مودان نزل الركب يهنئ بعضهم بعضا على السلامة من ذلك الجبل المريع واستنشقنا حينئذ هواء فرنسا وقد كانت رئاتنا فى احتياج اليه وتسلمنا عمال السكة الحديدية الفرنسوية ثم سار بنا القطار بين جبال شامخة شماء يشقق من أعاليها الماء فيكون غدرانا وانهارا تنساب بجانب الوابور وتحته بمنظر رائق جميل والهواء صاف عليل يروح النفس ويرد اليها الحياة ولا أعلم لماذا اعترتنى هزة الفرح ونشوة السرور وأنا أمر بينها معجبا بهذه المحاسن الطبيعية وقد رأيت فى بعض حقولها وفى بعض مزارع ايطاليا شادوفنا المصرى بالتمام ولولا وجود الجبال وكون الذى يسقى الارض بالشادوف لابسا القبعة والبنطلون لظننت انى فى أرياف مصر أشاهد فلاحنا المعهود

وشتان بين ما لاقيته فى جنوب ايطاليا مما قبض الصدر وضيق على القلب وبين ماشاهدته فى جنوب فرنسا مما يسر الخاطر ويقر الناظر . أما المدائن التى مررنا عليها فى جنوب فرنسا فانما هى قرى خلوية ليس فيها شئ من الجمال الذى رأيناه

فى مدن ايطاليا وكنت عند كل محطة أسمع القوم وخصوصا النساء يملؤن الافواه عند النطق باسم باريس فيقلن (بارى والا كثر باعى بغنة ومدة فيها الترخيم الرخيم) ثم أقبل الليل فشددت حلقة فى أعلى الكرسى فانقلب سريرا بل فراشا وثيرا فنمت متوكلا على الله ولسان حالى يكرر مايقوله المصريون (على قلبها لطياوون) وبعد ١٩ ساعة قضاها الوابور فى السير الحثيث وصلنا مدينة باريس.

وقبل أن أنتقل الى الكلام على هذه المدينة الحسناء أرى من الواجب على أن أوفى بوعد قد أخذته على نفسى وهو ذكر ما ألاقيه من عمال كوك فانى لايسعنى الا أن أوفيهم هنا حقهم من الثناء فقد قاموا بخدمتنا فى جميع المدائن التى نزلنا بها أحسن قيام وساعدونا فى كل طلباتنا فوق المرام وأمدونا بجميع أنواع التسهيلات والايضاحات خصوصا فى فلورنسة وتورينو حتى محوا الهفوة التى وقعت ببرندزى فلله در كوك أحسن الله مثواه بقدر احسانه الى نفسه والى العالم كله

*

القاموس

اعا اخترت هذا الوصف الكريه لزيادة التكريه فى بيان التشويه ولزيادة التنفير فيه حتى يشترك القارئ معى فى جميع عواطفى وتتجسم له الحقيقة كما ينبغى وكما يبتغى وهناك ملحوظ أهم وأدق أريد أن أستلفت اليه الانظار من أرباب

الاقلام والافكار وهو أنني أكره طريقة الكتابة بمثل ما نحوته في وصف ذلك الرجل ونفوري منها أشد ولا شك من نفور القارئ مني عند مروره على ذلك الفصل ولكنني أرجوه بناء على ذلك أن يمنع ويمتنع عن اتخاذ مثل هذا الاسلوب المعيب في كتاباته حتى لا تكون مثل ما أقدمت عليه كثيرة الالفاظ فارغة المعنى مشحونة بالحشو مزدانة باللغو مشمولة بالعثانة مصحوبة بالرثاثة فان هذا الاسلوب المغيض الجلف الفاسد النسيج السخيف التركيب فيه من البشاعة والشناعة ما يجعله مستهجنا ملفوظا مذموما مردودا ولا عرو أن التكلف والتصنع في التنقيب في قعر القاموس عن الالفاظ المستنفرة المستغربة المتوعرة المتقعرة «المجرفة» لا يكون فيه أدنى دليل على العلم باصول اللغة والتبحر فيها بل هو دليل على سخافة ذلك المتكلف المتصنع وجهالته وحماقته بل هو برهان قوي على ما تعبر عنه العوام بالتقعر والخنشصة ونحن اليوم في عصر تعرف فيه قيمة الوقت فيا حبذا لو تفطن الادباء الى تخير الالفاظ اللائقة وجعلها في خدمة المعاني المطلوب التعبير عنها لا كما يفعل البعض (وخصوصا أهل السجع) من جعل المعنى أسير اللفظ يجري حيثما رآه لا حيثما أراد المنشئ ولقد تنبه الى ذلك نفس أئمة الانشاء فقال أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ في كتاب الصناعتين «وقد غلب الجهل على قوم فصاروا لا يستجيدون الكلام اذا لم يقفوا على معناه بكد ويستفصحونه اذا وجدوا ألفاظه كزة غليظة وجاسئة غريبة ...... فلا خير في المعاني اذا استكرهت قهرا وفي الالفاظ اذا جرت قسرا» وقال ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٧ في المثل السائر «ان أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها وسبروا وقسموا فاختاروا الحسن من الالفاظ فاستعملوه ونفوا القبيح فلم يستعملوه» فلما عرفوا السهل السلس المستجاد منها قالوا بوجوب اعتباره واستعماله وأبقوا الباقي في أمهات اللغة وبطونها للرجوع اليها بقصد تعرف كلام الاعراب في بواديهم وتفهم مقاصدهم ليس الا = هذا ولولا أنني أردت ان القارئ يستهجن هذا الاسلوب بجميع حواسه لما سمحت لنفسي بالاعتماد على هذه الالفاظ التي يترتب على عدم معرفتها اضاعة الوقت سدى ولذلك أضفت هذا القاموس تلافيا للضرر وبعض الشر اهون من بعض

الالف

الأَنّ = الكثير الانين وهو التأوه من الالم

البـاء

البُرَاض = القليل الزهيد اليسير

أَبْتُقع = (انظر امتقع)

الأبهق = ذو البياض الرقيق في ظاهر البشرة

*

التـاء

الأتعس = المشؤم المحوس

الثـاء

الثَّعَل = تراكب الاسنان على بعضها

الجيـم

جُحُوظ العين = عظمة المقلة وبروزها

الجِدَّة = ضد البِلَى

الجُعْسُوس والجُعشوش = القصير الدميم

مُجَيَّر = صار مثل الجير والجير خطأ صوابه الجيّار واسمه عند العرب الصاروج أيضا والكِلْس بمعناه معرب عن اللغات الافرنجية

الحاء

الحُبْسة = تعذر الكلام عند ارادته

احْدَوْدَب = احقوقف أى اعوج كظهر المعير بمعنى خرج ظهره ودخل صدره وبطنه

الحُكْلة = نقصان آلة النطق حتى لاتعرف معانيه الا بالاستدلال

الحَوَص = ضيق مؤخر العين حتى كأنها خيطت

الخاء

الخُرْطوم = الأنف

الخَلْق = الفطرة

أخْلَق = بلى وتداعى واضمحل وتلاشى

إخلاق الديباجة = الاطلاع على دخيلة الامر الذى يستمسك عن كشفه فهو يدل ماء الوجه فى السؤال على التشبيه بقولهم «أخلق الثوب»

الخَنْدس = لفظ اشتققته لصرود السجع البارد من قولهم «الخُنابس» بمعنى الكريه المنظر والرجل الضخم تعلوه كردمة أى قصر

الخَنَس = تأخر الانف عن الوجه مع ارتفاع قليل فى الارنبة

الخَنيف = أردأ الكتان البالى

الخُنَّة = أن يشرب الحرف صوت الخشوم بشدة

الخَوَص = غؤور العينين مع الضيق

الدال

الدِّيباجة = الوجه

الدَّحْدَح والدحدحة والدحداح والدحداحة
والدُّحادح والدُّحَيْدِحة والدَّوْدَح } القصير والمستدير الململم

الدَّرْدَبِيس = الداهية والشيخ والعجوز الفانية كأنه من الدروس

الدِّرْدِح = الشيخ الهم

المَدْقُوع = الرجل يذل فى فقره حتى يلصق بالدقعاء وهى التراب

الديقوع = الجوع الشديد كقوله (جوعٌ يُصَدِّعُ منه الرأس ديقوعُ)

الدميم = القبيح

الراء

الرُّتَّة = منع أول الكلام فاذا جاء شئ منه اتصل

البُرْقُوع = الجوع الشديد

السين

الاسلع = دوسلعة أى شجة وسلع الرجل صار أبرص

السَّلَنْطَع = المتحتة فى كلامه كالمجنون

السَّمَعْمَع = الرجل الصغير الرأس والمرأة الكالحة فى وجه الانسان المولولة فى أثره

الساهم = الضامر المتغير

الشين

الشَّبَح الباطل = الهُباء

الشتيم = الكريه الوجه

الشَّظَف = الضيق والشدة والبؤس ويُبس العيش

المِشْفَر = شفة البعير وقد يستعمل للخيل والناس

الصاد

أصعل = دقيق الرأس والعنق

أصلع = الذى انحسر شعر مقدم رأسه

الضاد

الضنك = الضيق من كل شئ يقال للمذكر والمؤنث مثلا « عيشة ضنك »

تضوّر = تلوّى من وجع الجوع

الظاء

الاظرط = الخفيف شعر الحاجبين

الطّمْطَمة = كون الكلام شبيها بكلام العجم

المُسْتطار = المذعور

العين

العُقْلة = التواء اللسان عند ارادة الكلام

*

الغين

الغَـفّة = البلغة من العيش

الغَمْغَمة = أن تسمع الصوت ولا يتبين لك تقطيع الحروف

الفاء

الفَطَس = تطامن قصبة الانف وانتشارها أو انفراش الانف فى الوجه

المُدْقَع = الذى تناهى سوء حاله فى الفقر

الفَقَم = بروز الثنايا العليا من الاسنان الى الخارج فلا تقع على السفلى

القاف

الاقهب = الذى فيه حمرة فيها غُبرة و كدورة

الكاف

الكِدْنة = الشحم واللحم

اللام

أَلْفَجَ الرجل = أفلس وذهب ماله ولرق بالارض من كرب أوحاجة اضطُرَّ للالتجاء الى غير أهله وذهب فؤاده فرَقاً وذلا

اللَّفَف = ادخال حرف فى حرف

* مُلَوَّزان = يقال ذلك للعينين المشقوقتين مثل اللوز

الميم

المِرَّة = قوة الخلق وشدته ونقض الدهر مرته يعنى أزالها وأعدمها

الامرط = ذو الشعر المنتوف الساقط

المُضاض = الماء لا يطاق ملوحة ووجع يصيب الانسان فى العين

اُمْتُقِع = (على بناء المجهول) تغير لونه واختطف من حزن أوفزع أو ريبة وكذلك اُنْتُقِع واُبْتُقِع ولكنه بالميم أجود

النون

المنتجع = الذى يقصدك طالبا لمعروفك

الأنحس = الكثير الشؤم

نَحَلَ = صار ناحلا هزيلا نحيلا

انْتَقِع = (انظر امتقع)

الهاء

الهَدَل = استرخاء الشفة أو المشفر

الهَرَم = بلوغ أقصى الكبر

الواو

*

الوَجِل = الكثير الخوف

الياء

اليَفَن = الشيخ الكبير الطاعن في السن

ذيل القاموس

أكل الدهر عليه وشرب = اشارة الى استهانة الدهر به ونكايته فيه

تكسرت قواريره = اشارة الى ان عظامه صارت كالزجاج وقد تكسر

العفريت وأبو رجل مسلوخة والغول وأبو غرارة وأبو خيشة و «بركة الله والعافية» والحشوم وأبو زعبع والبعبع والخيدع والدولع والخيلع والعكنكع والكعنكع | كلها أسماء خرافية خيالية يتخذها الامهات و بعض العوام لتخويف الاطفال فتتربى فيهم ملكة الجبن والهلع و بئست العادة

الرسالة الثامنة

باريس

(الانبهار من رؤية باريس)

هذه باريس تحفة الدنيا ونزهة العالم وزهرة الكون . هذه باريس جنة الجنائن ومدينة المدائن وعاصمة العواصم . هذه باريس منبع البهاء والمحاسن ومرتع الظباء الاحاسن . هذه باريس تمثال الفخامة والجلال وشخص الخفة والرقة والجمال . هذه باريس معدن العلوم ومركز دائرة العرفان فى هذا الزمان . هذه باريس التى مهما بالغت فى الوصف والمقال فانى بعيد عن حقيقة الحال بعدا ليس له مثال ولا يكاد يخطر على بال فليس لى حينئذ الا الاكتفاء بانها فردوس الفراديس

بل هى هى باريس

قدمت اليها فى بكرة النهار (من يوم ٢٧ أغسطس) ورأيت فيها من الحركة والنشاط ماهالنى وراعنى وألزمنى الاقرار بالعجز عن التعبير والحيرة فى التحرير فكيف يتسنى لى أن أوافيكم ياقوم بما شاهدته فيها من التناهى والبلوغ الى غايات الكمال فى كل موضوع وباب وانى اذا أرخيت للفكر العنان ومكنت القلم من الجولان فى أى ميدان أملى عليكم مايملأ الاوراق ويدهش

القراء ولكنى أؤجل التخلص الى عودتى اليها بعد اتمام المأمورية والتنقل فى بعض مدائن الانكليز لكى تكون كتابتى عليها عن تحقيق وتدقيق فانها تملكت فؤادى واستولت على لبى حتى انى فارقتها مضطرا بعد ماقضيت بها يومين وما قضيت منها وطرا موطنا النفس على الرجوع اليها واستجلاء مشاهدها ومعاهدها . وهل تكتفون بذلك منى الآن أم تريدون أن أوافيكم بعجالة فيهانبأ لهشان

أهمية المرأة فى الوجود

أريد أن أتكلم على أحسن نصف فى بنى الانسان ولكنى أخاف اللوّام فاسمعوالى بالله عليكم هذه المرة بمعاودة الكلام على المرأة وأعدكم أنى لاأعود وما عهدتمونى انقض العهود وكيف ألام على الدخول فى هذا الموضوع الحرج الواسع وقد كان للمرأة ولا يزال لها الشأن الاول واليد الطولى فى الانقلابات الدولية والنظامات السياسية والترتيبات الدينية بل فى كل شأن من شؤن العمران وفى كل عمل من أعمال الانسان فاننا اذا صرفنا النظر عن أم الامهات وتصفحنا التاريخ العام وجدنا لها أثرا ظاهرا وعملا معروفا فى كل الاديان التى نزل بها الوحى أو زينها الوهم واخترعها الخيال وهذه الاشارة الوجيزة تكفى من له أقل اطلاع

ثم اذا نظرنا بوجه الاجمال الى تاريخ القدماء من مصريين وأشوريين ويونانيين ورومانيين وغيرهم وجدنا المرأة هى دون سواها سبب التقدم والارتقاء أو علة التقهقر والانحطاط وعلى يدها تم تشييد الدول العظيمة أو تبديد سطوتها ومحو أثرها من الوجود وطالما اشتبك القتال وتفانى الابطال لاجل امرأة واحدة وكذلك الحال فى تاريخ الامم الحديثة حتى قال بعض العلماء اذا أراد الله أن يقضى خيرا على الارض قيض له امرأة فكانت الوسيلة الى اجرائه واذا آراد الشيطان أن يقضى شرا توسل اليه أيضا بامرأة هذا أمر كان وكائن ويكون الى يوم تحشرون وانى أذكر لكم مايحضرنى الآن من الشواهد مثال ذلك دلوكة العجوز فى التاريخ المصرى القديم والمرأة التى كانت سببا فى حروب تروادة الشهيرة ولوكريس وفرجينيا فى التاريخ الرومانى وتلك الغادة الكمائية التى جاء فى بعض الروايات أنها كانت سببا فى القبض على انيبال الافريقى قائد قرطاجنه بعد أن أذاق الرومانيين من العذاب ما أذاقهم ثم ايرينى (Irène) وتيودورا فى تاريخ بوزنطيا (Byzance) وتلك الحسناء الفلسطينية التى احتالت على سمسون الجبار فأخضعته وأوقعته فى يد أعدائه بعد أن أوقع بهم وعجزوا كلهم عنه بمفرده وتلك الفتن التى أثار غبارها نساء داود عليه السلام فى آخر أيامه وتوصلت احداهن بالحيلة والدسيسة (على ماجاء فى التوراة) حتى ألزمته بان يجعل ابنها سليمان (عليه السلام) خليفة له. والبسوس والزباء فى تاريخ

العرب وطوميرس ملكة المساجيت التى طلب كورش ملك فارس أن يتزوج بها فامتنعت فأقام عليها حربا كانت عاقبتها وبالا عليه وعلى قومه. واليصا مؤسسة قرطاجة وكليوبطرة ملكة مصر الشهيرة ودخول العرب فى الاندلس وخروجهم منه كان سببه المرأة (١) وهذه النساء فى صدر الاسلام وشجرة الدر وغيرهن فى تاريخ الاسلام وفتك الرشيد بالبرامكة على مافى بعض الروايات سببه المرأة ولاننس زوجة الزمخشرى فانها على مايروى عنها هى التى أرجعته بالبرهان الفعلى لاالقولى عن القول بخلق الافعال (٢) واجنيس سوريل التى كانت سببا فى سقوط الدولة الفرنساوية ثم جان دارك راعية الغنم التى طردت جيوش الانكليز من أرض فرنسا والشواهد أكثر من أن أتذكرها الآن وأنا فى بلاد الانكليز

---

(١) فانه لما افتض رذريق ملك الاندلس بكارة ابنة توليان عامله فى بر العدوة تمالأ هذا الرجل مع موسى بن نصير وقومه وسهل لهم سبيل الفتح — ولما اقترنت الملكة ايزابلا مع الملك فرديناند قويت شوكة الاسبانيين على العرب فغلبوا عليهم ولولا حزم الملكة ايزابلا ما أمكن اخراجهم من الاندلس فضلا عن كون بعض الملوك الاخيرين من بنى نصر تزوج ببعض شريفات الاسبانيين بعد أسرها فكان فى ذلك سبب آخر لاضطراب المملكة فى الداخل وسأشرح ذلك فى الرحلة (٢) هذه المسألة لابد أن تكون مكذوبة اذ لا يقنع مثله بمثل هذا البرهان مع خروجه عن نقطة النزاع بينه وبين أهل السنة

وكان احد القضاة فى أوربا كلما نيط به تحقيق واقعة جنائية يقول للشرطة (ابحثوا عن المرأة) وبذلك كان يصل لاكتشاف الحقيقة على الدوام مهما كانت وقائع الدعوى تصرف الظنون عن وجود اصبع للمرأة فيها ولم يكن فعله هذا من ضروب النبوة أو الاطلاع على ماوراء الحجاب وانما هو من قبيل الاستقراء والاستنتاج ومن تمام معرفة تأثير المرأة فى أعمال الناس ولقد أحسن شاعرنا العربى اذ يقول

اذا رأيت أمورا * منها الفؤاد تفتت

فتش عليها تجدها * من النساء تأتت

وأذكر بيتين آخرين يختصان بالمرأة لاأدرى أيهما الاحق بأن يقال عنده صدق . أذلك الذى قال

ان النساء شياطين خلقن لنا * أعوذ بالله من شر الشياطين

أم تلك التى أجابته فى الحال وأجادت فى المقال

ان النساء رياحين خلقن لكم * وكلكم يشتهى شم الرياحين

أما أنا فأحكم بعد الحيرة الطويلة بارجحية القول الثانى وليس من شيمتى أن أستبد عليك لموافقتى بل أترك حرًا فاختر لنفسك مايحلو

ولاشك أن الفرنساويين نظروا الى كل هذه الملاحظات وما المرأة فى فرنسا
منها بنظر الناقد البصير والمتدبر الحكيم فارسلوا مثلا تناقلته
الرواه (إن ماتريده المرأة يريده الله .Ce que femme veut , Dieu veut)
لذلك كان لها عندهم الكلمة النافذة والامر المطاع فلا يقدم الرجل
منهم على أمر لا ترضاه زوجته ومتى أقدمت هى على عمل أو
تعلقت به مشيئتها وجب عليه الرضا به والاقرار بوجوبه والقول
بانه لامندوحة عنه وهم يبالغون فى اكرام المرأة والتأدب فى
حقها (ولو ظاهرا) بما يفوق الوصف وفى تثقيف عقلها بجميع
أنواع العلوم والمعارف (حتى التى لايقدم عليها الافحول الرجال)
ولذلك نبغ منهن الكاتبات المحررات الشاعرات الخطيبات
المصورات المشخصات المحاميات الطبيبات المخترعات فى كل أمر ذى
بال أوغير ذى بال

الى هنا أنبه قلمى للعدول عما استطرد فيه الى ماينتظره أحاسن
منه بعض القراء عقيب ماصادرت به الكلام من التخوف من اللوام غاية بولونيا باريس فى
وقد تعلقت آمال ذلك البعض (اذا صح التعبير بالبعض عن
الكل) بان أحدثه على فسحتى فى باريس يوم الاحد الرابع
من أغسطس بعد أن أمضيت الاحد الثانى منه فى سان ستفانو
بالاسكندرية والثالث فى منازه رومة وخمائلها السندسية

ولعمرى انه يحق لهم ذلك الانتظار ولا يحق لى أن أبخل عليهم ببعض ماشاهدته اذ الاحاطة متعسرة بل متعذرة فانى أمضيت يوم السبت وصبيحة ذلك اليوم الاحد البهيج فى السؤال عن كثير من العلماء الذين سبقت لى بهم معرفة بالذات أو ببعض العلاقة الادبية ولم يسعدنى الحظ بمقابلة أحد منهم على الاطلاق لانهم كلهم قصدوا الخلوات طلبا للرياضة والتمتع بالسكينة والهواء السليم (و ربما كان هربا من الهواء الاصفر وقى الله بلادنا منه) ولذلك أخذتنى الغيرة منهم فاحببت أن أتشبه بهم فى استنشاق النسيم وامتاع النواظر برؤية العيون المراض الصحاح ومشاهدة ما فى الطبيعة والصناعة من باهى المحاسن و باهر الاحاسن وما هو الا أن حانت ساعة النزهة حتى علوت عربة توسمت فى سائقها الفهم والنباهة وركب على يمينى رفيقى الاستاذ الشيخ محمد راشد وقلنا لسائق العربة أن يغدو بنا الى حيث يخرج القوم بحجة النزهة والرياضة وترويح الفكر و إزاحة البال فأرسل الخيل تعدو فى شوارع منتظمة عامرة آهلة حتى اذا اقتربنا من غابة بولونيا أخذ يسير الهوينا ونحن نمتع النواظر برؤية الوجوه النواضر واللحاظ الفواتر والثغور البواسم والخدود النواعم والقدود المياسة والخصور النحيلة الى ماوراء ذلك مما هو وراء

الوصف والبيان وقد كان منهن الخاطرات بالدلال والاعتدال في حال البهاء والجمال وملبوس أنخر يزيد الملاحة بما لا يقدر ومشية متوازنة بحركات متجانسة ممزوجة برقة واعجاب لا يصح أن تسمى بالتبختر ومنهن الراكبات في العربات وبجانبهن أو أمامهن رجال من عائلاتهن (أو غيرها) ولكنهن لا ينظرن اليهم ولا هم ينظرون اليهن بل كل من الفريقين مشغول عن صاحبه (الذى تملكه اليد) بمن يسعى أمامه أو يمر بجانبه أو يعدو خلفه وكل واحدة من هذه الجوارى المملكات المالكات تبذل غاية جهدها ومنتهى فنها لكى تتجلى فى مظهر أنيق رشيق يسبى ويصبى ثم لا تكتفى بخطف العقول والارواح بل هى فوق ذلك فتاكة فتانة (والفتنة أشد من القتل) وما زلنا ننتقل من منظر الى أبدع الى أبرع الى أبهج الى أبهر حتى انبهرنا واندهشنا وضاعت مناصيغ أفعال التفضيل التى كنا حفظناها لمثل هذه الفرصة وقد كل البصر وارتد الطرف حسيرا ففكرت حينئذ أن البخار تكفل بتقريب المسافات وأغنانا عن استعارة أجنحة القطا للطيران الى موضع الحب والهوى ولكنى فى عوز زائد الى كثرة النواظر لان العينين اللتين منحهما لى البارى لا تكفيانى لرؤية هذه المناظر التى أمامى وتأسفت على كونى لم أتزود قبل الرحيل

بشئ من العيون التي كانت تنفعني وتنفع أصحابها في مثل هذه الحال التي ليس بعدها حال ولكن لله الحمد فان الباب مازال مفتوحا والامر ميسورا لاني سأرجع الى باريس وأقيم بها نحوا من أسبوعين أو أكثر فكل من بهزه الشوق لاستجلاء هذه المحاسن بنفسه من غير أن يتحلحل عن مجلسه فليساعدني بما هو لازم (ع) ومتى انصرفت عن هذه المدينة أرجعت اليه العين بالعين فتحدثه بما رأت وتؤكد له صدق من قال وما راء كمن سمعا

فلما رأيت ما رأيت من التناهي في التبرج والبهرجة والتغالي في التزويق والزبرقة والتهالك على النماكة والغندرة خطر على بالي أني لو كنت من قدماء اليونان الذين يعتقدون بتعدد الا ٓلهة لكنت أقول ان إله الجمال بالغ في الاتقان وبذل كل ما في وسعه من حسن الصنع عند ما كان مشتغلا بالخليقة في هذه البلاد ولكني بفضل الله من المؤمنين الموحدين المسلمين الذين يقولون تبارك الله أحسن الخالقين

وقد تذكرت حينئذ عبارة لاتينية كان القدماء يكتبونها على الساعات رمزا الى انقضاء الحياة بمرور الاوقات وهذه ترجمتها

(Vulmerant omnes ultima necat كلهن جارحات والاخيرة تقتل)

ولو كنت من الشعر بمكانة القادرين على سبكه والمجيدين لحبكه

اصغت هذا المعنى فى أبيات بديعة فى الكلام على النساء ولكننى لاأتصور أنه فات شعراءنا البلغاء

أقول الحق انى لم أستغرب بعد ذلك كله من تلف بعض الشبان الذين توجهوا الى أوروبا فان الجرجر والمكبب والمقبب والمحدب والمعقد وخصوصا الشريط الذى يعقد على الخصر ويتطاير فى الهواء من وراء المعروف عند الباريسيات بما معناه (اتبعنى يافتى Suivez-moi, jeune homme) كل ذلك يجرالى الغرور من غير شعور ويهوى بأهل الهوى الى هاوية الغواية والشرور الا من عصم ربك وهم والله الحمد كثيرون . وقد قال لناسائق العربة ان ما رأيناه ليس بالشئ الذى يذكر لان المدينة الآن صفر من أهاليها المقصودة بالذات وأكابر القوم كلهم فى الخلوات

وجوب حجب النساء

وهنا أنتقل من هذا الموضوع الى موضوع آخر له به تمام الارتباط وهو أنى من أهل المذهب القائل بعدم اطلاق الحرية للنساء الى هذه الدرجة التى تجاوزت الاعتدال الى التطرف فى الافراط فان المرأة بعد كل تعليم وتهذيب أراها ضعيفة ميالة أكثر من الرجل لداعى الشهوات والتفانى فى الملاذ فالواجب أن تكون الحرية لهن كالملح فى الطعام فان التعليم ليس بقادر أن ينزع منهن

هـذه الاميال وان نزع منهـن الخرافات التى يبثنها فى عقول الاطفال

أقول ذلك بمناسبة مارأيتـه فى (تقويم ترويح النفوس (Calendrier Amusant) المكتوب باللغـة الفرنساوية عن سـنة ٩٣ القادمـة . قال فى النهر الثانى من صحيفـة ٢٣ والاوّل من صحيفـة ٢٦ ماخـلاصته : ان العـلامة كسـتنر (Kœstner) أحد أساتذة ليبسيك وصاحب التصانيف العديدة المشهورة نشر كتابا فيه ابحاث علمية دقيقة مستوفاة تكلم فيه على حركة ازدياد المواليد ونقصها فى البلدان المختلفة مستندا على الارقام وقـد أدّته ملحـوظاته وحساباته الى اثبات النتائج الآتية بحسب التعديل المتوسط وهى

ان المرأة الالمانية تخون زوجها ٧ مرات والبلجيكية ست مرات وأربعة أخماس المرة (بحسب التعديل المتوسط كما قلنا) والانكليزية خمس مرات والنمساوية أربع مرات ونصف مرة والهولاندية أربع مرات والسويدية أو الدنيمركية مرتين والطليانية مرة وخمسة اسـداس المرة والفرنساوية مرة واحدة والاسبانية سبعة اثمان المرة والبرتقالية واليونانية خمسة اسداس المرة والصربية والبشناقية والتى من الجبل الاسود والبلغارية ثلثى مرة ثم التركية (ويعنون

بهذه الانظـة المسـلمة وغير المسـلمة من الشرقيات) عُشر المرة الواحدة .اه (١)

فاذا سلمنا بهذا الحساب الذى استنتجه ذلك الاستاذ الالمانى رأينا أن فى التحجب وفيما يقرب منـه فائدة عظيمـة فى صيانة الاعراض

وبعد أن طفنا هذا المتنزه مرتين رجعنا الى فندقنا فعلمنا بكل سرور وانشراح أن دولتلو أسعد باشا سـفير الدولة العلية فى باريس حضر لزيارتنا وترك لنا ورقـة الزيارة وقد كنا توجهنا الى السفارة فى صبيحة ذلك اليوم (الاحد) البهيج وحظينا بمقابلة دولته ولبثنا معـه مدة انصرفنا بعـدها شاكرين مالاقيناه من لطفـه وبشاشته وجميل مؤانسته ولطيف محادثته

زيارة سفير الدولـة العلية

ثم أمضيت الليلة وأنا أحلم أنى فى غابة بولونيا وانه لا تصح مؤاخذتى على وصف مارأيته فيها الا بعد أن يؤاخـذ بهاء الدين العاملى على وصف النساء فى الارجوزة الشـهيرة التى كتبها على رحلتـه فى بلخ وأوردها فى أوائل الجزء الثانى من الكشكول

(١) هذا الحساب ملحوظ فيه مجموع الافراد وليس الحصر فيه ان كل فرد يعمل هذا العمل بل هو عبارة عما يعمله البعض قليلا كان أو كثيرا ويوزع على المجموع فى الحساب الاحصائى

وبعد ان يؤاخذ الكثير من فحول العلماء وأكابر الاتقياء الذين لم يأنفوا ورود هذا الروض الانف وهكذا الى ان أشرقت الغزالة فحملنا أمتعتنا ثم ركبنا القطار السريع قاصدين لندرة عاصمة بلاد الانكليز التى لاتغرب الشمس عن ممالكها ومستعمراتها

---

*

الرسالة التاسعة

من باريس الى لوندرة

وخلاصة وجيزة على المؤتمر

المانش والأخلاق الانكليزية

. اشتهر الانكليز عند الخاص والعام بالاختصار فى الكتابة وصف بحر والكلام والهجوم على المقصود من غير تقديم مقدمة أو استفتاح بفاتحة وسأتكلم عن أخلاقهم بالتفصيل فى الرحلة وأكتفى الآن بعباراتهم فى هذا السبيل

قمت من باريس الى دييب (Dieppe) أحد ثغور فرنسا فى الشمال الغربى وركبت الباخرة وأنا مرتجف من هول بحر المانش ودواره اذ أنى قرأت فى كل كتب السياحة انه من أشد الابحر اضطرابا وهيجانا لانحصاره بين شطوط فرنسا وانكلترا واندفاع التيار فيه ولذلك كان الاوربيون بل الامريكيون أنفسهم يعترفون بشدة هوله ويفزعون دائما من اجتيازه حتى لقد حمل ذلك بعض المهندسين من فرنسا على تقديم مشروع مقتضاه خرق نفق تحت قاع البحر تسير فيه السكة الحديدية للسهولة والراحة وتقريب المسافة ولكن انكلترا عارضت فى إنجاز هذا المشروع خوفا من تعدى قوة حربية برية عليها من فرنسا (جاءتنا كما يقول الفرنساويون) . ولقد ازداد رعبى حينما سألت أحد المسافرين

وأجابنى باكثر مما قرأت ثم تمكن الفزع منى كل التمكن بعد أن أنذرنى القبودان نفسه باضعاف ما أفادنى الاول فكاد يفعل بى الوهم مايقصر عنه دوار البحر لولا انى تجلدت واذ كنت مضطرا للسفر وليس لدىّ من المراكب سوى ركوب هـذا المركب ولا يمكننى الانتظار حتى تعترف انكلترة بفائدة النفَق (كما اعترفت بفائدة قنال السويس فيما بعد) فقد اعتمدت على الله وعملت بنصيحة بعض الخبيرين الذين تعرّفت بهم فى باخرة البر فبادرت بطلب الطعام قبل قيام السفينة حتى يكون فى المعدة شئ يقاوم تأثير الدوار بادئ بدء فلا يقع على الامعاء مباشرة

فجاءنى الغلام وكلمنى بالانكليزية وكنت قد نسيت اليسير الذى تعلمته قبيل سفرى من القطر المصرى بسبب استعمالى الطليانى فى ايطاليا والفرنساوى فى فرنسا فضلا عما فى رطانة الانكليز من الصعوبة والدمدمة والتعقيد والهمهمة واهمال المقاطع الاخيرة من الكلمات فلم أفهم منه شيئا بالمرة ولكننى تذكرت أن أحسن طعام يجيد القوم صناعته هو الرزبيف والبفتيك (أو البُكْتيف بحسب رواية البعض فى بلادنا) فذكرت اسم اللون الاول فعاد الغلام ومعه قطعتان كبيرتان حواليهما من الدهن سواران بل سوران وبجانبهما قليل من شبه المرق فغمست لقمة فى هذا السائل ثم وضعتها فى فى

فكادت تحدث عندى ماهو أشد من دوار البحر ودوخة الرأس واضطراب الامعاء لولا أن تداركت نفسى فأهويت الى فى بكمية عظيمة من الملح والفلفل والخردل وذلك لان الانكليز يصنعون مآكلهم من غير ملح ويتركون تمليحها للآكل بقدر مايريد وخلاصة القول انى أكلت كما أكلت (لاهنيأ ولامريئا)

وأما رفيقى فقد آثر النوم على كل شئ عملا بما اكتسبه من التجربة فى بحر الروم.

ثم انى صعدت على ظهر السفينة لأتمتع بمنظر البحر ومشاهدة المدينة ولو أن ذلك يزيد فى أعراض الدوار ولا أصف اعتدال الجو وبهاء السماء وصفاء اللجة وجمال المدينة واجرافها الصخرية الشامخة التى تتأطم الامواج تحت اقدامها بل أقول انى كنت أستغرب من تحسن الحال كلما تقدمت السفينة الى الامام وأنا لا أشعر بالاضطراب ولكن القبودان كان يقول لى (بالفرنساوية) تربص قليلا ريثما تعارض السفينة التيار فهنالك كل الهول . وما زال الحال على هذا المنوال حتى بدت لنا شطوط انكلترا والفرح يداخلنى قليلا قليلا الى أن دخلنا مينانيو هافن (New Haven) بسلامة الله تعالى وحسن معونته بعد مسير أربع ساعات ونصف وكان عدد المسافرين ١٤٠ فى الدرجة الاولى و ٨٠ فى الثانية

ولم يؤثر الدوار الاعلى ستة من السنات واثنين من الخواجات وقد
أجمع الخبيرون على ان مثل هذا اليوم لايجيء الافيما ندر غيرانى
قلت لعل هذا من كرامات المؤتمر

دخول انكلترة

ثم نزلنا فى المدينة فاستقبلنا أعوان الكمرك يسألوننا هل معنا
شئ من الدخان والسجاير ثم وضعوا أمتعة المسافرين على كثرتها
فى مخزن كبير بحسب ترتيب عددها فى التسجيل و وضعوا النمرة
على الارض بالطباشير لكل متاع مسافر مع بيان عددمايتبعه من
الشنطات وغيرها لكى يتوجه كل أحد بحسب تذكرته الى
موضع نمرته فيرى متاعه بدون أن يكون ازدحام أو اختلاط أوضجة
أورجة فاعجبنى هذا الترتيب و بعد التفتيش باللطف والمجاملة
سار بنا القطار الى لوندره فيما بين حقول خضراء ناضرة ومراع
واسعة زاهرة

وصول لوندرة

فلما وصلنا المحطة المقصودة من لوندرة فى مساء ١٩ أغسطس
تلقانا عامل من بيت كوك ومعه كثير من مكاتيب اخوانى الذين
تركتهم فى مصر وصلت قبل وصولى فحفظها لى عامل كوك وقد
تلوتها باشتياق زائد قبل ان انتقل خطوة واحدة وحمدت المولى
على هذه النصف مشاهدة مسرورا بها شاكرا لله ذاكرا مالهم
من الفضل والعناية ثم ركبنا العربة قاصدين الفندق فاذا

المدينة كبيرة ضخمة جسيمة هائلة لايصح أن تسمى مدينة أو عاصمة بل هى قطر كبير واذا حق لى تسمية باريس (جنة الدنيا) فلابدلى من تسمية لوندره **موسوعات العالم**

وقد نزلنا فى أهم فندق بأهم حى من أحياء هذا القطر اعلاء لشأن المأمورية وإجلالا لمقام حكومتنا السنية وهو المعروف بـ(ألبمارل هوتيل) وهو من الطبقة الاولى ولا ينزل به أحد من المسافرين الا بتوصية أوتقديم وكان نزلا لاعضاء العائلات الملوكية الذين جاؤا الى هذه الديار وقد كان النور الكهربائى فيه طوع بنانى طول الليل وطول النهار وان اليراع لعاجز عن وصف ماعليه الفندق ولكنى أقول ان بذل الدنانير الوافرة أجرة للنزول فيه كبذل الدراهم فى غيره وسأصفه بما فى المقدور فى الرحلة ان شاء الله تعالى

وفى صباح النهار نزلنا الى قاعة الاستقبال فرأينا ثلاثة من بعض زيارات أبناء بلدنا قد حضروا للسلام علينا وكنا لانتوقع أن أحدا يعرف مكاننا فى تلك الساعة فحصل لنا برؤيتهم ومكالمتهم مزيد السرور وهم من التلامذة الذين أرسلتهم الحكومة الخديوية للتعلم فى بلاد الانكليز وقد صدر لهم أمرها بمقابلتنا وارشادنا

ثم حضر لزيارتنا فى الفندق سعادة الجنرال السير غرنفل باشا سردار الجيش المصرى سابقا فاستقبلنا سعادته بواجب الاحترام اللائق بمكانته من الفضل والعلم وهو الذى ساعدنا فى مأموريتنا هذه كما سيمر على نظر القارئ ثم حضر لنا رفيقنا الثالث وهو الدكتور فوللرس وقد رددنا هذه الزيارات بعد ذلك

أعمال المؤتمر بغاية الايجاز

فلما جاء يوم افتتاح المؤتمر أرسل لنا سعادة سردارنا السابق عربته لتقلنا الى محل الاجتماع فلما وصلناه رأيناه يموج بالناس ولا يجهل القارئ ان جميع من يضمه المكان هو من مشاهير العلماء ونخبة الفضلاء من كل أمة ولم يحضر المؤتمر أحد من العائلات الملوكية بل كلهم اعتذروا برسائل برقية وغير برقية

وافتتح حضرة الرئيس الاستاذ مكس مُلَّر أعمال المؤتمر بخطبة قد كانوا طبعوها فى ٦٣ صحيفة ووزعوها علينا وكلها غرر ودرر وربما لخصتها فى الرحلة أما الرياسة الادارية فقد كانت فى يد اللورد نورثبروك (الذى كان حاكما على الهند وقد جاء مصر من زمن غير بعيد) ولاحظ الجميع ان الوقت المقرر قد مضى ولم يتم العمل المحدد فى البيان الرسمى ليوم الافتتاح بل انه لم يتكلم أحد غير الرئيس وآخر أثنى عليه وثالث تكلم بالطليانية وعلى

ذلك انفضت الجلسة الافتتاحية وفى المساء كانت مأدبة اللورد نورثبروك لاربعةوعشرين مدعوا من أهل المؤتمر لم يكن بينهم شرقى غيرى وقد أجلسونى على المائدة والى يمينى الدكتور بوهلر وهو من أشهر مشاهير العلماء فى أوروبا والى يسارى السير غرنفل باشا وكانت المأدبة أشبه شئ بما دب الملوك على ما سمعت لاما عرفت

وفى الايام التالية كانت الاقسام تشتغل بمباحثها وفى جملتها الفرع الثانى من القسم الثانى الخاص بالساميات الذى كنا فيه فلما جاء دورنا تكلم الدكتور فوللرس على رسالة كتبها فى الاصوات العربية مستندا على ماروواه ابن يعيش شارح المفصل وماجاءبه سيبويه النحوى ثم تلوته بالفرنساوية مبينا إجمال مافى الرسائل التى قدمتها للمؤتمر (١) ثم قام حضرة الاستاذ الشيخ محمد راشد وتكلم على رسالته التى كتبها فى الكلام الدارج بمصر القاهرة وأورد كثيرا من أزجال العوام وألحانهم وموشحاتهم وموالياتهم وأدوارهم ثم قدم شرحا مطولا كتبه على خطبة مقامات الحريرى

وفى اليوم الرابع عينوا لجنة دولية للنظر فى شؤن المؤتمر الآتى والاقرار على وقت انعقاده ومحله وتعينت فيها عضوا نائبا عن الديار المصرية وكان الحاضرون ٣٥ بما فيهم الرئيس فتليت الخطابات الواردة فى هذا الشأن ودارت المذاكرة على

---

(١) انظر خلاصة الخطبة فى آخر الكتاب

تعيين وقت انعقاد المؤتمر الآتى فقال الكونت داجو بيراتى مندوب ايطاليا ان اللازم عقده بعد ثلاث سنوات حتى يتيسر للعلماء فى خلال هذه المدة أن يحضروا مباحث يقدمونها فيه فقلت حينئذ (ان القاعدة التى تقررت فى أول الامر لاجل عقد المؤتمر كل ثلاث سنوات انما كانت لقلة المستشرقين وأما الآن فقد انتشروا حتى كان لهم من أمريكا مشاركون كثيرون والواجب علينا أن نوجد لهم فرصا كثيرة يعرضون فيها أعمالهم لئلا يزداد الشقاق بين أجزاء هذه الجمعية فتضيع القاعدة الاولى بالكلية وتذهب ثمرات هذا الجمع أدراج الرياح ويصر علماء كل دولة على عقد مؤتمر فى عاصمتها كل عام أو عامين فيتفرق العمل شذر مذر ولهذا فانى بمناسبة الشقاق الحاصل الآن فى لسبون أرى وجوب الاقرار على عقد المؤتمر فى سنة ٩٤ أى بعد سنتين فقط) فطرح الرئيس هذين الرأيين على الاعضاء وحسبت الاصوات فاذا هى متساوية فى كل فريق ١٢ عضوا وبقى الترجيح له فأطال الامعان ثم انحاز الى رأينا وتقرر الاجتماع فى سنة ٩٤ ثم تقرر أن يكون مركزه مدينة جنيفا (جنيره) ببلاد السويسره ثم تقدم مشروع خاص بتنظيم أعمال المؤتمرات فى المستقبل وجعلها تسير على وتيرة واحدة فتقرر بعد بعض تعديلات

ولما حل اليوم المحدد لانفضاض المؤتمر اجتمع فيه خلق أقل من الذين حضروا يوم الافتتاح ودارت المذاكرة على ماقررته اللجنة الدولية التي سبقت الاشارة اليها ثم أعلنوا بالاختتام

وفي المساء توجهنا الى مأدبة أعدتها لجنة تنظيم المؤتمر لجميع الاعضاء في قاعة (هوتيل متروبول) وهو من أكبر فنادق لوندره وكان عدد الحاضرين فيها ٣٠٠ مدعو وكان السير غرندل باشا على يميني والاستاذ الفاضل الشيخ محمد راشد على شمالي ولا يخطئ من يشبه هذه الحفلة ببرج بابل من حيث اختلاف الالسنة الا أنها بالغة في الكمال والاتقان جمعت أصنافا كثيرة من بني آدم ولغات متخالفة تكلم بها القوم الواحد بعد الآخر وقال رفيقي شيأ يناسب المقام ثم تكلمت بالعربية حسب مقتضى الحال

واعلم انه لكبر هذه المدينة واتساعها لم يظهر فيها أثرما لانعقاد مؤتمر المستشرقين بل ولا أقل أثر لمؤتمرات غيره كانت منعقدة في الوقت الذي انعقد مؤتمرنا فيه وهي مؤتمر للعملة (بفتح الميم) ومؤتمر للعامل وثالث للصحة وكل هذه منزوية في غضون جوف هذه المدينة التي تسمى عند العرب (أُنْدُرْسْ) كما هو اسمها الآن عند أهل اسبانيا وأما اسمها في لغة أهلها فهو لَنْدَنْ (Londres) ولكن الفرنساويين يسمونها لُونْدُرْ (Londres) ويضعون في

آخرها سينا لا ينطق بها فاذا أرادوا النسبة اليها رجعوا للاصل اللاتيني الذي يقرب من اللفظ الانكليزي فقالوا لندنيان (Londonien)

تنزه على الاسلوب الانكليزي

وفى الاسبوع الذى كان المؤتمر منعقدا فيه (من ٥ الى ١٢ سبتمبر) دعينا لمآدب كثيرة ونزه مفيدة للجسم والفكر يسمونها رياضة رياضية وبلغتهم جاردن پارتي (Garden Party) لكنهم ينطقون بها (جادن پاتى) بجيم وألف مفخمتين ونون لاتكاد تظهر وكذلك الباء الفارسية والالف فى التفخيم والتاء والياء فى عدم الظهور (فهذا درس من اللسان الانكليزى وان كنت لاأعرف منه الآن الا قليلا)

ضيافة عند غنى انكليزى

ولاأذكر من هذه الرياضات الرياضية فى هذا المقام سوى مأدبة أعدها لنا اللورد امهرست (وهو غير الذى كان حاكما على بلاد الهند) فقد دعانا فى يوم ١٣ سبتمبر الى قصره الكائن على مسافة أربع ساعات من لوندرة فركبنا القطار ونزلنا عند وصولنا فى عربات فاخرة أرسلها لنا رب الضيافة ومنزله أشبه شئ بمدينة عامرة فيها الرياض الغناء والمنازه الفيحاء ومن ألطف مايروق النظر فيها أماكن أعدها للعب فسيحة الارجاء مفروشة بالاعشاب الطبيعية وفيها الغابات والبحيرات لصيد الطيور والاسماك ومعمل للغاز وآخر الكهربائية وآخر لاصطناع العربات وترميم آلات الزراعة وخزانة للاسلحة

وغير ذلك مما يدل على تمكن الحضارة وضخامة الثروة واصالتها وأذكر انه جمع فى روضته هذه كثيرا من الاشجار النادرة الغريبة من أقاصى المشرق والمغرب وله عناية بالازهار والفواكه فوق العقل وقد رأيت عنده صنفا من العنب كبير الجم لذيذ الطعم أبيض اللون وله خاصية الرائحة الذكية فيضوع أريجه عند أكله

وقد اصطنع فيه زهرية على مثال بستان الازهار الذى كان فى قصر الحمراء بغرناطة ايام دولة عرب الاندلس وشكلها آخذ بالبصر بهجة ورونقا

أما داخل القصر فحدث عنه ولا حرج وقل ماشئت ففيه دار تحف مصرية وبابلية وعمومية ولاجل أن يتصور القارئ مقدار التحف التى فيه وعظيم أهميتها أقول انه يوجد لديه ١٣ صندوقا كبيرا كلها مشحونة بآثار مستخرجة فقط من تل العمارنة فى ديارنا قريبا من ملوى بمديرية أسيوط وهو ينظر الآن فى بناء محل متسع لعرض هذه الآثار فيه

وأما المكتبة فهى كبيرة جدا وفيها نسخ كثيرة بخط اليد من المصاحف الشريفة وكثير من الكتب العربية والفارسية والهندية مما له قيمة وذلك عدا الكتب الافرنجية المنسوخة بخط اليد المحلاة

بالصور والرسوم البالغة حد الاتقان والكتب التى كانت باكورة اختراع المطبعة فى أوروبا وفى انكلتره وهى الآن نادرة الوجود وقلما توجد فى الكتبخانات العمومية التى من الدرجة الاولى وأحسن شئ رأيناه نسق وضعها وترتيبها المدهش للعقول وقد أعد للكتب النادرة المثال خزائن من الحديد خشية عليها من الحريق اذا شبت النار وان كان متحفظا على جميعها كما ينبغى

وفى المنزل غرفة ورقها من الجلد الاندلسى القديم وعليه أشكال ورسوم صورها أحد المعلمين النابغين وأما الآنية والفرش والاثاث والاستعداد وكثرة الرسوم والطيور والحيوانات المصبرة فذلك مما لا حد لوصفه ولا تسل بعد هذا عن بقية قاعات النوم والجلوس والاكل وما تحتوى عليه من الاثاث والنور والاشكال والاوضاع فكله من وراء مقدور اليراع وفى الدار كلها اسطوانات عليها اعلانات تفصيلية بكيفية استعمالها بالسهولة لاخماد النار اذا شبت فى أى مكان وخلاصة القول انه اذا كان فى الدنيا نعيم فهو فى منزل هذا الرجل

أما دماثة أخلاق حضرة اللورد وحسن معاملته لنا هو وزوجته وبناته الست فذلك بمقدار ثروتهم وحضارتهم وقد أحرزوا من شكرنا بمقدار ما كان لهم من مكارم الاخلاق

ومن بناته ثلاث أوثنتان جئن مصر والباقيات لم يزرنها ولكنهن يقرأن الحروف العربية ويقدرن على كتابة بعض الكلمات بخلاف اخواتهن الاخر وقد كان بودهذه العائلة الكريمة أن تبقينا عندها أياما كثيرة ولكنا مع وجود أعظم من رغبتهم عندنا اعتذرنا لان حضرة الشيخ كان لابد من رجوعه الى مصر فى يوم ١٦ سبتمبر فودعناهم بعدان أخذت احدى كريماته صورتنا بالفتوغراف وبعد ان استكتبونا أسماءنا بالعربية والافرنجية

البندقية فى لوندرة

• أما نزهتنا فى لوندرة فلا أتكلم عليها الآن وانما أذكر أنى شفيت الغليل برؤية شبه مدينة البندقية فى احدى ضواحيها وهو محل متسع اسمه (Venice) فيه تياترو رحب ومعمل للزجاج يشبه معامل البندقية وفيه شوارع مائية ومراكب ومراكبية تمثل للانسان مدينة البندقية بالتمام

فحمدت الله على هذه الفرصة التى جعلت لى فكرة على هذه المدينة المائية حتى كأنى شاهدتها بالعين فما لايدرك كله لايترك كله

معرض التاريخ الطبيعى

وقد توجهنا فى يوم من الايام الى معرض التاريخ الطبيعى البريطانى وكان مرشدنا فيه حضرة وطنينا الفاضل المتفرد بالشهرة فى هذا الفن الدكتور عثمان بك غالب فاستفدنا من

دقائق المعرض وحقائقه أشياء كثيرة وأقول الآن ان الحكومة تنفق عليه وحده فى السنة أ كثر من ٤٤ ألف جنيه انكليزى فى نظير ماهيات العلماء والعمال فقط أى خلاف المشتروات وصيانة المكان وغير ذلك من النفقات الكثيرة التى لايمكن أنها تقل عن هذا المقدار وقد كان فى الاول فرعا من المتحف البريطانى فلما اتسع نطاقه وازدادت معروضاته نقلوه الى هذا المكان المخصوص وهو فى غاية الترتيب ونهاية الكمال

الرسالة العاشرة

لوندرة

بودى لو يتيسرلى أن أكتب الآن ولو كلمتين على هذه عظمة لوندرة وجسامتها
المدينة بل على هذا القطر الواسع الذى يسمونه لوندرة ولكنى
أقف امام هذا الموضوع الهائل شبيها بالنملة بجانب مسجد
السلطان حسن أو كالزورق الصغير فى البحر المحيط وأنى له أن
يهتدى الى بر السلامة فعلام أكتب وماذا أصف وفيم
أخوض فلقد اشتملت متاجرها على جميع الأصناف والمحصولات
كما أن بضائعها ومعاملها بلغت من الاتساع والاتقان فوق مايتصوره
الادراك حتى إن مجرد الدخان الذى ينبعث منها الى سمائها
يتحد مع ضبابها ويزيد فى تكدير جوها ثم يتساقط على مبانيها
وعمائرها وتماثيلها وأنصابها فيجعل منظرها أسود قاتما كئيبا
محزنا تنقبض منه النفوس ويذهب بالانشراح أدراج الرياح
وفيها من الاقبال على الشؤن واغتنام الفرص ومعرفة قيمة
الوقت مايحير الافكار ويبهر الابصار ورجال الشرطة فيها بلغوا
من الانتظام وحسن الدراية وكمال الدربة ومعرفة الواجبات
مالايكاد يضاهيهم فيه غيرهم فى الكون بأسره حتى صار لهم مهابة

فى النفوس وسيطرة حقيقية على كافة الافراد بحيث ان أقل اشارة
منهم تكفى لمنع أى خلل أو اضطراب

حركة لوندرة

أما استمرار الحركة فى شوارعها فما لا يتصوره الانسان
الا بعد المناظرة بالعيان فانها فى أقل الايام (ماعدا يوم الاحد)
تشبه يوم مهرجان النيل أو ليلة احتفال الاعجام فى العاشر من
محرم الحرام أو موسم المولد النبوى أو الاحمدى (أو كل ذلك
مجموعا الى بعضه) فترى العربات العمومية ذوات المجلتين وذوات
الاربع تتقاطر وراء بعضها وبجانبها عربات الاومنيبوس شبيهة
بالمنازل والدور كسلسلة متصلة الاطراف والناس يتبع بعضهم
بعضا كأنهم يساقون الى المحشر الى غير ذلك مما يقتضى التعريف
به أن تظهر الحقيقة فوق الاغراق والغلو فى المبالغة ولكنى لا يصح
لى أن أعتذر بتعذر الاحاطة بأطراف هذا الموضوع عن كتابة ما شعر
به الوجدان وتأثر به الجنان وانى أحاول ذكر قليل مما تيسر لى
الوقوف عليه من الاجماليات ومن أمور شتى ومنثورات متنوعة
تصور للقارئ بعضا من كل من جسامة هذه المدينة العظيمة واتساع
نطاقها وامتداد أعمالها وكيفية الحركة فيها

وابورات لوندرة

فأول شئ يؤثر على عقل القادم اليها ما يراه فيها من حركة
الوابورات وسرعة مسيرها وكثرة عددها وتنوع اتجاهاتها واختلاف

أوضاعهافى الارتفاع والانخفاض حتى يكاد يعتريه دوارفى الرأس يشبه دوخة البحر ويداخله خوف شديد من امكان حصول الاصطدام فى كل لحظة أو خروج القطارعن الشريط فى كل خطوة حتى اذاوصل المحطة زادت الدهشة ممايراه فيها من الاتساع وكثرة الارصفة وجسامة المبانى وتعدد صنوف المخلوقات وتناهى صفوف العربات مما يضيع اللب ويذهب بالرشاد ثم متى دخل فى شوارعها وسارفى طرقاتها ومسالكها بهت وبلغ الاضطراب منه منتهاه

ومهما وصفت ومهما شرحت ومهما بالغت فانى لا أبلغ عشر معشار الحقيقة ولذلك رأيت أن الطريقة المثلى هى أن أكتفى الآن بذكر بعض أمور متفرقة تجعل للقارئ فكرة صغيرة عن عظمة هذه المدينة الكبيرة

فوائد الشركات

ولكنى أقول قبل ذلك ان الشركات والجمعيات وما بينها من المزاحمة الممدوحة والمناظرة المحمودة هى روح هذه الحركة وأس هذا الارتقاء فهما نظر الانسان الى أىّ عمل من الاعمال رآه فى يد شركة من الشركات وليس للحكومة دخل فى شئ ما سوى المراقبة العالية والسيطرة المعنوية التى تجعل الجمهور فى أمان من اغتيال هذه الشركات وفيما عدا ذلك فان الامة قائمة بنفسها مكدة فى طلب

المكاسب والمعالى بما يفيدها ويرفع شأن دواتها من غير أن تتنازل وتمد يدها لامداد الحكومة ماديا أو معونتها معنويا حتى ان الانسان ليتساءل بعد ما يراه من تنوع الشركات وتناولها كل شأن من شؤن العقليات والمحسوسات كيف ان مثل البوستة والتلغراف والكمرك والدخولية والبوليس والجيش ليس فى يد الشركات نعم فقد كانت البوستة والتلغراف خاضعين لهذا القانون العام فى هذه البلاد بلاد التعاضد على الاعمال والتباعد عن الخمول والاهمال ومعرفة ثمرات الاجتهاد والاتحاد والاقتدار على انماء المال ولقد كان فتح الهند كما لا يخفى واضافتها للدولة الانكليزية على يد شركة تجارية وأمثال ذلك كثيرة

اجتهاد الافراد أخ المجموع

وذلك لان أفراد الامة البريطانية يرون أنهم لم يخلقوا الا للعمل والاكتساب ولقد بلغت محبة الاستقلال فيهم مبلغا لا يكاد يتصوره العقل حتى ان بعض البنات فى العائلات الكبيرة تذهب للرسم والتصوير أو التطريز والتدبيج أو التعليم والتدريس لتكتسب بنفسها ولا تكون كلاً على عواتق أهلها مع ما هم فيه من الثروة والرفاهية ومنهن من يؤثرن التغرب فى بلاد الهند واستراليا وكندا بصفة وصائف أولى من البقاء فى منازلهن خاليات من العمل منغمسات فى البطالة والكسل وذلك شأن الشبان

أيضاحتى لقد جاء فى أمثالهم أنه (لاشئ يفلح مثل الفلاح) وذلك يشبه من بعض الوجوه المثل الفرنساوى (الغاية تبرر الواسطة) وهم يعتبرون الفقر عيبا بخلاف سائر الامم ولذلك يشتغلون كلهم مثل النحل ولو كان الرجل منهم ابن غنى يملك القناطير المقنطرة فلابد له من التكسب بعرق جبينه

استئثار الانكليز فى كل شئ

وحبهم لوطنهم ولانفسهم ولابناء جنسهم أمر لايكيف مثال ذلك أن الرجل منهم اذا كان يعرف لغة غير لغته الاصلية فلا يتكلم بها الا عند الضرورة القصوى واذا رأى منك أنك تعرف من الانكليزية مبادئها أخذ يخاطبك بها و يجتهد فى منعك من مكالمته باللغة المشتركة بينك و بينه لانها غير انكليزية وكذلك السكة فلا يتعاملون بغير النقود الاهلية مطلقا ومثلها المقاييس والمكاييل والاوزان ومع ان العقلاء منهم يعترفون بأفضلية الطريقة الاعشارية لكنهم لايزالون متمسكين بطرائقهم المتعددة المتخالفة التى ليست على أساس ثابت

ومثال ذلك أنك اذا توجهت لاى مخزن وطلبت صنفا أو محصولا مما اشتهرت بعض البلاد الاجنبية بصناعته واتقانه فان رب الحانوت يجيبك بأنه موجود عنده ولكنه ينصحك نصحا مكررا بأخذ الصنف الانكليزى قائلا لك انه أجود وأفضل من جميع الوجوه

تصوير الوطنية الحقة بأوروبا

وهذا الموضوع يجرّني الى الاستطراد بذكر كلمة واحدة على الوطنيـة فى بلاد أوروبا التى أتيح لى زيارتها الى الآن وهى ايطاليا وفرنسا وانكلترا فهى التى جعلت هذه البلاد ذات سطوة عظيمة وبأس شـديد فانهم ينظرون الى من يخدم الوطن باعتبار أعماله العمومية المفيدة للبلاد ويجلون ذكره على الدوام من غير أن ينظروا مطلقا الى أعماله الشخصية وأموره الداخليـة ومهما كان فيها من موجبات الانتقاد فان ذلك لايمنعهم من اعتباره واحترامه ورفع صيته الى أعلى عليين ألا ترى أن (غاريبالدى) الذى يهتز لاسمه قلب كل وطنى طليانى قد خدم الدولة الطليانية وأوجد وحدتها فأحله أهـل بلاده المحل الاول من الاعزاز والاعظام ولم يلتفتوا الى ماتناقله بعضهم عنه من الاعمال المنكرة التى ارتكبتها زوجته الفتاة وقد اتخذها بعد ان صار طاعنا فى السن ومثال ذلك (غامبتا) رجل الجمهورية الفرنسوية فان قصته مع عشيقته معروفة وهى التى أطلقت عليه الرصاص فنقلته الى غير هذه الدار ومع ذلك فهو موضوع الاعجاب عند الفرنساوية يلهجون بذكره ويتمدحون بمآثره ويحتجون بأقواله ويستشهدون بأعماله وقد أقاموا له فى أعظم نقطة من باريس حيث كان قصر الامبراطور جهة ميدان الكاروسـل تمثالا فخيما رفيعا اكتتب الاهالى

لاقامتـه على أفخر مثال وهم يأتون لزيارته من كل انحاء فرنسا يضعون عليه الاكاليل والتيجان كأنه كعبة آمالهم

وأما لوندره ففيها تمثال أمير البحر (الاميرال نلسن) الذى كسر الدونانمة الفرنساوية وتعقبها فى كل البحار وفاز بالانتصار فى وقائعه وخصوصا فى الجهة من الاندلس المعروفة فى كتب العرب باسم طَرَف الاغر (التى حرفها الافرنج الى ترافلجار Trafalgar وقد خبط أصحابنا المترجمون فى نقلها الى العربيـة فقالوا ترفلجار أو طرف الغار). فقد أقاموا له تمثالا فاخرا على عمود شامخ يشرف على كل مبانى لوندره ونظروا الى ما اكتسبه منه الوطن ولم يلتفتوا بأى وجه الى علاقاته السرية مع امرأة أخرى (كان لها بعل فيما بالغنى) حتى انه حينما أدركتـه الوفاة أثناء الواقعـة البحـرية فى طَرَف الاغـر كان أول شئ اهتم به هو السؤال عن نتيجـة القتال فلما بلغـه ان النصر لدولته سكر بخمرة الفوز وهو فى سكرات الموت ولم يلتفت بعد ذلك لشئ سوى انه أوصى باعطاء سيفه ووشاحاته الى خليلته وقد نقشوا على قاعدة العمود كلمة مأثورة عنه كان يتمثل بها كثيرا وهذه ترجمتها (ان انجلترة تنتظر من كل فرد من أبنائها انه يقوم بما عليه)

ولقد يذكرنى ذلك بالملكة كاترينة امبراطورة الروسا فان

التاريخ ينبئنا بأنها كان لها محبون معلومون واهم مرتبات وعلوفات رسمية بهذه الصفة فى ميزانية الحكومة حتى انها لبست الحداد رسميا بعد وفاة أحبهم اليها مدة سنتين ومع ذلك فلا يزال الروس يطأطئون لذكرها الرؤس ويفتخرون بها ويمجدون اسمها لان دولتهم فى أيامها وباجتهادها بلغت من التقدم وعلو المكانة ماجعل لها جانبا مهيبا فى أعين الدول الاخرى

فهكذا يكون حب الوطن وهكذا يكون السعى فى تشجيع الفضلاء على خدمته فان النظر الى السفاسف وتعقب الهفوات التى لايترتب عليها ضرر للامة والوطن لايكون من ورائه الا إهباط العزائم وتثبيط الهمم فتخمد القرائح النيرة وتنطفئ الافكار الوقادة ويقعد المجتهدون وأصحاب الامانى عن الكد وراء المعالى ولا يصيب الوطن من ذلك الا خسران رجال ربما كان له من وراء أعمالهم فائدة جليلة

ولقد ساقنى الكلام على وطنية الانكليز الى هذا الاستطراد فأسأل القراء عفوا لانى أرى نفسى وجوارحى وقلمى وفكرى تندفع بالرغم عنى الى ذكر شئ من هذا القبيل عسى أن يكون له صدى فى بلادنا فيكون من ورائه النفع العميم

احصائيات ناطقة بجسامة لوندرة

وأرجع الآن الى الكلام على لوندرة التى يتعسر على الانسان أن يقول أين مبدؤها وأين منتهاها ومن المحتمل انه لم يتفق لأحد أنه رآها كلها وان ذلك لن يتفق فى الاستقبال لما يستوجبه المشروع من الصعوبة والاتعاب والحيرة والاضطراب فان مسطحها ٣٥٠ كيلومترا مربعا من غير ضواحيها وارباضها وقدروا أطول دائرتها ٩٠ كيلومترا وان طولها من الشرق الى الغرب ٢٥ كيلومترا ومن الشمال الى الجنوب ٢١ كيلومترا وطول طرقها ١٥٠٠ ميل وطول بالوعاتها ومصارفها ٢٠٠٠ ميل وكان عدد سكانها فى أول هذا القرن أى سنة ١٨٠١ عبارة عن ٨٦٤,٠٣٣ نفسا وفى سنة ١٨٢١ صاروا ١,٢٢٧,٥٩٠ ولما جاءت سنة ١٨٧٠ بلغوا ٣,٢٥٤,٢٦٠ يسكنون فى ٤١٧,٧٢٧ دارا وفى سنة ١٨٨١ أثبت الاحصاء الرسمى أنهم ٣,٨١٤,٥٧٠ بما فى ذلك الضواحى المتصلة بها تمام الاتصال ويتضح من التقرير الابتدائى عن حركة السكان فى سنة ١٨٩١ ان عددهم فى شهر ابريل من تلك السنة كان ٥,٦٣٣,٣٣٢ وعدد المنازل ٧٩٧,٦٧٩ وعدد الاغراب المتوطنين بها ١٥٥,٠٠٠ ولها وحدها فى مجلس البرلمان ٥٨ عضوا ينوبون عنها

ولكنك اذا نظرت الى ذلك الاتساع الهائل وتلك المسافات وسائط النقل

المتباعدة الشاسعة تراها معدومة وكأنها لم تكن فان المدينة قريبة الاطراف لسهولة التنقل وكثرة الوسائط من كل نوع ففيها أكثر من ١٥٠٠٠ عربة بعجلتين وحصان واحد والسائق من خلف (واسمها هَنْسَمْ وهى مثل عربات الاوتيل كونتيننتال فى القاهرة) أو باربع عجلات وحصانين لركوب هذه الخلائق المتزاحمة أما عربات الامنيبوس فلا تقل عن ٢٥٠٠ عربة تسير فى ٢٠٠ خط متمايزة عن بعضها أنشأتها شركات متعددة وبلغ عدد الركاب فى عربات احدى هذه الشركات (وقدرها ٨٦٠ عربة) ٦٠ مليونا من النفوس فى سنة ١٨٨٢ وفى كل عربة منها ٢٦ مقعدا ١٢ فى الداخل و ١٤ على ظهرها وفى أكثرها زيادة على ذلك مكانان بجانب السائق وفى ضواحى المدينة وبعض جهاتها عربات الترامواى التى تجرها الخيل على قضبان حديدية وهى لاربع شركات ولا يمكن ادخالها فى المدينة لكثرة الازدحام فان المقرر أن عربتين تسيران الى الامام وعربتين الى الخلف وقلما تكون جهة من الشارع خالية من الاربع عربات

وقد أحدثت سكة حديد العاصمة (التى تسير تحت الارض) عربات الامنيبوس توصل بين المحاط وبعضها وتتميز عن عربات الامنيبوس الاخرى بان السائق تكون فوق رأسه مظلة كبيرة

عليها اسم الشركة ويجوز لكل انسان صادفها فى طريقه أن يركب فيها

وفيها أيضا عربات تسمى (ماى كوتش) تسير بالسواحين والمتفرجين الى بعض مدائن النزهة القريبة

وفيها شركة تتكلف بحمل الامتعة والرزم والطرود التى لايتجاوز وزنها ١٠٠ رطل الى أية جهة من جهات لوندرة وضواحيها ولها أكثر من ١٢٠٠ مكتب فرعى متوزعة فى كل أنحاء المدينة وثمن النقل زهيد جدا وقد تأسست شركة أخرى لنقل البلاد مثل بالات الاقطان والبراميل بانواعها والبضائع الكبيرة الحجم وأهم هذه الشركات فيها ٧٠٠٠ مستخدم و ١٠٠٠٠ حصان وهنا أقول ان سائق العربات فى لوندره يفوقون فى صناعتهم جميع أمثالهم فى سائر أنحاء الارض

وهنالك أيضا شركة خيرية تألفت لمساعدة العساكر البرية والبحرية الذين قضوا مدة الخدمة فانها تكتنفهم وتقوم باحتياجاتهم وتستخدمهم فى نقل الرزم والطرود الصغيرة بأجرة لاتتجاوز ١٥ مليما بحسب بعد المسافة وثقل الحمل

ويوجد بها شركات لها زوارق بخارية كثيرة العدد تجرى فى نهر التيمز على الدوام لنقل هذه الجماهير المجمهرة من مكان

الى مكان وهى فى البحر بمثابة عربات الامنيبوس فى البر ويجوز للراكب فيها أن ينتقل من الواحد للآخر بحسب الجهة التى يقصدها من غير زيادة فى الاجرة وهى لاتتجاوز ١٥ ماليما وتقوم المركب كل خمس دقائق ويوجد شركات أخرى لها بواخر تسير بين لوندرة والجهات التى على نهر التيمز وتقوم كل ربع ساعة وكل نصف ساعة (ماعدا أيام الشتاء) وفوق ذلك على النهر مراكب كثيرة بالقلوع والمقاذيف يؤجرها الناس للفسحة على الماء أو للتنقل من جهة الى أخرى ويوجد مراكب بخارية انشأتها بعض الشركات للسفر من لوندرة الى جميع موانى انكلترا واسكتلندة وارلندة بل ولفرنسا والجهات الاخرى من قارة أوروبا هذا بصرف النظر عن المراكب البخارية التجارية الكبيرة التى تمخر فى جميع البحار

وفى لوندرة أكثر من ٥٦٨ محطة للسكة الحديدية أقل واحدة منها (حتى التى تحت الارض) أكثر من محطة القاهرة الحالية اتساعا وحركة وعملا ومنها مايساوى محطة مصر والاسكندرية وطنطا ثلاث مرات فى ثلاث مرات وقد يمر فى بعضها (مثل محطة كلابهام) أكثر من ١٤٠٠ قطار فى اليوم من غير احتساب

قطارات البضاعة (وأنت تخيل مما ذكر كم ينبغي أن يكون مقدارها في بلدة تجارية صناعية مثل لوندرة)

وفي سنة ١٨٨١ نقلت سكة حديد العاصمة وكلها تحت الارض ١١٠ مليون من الركاب بالتمام وقد ازداد هذا العدد الآن زيادة كلية

وصف القطارات بلوندرة

ثم ان القطارات كثيرة جدا وسريعة للغاية والعربات مفروشة بكل عناية واتقان حتى ان عربات الدرجة الثالثة هي أحسن بكثير من عربات الدرجة الثانية عندنا وفي بعض اقطار أوروبا ولا يمكن ان يمر على الانسان لحظة واحدة وهو في القطار من غير أن يرى قطارين أو ثلاثة تحت أقدامه ومثلها بجانبه ومثلها فوقه بقليل ومثلها يجري على القناطر والجسور ومثلها بحذائه ذات اليمين ومثلها الى جانب اليسار وهكذا مما يحدث الخبال وذلك كله نتيجة المزاحمة وغيرة المناظرة فان الذي يريد أن يتوجه من لوندرة الى مانشستر مثلا يجد أمامه خمسة طرق مختلفة في يد شركات مختلفة وكل واحدة منها تجتهد في ان تضمن للمسافر من المزايا والفوائد والتسهيلات ما يجعله يقبل عليها دون سواها حتى ان الطوالات الخشب المستعملة في الدرجة الثالثة أصبحت لا وجود لها بالكلية وقد تكون عربات الدرجة الثالثة في قطرات الاكسبريس كما

ان بعض القطرات لاتوجد فيها إلا الثانية وفى بعضها (وهى السريعة) لاترى الا الاولى

ولايمكن أن يمضى على الانسان اذا وقف فى مكانه ثلاث دقائق من غير أن يمر عليه مايريده من عربات الامنيبوس أو القطارات أو الزوارق البخارية أو غير ذلك فاصبحت المسافة فى هذا البلد الطويل العريض معدومة والابعاد متقاربة لسرعة وسائط النقل وكثرتها وسهولتها وتيسرها

وخلاصة القول أن تعدد الشركات ومنافستها لبعضها التنافس الممدوح يجعل الانسان مهما قلب ناظره فى أية جهة من جهات المدينة على وجه الارض أو تحت الارض أوفى الجو فوق أسطحة المنازل يرى عددا هائلا من القطارات البخارية منها مايرفع عقيرته الى عنان السماء ومنها مايكتم نفسه فى جوف الارض ويكتفى بالانين

تلخيص حركة لوندرة

ومن تأمل فى حركة هذه القطارات التى لاينقطع دويها وكلها مركبة من ٢٠ أو ٣٠ عربة كبيرة وكلها مشحونة ببنى آدم ثم نظر الى الزوارق البخارية والى سواريها التى تجعل النهر كغابة بالغة فى الاتساع ثم نظر الى عربات الامنيبوس وهى تجد فى السير وليس بها مقعد خال ثم نظر الى حركة الشوارع وما فيها

من المركبات المختلفة المقادير والاحجام والاشكال والانواع وكلها غاصه بالناس و بالبضائع ثم نظر الى جانبي الطريق ورأى الاقوام تمور وتموج كالسيل المنهمر الذى لايصده عائق فلاشك أن يعتريه اضطراب واندهاش وتأخذه الحيرة والاختبال ويحكم بان هذه المدينة كقرية النمل وليس لها من هذا القبيل نظير فى العالم بأسره على الاطلاق والذى يزيدفى الاعجاب والاستغراب أنه لايسمع صوتا ولاصياحا ولاضجة ولا اعترا كا بنسبة جزء من ألف جزء من هذه الحركة بل كل انسان صامت أو هامس مقبل على شؤنه مكد فى الذهاب الى مقصده وكل شئ يجرى فيها كالساعة المنتظمةذات الآلات الكثيرة والغايات المتنوعة حتى انالغريب ليحكم بانه بين قوم لايسمعون ولايتكلمون

سكة حديد العاصمة

ولاأنتقل من هذا الموضوع قبل أنأذكرشيأ يسيراعنسكة حديد العاصمة فانها عبارة عن طريقين أولهما يدور حول الستى City (أعنى المدينة مثل السكرية والغورية وما حواليهما من الجهات فانها معروفةفى مصرالقاهرة باسم المدينة أيضا) والثانى حول البلد كلها وهما متصلان ببعضهما فى كثير من النقط وقد بلغت نفقات الميل الواحد فيمابلغنى ثلاثة ملايين من الجنيهات لان الشركة التزمت بدفع قيمة الاراضى والمنازل وحفر الارض

وبنيان القباب والعقود وغير ذلك مما يوجب صرف المبالغ الجسيمة وبما أن القطارات فى هذه الطرق تسير تحت الارض الا عند دخولها فى المحاط (فانها كلها مكشوفة الى السماء) فقد رأى مهندسو الشركة أن يصنعوا الآلات البخارية محتوية على مزيتين مفيدتين جدا لمقتضى الحال فأولاهما ان الآلة مجهزة بحيث انها تحرق الدخان المتصاعد منها فلا يكون له أدنى تأثير وثانيتهما أنها تصطنع من الفحم الذى تحرقه زيت الحجر (الغاز أوالبترول) اللازم لاضاءة كافة العربات على الدوام والاستمرار

ثم ان القطار يدخل المحطة وهو فى منتهى السرعة ويقف مرة واحدة فيحصل ارتجاج خفيف جدا لايكاد يشعر به الانسان والسبب فى ذلك أنهم وضعوا فى ثلاث جهات من الرصيف ثلاثة ألواح كبيرة لتوفير الوقت ومكتوب عليها مامعناه (انتظر هنا الدرجة الاولى أو الثانية أو الثالثة) فيقف ركاب الدرجة الاولى فى المكان المعين وركاب الدرجة الثانية فى المحل المخصص لهم ومثلهما أصحاب الدرجة الثالثة ثم ان العربات فى القطر مرتبة وراء بعضها بحسب الترتيب المعين فى رصيف المحطة فتى جاء الوابور وقف فى المكان المناسب فلا يكون على المسافرين الا أن يدخلوا العربات من غير تعب ولا سؤال بل بتحريك القدم خطوة أو

خلوتين بالاكثر وذلك لمنع الاختلاط فان القطار لايقف أكثر من بعض ثوان وتجد على باب العربات من الداخل عبارة هذه ترجمتها (انتظروا حتى يقف القطر) ولكنى أرى من الواجب على المسافر أن يشرع فى النزول بمجرد وقوف القطر لان أقل تأخير يترتب عليه ان يساق الى المحطة الثانية ثم يرجع مع قطر آخر الى المحطة المقصودة من غير أن يلتزم بدفع أجرة تكميلية بشرط أن لايظهر على وجه الارض بل يستمر على رصيف المحطة وهذا أمر ينبغى تنبه الغريب اليه فان كثرة الاعلانات فى المحطة تمنعه ولاشك من أن يعرف اسمها فلاجدر به والحالة هذه أن يسأل قبل النزول فى القطر عن عدد المحاط التى سيكون الوقوف فيها قبل الوصول الى المحطة اللازمة أوأن يجتهد فى قراءة اسم المحطة على فوانيسها ودكاك الانتظار فانهما المحلان الوحيدان الباقيان للآن فى حرز وأمان من هجمات أصحاب الاعلان

وكل انسان يركب فى القطر يجوز له أن يؤمن على حياته ونفسه من العوارض والاخطار التى ربما تطرأ فى أثناء السفر ففى حالة الوفاة تدفع الشركة ألف جنيه انكليزى لورثة المسافر فى الدرجة الاولى الذى يكون قد أمن على حياته بدفع مبلغ يوازى ١٢ مليما زيادة على ثمن التذكرة وتدفع مبلغ ٣٠٠ جنيه لورثة المسافر فى

الدرجة الثانية الذى يدفع ٨ مليمات زيادة على ثمن التذكرة ومبلغ ٢٠٠ جنيه للمسافر فى الدرجة الثالثة الذى يدفع ٤ مليمات زيادة على ثمن التذكرة فاذا كان العارض غير الوفاة التزمت الشركة بالتعويض بمبلغ نسبى بحسب شدة العارض وخفته

وفى هذا المقام أذكر ما رواه بعضهم من أن رجلا من الانكليز كان يركب على الدوام فى الدرجة الاولى ولا ينسى مطلقا التأمين على حياته وفى كل مرة وصل المحطة بالسلامة أخذ فى اللعن والشتيمة والسباب لعدم وقوع ما كان ينتظره لعائلته من الثروة واليسار وحقيقة فان الاخطار قليلة بل نادرة بل لا تكاد تذكر

وقد كان انشاء هذا الخط فى سنة ١٨٦١ وله أكثر من ٣٠ محطة وقد يمتد الى بعض ضواحى لوندره (ويكون حينئذ على وجه الارض) وقد يسير تحت نهر التميز فى نفق هو عبارة عن انبوبة من الحديد وفى كل خمس دقائق يقوم قطار وذلك من الساعة ستة صباحا الى نصف الليل (ولكن القطر يقوم قبل الساعة ٨ صباحا وبعد الساعة ٨ مساء فى كل ربع ساعة) وثمن التذاكر طفيف جدا فلا يزيد على خمسة قروش صاغ

وأقول بهذه المناسبة ان تسجيل المتاع ليس من أصول السكة الحديدية فى بلاد الانكليز على العموم (لا كما فى ايطاليا أوآه

منها أوّاه) بل ان المستخدمين يستغربون من الذى يطلب ذلك منهم لان القاعدة العامة (وقد يكون لها استثناء لا أعرفه الآن) ان الانسان يكتب اسمه واسم المحطة على متاعه ثم يباشر وضعه على عربة صغيرة فى الرصيف ثم فى العربة المعروفة (باسم عربة العفش) ومتى وصل الى المحطة المقصودة نزل وتوجه الى المستخدم وأعلمه عن متاعه فيسلمه فى الحال من غير أدنى تعب ولا اختلاط ونزاع أو عطل أو مماطلة

وعندى كلام كثير على السكك الحديدية وكثرتها وتقدمها فى بلاد الانكليز ولكن لا يسمح لى المقام بإيراده الآن وانما لا يسعنى ان أخفى اعجابى بها من كل الوجوه حتى ان الانسان لا يتصور كيف أنها لا تنقل هذه البلاد وخصوصا لوندرة الى اية جهة من أقطار المعمورة

شركات الاستدعاء بالكهرباء

ومن أغرب الشركات التى فى هذه المدينة شركتان ليس لهما من عمل سوى الاستدعاء بالكهرباء وذلك أن لكل منهما مشتركين فى جميع جهات المدينة وكافة انحائها ومنازلهم متصلة بسلك كهربائى بالمكتب الموجودة فى دائرته ويكون فى المنزل شبه مزولة عليها خمسة أزرار الاول للساعى والثانى للطبيب والثالث للعربة والرابع للاستغاثة من الحريق والخامس للاستنجاد بالبوليس فاذا

ضغط المشترك على أحد هذه الازرار عرفت الشركة مطلوبه فتبعث له فى الحال ساعيا أو طبيبا (واذا كان له طبيب مخصوص يكون عنوانه معلوما عندها فتخبره بالطلب) أوعربة للركوب أو طلمبات الحريق أورجالا بواسطة ادارة البوليس لامداده بالقوه اللازمة

وهاتان الشركتان مستعدتان أيضا لخدمة غير المشتركين بهما فيجوز لهم ارسال طرودهم وأمتعتهم بواسطة سعاتها فى نظير أجرة لاتزيد عن ١٢ مليما فى الساعة وفوائد هذه الشركات ظاهرة خصوصا فى المدن الكبيرة

شركة حماية الحيوانات

وهذا الحديث على الشركات يسوقنى الى ذكر شئ وجيز عن شركة حماية الحيوانات وان كان اسمها معروفا فى مصر فانها من أغرب الشركات وأفيدها وهذه الشركة تحت حماية البرنس دوغال ولى العهد وقد كان لها تأثير عظيم فى هذه البلاد بحيث انك لاترى القوم حتى الذين من الطبقة الدنيئة يتجاسرون بأى حال ولاى سبب على اهانة الحيوان الاعجم واساءته ولها عمال كثيرون ومن أعضائها جم غفير من أصحاب الوجاهة والنفوذ وكل من أقدم على هذا العمل المنكر حكم عليه بالاشغال الشاقة من ستة شهور الى سنة كاملة وكثيرا ماركبت فى عربات متعددة ولاأتذكر أن السائق رفع السوط على الحصان أكثر من

مرتين بكل خفة وكثيرا ماقطعت المسافات الطويلة من غير أن يلمس السوط جسد الحصان على الاطلاق ومثل هذه الشركة لالزوم لها فى بلادنا اذا راعينا الاحكام الشرعية المفروضة كما هو الواجب علينا .

شركات المطالعة والكتبخانات

وقد رأيت فى البلاد الافرنكية التى مررت بها قاعات المطالعة ولكنها فى لوندرة قليلة وليس للحكومة يد فيها البتة بل قد أنشأتها شركات تجارية متنوعة أو خاصة بطبع الكتب ونشرها وقد أسست بعض الشركات كتبخانات ترسل الكتب اللازمة الى منازل المشتركين فلا تكلفهم التوجه الى مركزها لانتقاء الكتب التى يرغبون مطالعتها فى منازلهم وقيمة الاشتراك من جنيه واحد الى خمسة الى ستة فى السنة

شركات التوريد

وفى هذه المدينة غير ذلك من الشركات التى لاتدخل تحت حصر ولو أردت أن أذكر كلمة على كل واحدة أو أكتفى بمجرد الاشارة الى اسمها لاتسع المجال بما يوجب الملال مهما كان اصطبار القارئ ومجاملته للكاتب ولكنى أقول انى رأيت فيها كثيرا من شركات التوريد التى تتعهد للمشترك بجميع مايطلبه من الاصناف والمحصولات اللازمة له ولعائلته ولمنزله بابخس الاثمان ومن أجود الاصناف

النوادى وغرابة تنوعها

ثم أنتقل الى الكلام على النوادى (المعروفة بالكلوب) فانها كثيرة جدا وأهمها نحو المائة وكلها فى قصور فخيمة شامخة باذخة بالغة النهاية فى الزخرفة والاتساع والاتقان والاحتواء على كل مايطلبه الانسان من مأكول ومشروب وجرائد وكتب وغير ذلك مما يلزم للفكاهة والمسامرة وتمضية الوقت فى نعيم وسرور وكل شئ فيها من أجود نوعه وبثمن المقطوعية (الذى يساويه فقط) وهى معدة لاجتماع الاصحاب والاصدقاء الذين من صنف واحد وأذواق متشابهة وعددها بالنسبة الى لوندرة أكثر منه فى أية عاصمة أخرى من عواصم أوربا ولا يقبل العضو فيها الا بعد اقتراع سرى دقيق جدا ورسم الدخول من خمسة جنيهات الى أربعين (والغالب ٢٥) والرسوم السنوية من ثلاثة جنيهات الى خمسة عشر هذا عدا ثمن المأكولات والمشروبات وفى بعضها يجوز للعضو أن يستضيف بعض خلانه ومنها ماهو للرجال والنساء ومنها ماهو للنساء خاصة أو للعلماء أو لحزب المحافظين أو لحزب الاحرار أو للهند الشرقية أو للضباط البرية والبحرية العاملين أو للضباط المتقاعدين أو للمستعمرات أو لتحسين نوع الكلاب أو لمدرسة اكسفورد الجامعة أو لمدرسة كبريدج الجامعة (ولا يقبل فيهما الا المتخرج منهما) أو لالعاب الكرة أو لرجال السياسة

أو للسياحة (ولا يدخل فيها الا من ساح الى مسافة ٥٠٠ ميل عن لونده) أو لرجال الآداب ومن أغرب نواديها ذلك المعروف باسم النادى المتوحش وفيه كثير من أرباب الجرائد والآداب والفنون والتشخيص ومن أعضائه البرنس دوغال ورسم الدخول فيه ٨ جنيهات والرسوم السنوية ثلاثة جنيهات ولأغلب المدارس نوادى خاصة بتلامذتها الحاليين والسابقين وقد يزيد أعضاء بعض النوادى عن ٧٠٠٠ شخص.

وكل جمعية وكل شركة وكل ناد يولم فى السنة وليمة فاخرة وأهم هذه الولائم وليمة جمعية التصوير ويجتمع فيها أكابر أرباب العلم والسياسة والرياسة والجيش والبحرية وأعضاء البرلمان ورؤساء الاساقفة والافوكاتية والبرنس دوغال واخوته وكل من اشتهر فى فن أو عمل وقيمة النفقات فى هذه الوليمة تبلغ من ٤ جنيهات الى ٨ جنيهات عن كل واحد من المدعوين

مطاعم لوندره وقهاويها

وفى هذه المدينة أكثر من سبعة آلاف مطعم (لوكانده) والخدمة فيها كلها منتظمة جدا ولو ان أماكنها فى الغالب ليست بالغة فى الزخرفة مثل نظائرها فى أوروبا وكثير من هذه المطاعم على مذهب الهنود فلا تجد فيها سوى الخضارات وماتنبته الارض وأما اللحوم فلا توجد فيها البتة لانها محرمة

وفيها نحو ألف قهوة وكلها على الطرز الانكليزى أى ان الانسان يمكنه أن يتناول الطعام فيها بثمن بخس ولكنه اذا طلب شيأ من المشروب وجب عليه دفع الثمن مقدما للخادم لكى يستحضره له من الخارج (وكذلك الحال فى بعض الفنادق وفى كثير من المطاعم) لان هذه الاماكن ليس لها رخصة فى بيع المشروبات ثم ان القهوة عبارة عن قاعة ضيقة تنقسم الى طوالات من الخشب منفصلة عن بعضها تمام الانفصال ومثبتة فى الحائط والارض مثل تقسيم عربات الدرجة الثانية فى السكة الحديدية فيأكل الانسان فيها وهو بمعزل عن جاره وفيها تجددوا اما القهوة والشاى والشكولاته والكاكاو والبيض والجبن

أماكن الاجتماع العمومية

أما القهاوى الكبيرة التى من جهة المدينة (الستى) فهى أشبه ببورص تجتمع فيها التجار والنواخذة (مجهز والسفن Armateurs) وأصحاب الضمان من الحريق والغرق وسائر الطوارق والعوارض والسماسرة وأمثالهم فيتعاقدون فيها ويتبايعون

وفيها بعض محلات يسمونها دواوين السجاير تشبه القهاوى التى فى أوروبا ويكون بعضها عبارة عن قاعة كبيرة فيها تحف وثريات وألواح فيها صور ورسوم وعند الدخول يدفع الانسان

شلنا واحدا (٥ صاغ) و يكون له حق فى تجارة افرنكية وفنجان قهوة وقراءة أهم الجرائد المطبوعة فى انكلتره وفى أوروبا وقد أنشأ بعض الفرنساويين والطليانيين قهاوى على الطراز الاوروباوى (المتعارف فى مصر) ولكن هذين الصنفين من الاماكن العمومية لايجوز لهما بل ولايمكنهما وضع الموائد والكراسى على برازيق(١) الطريق

ومتى سار الانسان على برازيق الطريق رأى فيما بين الحوانيت كثيرا من مخازن الدخان فانها فى لوندرة فوق العدد والاحصاء

الحمامات

وقد رأيت كثيرا من الحمامات فيها الماء الملح الاجاج أو العذب الفرات باردا أو مسخنا على درجات مختلفة وفيها حمامات على الطرز التركى المتعارف فى مصر وقد صار للانكليز الآن بها ولع وغرام وان لم يكن القائمون بالخدمة فيها على شئ من مهارة أهل

(١) البرزيق يقابل كلمة التروتوار الفرنساوية (Trottoir) الشائعة الآن راجع شرح القاموس ولسان العرب فى ترجمة ب رزق تجدان معناه "القسم من الطريق العام المخصص على جانبيه للسائرين على الاقدام" وأما كلمة افريز التى استعملت تحاشيا من كلمة تروتوار (أوتلتوار بحسب نطق العوام) فهى فى غير موضعها لانها فارسية معربة ومعناها فى كتب اللغة "الجزء البارز من أطراف أعالى البناء" فيقابلها لفظ كرنيش المعرب عن الفرنساوية ومنها قول لفرنساويين (frise) بمعناه

بلادنا وفى بعض الحمامات لاتزيد الاجرة عن ١٢ مليما ومع ذلك فان الشركات القائمة بادارتها تربح ارباحا وافرة

التياترات والملاهى

وفيها تياترات كثيرة وأشهرها ثلاثة وثلاثون وفيها عدد عظيم من الملاهى وقهاوى الغناء والموسيقى وأماكن عرض الصور والبهلوان وغير ذلك مما يكون فيه تشخيص الروايات أيضا

جرائدها ودياناتها

وفيها وحدها أكثر من ٤٠٠ جريدة منها ٥٠ للديانة على سائر مذاهبها فان الشيع الدينية فى بلاد انكلترة كثيرة متنوعة جدا وهم يحترمون كل الاديان وكافة الاعتقادات حتى انه يصح أن يقال ان كل انكليزى يعبد الله بحسب هواه وقد بلغ عدد الديانات والمذاهب فى بلادهم أكثر من ١٨٣ وكل واحدة من هذه الشيع تدعى بالطبع أنها هى التى فازت باكتشاف الحقيقة وهى تتناظر مثل مناظرة الشركات التجارية ومع ذلك ففى كل يوم تظهر شيعة جديدة وأبغض المذاهب الى هذه الامة هو المذهب الكاثوليكى الرسولى الرومانى ويكرهون البابا كراهة التحريم وهذا التعصب المطلق بجانب ذلك التساهل المطلق هو من باب التناقض المطلق

الكويكرز

وافكارهم واعتقاداتهم وآراؤهم ومقالاتهم فى غاية الغرابة ولايسمح لى المقام الآن ببيان شئ منها ومع ذلك أقول ان منهم طائفة تسمى الكويكرز (Quakers) لايركعون الا للعلى

المتعالى ولا يرفعون قبعتهم لاحـدما (كما هى عادة الافرنج)
ويخاطبون الناس قاطبة بالكاف أى لايعظمون المفرد باستعمال
الجمع كما هو المألوف فى أروبا فـلا يقولون حضرتكم أو أنـتم
أو ما أشـبه ذلك بل قلت لك انك فعلت كيت وكيت ... الخ
وهذا النوع من التعبير يسمى عند العرب (المخاطبة بالكاف) وعند
الفرنساويين (Tutoyer) ولا يحلفون أبدا حتى أمام المحاكم
ويمتنعون من الدخول فى سلك العسكرية لانهم يعتبرون الحرب
محرمة وجناية حتى ان جون بُرَيْط السياسى الانكليزى المشهور
استعفى من وزارة غلادستون فى سنة ١٨٨٢ بسبب الحرب التى
وقعت بين انكلتره وأهل الثورة العرابية فى مصر ولهم غير ذلك
من الاطوار والاخلاق

(تبويد الانكليز) وأما جيش السـلام فلا أتكلم عليـه الآن وانما أقول ان
جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندرة بقصد تبويد الانكليز (اذا
صح التعبير أى جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذه Boudha)
وبلغنى ان لهم هيكلا تقام فيه شعائرهم الدينية فى خط ويت شابل
(White Chapel) المعمور بالوف من الخـلائق وعلمت أن
أعمـالهم سائرة فى طريق التقـدم وأن بعضا من رجال البوليس
الانكليزيين قد دخلوا فى زمرتهم

استراحة يوم الاحد في انكلترة

وبمناسبة الديانة والكلام عليها أقول الآن ان أمة الانكليز انفردت عن سائر سكان الارض بمراعاة الراحة المطلقة في يوم الاحد فهو عندهم يوم مقدس تنقطع فيه الاعمال مرة واحدة ويستعدون لذلك من ابتداء عصر السبت فترى الخلائق تتناقص والازدحام يقل شيأ فشيأ والمخازن تغلق والنواقيس تدق ومتى جن الليل عادت الحركة الى منتهاها ورجع الاضطراب الى اقصاه لكن في الاسواق فقط اذ يتوجه القوم اليها من كل صوب لاخذ المؤنة والذخيرة اللازمة لذلك اليوم الذي يقف فيه دولاب الاعمال وينقطع الاخذ والعطاء والبيع والشراء حتى فيما يتعلق بالقوت اللازم لحياة النفوس ومتى أصبح الصباح رأيت المدينة قفرا بلقعا ليس فيها سوى القليل من رجال الشرطة وبعض نفر منثور في شوارعها وأما المخازن والابواب والشبابيك وديار التحف والآثار والتياترات فكلها مغلقة والعربات بجميع أنواعها يقل وجودها بالكلية وأما القهاوي واللوكاندات فتفتح في مواقيت الفراغ من الصلاة فقط أي من الساعة الاولى الى الساعة الثالثة بعد الظهر ومن الساعة السادسة بعده الى ماقبل نصف الليل بساعة ولكن الاغرب من ذلك كله أن البوستة مع أهميتها تتعطل حركتها فلا تباشر أي عمل ما ولا توزع الخطابات الواردة اليها

ولا ترسل المكاتيب الصادرة الى الخارج ومثلها التلغراف فان أسلاكه تستريح أيضا فى هذا اليوم يوم الراحة العامة إلا فى بعض المحاط الكبيرة جدا وكذلك الكمرك فانه يحجز البضائع وأمتعة المسافرين الذين يقدمون الى هذه البلاد فى هذا اليوم المشؤم فانه حقيقة يوم الحسرة على الغريب يضطره للاعتكاف فى منزله وتضييع يوم من حياته بلا ثمرة ولا عمل والقضبان الحديدية لابد أيضا من استراحتها فلا تمشى القطارات عليها أثناء القداس وفى غير هذا الوقت تقل حركتها الى الربع أو أقل وترى فى جداول مواقيت السفر خانة عمومية لايام الاسبوع وخانة خصوصية للقطارات القليلة جدا التى تقوم فى يوم الاحد وتلك المحاط التى كانت بالامس عامرة آهلة بالخلائق تصبح وهى ساكنة مطمئنة ويكون منظرها مع عظمتها واتساعها مشوبا بشئ من الايحاش يجعلها أشبه بقبر هائل وخلاصة القول أن المدينة كلها ينقطع منها الحس وتبارحها الحياة فكأنها سراج قد خبأ نوره فجأة ولا يتصور المرء أنه مازال فى تلك المدينة المتماوجة بهذه المخلوقات بل يخطر على باله أنه دخل بلدا جاءها النذير بقرب جيش هاجم عليها فولى أهلها الادبار وتركوا الديار وما فى الديار ملتجئين الى الخلوات والقفار وأبقوا بعضا من الرجال يراقب حركات العدو ويعلمهم باعماله حتى اذا أقبل المساء

ابتدأت الحياة تدب فى هذه الآلة العظيمة المعروفة بلوندرة فنرى بعض الناس يبتدؤن فى الجولان ومتى قابل الواحد منهم صاحبه (من الرجال أو النساء) سأله هل كنت فى الكنيسة فيجيبه بالايجاب أو يعتذر بعذر قوى مقبول ولاجل ذلك ينبغى للغريب أن يغتنم فرصة الاحد فى التوجه الى الكنيسة فى الصباح ثم يخرج الى أرباض البلد لاستنشاق الهواء الصحيح فانه يكون محتاجا اليه لقلته فى لوندرة بسبب الدخان ولكنى أشير عليه بأن يرجع فى عصر النهار ويطوف بعض الشوارع ويمر ببعض الحدائق مثل هايدپارك وغيره

الخطباء فى هايدپارك وغيره

فانه يرى فيها كثيرا من الخطباء وأغلبهم من الشغالة واقفين يخطبون فى أى موضوع يدور فى أدمغتهم مثل الفوضى والاشتراكية والديانة بسائر أجزائها عندهم وترى الرجل منهم يخطب وحواليه جماهير تتمكأ كأ عليه تكأكأهم على ذى جنة وهو لا يقول لهم افرنقعوا بل كلما زاد عددهم رفع عقيرته مشيرا الى اليمين والى الشمال مكثرا من القيل والقال والاغرب من ذلك ان بعضهم يقف يتكلم بصوت مرتفع ويشير بيديه مع انه وحده وليس حوله من يستمع له ولكنه يوالى الكلام كأنه محاط بالاقوام ويستمر بالايماء الى من يفرض وجودهم ذات اليمين وذات الشمال ومنهم من يجىء فى ركب جليل بالموسيقى والاغانى والاناشيد وغير ذلك من

المقدمات التى تصطاد العامة وتجذبهم الى حضور مقالته ومنهم من يطوفون فى الشوارع بالالحان والانغام والرايات والاعلام وقد رأيت فى بعض الجرائد ذكر حادثة من أغرب ما رواه الراوون فى هذا الموضوع قد حصلت بلوندرة فى رأس عيد السنة وكنت وقتئذ بلشبونة عاصمة البرتقال ولا أرى بأسا من ايرادها فى هذا المقام لتمام المناسبة

ان واعظا من أشهر وعاظ الانكليز وأبلغ خطبائهم اعلن أنه عازم أن يعظ البطال الذين لا عمل لهم فى كنيسة مار بولس الكبرى بلندن فتقاطر الفقراء الذين ليس لهم عمل يعيشون به الى الكنيسة ووقف رجال البوليس صفوفا خوفا من ان يأتوا أمرا مخلا بالنظام ولكنهم دخلوا الكنيسة أفواجا على غاية من الهدو والانتظام وجلسوا فى أماكنهم على الترتيب وعلامات الاحترام والوقار بادية على وجه كل منهم مع انه كان بينهم الفوضويون والاشتراكيون والمحركون على تكدير صفاء الراحة ثم أفاض الواعظ فى كلام أثار به اعماق النفوس وحرك العواطف وأقنع العقول فاستمال اليه معظم الحضور من الذين كان يظن انهم جاؤا مستهزئين فخرجوا مصلين مستغفرين ولكن قوما كانوا يعارضون الواعظ من حين الى حين تارة بعدم استحسان أقواله وطورا بكلام الهزل كأنهم فى اجتماع عقدوه فى

حديقة من الحدائق العومية وجعل المتطرفون من الفوضويين والاشتراكيين بينهم يوزعون رسائلهم الثوروية على الحاضرين ليقرؤها ولما انتهى الواعظ خرج موكبهم متجمهرا وسار زعماؤهم بالرايات الحمر امامهم وهم ينشدون النشيد الفرنسوى المعروف بالمرسيلياز

وبالاختصار ان كل واحد منهم تزين له نفسه الكلام يقف فى أىّ مكان ثم يتكلم بما يريد ويجتمع الناس حوله أولا يجتمعون ويكون رجال الشرطة بجانبهم غير مبالين بتجمعهم مهما كانت أقوال الخطيب موجهة ضد الدولة أو بالحث على احراق دور الاغنياء وسلب المخازن الكبيرة وماأشبه ذلك فان حرية المقال فى هذه البلاد وصلت الى ماهو فوق منتهاها

التناقض بانكلترة

وفى يوم الاحد يكثر السكر والسرقة أيضا لان الانكليز لايعرفون الوسط فان بلادهم بلاد التناقض جمعت الاطراف فاما التناهى فى الغنى واما التناهى فى الفقر واما التناهى فى الفضيلة والعفاف واما التناهى فى الرذيلة والفجور واما التناهى فى العمل واما التناهى فى الكسل الى غير ذلك من الاطراف حتى ان المدينة اما أن تكون غاصة بالجماهير أوتكون خلوا من العالم بالمرة (فى يوم الاحد) وهكذا

واكثرة اللصوص وتفننهم فيها ينبغى بل يجب على الانسان أن لايكلم أحدا لايعرفه وأن يجتنب كل من يعرض عليه خدمته وارشاداته أو يبادره بالكلام واذا احتاج لاى أمر من الامور فلا يسأل الارجال البوليس فانهم يبادرون بالاجابة بحذق وفطانة أو يدخل فى بعض المخازن و يستعلم فيها عما يريد وقد اعتاد الانكليز أنفسهم على ذلك فاذا اتفق لك من سوء الحظ أنك كلمت واحدا منهم فان كان من أصحاب الادب وأهل المجاملة أجابك بنعم أو لا من غير زيادة وكثيرا مايعرض عن الاجابة و يلازم الصمت ويستمر فى طريقه من غير أن يلتفت اليك بالمرة وان كان شرسا أعطاك درسا أوقلع لك ضرسا

لاتكلم من لاتعرفه بلوندرة

هذا وأينما سار الانسان فى شوارع لوندرة رأى حوانيت عليها صناديق للبوستة وفى كل صندوق فتحتان كبيرتان احداهما لوضع المراسلات الخاصة بالمدينة نفسها والثانية للمراسلات التى برسم أقاليم انكلترة والبلاد الاجنبية وفى بعض الشوارع المتباعدة عن هذه الحوانيت ترى على برازيق الطريق اسطوانات كثيرة من الحديد الملون بالبوية الحمراء معدة لوضع المراسلات فيها حتى لايلتزم الانسان بالتوجه الى المكتب القريب منه وثمن تذكرة

عموميات على البريد

لبوستة للمملكة البريطانية نصف بنس (أى ٢ مليم) وللخارج بنس واحد (أربعة مليم) وعدد مرات التوزيع فى آلستى اثنتا عشرة مرة فى كل يوم واحدى عشرة فى المواضع التى حول دار البوستة المركزية على مسافة ثلاثة أميال ويبتدئ التوزيع من الساعة ٧ ونصف افرنكى صباحا وفى بعض الجهات يكون ارسال المكاتبات بالتلغراف فى قناة يفرغون منها الهواء وعلامة ساعى البوستة أن يدق على الباب دقتين عنيفتين وفيما عدا الجهات المحيطة بدار البوستة يكون التوزيع ست مرات فى اليوم الواحد ويجوز إرجاع طوابع البوستة الى مكاتبها فتخصم من قيمتها ٢ ونصف فى المائة فى نظير العمولة والاصدار واعلم أنه يوجد بهذه المدينة شوارع كثيرة لها اسم واحد وقد يبلغ عددها عن كل اسم واحد ١٠ أو ١٥ فلاجل منع الاختلاط الذى يتأتى حصوله بهذا السبب قسمت ادارة البوستة المدينة الى ثمانية أقسام باعتبار الجهات الاربع الاصلية والجهات الاربع الفرعية ووضعت حرفا أو حرفين (ج ش أى جنوب شرقى مثلا) للتمييز بينها بالسهولة حتى لا يحصل عائق أو غلط فى التوزيع ولذلك ينبغى لكل من يراسل أحدا من أهل لوندرة أن يضع هذه الحروف الصغيرة بعد ذكر اسم الشارع والمدينة لسهولة التسليم وعدم التعطيل

عموميات على التلغراف

أما التلغراف فكان قبل سنة ١٨٧١ لثلاثين شركة ثم أخذته الحكومة وجعلته تابعا لمصلحة البوستة ومع أن أقل أجرة لارسال أى تلغراف من لوندرة واليها هى أعلى مما فى بلادنا لانها هنا ست بنسات (أى خمسة قروش من العملة الدارجة) وهى فى بلادنا قرشان فقط بالعملة الصاغ ولكن القوم يستخدمونه بكثرة لا يتصورها العقل لانهم يفضلون خسارة القليل من المال واكتساب الوقت الثمين ومع ذلك فاعمال البوستة أيضا مازالت رائجة واذا دفع الانسان أجرة رد التلغراف وفات الوقت المقرر للاجابة أمكنه استرجاع مادفعه لهذا الغرض فى ظرف ثلاثة أيام من تاريخ الارسال ويجوز إرسال الرسالة البرقية الى جملة أشخاص مقيمين فى مقاطعة واحدة بشرط أن يدفع المرسل ٨ مليمات على كل نسخة غير النسخة الاصلية ويجوز أيضا إرسالها الى أشخاص مقيمين فى جهات مختلفة بعد دفع نصف الاجرة العادية على كل نسخة خلاف النسخة الاصلية وهذه التسهيلات المفيدة للمصلحة وللجمهور غير موجودة فى بلادنا

عموميات على التلفون

وبمناسبة التلغراف أذكر أنه يوجد بين باريز ولوندره سلك تلفونى وأجرة التكلم فيه لاى فرد من أفراد الناس مدة ثلاث

دقائق ٨ شلنات (٤٠ قرشا صاغا) أما التلفون الخاص بلوندره وحدها فهو فى يد جملة شركات

المدارس

ولا يسعنى الا أن أؤجل الكلام على التعليم والمستشفيات وأكتفى بأن أقول ان المدارس فى هذه البلاد تعتنى عناية عظيمة بتربية الجسد والعقل لان العقل السليم لا يكون الا فى الجسد السليم (Mens sana in corpore sano) ومن جملة المدارس التى زرتها مدرسة ايزلوورث المعروفة باسم (نيو برو رودكوللج) فرأيت النظام فيها بالغا حده وناظرها المستر بارنت (Barnett) على غاية الظرف واللطف وحسن المعاملة ودماثة الاخلاق وعلمت منه وتحققت بنفسى أن تلامذتنا المصريين فيها بلغوا من التقدم والنجاح درجة يغبطون عليها وأنا متأكد من الآن أنهم سيخدمون الوطن خدمة جليلة عند رجوعهم اليه بما اكتسبوه من المعارف والآداب ويسرنى بل يجب على أن أورد أسماءهم فى هذا المقام وهم حضرات الافندية أحمد براده ومحمود يوسف ومحمود قاسم

وقد أصدرت نظارة المعارف العمومية أمرها الى وطنينا المجتهد الفاضل حسن افندى توفيق الذى كان فى برلين بالتوجه الى لوندره لتعلم اللغة الانكليزية وغيرها بهذه المدرسة ورأيته

وعلمت منه بكل ارتياح وانشراح أنه ألف كتابا فى التاريخ العام وأنه بعد أن يتمه قريبا يشرع فى تدوين ماستفاده من أنواع العرفان ووقف عليه من شتات الفوائد التى تنفع أبناء بلاده ولعمر الحق ان هذه النتائج مما يسر مصر وكل محب لها ولاهلها وأقول مثل ذلك أيضا عن حضرات الافندية التلامذة على عمر وأحمد فهمى ومحمود اسمعيل الموجودين بمدرسة هومرتن فانى توسمت فيهم النجابة والنطانة وتفرست أنهم عند عودتهم الى وطنهم بعد زمن قريب سيبرهنون على أنهم لم يضيعوا أوقاتهم سدى بل اكتسبوا من العلوم مايجعلهم هم واخوانهم ان شاء الله وساعدتهم العناية فى مقدمة العاملين على اتحاف أبناء بلادهم بما يفيدهم فى ميدان العرفان (وان غدا الناظره قريب)

وسأشرح لك الكلام فى الرحلة على التعليم وطرقه وقرب الوصول الى ثمراته فى بلاد الانكليز وعلى مدرسة اكسفورد الجامعة بنوع خصوصى لانى زرتها بالتفصيل وأكتفى الآن بايراد بعض المرتبات التى للاساتذة لتعلم أن مرتبات أمثالهم فى بلادنا أقل مما يكتسبه الواحد منهم فى يوم أو بعض يوم مثال ذلك أن المدرسة الجامعة فى اسكتلندة تدفع لمدرس الكيمياء ٨٠

ألف فرنك فى السنة أى ثلاثة آلاف ومائتى جنيه أى مائتين وستة وستين جنيها وثلثى جنيه فى الشهر الواحد ولمدرس التشريح ٧٥٠٠٠ فرنك ولمدرس الطب ٦٥٠٠٠ فرنك ولكل من مدرس التاريخ الطبيعى والباتولوجيا ٢٠٠٠٠ فرنك ومدرس النباتات مرتبه السنوى ٥٥٠٠٠ فرنك ويوجد فى المدرسة الجامعة بمدينة جلاسكو مدرس للتشريح ومرتبه ٥٥٠٠٠ فرنك فى السنة وأما المدرسة الجامعة باكسفورد ففيها ٤٦٤ مدرسا مجموع مرتبهم السنوى أربعة ملايين من الفرنكات أى متوسط الواحد منهم ٩٥٠٠ فرنك وفى المدرسة الجامعة بكمبريدج ٤٨٣ استاذا ومجموع مرتبهم السنوى ٣٫٣٠٠٫٠٠٠ فرنك وفى دبلين عاصمة ارلندة مدرسة اسمها الترينتى (أى التثليث) وفيها ٥٩ مدرسا مرتبهم ٨٠٠٫٠٠ فرنك فى السنة فهكذا تكون العناية بالتعليم والقائمين به

الاعلانات وهولها

ومن الامور التى تدهش القادم الى لوندرة كثرة الاعلانات التى يراها على جدران المحطة وكل مكان فيها حتى لايمكنه مطلقا معرفة اسم المحطة وتمييزه عن الاعلانات ثم متى سار فى الشوارع رآها كلها اعلانات واذا ركب فى عربات الاومنيبوس أو غيرها رآها كلها اعلانات من الداخل والخارج والاسفل والاعلى ولقد كان صدرى

يضيق من رؤيته اوهي كأنها تتهددني بوجوب قراءتها والعمل بما تشير اليه والاستحصال على ماتدل عليه فكنت اذا قلبت طرفي يمنة أو يسرة أورفعته الى أعلى أوخفضته الى أسفل أوحولته الى الخلف أو رجعت به الى الامام رأيت الاعلان واقفا لي بالمرصاد فاذا أغمضت الطرف لاستريح منه قليلا ثم انتبهت فلا مناص لى من رؤيته على الدوام وفى كل مكان مختلف الصور والاشكال والرسوم والالوان فاذا أخذت تذكرة للسكة الحديدية أولعربات الاومنيبوس أوغير ذلك رأيت الاعلان مقتفيا أثري وأثر كل من كان فى أى مكان وأى زمان فاذا اشتريت كتابا أو جريدة أو تعريفة أو خريطة أو ماأشبه ذلك رأيت الاعلان هو هوعلى الدوام يضطرني لقراءته بالرغم عني قبل أى موضوع يهمني فاذا مشيت على برازيق الطريق رأيت الاعلان يتماطر على من حيث أدرى ولا أدرى فاحتار فى كيفية التخلص منه فاذا جن الظلام رأيت الاعلان مكتوبا بالانوار على صفحات الزجاج أو بواسطة القنوات الخاصة بنور الاستصباح وقد يكون فى ظلمات الانفاق والسراديب مرقوما باحرف فسفورية متألقة

وقد جرت عادة الجرائد أنها تخصص صفحاتها الاولى للفصول المهمة والمواضيع ذات الفائدة العامة ولكن الامر هنا بالعكس

لان الانجليز يعتبرون الاعلان من أهم الاشياء فترى بجرائدهم
كلها على اختلاف مواضيعها وتنوع مشاربها مشحونة بالاعلان
خصوصا الصفحات الاولى والصفحات الاخيرة حتى ان الانسان
يحتار قبل أن ينظر الى مواضع الاخبار والفصول السياسية اذلابد
من المرور على الاعلان مثال ذلك جريدة التيمس المعروفة بمملكة
الجرائد تحتوى على ١٦ صحيفة منها نحو احدى عشر صحيفة
مخصصة للاعلان وقس عليها سائر رعاياها وقد علمت ورأيت
أن بعض البيوت التجارية يتكبد النفقات الطائلة والمصاريف
الهائلة لنشر الاعلان على صحائف حديدية فى جميع المحطات ثم
لاتكتفى بذلك فتضع صحائف أخرى فى عربات السكة الحديدية
(خصوصا التى تحت الارض) ثم لاتكتفى بذلك فتنشره فى عربات
الاومنيبوس والتراموای فى كافة أرجائها ثم لاتكتفى بذلك فتنشره
فى جميع الجرائد ثم لاتكتفى بذلك فتنشره على غطاء جميع الكتب
التى تظهر حديثا وفى الصفحات الاولى والاخيرة منها ثم لاتكتفى
بذلك فتعلقه فى جميع أنحاء المدينة ثم لاتكتفى بذلك فتستخدم
رجالا تلبسهم بشكل مخصوص وتضع أطواقا من الحديد على
خواصرهم وأكتافهم لتعليق الاعلان فيمشى الرجل منهم (ويسمونه
سندويش Sandwich وهى كلمة انجليزية يراد بها شريحة دقيقة

مقدودة من اللحم الضانى أو البقرى أوالعجالى أو الخنزيرى أومن الجبيارى توضع مدهونة بالزبد بين شقتين رقيقتين من الخبز وفى التسمية الاصطلاحية اشارة لطيفة الى كون الرجل محشورا بين الاعلان أو كون الاعلان محشوًا به) وامامه وخلفه وفوق رأسه ألواح من خشب مكتوب عليها الاعلان ثم لاتكتفى بذلك فتطبع أوراقا صغيرة تضعها فى يد السندويش فيفرقها على المارة فهذا العمل هو الحصار بعينه وكل واحد من أصحاب الاعلان يجتهد فى التفنن فى اعلانه حتى يجعله يضطر الانظار للالتفات اليه لما فيه من الرسوم والحروف والالوان وغير ذلك مما يضيق الصدر ويقضى على الانسان بأن يحسد العميان

العميان فى لوندرة

وهنا تذكرت العميان فقد سبق لى القول بأن المقعدين استغنوا عن خدمتهم وقلت لابد لى أن أجد طائفة العميان قد وجدت هى أيضا طريقة تكفيها الحاجة الى أنظار المقعدين ولا أريد أن أتكلم على التكايا المخصصة لهم بواسطة الحكومات أوأهل البر والاحسان فانها ليست من تفننهم وقد كنت أعرف أنهم اتخذوا الكلاب للاسترشاد بها والسير خلفها ولكنى قرأت فى بعض الجرائد أثناء مرورى على باريس أن أحد العميان جلس على بزوق الطريق ووضع بجانبه لوحة مكتوبا عليها هذه العبارة

(القوا نظرة وصلديا الى الذى لايمكنه أن يردهما اليكم) فكيف لايحن قلب الانسان وتدفعه عوامل الشفقة الى امداد صاحب ذالك الفكر الحسن ولما جئت لوندرة رأيت العميان قد تفننوا فى الاختصار لان الوقت عند الانكليز من ذهب فترى الرجل واقفا حيث تمر الالوف المؤلفة فى كل لحظة وعلى صدره صندوق صغير فيه فوهة ومكتوب عليها (Blind بْلَيِنْدْ أى أعمى) ليس الاثمان بعضهم أراح نفسه من الوقوف أيضا فوضع صندوقا بجانب شبالك التذاكر فى المحطات حتى ان المسافر بعد أن يأخذ الباقى له يضع بنسا أو بنسين أو مايتيسر بكل سهولة من غير أن يتكلف وضع يده فى جيبه واخراج الدراهم منه فان ذلك يضيع منه الزمان ويمنعه عن الاحسان . وأتذكر أنى أول مرة رأيت الرجل واقفا على قنطرة لوندرة ومعه هذا الصندوق لم أفهم الكلمة التى عليه فوقفت أنظر هذا الامر ولما سألت من معى وعرفت سر المسئلة فرحت كثيرا اذ تمكنت بذلك من الايفاء بوعدى فى رسالة فلورانسه

عواطف وطنية

ولكنى مالبثت ان تكدرت لانى سمعت بعض المارين بجانبى يقولون عنى إنى أمين باشا (رجل خط الاستواء وهو الدكتور رشنتيزر الالمانى) فقد ثارت فىّ العواطف الوطنية والاحساسات القومية لانى لاأرضى أن أشبه برجل مثل هذا الذى خان حكومتى

وبلادى وباع أوأعطى أملاكها فى خط الاستواء لدولته الاصلية أولغيرها بعد أن رقته حكومتنا السنية الى مراتب العز والشرف وسهلت له سبيل الثروة واليسار وحسن السمعة والاشتهار ثم تكلفت النفقات الطائلة (وهى فى احتياج اليها) لامداده وانجاده وانقاذه فقابل ذلك المعروف وكل هذه المواساة بالنكران وفعل مافعل قاتله الله (وقد فعل)

وبالاسف انى بعد ذلك سمعت اناسا آخرين يقولون هذا القول عنى حينما يرون احمرار وجهى واحمرار طربوشى

وداع وسياحة بانفراد

ولقد تجولت فى بعض مدائن الانكليز وسأتكلم عليها بالاختصار فى الرسالة الآتية وأتركها للتطويل الى الرحلة ثم رجعت الى هذه المدينة وكانت مدة مقامى فيها أولا وثانيا ثلاثة وثلاثين يوما ولم أشرع فى السياحة الابعد أن ودعت صديقى الفاضل عثمان بك غالب وكأنى ودعت معه نفسى أوأودعته روحى لشدة الالم الذى حصل لى من فراقه ولكونى بقيت بعده وحيدا (وما أردت أن أستعين بالتلامذة المصريين حتى لاأشغلهم عن الدرس والتحصيل وحتى أتعود على السياحة بمفردى)

اخلاق الانكليز

فمن أخلاق الانكليز التى وقفت عليها فى سياحتى فى بعض مدائنهم المشهورة أن الجراءة والاقدام فيهم أكثر منهما فى أية أمة

أخرى فهـم يقتحمون كل الاخطار التى تخطر على البال وهـم مخلوقون للسياحة والتجوال ومتى خرج الواحـد منهم من وطنه قاصدا أىّ جهة وقابلته الصعوبة والمشقات والاهوال والاخطار فلا يزيده ذلك إلا ثباتا واقداما وعنادا لانه رسم خط سيره ولايمكنه أن يعدله أو يرجع عنه واذا كتب فى دفتر سياحته أنه فى يوم كذا وساعة كذا يكون فى المحـل الفـلانى فاذا لم تصادفـه منيتـه فى الطريق فلاشك أنه يكون فيه فى الوقت المعين

واذا سافر لاقصى أقاصى الارض فعل من غير ضجة ولارجة ولاحيرة وذلك عنـده أسهل من السفر الى القبة والمطرية لاهـل القاهرة والى الرمل لاهل الاسكندرية وانما هنالك سؤال وحيـد لايمكن أن ينساه وهذا هو (هل أرجع من طريق الصين أو طريق أمريكا)

ع الانكليز لرياضات

ولابد لكل انكليزى من أبناء البيوتات الكبيرة أن يكون عارفا بقيادة المراكب والخيل والعربات و يتعود من نعومة أظفاره على الرياضات الجسـدية فلا يعبأ بالمشى مسـافـة مائة ميـل أو بالتقذيف فى الزورق من لوندرة الى اكسفورد (٦٩ ميلا) وكثير منهم يذهبون من لوندرة الى ايدمبورج عاصمة اسكتلنده سعيا على الاقدام والمسافة (٤٠٤ أميال) ومنهم من سار على أقدامه ٤٠٠

مرحلة في بلاد السويد وهم يستمرون على المشي بهذه الكيفية حتى يصبحوا طاعنين في السن وترى الشيوخ الهرمين يمشون في الارياف كل يوم خمسة أوستة كيلو مترات ولا يمتنعون عن ذلك الا اذا أصابهم مرض لابد أن تعقبه الوفاة ومعلوم أن غلادستون مازال الى الآن يقطع الاحطاب بنفسه حتى لقد اتفق له في الشهر الماضي (أغسطس) أن بقرة نطحته وكادت تبقره بينما كان مواظبا على عادته في الغابة

وفيهم كثير من الشيوخ يغتسلون بالماء البارد صباحا ومساء صيفا وشتاء ولا يتناولون فطورهم الا بعد مشي ثلاثة أو أربعة أميال

ويوجد باكسفورد أستاذ جرت عادته أن يمضي المسامحة السنوية مع زوجته في قارب يقوم هو فيه بالتقذيف وهي بامساك الدفة (١) ويستمر على ذلك شهرا أو شهرين في كل سنة ومتى

---

(١) الدفة لفظة مولدة وتسمى في العربية « السُّكّان » قال في تاج العروس والسكان كرمان .... ذنب السفينة عربي صحيح وقال أبو عبيد هي الخيزرانة والكوثل (مؤخر السفينة أو سكانها) وقال الازهري ماتسكن به السفينة وتمنع به من الحركة والاضطراب وقال الليث مابه تعدل وأنشد لطَرَفة * كسكان بُوصِيٍّ بدجلة مصعد * (والبوصيّ ضرب من السفن وهو الزورق معرب بوزى)

اقبل المساء نزل بأحد الخانات التى على ساحل النهر وعند الصباح يأخذ منه المؤنة ثم يستمر فى تجواله وقد ساح بهذه الكيفية على أغلب أنهار أوروبا

وكثير منهم يذهبون على عجلة الاسلاك (السيكل Cycle) من احدى عواصم أوروبا الى الاخرى وقد جرت عادة أغلب المتزوجين حديثا بقضاء الشهر الاول المعروف عند الافرنج بهلال العسل على ظهر هذه العجلة فى الوديان والغابات والبرارى والخلوات متنقلين من قرية الى أخرى بدون أن يكون مع الزوجين شخص ثالث يضايقهما

حرصهم الكلى على الوقت

وإذا سألت الواحد من هؤلاء الاقوام عن سؤال أجابك لحرصه على الوقت بنعم أولا فقط وفى النادر يجيبك بكلام قليل جدا بحيث انه لايتخلى عن عمله الذى فى يديه أو قراءة جريدته وكذلك السائل يطرح السؤال ثم يوالى عمله وفى المكاتب الخاصة بالادارات العمومية أو بالشركات ترى هذا الاعلام (الرجا منك أن لاتتكلم الا فيما يختص بالاشغال) وفى الكتبخانات والمحلات العمومية ترى كلمة (صه) أو (الكلام ممنوع) مطبوعة فى كل جهة وترى طريق الدخول وطريق الخروج واضحا فى كل المحطات وما أشبهها من المحال العمومية وبجانبه اصبع يشير الى الطريق

تحشمهم في بعض عبارات

وما أصدق الذى قال ان الانكليز لايشبهون أية أمة أخرى ولكنهم كلهم متشابهون متجانسون على منوال واحد وطرز واحد وهم يتحاشون القول الهراء بكل ما في وسعهم فيعبرون عن الزنا بقولهم (مسامرة جنائية) ويستبدلون هذه الجملة (ممنوع إلقاء القاذورات وممنوع التبول الخ) بهذه (لاترتكب أى اتلاف) ويسمون المبولة والمرتفق (مغسلا) ولاجل تأييد هذه التسمية يضعون طستا لغسيل الوجه وفرشا لتنظيف الشعر والملابس ولذلك يقول الرجل منهم (انى أريد أن أغسل يدى) بدلا من قولنا (أنا رايح زى الناس أو رايح أزيل ضرورة أو أنقض أو أفك وضوئى) ولا يقولون عن المرأة انها حبلى بل انها (في طريق العائلة) أو (في حالة تستدعى الاهتمام) وهم يتحاشون المزاح بالمرة أمام النساء وفي بعض المباول العمومية يكتبون هذا الاعلام (أصلح ملابسك و بنطلونك قبل الخروج) وهكذا

الثقة والصدق

وفيهم ثقة تامة يعجب بها الغريب حتى في الاعمال والتجارة والصدق فيهم منتشر جدا فيكتفي الرجل منهم عند الزواج بأن يعلن عن سنه وانه عزب أولم يتزوج ولا يبرز أوراقا لتأييد أقواله واذا كذب الواحد منهم مرة في الامور القضائية حوكم كمن يحنث في يمينه أو يخون عهده واذا كذب عند أحد الافراد طرد

فى الحال ومن ثمتهم ان عمال الكمرك يسألون القادم عما معه من الاشياء الخاضعة للرسوم ويعتمدون قوله فاذا ظهر كذبه صودرت الاشياء المضروبة عليها الرسوم الكمركية لجانب الحكومة وألزم الكذاب بدفع قيمة الرسوم ثلاثة أضعاف

مبادئ الزواج

ومتى اصطحب شاب بفتاة كان له أن يعرفها بأصحابه وينفرد بها فى الفسحة والنزهة والمراقص والتياترات والخلوات وغير ذلك وقد يبقى عقد الخطبة بينهما سنين طوالا الى أن يتيسر للشاب القيام بما يلزم من المصروف ومتى حصلت المفاتحة فى الخطبة فلا يجوز لاحدهما أن يعدل عن الزواج الا برضا الآخر فلو عدل الشاب طالبته الفتاة وأهلها بالعطل والاضرار وأبرزوا فى الجلسة المخاطبات والمكاتبات التى تبادلها المحبان وتعترف الفتاة أمام المحكمة بالاقسام التى أغلظها لها بالبقاء على حبها وبغير ذلك واذا كان العدول من طرف المخطوبة لايتأخر الفتى فى اقامة القضية واكتساب مبلغ وافر من المال فى نظير العطل والاضرار ولا يُنظر الى أحدهما فى هذه الحالة بعين السخط والاستهزاء بل يرى القوم فعله أمرا طبيعيا أو حقا مكتسبا أو واجبا لابد من قضائه

شدة تمسكهم بعاداتهم

وللانكليز تمسك شديد بعاداتهم وتقاليدهم يشبه محبتهم للغتهم وتفضيلهم لها على ماعداها حتى انهم يحتقرون الغريب الذى يزورهم أو يتوجه الى التياترو أو يجلس فى الفندق على مائدة الاضياف بغير الملابس السوداء الرسمية المعتبرة عندهم فى ليالى الاحتفالات وأغلب النساء فى البيوتات الكبيرة يتكلمن بالفرنساوية جيدا ومن عاداتهم أنهن يقمن عن المائدة بعد تمام الأكل ويبقى الرجال وحدهم لشرب الدخان وغيره والمسامرة والمحادثة ثم يتقابل الكل فى قاعات الاستقبال أوغيرها وفى النساء لدى التكلم خفة فى الحركة وشمم وجراءة واقدام ولولا انى وعدت بعدم الرجوع لهذا الموضوع اشرحت الحال وأطلت المقال وحسبى أن أقول ان الذى يحكم عليهن بحسب العينات التى يراها فى مصر يعترف بأنه أخطأ وجازف متى جاء هذه البلاد ومن الغرابة أن الواحدة منهن متى كانت جميلة فليس لها مثيل على وجه الارض ومتى كانت قبيحة فلا يضارعها فى السماجة انسان وذلك لان الوسط غير موجود فى بلادهم فى كل الامور

احذر النساء

ومما ينبغى تنبيه الغريب اليه أن لا ينفرد بالجلوس مع أية امرأة كانت فى غرفة من عربات السكة الحديدية مهما ظهرت له فى مظاهر الاحتشام والوقار والنبل والكمال فلقد تجمع كثير

منهن (كما تجمع الرجال واشتركوا فى التجارة والصناعة) واتفقن
على جعل القطارات ميدانا لاعمالهن فمنهن النصابات المحتالات
النشالات الطرارات ومنهن التى تطالب بمبلغ عظيم وتهدد صاحبها
بأنه ان لم يؤد هذه الجزية عن يد وهو من الصاغرين بلغت رجال
الشرطة عنه فى المحطة التالية بانه فاتحها بما يخل بالآداب وغير
ذلك ومنهن المتدينات المترهبات اللاتى يلازمن الرجل بدعوى أنهن
يخاصمن روحه ويهدينه الى الصراط المستقيم صراط الذين اتبعوا
المذهب البروتستانتى ثم تأخذ فى ايراد الدلائل والبراهين لاقناعه
بوجوب الدخول فيه وفى هذا القدر كفاية الآن

مبانى لوندرة

واعلم ان مبانى لوندرة كلها على طرز واحد ومثال متشابه
ومنوال متجانس وكلها متسربلة بملابس الحداد كأن أهلها يرون
مثل بنى العباس ان (النور فى السواد) ويظهر للمتأمل فيها أنها
مبنية بالطوب الاحمر ولا تزيد عن الدورين الا فى النادر ولكنها
متى تعدت هذا العدد أو تجاوزت النموذج المتبع عندهم فى البناء
فيكون ذلك للطرف الآخر مرة واحدة فقد شاهدت بعض
الدور فيها ثلاث عشرة طبقة ورأيت من جمال بعض المنازل
والقصور ما جعلنى أحكم بانى فى احدى مدائن ايطاليا بعيدا عن
لوندرة بمراحل وكيلومترات ومثال ذلك كنيسة ماربولس تتراءى على

مسافة ....٢ مترمما حولها وفى كل المبانى ترى طبقة تحت الارض يستخدمونها للطبخ والغسيل والتخزين وما أشبه من اللوازم المنزلية حتى لايكون ذلك بجانب المساكن بل ان النزول الى هذه الطبقات يكون من سلم على برزوق الطريق فلا يدخل الفحام أو الجزار أو الخباز أو الخضرى أو غيرهم من المتعهدين بالتوريد فى المساكن مطلقا ودبروا النور والهواء فى تلك الطبقات الارضية بما يجعلها موافقة للصحة ورأيت فى بعضها قاعات للجلوس وغرفا للاستقبال فى غاية الزخرفة والجمال بحيث انها تروق فى عين الانسان وتستميله الى اطالة الجلوس فيها

أما المساكن فان منظرها من الخارج عادى حقير ولكنه من الداخل محفوف بالتأنق وله من التزويق رونق يأخذ بالابصار فترى فيها المفروشات الثمينة والطرف والتحف التى لاتقدر قيمتها وترى الكراسى والمقاعد مختلفة الاصناف والاشكال وترى الامتعة والمرائى فى جميع النواحى مرتبة بذوق وحذق قد تجردمنهما خارج المنزل بالمرة وهذا أيضا من باب التناقض

المطبخ الانكليزى

وأما طبخهم فعادب (تافه) وفى غاية البساطة فكأنهم لايزالون على الفطرة لان الاشكال التى يعرفونها قليلة العدد وليس لهم من تنويع أو تعديل بل ما زالوا سائرين فيها على سنة آبائهم

الاولين واكنها كلها والحق يقال صحية نظيفة وقد فاقوا الامم جميعا فى اصطناع الروزبيف فانك ترى كتلة من اللحم تزن ثلاثين أو أربعين رطلا وكلها مسوّاة بالسواء من الداخل والخارج ومن جميع الجوانب وهم لايضعون الملح فى الخبز أيضا أما الفنادق الكبيرة وأغنياء القوم فيستخدمون طباخين فرنساويين حتى انهم يضطرون (مع شدة محبتهم للغتهم) لكتابة وفهم أسماء الالوان بالفرنساوية ولقد أحسن فولتير حيث قال (ان الناس فى بلاد الانكليز يعبدون الله على خمسين نوعا ولكنهم لايهيؤن البقرى والضانى الا على نوع واحد)

تمير المساكن

أما نمر المنازل فى الشوارع والحارات فليست منتظمة كما فى مصر بطريقة الشفع والوتر بل قد ترى الجانب الايمن مبتدئا بعدد ١ ثم ٢ ف٣ وهكذا حتى اذا انتهى الشارع بعدد ما رجعوا بالعدد الذى يليه من نهاية الجانب الايسر فيكون أول الشارع فيه أول أعداد المنازل من جهة اليمين وآخرها من جهة الشمال وفى القليل منها قد اتبع القوم طريقة الترتيب الحسنى المتعارفة فى مصر وغيرها من ديار أوروبا

المرتفقات والمباول العمومية

وفى جميع المحاط والمتاحف والآثار العمومية والاسواق المهمة والميادين التى بين الشوارع ترى مرتفقات ومباول عمومية

بعضها خاص بالنساء والباقى للرجال وكلها فى غاية النظافة ونهايه
الاستعداد وتضاء بالليل بالكهربائية وفيها الماء متساقط باحكام
على الدوام من أحواض قدترى فى بعضها الاسماك المختلفة الالوان
يربيها الحارس فى هذه البحيرة التى يتجدد ماؤها فى كل
لحظة وكثير من هذه المرتفقات متسع جدا وينزل اليها بدرج
لانها تحت الارض (اذلافضاء لهافوقهافى هذه المدينة الجسيمة كلها)
واذا اضطر أحد لقضاء الحاجة ولم يجد المرتفق قريبا منه فله أن يدخل
فى أىّ دكان فطاطرى ويدفع بنسا واحدا ٤ مليم للخادم

وقد سبق لى ذكر الستى (المدينة) وسهوت أن أقول انها وصف الستى
مركز الصناعة والتجارة لاللوندرة وحدها بل للعالم أجمع تتوارد
اليها كنوز الثروة من جميع أقطار الارض وتديرها هى كيف شاءت
وترسلها أينما أرادت ومن نظر الى جوّها تصور أن رتيلاء هائلة
جاءت ونسجت خيوطها وأرسلتها فى جميع أطرافها فان الاسلاك
التلفونية والتلغرافية التى فيها عدها أعسر من احصاء قطرات
الامطار ومما يدلك على أن الحركة فى هذه الجهة من
لوندرة قد وصلت الى نهايات التصور أن الرسائل الواردة عن طريق
البوستة توزع فيها فى كل ساعة من ساعات النهار وان عدد
المكاتيب التى ترد اليها فى كل صباح يزيد عن الالف ألف (وهناك

مخزن واحد يرد له فى اليوم أكثر من ثلاثة آلاف رسالة) وعدد سكان السـتى المقيمـين بهـا ٣٧٫٦٩٤ نفسا ولكنها فى ساعات الاشغال تتوافد اليهـا الخلائق من كل فج عميق حتى يبلغ عـدد الذين بها طول النهار أكثر من ٣٠١٫٣٨٥ منهم ٢٩٫٥٢٠ رؤساء بيوت تجارية و ٢٠٢٫٢١٥ مستخدما و ٥٠٫٤١٦ مستخدمة و ١٩٫٢٣٥ غلاما لا يزيد سنهم عن ١٥ سنة وقد حسبوا أن فى ٢٤ ساعة (فى يوم ٢٧ ابريل سنة ١٨٩١) دخل الى حدود الـستى ١٫١٨٦٫٠٩٤ شخصا و ٩٢٫٣٧٢ عربة مختلفة الانواع ومتى أقبل الليل رجعت هذه الخلائق كلها وتركت السـتى قاعا صفصفا حتى اذا انشق النهار رأيت هذه الاقوام تنهال عليها من كل جانب بمئات الالوف كالسيل المنهمر فهى أشبه بالبحر يحدث فيه المد والجزر

بلوندرة روح التجارة

ومما يدل على ان روح التجارة مجموعة فى العاصمة الانكليزية ان الرسائل التى توزعها البوستة فى لوندرة وحدها تزيد عن ربع مجموع الرسائل التى برسم بريطانيا العظمى كلها بل ان بلاد اسكتلندة (Scotland) (وتعرف عند العرب باسم سقوسـية) باجمعها لا يرد لها من الرسائل نصف ما يرد للوندرة كما ان ايرلنـدة

(وتسمى كذلك فى كتب العرب القديمة) بسائر مدائنها ومعاملها ومتاجرها البحرية لايرد لها الثلث من هذا القدر

السعادة بالاجتهاد

فكيف لاتنهال جداول الثروة على هؤلاء القوم العاملين الذين يعرفون حقيقة قيمة الوقت حتى ان الرجل منهم اذا تفكر فى أىّ أمر من التسهيل والتيسير وثابر عليه بقليل من الثبات وساعده حسن جده لايلبث أن يصير من أغنيائهم وأشرافهم ونبلائهم مثال ذلك رجل كان يصطنع البيرة (الجعه) واسمه (باس) فاتقن عملها وتفنن فى طرق التعريف بها حتى انه وصل الآن الى ثروة لايمكن تقديرها الا لمن يعلم أنه اشترى الدار التى كان يسكنها اللورد بيكونسفلد وزير انكلترا الشهير ثم فرشها بالمتاع الفاخر وبلغت نفقات الفرش وحده ٦٥ ألف جنيه تقريبا من ذلك لوحتان فيهما بعض الصور والمناظر بستة عشر ألف جنيه ولما وصل الى ماوصل من اليسار توصل الى ان صار من اللوردات الكبار (اللورد برتون) وعنده الآن سبعة آلاف عامل وله ايرادات كثيرة ودخله من الجعة وحدها بين ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ ألف جنيه فى السنة الواحدة ومرتب مدير الادارة عنده هو ٥ آلاف جنيه انكليزى فى السنة ·

ومثله كوك المشهور وتاريخه معلوم فى مصر وقد أصبح لبيته

الآن اقلام ومكاتب فى كافة البلاد المتمدنة بل ان له فى لوندرة وحدها نحوا من ثمانية مكاتب وكلها تشبه بل تفوق المصالح المنتظمة المشهود لها بالاجادة ومما يدل على انتظام ادارته وتيقظ عماله لراحة معامليه أنهم أطلعونى فى لوندرة على ترجمة شكواى من وكلائهم فى برندزى أرسلها لهم وكيلهم فى القاهرة نقلا عن رسالتى الاولى واستفهموا منى عن اللازم ووعدونى بمعاقبة المقصرين حتى لايعودوا للاخلال بواجباتهم وسأفرد للكلام عليه فى الرحلة فصلا ان شاء الله

ومثله رجلان اسمهما سپيرز و پوند قد التزما بان ينشئا فى جميع محاط لوندرة وبريطانيا العظمى سكُرْدانات (١) للآكلين والشاربين من المترددين على القطارات فراجت تجارتهما وربحت أعمالهما حتى تعديا هذا النوع الى غيره فأنشآ دكاكين بدّالين (بقالين) وخياطين وغير ذلك وعندهما من النساء المستخدمات نحو الخمسمائة امرأة

---

(١) يؤخذ من كلام شفاء الغليل أنّ السكردان لفظ فارسى معرب ومن شرحه له يستفاد انه يقابله فى اللغة الافرنكية كلمة بوفيه (Buffet) المستعملة الآن فى اللغة العربية وحينئذ فالرجوع الى السكردان أولى وأفضل لانه يدل على الخزانة يحفظ فيها المأكول والمشروب

ومثلهما كثير غيرهما اتبعوا طريق الجد فى أعمالهم ففازوا وصاروا من أهل الثروة وأقبلت عليهم الخلائق وأقرت لهم بالفصاحة والاصالة وصار لهم فى النفوس مهابة وجلال حتى ان كثيرا من المحدثين بهذه الصفة أصبحوا أعضاء فى البرلمان بالنيابة عن بعض المقاطعات بل عن بعض المدارس الجامعة وهم كثيرون لا أريد أن أطيل الرسالة بذكرهم ولكنى لا أرى مندوحة عن الكلام على رجل اسمه هويتلى Whitely

هذا الرجل كان فى مبدا أمره من طائفة المتسببين ببيع بعض الاصناف على عربة يدفعها بيده أو يقف بها بجانب البرزوق فأصبح الآن وهو صاحب مخازن واسعة فى لوندرة لا يضاهيها غيرها فى كل البلاد التى رأيتها وقد علمت أنها فريدة فى العالم بأجمعه ولما دخلت هذه المخازن حرت واندهشت وضللت عن الطريق لتشعب مسالكها وتنوع الاصناف فيها فانك تجد عنده كل ما يحتاجه الانسان من أى طبقة كان من يوم مولده الى يوم ملحده من جميع الاصناف وكافة الانواع من ملابس للجسم وللرأس ولليدين وللاقدام داخلية وخارجية للرجال والاطفال والنساء والبنات جاهزة أو مفصلة بحسب الارادة ومن أقمشة لجميع أصناف الناس للملكية والعسكرية البرية والبحرية

ومن حرائر ومنسوجات مختلفة متعددة متنوعة ومن روائح واعطار ومن بضائع أجنبية من جميع أقطار الدنيا من مصاغات ومجوهرات مختلفة الاقدار والاحجام والاثمان ومن مشغولات الحديد وكافة المعادن على الاطلاق ومن أخشاب وأحطاب ومن كتب وورق وما يقتضيه ذلك من جميع الانواع ومن فواكه طرية وناشفة وخضراوات جافة ورطبة جنية ومن لحوم الحيوانات والصيد ومن حيوانات حية وأطيار وأسماك بل تجد عنده الفحم الحجرى بل الكبريت بل كل مايتصوره الانسان يجده فى هذه الدكان وعلى الضمان

ذهب اليه فى أحد الايام رجل من اللوردات وأراد أن يربكه ويضحك عليه فقال له انى أريد فيلا أبيض (ومعلوم انه من الندرة بمكان) فتلقاه الرجل بكل هدء وسكينة واستوصفه الفيل اللازم وساومه الثمن وأخذ عنوانه ثم قال له أضرب لك موعدا بعد ثلاثة شهور يحضر مطلوبك فلم يمض الاجل المعين حتى جاء الى صاحبنا اللورد كتاب فى البوسطة يعلمه بوصول الفيل حائزا لكافة الشرائط المطلوبة والاوصاف المرغوبة وان هو يتلى مستعد لارساله اليه فى المكان الذى يعينه وبلغنى ان عدد الفتيات المستخدمات فى مخازنه يقارب الخمسة آلاف وأمثال هؤلاء كثيرون

فلا يعجب الانسان حينئذ اذا اضطر القوم للاستعمار الغنى والفقر والاجتهاد فى جلب الذهب الى بلادهم من كافة أقطار الارض حتى صارت مدينتهم سوق العالم كله وأصبح كثير منهم يكتسبون فى الدقيقة الواحدة خمسة أوعشرة جنيهات أوأكثر ومنهم من ايراده السنوى يعتبر فى بلاد أخرى رأس مال عظيم جدا ومنهم دوك اف وُسْتَمِنْسْتَر يملك من الاراضى فقط ماقيمته ثمانية آلاف ألف جنيه ومع ذلك فان ثروته هذه ليست شيأ يذكر بجانب دوك وستمنستر التى لم يتيسر حصرها للآن

وبهذه المناسبة أقول ان الباحث المدقق لايرى فى أى نقطة فى الكون منظرا أبشع ومشهدا أشنع من الفقر الذى أناخ بكلكله على جانب عظيم من سكان لوندرة فان ذلك المنظر يوجب لوعة وألما لايضاهيهما شئ من الاحزان اقربه من تلك الثروة الطائلة وتلك النعمة الكاملة الآخذة فى النماء والازدياد بقدر اشتداد وطأة الفاقة وتناهى الاعسار فهلا يرى الناظر بعد ذلك ان هذه المدينة قد تفردت بالجمع بين الاطراف وانعدم فيها الوسط فى كل أمر من أمور الحياة حتى لقد صدق شاعرهم شيلى إذ قال مامعناه

ان جهنم المستعرة * أشبه بمدينة لوندرة

الرسالة الحادية عشرة

تجول فى بعض مدائن الانكليز

وصف المطر والضباب

قمت من لوندرة فى يوم الخميس ٢٢ سبتمبر وقد اكفهر وجه السماء واحتجبت شمس الضياء وخيمت فى المدينة كتائب الضباب ثم تمزقت ضلائع السحاب فتساقطت الامطار كالانهار وتسابقت السيول من أعالى التلول وتتابع الرعد القاصف يصحبه البرق الخاطف ورأيت الناس يبتدؤن فى ايقاد النور فى الشوارع والحوانيت والدور فنزلت من العربة الى جهة مستقربة للتفرج على هذه الحركة المستغربة غير مبال بهاطل الوابل فخيل لى أنى فى صندوق كبير من الزجاج القاتم وعلى جدرانه شبه أشجار منضودة ومياه معدودة وطرائق ممدودة وأشباح فى غدو ورواح وما وصلت الى سكة الحديد الا وقد بلغ الظلام منتهاه فأسرعت الى عربة القطار السريع ورأيت الماء ينهال من ميازيبها كأنها أفواه القرب ولما استقربى الجلوس واستأنست بالجلوس ورأيت النفوس تتضجر من هذا الجو العبوس فاتحت بعض القوم بهول هذا اليوم فقال هذا هو الضباب الاسود ولعله يقف عند هذا الحد فلا يكون طليعة لعرمرم الضباب الاصفر فانه هو الموت الاحمر

فأظهرت الاشتياق لمعرفة هـذا الافتراق فأخـبرنى أن الضباب عندهم قسمان أولهما وهو الذى نشاهده الآن أكثر غرابة وأقل ضررا للانسان فانه يجعل وقت الظهيرة البهـيج كمنتصف الليـل البهيم فيسارع الناس باضاءة النبراس ومتى كان الضـباب فى الطبقات العالية فليس فيه من الضرر مايستحق أن يذكر ولكنه على كل حال لايوجب عطلا فى دولاب التجارة وحركة الاعمال وأما الصنف الثانى فهو الاصفر يؤثر على الحلق ويتهدد الخلق بالخنق ويوجب التحفظ على الافام بالاكمام وقد اخـترعوا للوقاية منـه كمامات مخصوصة للتمكن من التنفس بسهولة وكل من أهمل الاحتراز بهذا الغطاء أو بهذه الكمامة خرج الدم من فيه مع اللعاب ان لم تزهق النفس وتذهب الى الرمس وفى الحال يسرجون المصابيح فى الشوارع والحارات والدور والدكاكين ولكـنه يستحيل على الانسان أن يرى النور نفسـه ولو كان بعقربة منه وبعضهم يلتجؤن الى العربات فيلبثون بها ساعات وترى هذه الحركة الهائلة التى تفردت بها لوندرة تقف كلها مرة واحدة ولا يتجاسر الجرىء على أن يتقدم فترا أو يتأخر شبرا خوفا من الاصطدام بشىء مما الا يراه وهذا الصنف من الضباب لا يظهر الامدة خمسة عشر يوما وأخص الاوقات به شهر نوفمبر فقد يمر الاسبوع الكامل كأنه ليلة واحدة

قد يتخللها أحيانا شفق بالات يزيد فى الحزن والكآبة المنتشرة
على أرجاء المدينة ولذلك كان الانكليز أعرف الناس بمضار الجو فى
مدينتهم فيبارحونها فى فصل الشتاء (الا من تضطره حوائجه
وأعماله) ويفر الاعيان والاشراف واللوردات منها فى هذه الاوقات
لانها تكون والحق يقال غير قابلة للسكنى بما يغشاها من ركام
الضباب المتوالى الذى يمزج فيما بين النور والظلام ويزيد فى درجة
الرطوبة الى حد لايطاق فشكرت الرجل على هذه الافادة
وأردت أن أحيطه علما باعتدال الجو فى بلادنا وبهاء السماء عندنا
مما يجعلها جنة تقر النواظر وتنشرح الخواطر ولكنى رأيته لايعبأ
الا ببلاده ولايلتفت الى غير ماهو فى معلومه فأقفلت باب الحديث
كما أخذ هو والجماعة فى تدخين شبقاتهم القصيرة الشهيرة وتلاوة
جرائدهم الكثيرة واشتغلت أنا باضافة هذه الفوائد على ماعلمته من
سرعة تغير الجو فى لوندرة فان متوسط درجة الحرارة فيها هو ٩٫٤٥
من درجات سنتيجراد وقد تنزل فى الشتاء الى ٣ تحت الصفر

مدينة برمنغام — ولم يمض الا قليل من الزمن حتى وصلنا مدينة برمنغام
(Birmingham) فنزلت بها وهى مدينة قديمة اسمها الاصلى
برومويشام ثم حرفها العامة الى بروماجم واشتهرت الآن باسمها
المتداول المعروف وهى مركز المعامل التى تشتغل باصطناع الحديد

فى بلاد الانكليز وفيها ورش للجلوانو بلستيا ولاصطناع الريش الفولاذ التى يستعملها الافرنج فى الكتابة بدل الاقلام وللمصنوعات الحديدية الخاصة بالكائس وعلى مقربة منها ورشة لاصطناع الزجاجات العدسية الخاصة بالفنارات البحرية وأخرى لعمل العربات ومن أجمل مبانيها دار المدينة وفيها متحف واف ومكتبة أهلية يقوم بالخدمة فيها نساء فى غاية الفطانة وفيها غرفة مخصصة لمؤلفات شاعرهم الفيلسوف الشهير شكسبير تحتوى على مجموعة فيها كتبه التى طبعت فى جميع المطابع وفيها تراجمها الى كافة اللغات الاوروباوية وكذلك البوستة يقوم بمباشرة أعمالها نساء لهن حظ وافر من علم الجغرافية

مدينة دربى

ثم قمت منها الى مدينة دربى (Derby) وتفرجت على مكتبتها ومتحفها ولكنها ليست الاعبارة عن معامل كثيرة خالية مما يشرح صدر الغريب أو يستميله لاطالة البقاء فيها وأهم شئ يستحق الذكر هو أنى حططت بها الرحال (أعنى جعبة ملابسى وقمطر أوراقى) مدة ٢٤ ساعة

مدينة منشستر

وأسرعت بالقيام منها الى مدينة منشستر (Manchester) على القطار السريع فمر تحت نفق اسمه بيك فورست تونل وطوله ميلان كاملان ولكن القطار قطعهما فى دقيقتين وكانت

فيه بطرية كهربائية لاضاءة كافة العربات بالليل أو عند دخولها نهارا فى بعض الانفاق فقط ومنشستر مدينة كبيرة عامرة فيها كثير من المعامل

وأهم شئ تفرغت له فيها مكاتبها الكثيرة المجانية التى أعدت لتثقيف عقول الاهالى وتشحيذ أذهان العمال فى أوقات خلوهم من الاعمال وقد رأيت فى أهم مكتباتها مجموعة مستوفاة لانظير لها فى أعظم مكاتب أوروبا حيث احتوت على جميع ما ألفه العلماء فى فن اختذال الكتابة (الستنوغرافيا) وفيها مجموعة كاملة لاهم جرائد بريطانيا العظمى واعمال البرلمان وكتب قديمة نادرة ومعمل للتجليد ورأيت فيها طابعا يؤثر على الورق من غير حبر استحدثوه حتى لا يتمكن أحد القراء من اختلاس بعض أوراق الكتب التى يكون فيها تصاوير ورسوم أوجداول أوغير ذلك مما يستشره الغواة للاختصاص به واتلاف الكتاب برمته وهى طريقة لطيفة يحسن اتباعها فى الكتبخانة الخديوية حفظا لما فيها من الذخائر والنفائس حتى ان الذى يستعير الكتاب النادر لاتسول له نفسه تجريده من بعض الصفحات فيصبح أبتر عديم القيمة

وفيها غرفة للقراءة يجد الانسان فيها جميع الجرائد التى تصدر فى اليوم وسأشرح الكلام بالتفصيل على مكاتبها التسعة وغرف

المطالعة المتعددة اظهارا لماجاءت به من الفوائد التى لا تقدر وعدد
سكان هذه المدينة ٥٠٠٫٠٠٠ ٧ نسمة بما فيها سالفورمن ارباضها
وهى كما لايخفى مركز لصناعة الاقطان (وفى متحفها نموذج من
جميع محصولات القطن بانواعه فى كافة أقطار العالم) وليست من
شئ فى حسن المنظر وبهاء الرونق بل هى كسوق يموّن فيه أهل
المدائن التى حولها وكل هذه المدائن مختصة بغزل القطن ونسجه
وبما يتبعه من الصنائع

وفيها بعض عمائر تستحق الذكر مثل دار أمانة المدينة
ودار التجارة الحرة وهى معدة للاجتماعات العمومية تسع ٥٠٠٠
نفس وفيها بستان للنبات فى غاية الانتظام وفيها كثير من الاسواق
والكنائس المهمة وفى شوارعها وميادينها أنصاب لتخليد ذكر مشاهير
الانكليز وقد مضى علىّ فيها أحد الآحاد فكأنها ولوندرة قد
أفرغتا فى قالب واحد ومما زاد فى أهمية المدينة أن شركة تألفت
وساقت مياه البحر الاطلانطيق من ليفربول اليها فى ترعة سموها
قنال مانشستر لكى يتيسر للسفن أن تدخل فى نفس انكلترة حتى
تصل اليها بما فيها من البضائع وقد بلغت نفقات هذا القنال نحو ٦
ملايين من الجنيهات والمنظور أنهم يصرفون أيضا أربعة ملايين أخرى

(وقد ورد التلغراف فى ٢ يناير سنة ٩٤ وهو يوم طبع هذه الملزمة من الطبعة الثانية بان القنال قد تم وحصل الاحتفال به)

لفربول وفندق أدلفى

ثم قمت منها الى ليفربول (Liverpool) ونزلت بفندق ادلفى وهو من أفخر وأفخم الفنادق التى رأيتها باوروبا من حيث الاتساع والاتقان وكمال المعدات حتى ان أدنى غرفة فيه يضيئها النور الكهربائى وفيها التلفون للمخاطبة مع ادارة الفندق وخدمه ولمكالمة النازلين به مع بعضهم ومع المشتركين فى التلفون من أهل المدينة

الجمعية الاسلامية الانكليزية

وقد تفرجت فيها على المحاكم وعرفت أساليب التقاضى والمحاماة عندهم وزرت مكتبتها ومتاحفها وشاهدت آثارها وأنصابها وتقابلت فيها مع الشيخ عبدالله ويليم كوبليم رئيس الطائفة الاسلامية من أبناء الانكليز ودعانى لتناول الطعام عنده وأكرم مثواى ورأيته قائما هو وأصحابه بتأدية الفروض الدينية الشرعية بقدر اجتهادهم فى دار جعلوا فيها قبلة ومحرابا ومكانا للصلاة ومنبرا للوعظ والخطابة وفيها مدرسة إسلامية لتعليم الآداب والفنون الانكليزية على ما يوافق النصوص الشرعية وهى الى الآن فى عهد الطفولية وكلهم متوددون لبعضهم رحماء بينهم مقبلون على تكسب أرزاقهم يتخاطبون بالفاظ الاخاء ويحيون بعضهم بتحية الاسلام ويزيد عددهم الآن

عن الستين بما فيهم بعض النساء ولا شك انهن سيكون لهن اليد البيضاء فى تعميم نشر المبادى الحقة واظهار مزايا الدين الحنيف شأنهن فى كل عمل أقبلن عليـه فى أىّ قطر من أقطار المسكونة وقد ترجموا بعض السور الكريمة ونظموها فى قصائد يرتلونها فى بعض الاجتماعات وعندى نسخة منها ثم انى أديت معهم فريضة العشاء فى ليلة ٢٧ — ٢٨ سبتمبر وقد اشتد الزمهرير وتنازلت الزمهرير فى سبتمبر الحرارة وارتفعت البرودة بما لم أعهد له مثيلا من قبـل حتى كانت جوارحى تنتفض وفرائصى ترتعـد كأنى العصـفور بلله القطر واستمرت أسنانى على الاصطكاك والاحتكاك حتى تحققت أن برد العجوز فى بلادنا ليس بالشئ الذى يذكر بجانب ماتسميته برد الشاب عندهم وكانوا كلهم يقولون أين هذا من البرد الصحيح مع أننى كنت أشـعر ببرد يغير الالوان وينشف الابدان ويجمد الريق فى الاشداق والدمع فى الآماق لان هذا اليوم مما جمد خمره وخمد جمره يثقل فيـه الخفيف اذا هجم ويخف الثقيـل اذا هجر وكنتُ فيه بين أطباق البُرَد ورَجم البَرَد وكان القوم لا يستغيثون الا بجر الراح وسورة الاقداح

وبعد أن خرجنا من المسجد صاحبنى اثنان منهم لارشادى على نارا السعير الفنـدق وبينما نحن فى اثناء الطريق اذا بمبادئ حريقـة فى

مخزن خشب فوقفنا نتأمل أفاعيل النار مع اشتداد هبوب الرياح ولم تمض برهة كبيرة حتى ارتفع لسان اللهيب الى عنان السماء وتطاير الشرر الى جهة الشرق فأتت على المخزن وبعض البيوت المجاورة له ولم يتغلب عليها رجال المطافئ مع إقدامهم وبراعتهم الا بعد أن بلغت النفس التراقى ولولا حذاقتهم وسكون الاهالى وعدم اضطرابهم واستيلاء الهلع عليهم لكانت أحدثت اتلافا أعظم مما حدث وسأكتب عليها بالتفصيل وانما أذكر الآن ثبات الانكليز فانى لم أسمع فى الجماهير التى تجمهرت الا صياحا واحدا من امرأة استغاثت بالقوم لانقاذ ولدها وألقت نفسها فى مقدمتهم لاستخلاص فلذة كبدها وبعد ذلك استولى الصمت والسكون حتى فى أهالى المنازل المجاورة التى كانت ألسنة النار تتطاول اليها وبقى رجال المطافئ مالكين لحريتهم فى العمل حتى انقضت هذه القارعة ولم يمت فيها أحد من الناس والحمد لله

عموميات

وعدد أهالى ليفربول ٥١٧٠٠٠ نفس وهى أول الموانى البريطانية بعد لوندرة بل قد تفوق عليها بما يصدر منها الى الخارج وأخص تجارتها مع بلاد امريكا اذ يجيئها منها كميات من الحبوب والاقطان وغير ذلك من المحصولات مما لا يكاد يتصوره العقل ثم تصدرها بعد اصطناعها فى معاملها الى جميع أنحاء العالم وأحواضها أهم ما يوجد فى أعظم موانى الدنيا تدخل اليها أكبر

الـسفائن فى كل لحظة وهى متقاطرة صفوفا صفوفا وراء بعضها على مدى ستة أميال وزيادة بحيث ان منظرها يعتبر من عجائب العالم ولا يزالون الى الآن يشتغلون بحفر أحواض جديدة وانشاء مخازن للتجارة البحرية

ومن أهم مبانيها قاعـة سنت جورج وهى عمارة فخيمة جليلة بما فيها من الرونق والبهاء وحسن النظام يجتمع فيها القوم أثناء الانتخابات أو الاحتفالات العموميـة و رأيت قصر متحف الفنون والصور والرسوم وغرفـة المطالعـة والمكتبة الحرة والبورصة وغير ذلك من عظائم الآثار التى لايسمح لى المقام بالتوسع فى الكلام عليها الآن وفيها كما فى غـيرها من مدائن الانكليز تلك الرياض السندسية التى تنقى الهواء وتسر الفؤاد بما فيها من الخضرة والنضرة والمياه المتدفقة والاشجار القليلة حتى يتيسر للنظر أن يمتد الى منتهى الافق وفيها مدرسة جامعة وغير ذلك مما أستبقى شرحه للوقت والمكان المناسبين له

هذا وقد كنت عقدت النية على الرجوع الى لوندرة مباشرة ولكنى عـدلت عن ذلك وعوّلت على زيارة بعض مدائن الغال لقربى منها ولعلمى بانه لم يسبقنى أحد من أبناء جلدتى من هذا الجيل فى التوجه اليها وستكون موضوع الكلام فى الرسالة التالية ان شاء الله

الرسالة الثانية عشرة

تجوال فى بلاد الغال

نظرة فى الانسان

خلق الله الانسان فى أحسن تقويم وبرأه على أبدع تكوين وصوّره فى أجمل مثال وفطره على أكمل منوال ثم أودع فيه من غرائب الغرائز وخفى الاسرار ومكنون القوى ما لا يرتاب فى وجوده الحاذق الفطين أو يتخيله الدراكة الفهيم أو يخطر على بال اللبيب الاريب ولا يزال العلم يكشف لنا فى كل يوم عن قناع هذه الخبايا ويكاشفنا بما فى تلك الزوايا ويطلعنا بمقدار تقدم العرفان على ما فى الانسان العاجز من آثار الاقتدار كلما قرن الارادة بالعمل ووفق بين الفكر والتحقيق فى مظاهر الوجود وهذه كلها قضايا ثابتة عند من قدح زناد القريحة الصحيحة وتدبر فى سلائق الخلائق وأرسل رائد التأمل الى عجائب الارتقاء العصرى وما كان من نتائج سعى العقلاء فى الايام الخوالى

السبب فى عدم تغرب المصريين

أقول ذلك بمناسبة ما اشتهر به المصريون من الركون الى السكون والخلود الى الراحة والقناعة بالكفاف وما ذلك الا لتوفر العيش فى بلادهم البارة بأهلها وتيسر أسباب الكسب ونوال الرزق من غير ما كد ولا كدح كما هو الشأن فى الامم المتوطنة

بالبلاد الجبلية أو الاصقاع الجدبة القاحلة أو البلاد التى ضاق ذرعها عن القيام بأود أبنائها حتى اضطروا للنزوع عنها الى ماهو أخصب وأبرك سعيا وراء القوت أو طلبا للرفاهية والنعيم

وليس السكون من شؤون المصريين دون من عداهم ممن يدبون على وجه الكرة الارضية فاهم وربك إلا كسواهم من طوائف المخلوقات الذين أفاضت عليهم يد العناية الازلية نعمها المترادفة حتى جعلت بلادهم مطمعا لانظار الغريب عنها يلتجئ اليها على الدوام و يقرع أبوابها طلبا للقرى والضيافة

ثم اننا اذا نزلنا فى سلم الكائنات الى الحيوانات رأينا هذه النتيجة بعينها فانواع الدبابات وأصناف الحشرات وأطيار الهواء وأسماك الماء خاضعة لهذا الناموس الكونى العام فما كان منها فى وسط مشحون بالخيرات تراه من طبيعته ميالا للسكينة وعدم العنفوان وما كان بعكسه يكون من خلقه البطش والبغى والعدوان وقد استمر الحال على هذا المنهاج حتى تأصلت هذه الاخلاق وصارت وراثية فى كل من الفريقين يتناقلها الابناء عن الآباء والاحفاد عن الاجداد ولكننا اذا قلبنا الموضوع وعكسنا القضية كما يفعل علماء الطبيعيات ببعض الحيوانات لاتلبث الجبلات ان تتغير والسجايا ان تحور والطبائع أن تتنوع وتتحول

والاميال أن تتبدل وتتعدّل بحسب مايقتضيه الحال ويستوجبه المقام

لذلك كان البدو على العموم مجبولين على الترحال والضرب فى أطراف البلاد حتى اذا تمصروا أصبحوا كأهل الحضر أقل استعدادا للهجرة والتغريب عن الاوطان والابتعاد عن الارض التى نبتوا بها واستقوا من مائها وتغذوا بنباتها

السبب فى ولوع الانكليز بالسياحة

ولما كانت بلاد الانكليز كثيرة البعد عن ان يصدق عليها أنها من الخصب وتوفر الرزق بحيث تكفى لمؤنة أهلها تولد فيهم بالضرورة حب السياحة والسعى فى مناكب الارض وبذل كل مافى وسعهم من الوسائط الحسية والوسائل المعنوية لجلب الثروة من أقطار الارض وأطرافها الى تلك الجزيرة التى يسكنون بها ثم لما ضاقت عنهم التزموا بالاستكثار من الاستعمار والانتشار فى سائر الاقطار مثل الفينيقيين وأبنائهم القرطاجيين ومثل الاغارقة (les Grecs) والرومانيين ومثل العرب فى أول دولتهم والبرتقاليين والاسبانيين فى مبدا نشأتهم ومثل الالمانيين واليونانيين وغيرهم من أمم هذا الزمان

وبعد ان كانت السياحات للانكليز من أول الحاجيات أصبحت الآن من ضروريات الكماليات لانها رسخت فى ملكاتهم

وثبتت فى أخلاقهم حتى انهم فاقوا جميع أمم الارض فى هذا الموضوع

استعداد المصريين للسياحة

وبعكسهم المصريون واشباههم من الاقوام فانهم لم تحوجهم بلادهم للخروج من حوزتها ومبارحة حومتها لكونها تكفلت لهم بلوازم الحياة ولم تضن عليهم بما يسد رمقهم حتى انه ما أمكن ولا يمكن ولن يمكن أن يموت فيها أحد بسبب الجوع كما هو حاصل فى كل يوم بلوندرة وغيرها من مدائن الانكليز ولا يمكن أن لا يجد العامل فيها عملا يغنيه عن بذل ماء الوجه و إخلاق الديباجة أو الانتحار ان كان فى نفسه شئ من الشمم والشهامة وأما لوندرة وحدها فقد شهد الاستاذ كيرهاردى نفسه وأكد بأن عدد العمال الذين لا عمل لهم هو ١٠٠٠٠٠ ومعلوم ان أقل تعطيل فى معامل أية مدينة من بلاد الانكليز يوجب انقطاع الخبز عن مئات ألوف من العمال كما تشهد به التلغرافات

فلا غرابة حينئذ فى أن مصر لم تخرج كثيرين من أهل السياحة والريادة ومحبى الاستطلاع ولكن ذلك ليس برهانا على عدم استعداد أهلها لها بل ان البارئ جل وعلا خصهم أيضا بهذه الغريزة كما حلاهم بصفاء القريحة وجودة الذهن وسمو المدارك وغير ذلك من المزايا العقلية التى يعترف لهم بها حتى

اعداؤهم من الاجانب وانما الاعمال محك الرجال فلا يصح للعاقل المنصف حينئذ الا أن يسخر و يستخف بأولئك السائحين الذين جاؤا مصر وحكموا بأن أهلها ليس فيهم اقتدار على السياحة وطلب العز فى التنقل فان أول طواف حول أفريقية كان فى عهد الفراعنة الاقدمين وعلى سفائن المصريين و بواسطة المصريين خرجوا من بحر الروم مغربين حتى تجاوزوا بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) ثم اجتازوا بحر الظلمات (المحيط الاطلانطيق) الى أن بلغوا مايعرف الآن برأس عشم الخير ثم جابوا البحر الهندى وألقوا المراسى عند مدينة القلزم (قريبا من السويس) ومن نظر فى كتاب (مصر والجغرافيا) الذى وفقت الى اظهاره حديثا اذعن بأنهم قد كانت لهم اليد البيضاء فى الاكتشافات الجغرافية التى حصلت ببلاد السودان وغيرها وان كانت رسائلهم وتقاريرهم وكتاباتهم لم تنل حقها من الانتشار حتى تكون بهجة فى عين المحب وقذى فى أعين المبغضين

الاندفاع للسياحة

ولقد صدق الفرنساويون فى المثل الذى أرسلوه حيث قالوا (ان الشهية تحضر وقت الاكل L'appétit vient en mangeant) وأصدق منهم امامنا البوصيرى فيما أتى به من الحكم (ان الطعام يقوى شهوة النهم) فانى حينما أتيح لى مبارحة الربوع التى ألفتها

والديار التى عهدتها (وهذه هى المرة الاولى) عرفت مقدار الحنين اليها والتوجع من مفارقتها حتى لقد اشتد بى الوجد عليها وأنا بفلورانسة على مقربة منها ولا يعرف الشوق الا من يكابده ولا ينكر هذه العواطف النبيلة الا من تجرد منها ولكننى كنت كلما طوحت بى الاسفار أستأنس الى السياحة وأرى فى نفسى مايجذبنى الى رؤية بلاد كثيرة وأقوام عديدة حتى انى لما كنت بالفربول شعرت بما يدفعنى الى زيارة بلاد الغال وقد دارت المكالمة بينى وبين بعض الانكليز على ماعزمت عليه من التوغل فى هذه البلاد فاستكبر هذا المشروع على شاب من المصريين وقال لى «انه من باب المجازفة سيما مع قلة بضاعتى فى اللغة الانكليزية مع كونى لو كنت متقنا لها لما أفادتنى بشئ كثير لان أهل تلك البلاد لهم لسان آخر خاص بهم وهو بعيد عن الانكليزية بعدا شاسعا» فقلت له «ولم تقدمون أنتم الى بلادنا وتكتبون عليها مع عدم معرفتكم بلساننا ولا وقوفكم على أخلاقنا» فقال «اننا نستعين بما كتبه اسلافنا الذين خالطوكم وأقاموا بين ظهرانيكم فضلا عن انتشار لساننا فى أوطانكم وكثرة التراجمة الذين نستخدمهم فى التفهم والتفهيم» فأجبته بانى «لا أرى من مانع فى ان أكون لقومى مثل أولئك الاسلاف الذين تشير اليهم وانى

أستعين بترجمان من أهل تلك البلاد يفهمنى بالانكليزية وعلى قدر الامكان مالبس فى وسعى ادراكه من لغة قومها فان الانكليز والامريكانيين لابد أن يكونوا قدموا اليها وحينئذ فلا شك فى وجود نفر من أهلها يكلموننى بالانكليزية على قدر ماأفهم » ثم أحطت صاحبى بمشروع سياحتى فى الاندلس والبرتقال وانى لاأفهم كلمة واحدة من اللغة الاسبانية فقال « ذلك سهل عليك لانها قريبة من الفرنساوية والطليانية ولك بهما إلمام » فسألت له بسداد هذا الجواب فقال لى « وهناك عوائق أخرى ربما لاتقوى على مقاومتها وهى البرد الشديد والرطوبة الزائدة وتوالى الامطار فى هذه البلاد الجبلية » فقلت له « وفوق ذلك فانى عازم على النزول الى مناجم الفحم الحجرى » فهز رأسه وبرم شاربيه وتبسم ضاحكا ثم قال بصوت متقطع (اذا كان الكلام سهلا على اللسان فالعمل صعب على الانسان) فترجمت له ماقاله شعراؤنا (أنجز حر ماوعد — وان غدا لناظره قريب) ثم ودعته بعد ان وعدته بانى أكاتبه من هاتيك البلاد وركبت القطار فى عصر النهار

دخول بلاد الغال — ولما وصلت الى مدينة شستر Chester استدعيت حمالا نقل متاعى الى قطار آخر وأعطيته جنيها ليستحضر لى تذكرة الى لنجوثلن Lengollen ويرد لى الباقى فذهب وغاب ثم رجع

موفيا بالمراد فأتحفته بما قدرنى الله عليه لانى فكرت أنه كان فى وسعه عدم الرجوع و وصلت لنجوئلن فى منتصف الليل أوقبله بقليل وكان المطر متواليا عليها بما لم أعهده فى عمرى وأما البرد فيكفينى أن أقول انه أهدانى بالزكام مدة أربعة أيام وسمعت للمياه خريرا يشبه الهدير والزئير وكأنها متدفقة من صخور عالية متلاطمة على جنادل متوالية متساقطة فى جداول سافلة و بلغت النزل كالغريق لايخاف البلل فأوقدوا نارا حامية اصطليت بها واستأنست لها وماسمعت آذان الديكة فى الايكة وتسبيح الاطيار على أفنان الاشجار حتى وثبت الى الشباك وألقيت نظرا متسارعا الى ماأمامى من المناظر فاذا جبال شاهقة تكسوها خضرة رائقة تتخللها ازهار شائقة تكتنفها أشجار باسقة تنساب بينها مياه دافقة لونها ضارب الى الاصفرار والاحمرار مثل مياه النيل المبارك أيام الفيضان فانثلج فؤادى كما انثلج جسمى وقرت عينى بباهر هذه المناظر وجمال هذه الحال حتى عولت على اطالة الاقامة فى هذه المدينة الصغيرة التى يبلغ عدد سكانها ٣,١٣٣ نسمة فأخلدت الى الراحة فيها وترويح البال برائيها بعد أن لاقيت من لغط المدائن الكبيرة وضجتها ومتناهى اضطرابها وحركتها ما جعلنى محتاجا لقليل من الراحة حتى يعود لى النشاط لموالاة السياحة

نجوئلن ومناظره

ومن الغرابة أنى علمت بعد مبارحتى لها بزمان ان أهل التجوال لايحطون بها الرحال الا للاستراحة

عموميات على لنجوثلن

فانها مدينة صغيرة واقعة على نهر الدى (ومعنى دى باللغة الغالية الاسود وبالانكليزية بلاك) وتسمى بلسان أهلها لنجوثلن وان كانوا يرسمون اسمها فى الكتابة هكذا (للنجولن) وعلى نحو ميلين منها اطلال دارسة لدير قديم وهى أجمل مابقى من عمائر القدماء فى شمال هذه الاراضى وعلى ميل ونصف منها بقايا حصون منيعة قائمة بشكل مخروطى على تل مرتفع يطل على المدينة ويصد عنها المغيرين عليها وقد زرتهما بالتفصيل وشاهدت أعمال الحفر فيهما وكشف ما كان دارسا تحت الارض منهما وفيما وراء هذه الحصون يمتد النظر الى مسافة أربعة أميال تشغلها جبال طباشيرية تتخللها مروج أريجة ومراع فسيحة ويحف بالمدينة من الشمال الى الجنوب وادبهى بهيج يبلغ طوله ٢٤ ميلا ينعش الفؤاد ويشجى النفس بنوره و زهره وخضرته وقد آثرت التوجه اليه على عربة فى طريق البر عن ركوب القطار حتى أمتع باجتلاء محاسنه وتسريح الطرف فى مشاهده ورأيت ماأبقاه فيه الدهر من آثار القصور الدارسة التى تتعلق بما كان لها من المكانة فى الفخامة والجلال وتشهد بان الايام خلعت عليها ماعندها من الجمال

طباع أهل الغال

وقد تنقلت من هنالك الى قرى كثيرة حول لنجوثلن وتحققت في أهل الغال بشاشة وبشرا وائتناسا ويسرا مع الطباع الكريمة والاخلاق الفاضلة النبيلة ولهم بالغريب حفاوة وأى حفاوة فهم يتهالكون على خدمته والاجتهاد فى مرضاته من غير أن تكون لهم غاية مافى ديناره وخلاصة القول انى عهدت فيهم تلك السجايا البدوية العربية الفاضلة التى تجلى مظاهرها فى الارياف والخلوات أكثر منها فى المدائن والامصار وهذا ماحدانى على إطالة المكث بلنجوثلن أكثر مما تستحق فى الحقيقة وخصوصا ان الفندق الذى نزلت فيه وهو (هاند هوتل Hand Hotel) قد قام أهله بخدمتى فوق اللازم ويسروا لى جميع المطالب بما كتب لهم على صحيفة فؤادى آيات من الشكر لايمحوها الدهر ولقد وطنت نفسى على الذهاب الى هذه المدينة اذا ساعدتنى العناية بالقدوم الى أوروبا مرة ثانية

نساء الغال

وقد رأيت النساء فى بلاد الغال يفقن اضرابهن فى بلاد انجلترة الحقيقية فيما هو من مميزات الجنس اللطيف مع ماهن عليه من البساطة التى تستوجبها المعيشة الخلوية وبعدهن عن التأنق الذى يضطر اليه أترابهن حيثما يطلعن فى سماء الامصار وللسيدات فى لنجوثلن جمعية خاصة بهن فى دار هى فى الحقيقة

تحفة الناظرين وطرفة للقادمين فقد حوت من آثار الصناعة وبدائع الاعمال مالايمكنني المقام من استيفائه الآن فانها كلها من الخشب القديم المشغول شغلا دقيقا على يد أمهر الصناع وفيها طرائف قديمة ومجموعات نفيسة من حلى وجواهر ومتاع فاخر وصور ومناظر وأسلحة ونقوش وأشكال وأوان يليق بها أن تعرض فى أهم المتاحف المعتبرة وفيها رجام قبر من الرخام مكتوب عليه عبارة باللغة التركية

معامل الصوف

وفى هذه المدينة الصغيرة أكثر من اثنى عشر معملا لغزل الصوف ونسجه يديرها التيار والبخار وقد تفرجت على بعضها ورأيت الصوف كيف يفرز ثم ينظف ثم يغزل ثم ينسج ثم يغسل ثم يكوى ثم يلف وكل ذلك بواسطة الآلات وتحت مراقبة شرذمة من الغلمان وثلة من البنات

منبع الدى

ولا أعلم كيف استولت على الرغبة فى التوجه الى منبع نهر الدى ورؤيته وهو يخرج من البحيرة التى تجمع فيها المياه المتساقطة من الجبال فجهزنى أهل الفندق بما يلزم وأحضروا الى ترجمانا صاحبنى فى ذهابى بالسكة الحديدية الى مدينة بالا Bala وسرت مسافة ساعة حول بحيرتها ورأيت الجداول تنساب من قلل الصخور القريبة منها وتنهال فى حياضها ثم تجرى الى الوادى فيتكون منها نهر الدى

وصف مناجم الفحم الحجرى

كل ذلك والمطر متوال لا ينقطع الامقدار خمس دقائق تطلع فيها الغـزالة ثم لاتلبث ان تختبئ وراء حجاب السحاب يكتنفها قوس قـزح مزدوجا بل قـد لاتمهلها الامطار ريثما تختفى عن الانظار ولقد طاب لى المقام فى هذه المدينة الهادئة المطمئنة مع مافيها من التغيرات الجوية التى لاتخطر على بال من تعود اقليمنا ولكنى ماقدمت فى الحقيقة الى بلاد الغال الا طمعا فى رؤية مناجم الفحم الحجرى اس الصناعة و ينبوع الثروة ومحور العمران فى هذا الزمان ذلك المعدن النفيس الذى يجدر بنا أن نسميه الحجر الكريم والاكسير الصحيح فانه فضلا عن فوائده المتعارفة قد استخرج منه علماء الكيمياء اصباغا باهية متنوعة واعطارا أذكى من جميع الاصناف المعروفة وسكرا يباع فى الصيدليات والدرهم منه يوازى أكثر من ثلاثين من أجود أنواع السكر المعتاد وقد أثبتوا أن حجر الماس من الكربون وبذلك يجوز لاهل البيان أن يقولوا ان الماس من الفحم فى الحقيقة والمجاز (وسبحان من يفتق النور من رتق الظلمات ويخرج الاحياء من الاموات) وفيه غير ذلك من الجواهر والمنافع والمزايا التى ربما أتعرض لشرحها عند الكلام على المنجم الذى زرته بالتدقيق والتفصيل فانى قت من لجولمن

يصحبنى ابن ربة النزل حتى وصلت الى مدينة شيرك (Chirk) على طريق يشبه السكك الزراعيـة فى بلادنا وانعطفت منها الى منجم بقربها

وما تمكنت من زيارته الا بعـد عناء شـديد لان القوم حسبونى فى أول الامر رائدا من طرف أصحاب المناجم الالمانية جئت أسترق أسرارهم وأقف على طرائقهم الى غير ذلك مما يخشاه أهـل الفن الواحـد من بعضهم ولكن المدير لما عرف صـفتى ووطنى واطلع على رقعة زيارتى فتح لى الابواب ومهد أمامى الطرق وأتحفنى بكافة المعـلومات وأعطانى نسخا من التقارير الرسميـة والرسائل الفنية لاسـتعين بها على الاشباع فى هـذا الموضوع ثم قام بنفســه وطاف معى جميع الاماكن وأحاطنى بكيفية العمل ثم أمر وكيـله أن ينزل معى داخل المنجم بعـد أن ألبسنى رداء قصـيرا من الجوخ الغليظ الخشـن وسلمنى هراوة أتوكأ عليها وأسـتعين بهـا على التلمس فى السير داخـل هوة النَفَق الحالكة وأعطانى مصباحا من مصابيح الامان اهتدى به فى السير وأستعين به على النظر ثم قدم لى شـيأ من المرطبات وقال لى (قد صرت الآن من عمالنا فاخضع لنواميسنا فبادر بالعمل بلا مهل) فامتثلت وانحنيت مع الوكيل فى أحد الصناديق الموضوعة على المركبة المعدة

لاخراج الفحم من جوف الارض الى وجهها فهوت بنا المصعدة (Ascenseur) وكان سطح الصندوق الاسفل يفر من تحت أقدامى بمناسبة سرعة الآلة فى النزول حتى رست بنا على بعد ثمانمائة متر عن سطح البسيطة فاستلمنا أحد العمال وفتش جيوبنا لئلا يكون معنا شئ من الدخان أو الكبريت أو المواد القابلة للانفجار ثم فحص المصباح الذى معنا (وكان الوكيل نفسه خاضعا قبلي لهذا الاختبار) وبعد ذلك سمح لنا بالمرور فسرنا من سرداب الى سرداب صاعدين هابطين مقبلين مدبرين بالتواء وانعطاف بحسب اتجاه عرق الفحم فى بطن الارض وكنا نمر على سكك حديدية عليها قطارات مختلفة الاتجاهات بحسب دفع البخار وجذبه بواسطة السلاسل الحديدية وفى الجهات المطمئنة رأينا خيولا تجر العربات مشحونة بالفحم وتتركها بجانب المصعدة فترفعها هذه الى وجه الارض ولهذه الخيول التى لا تنقص عن الثلاثين اصطبلات فى السراديب فيها كل ما تحتاجه من المؤونة والراحة وفى السراديب حنفيات للمياه وتنانير للنيران (فى محلات مخصوصة) وآلات للبخار وفوهة كبيرة عليها آلة عظيمة تدخل الهواء بكثرة زائدة الى هذه الهاويات العميقة وهذا المنجم مركب من دورين أحدهما فوق الآخر فالاول تحت سطح الارض بمسافة ثلثمائة متر والثانى تحته

بخمسمائة متر وقد طفت فيهما ثلاث ساعات ولم يتيسر لى أن أسلك فى كل طرقاتهما لان ذلك يستغرق يومين أو ثلاثة

ولكننى استعضت عن ذلك بالتوجه الى أقصى ناحية وصل اليها العمال واقتنعت بذلك ودخلت الى أبعد نقطة فى كليهما حيث رأيت العمال يقيمون الاخشاب لاسناد السقف حتى لاينهار عليهم ولما كنت بحكم الشرط الذى اشترطه علىّ مدير المنجم أحسب فى هذه السياحة الارضية عاملا من عمال المنجم أمرنى الوكيل بأن آخذ المعول بيدى وأشارك العمال فى قطع الفحم فكان كذلك وأخذت ماقطعته بيدى تذكارا ثم وقفت معجبا باقتدار الانسان واذا بفكر مظلم تولانى فاقشعر منه جسدى ووقف له شعر رأسى اذمر على ذاكرتى كالسهم الخاطف تاريخ تلك الكوارث والقوارع الكثيرة الوقوع فى المناجم وتذكرت أحدثها وهوما كنت قرأته بالجرائد الافرنكية فى مصر فى شهر مارس الماضى من الانفجار الذريع الذى حصل بأحد المعادن فى بلاد البلجيكا حتى انه لشدة الرجة التى احدثها جعل أهل البلاد البعيدة عن موقع هذه الطامة بمسافة خمسة كيلو مترات يتخيلون حصول زلزال عنيف ومالبث الخبر أن انتشر حتى توافد الناس أفواجا الى محل الوقعة الفظيعة وأخصهم أهالى العملة وعيالهم واشتغل أهل الاقدام

والجراءة بترتيب وسائل استنقاذ الارواح من هـذا الموت الزؤام
ولكن اجتهادهم ذهب ادراج الرياح وضاعت مساعيهم سـدى
فقد كتب الله أن تكون هذه الطامة عامة فانهم شعروا بتزعزع جديد فى
بواطن الارض أعقبه صياح رنان (النارَ النارَ) وأبصروا الشرر
يتطاير فى الهواء من بئر التهوية يحيط به دخان كثيف كان يتسارع
الى وجـه الارض نذيرا باعتراك العناصر فى احشائها واجتماعها
على اهلاك من فيها من العملة المساكين بشر أنواع العذاب المبين
ثم انهار أحد جدران بئر التهوية فساعد على اشتداد النيران وقطع
حبال الرجاء فى الانقاذ والفـداء وكان الناس وهم فى حالة اليأس
يسمعون زئيرا شـديدا يخرج من الاعماق ويشعرون باضطراب
وارتجاج وفى بعض الاحيان كانت تهب عليهم روائح خصوصية
وتهاجمهم أبخرة كبريتية فتعلوهم باشتداد الكرب وتوالى الخطب
وتنبئهم بان الحريق آخذ فى الازدياد وانه لامطمع فى استخلاص
ضحايا النار حتى اصفرت الوجوه وذهبت العقول وضاع الصواب
فأقبـل كثـير من الحاضرين وفيهم جم غفير من النساء يترامون
على البئر وقد أحاط به الجنـد ولم يجعوا فى صـد المعتوهـين عن
اللحوق بآبائهم وأزواجهم وأبنائهم وأقربائهم لانقاذهم من مخالب
النار الا بعـد أن آشهروا السـيف البتار وتكاثفت جموعهم

فزحزحوا الناس بقوة السلاح وهم ينظرون اليهم بعيون زائغة تنظر ولا ترى وأفواه تصطك أسنانها وقد انعقد لسانها ووجوه تولاها الذهول واعتراها الخبال فصاروا كالاشباح بلا أرواح ولا أتذكر الآن بالضبط عدد الذين ذهبوا فريسة هذه القارعة ولكنى أذكر أنه يبلغ المائتين وهذه حادثة واحدة من كثير دونها تاريخ المناجم وكنت أتفكر فيها كلها ولم يخرجنى من هذا الحال الا تناجى العمال بلسان الغال فانى لو كنت من البارعين فى فن المنارقات لقلت انه يتركب بحسب هذا البيان (أى النسخة باعتبار بعض المصريين)

قيراط

٨ ألمانى

٢ انكليزى

١٠ لاوندى

٢ يونانى

١ سريانى

١ عربى وعبرى

(مجرب صحيح) ٢٤ ممزوجة مع بعضها ينشأ عنها اللسان الغالى

وحينئذ بادرت بالخروج الى وجه الارض وشكرت أفضال المدير وأنا أرتجف من هول الخطر الذى ألقيت بنفسى فى تهلكته

ولكننى قلت فى نفسى ان الذى يجىء بلاد الانكليز ولا يرى معادن الفحم الحجرى فلا يصح له أن يقول انه كان فى انجلتره أو زار هذه الجزيرة

ثم انطلقت من هذه المدينة (شيرك) الى مدينة أخرى تفرجت فيها على معمل اصطناع الطوب المطبوخ (الآجر) بواسطة البخار وهو معمل كبير يأخذ الطين اللازم من تل كبير مجاور له ثم انتقلت الى مدينة أخرى قريبة منها ورأيت فيها العملة يلعبون بعد خروجهم من المعادن بالكرة بأقدامهم (الفوت بول) وهو لعب رياضى خاص بالانكليز ولهم فيه مهارة غريبة

ومن هنا ركبت القطار راجعا الى شستر وهى فيما بين بلاد الغال و بلاد الانكليز ولكنها تعتبر من الثانية ومع ذلك فأذكر عليها الآن تفصيلا قليلا

مدينة شستر هذه المدينة قديمة أسسها الرومانيون على مصب نهر الدى الذى يمر على لنجوثلن وعدد سكانها ٣٦٫٧٩٤ نفس ولا يزال فيها كثير من بقايا الرومان وأبراجهم وأسوارهم التى هى كشوارع معلقة فى المدينة اعتاد الاهالى على النزهة والرياضة فيها و يبلغ طولها ميلين ومن الامور التى انفردت بها ان برازيق الطريق يكون عليها حوانيت وخلفها ممشى فيها دكاكين أخرى وفوق

الحوانيت الامامية يرتفع الدور الاول من المنازل فيكون الشارع عليه من الجانبين صفان من المخازن وخلف كل منهما ممشى فسيح مواز للشارع وعليه دكاكين أخرى وسقفه هو أرضية الطبقة الاولى من المساكن وفيها كنائس عتيقة بعضها مشيد بالطوب الاحمر وفيها ميدان فسيح تتسابق فيه الخيول فى بعض أيام السنة وخلاصة القول أن لها منظرا انفردت به دون المدائن التى مررت عليها ببلاد المشرق وأوروبا وقد اشتهرت بصناعة الجبن وان لم يكن من طبيعة أهلها فقد بيضوا صفحات تاريخهم بالذود عن حياضها أيام كانت بلاد الانكليز منقسمة الى ممالك صغيرة كثيرة فى عراك مستديم وحروب مستمرة

والى هنا أستوقف اليراع عن الافاضة فى شرح ماعندى من المعلقات والمفكرات فان ماذكرته عن بلاد الغال قليل فى جانب مااستحصلت عليه من الفوائد والمعلومات ولكن القليل دليل على الكثير

الرسالة الثالثة عشرة

العودة الى لوندرة

وفيها اعاء بالمجاز الى نهر التيمس وقناطره والانفاق التي تحت الارض والحدائق والكنائس والقصور وبنك انجلترة ودار الضرب وبرج لوندرة ومحلات البر والاحسان ومؤنة المدينة وميناها وتنويرها ومطافئها وشربها ومصارفها وضواحيها (رشمند بساتينها ووندسور بقصر الملكة ورياضها) ومعرض «مصر القديمة» في لوندرة والصناعة الشرقية العربية فيه واستنهاض الهمم اليها

رجعت من بلاد الغال الزاهرة التي هي في انجلترة بمثابة سويسرة بما يتجلى فيها من محاسن الطبيعة ونضرة الخلوات ونزلت ثانية بعاصمة الانكليز ورأيت فيها مارأيت مما قصصت بعضه في رسالتي الاولى عنها وهي وان طالت بقدر ماطالت فليست في الحقيقة بالنسبة لهذه المدينة الا كالبعوضة بجانب الطود الشامخ ولا يطاوعني قلمي على الانتقال منها الى غيرها ولكنني لايتسنى لي بأي حال من الاحوال أن أفيض في شرح الكلام على التيمس وقناطره الاربع عشرة وأرصفته المنضودة الممدودة على جانبيه آوالانفاق التي تمر تحت قاعه كأن

الآلاف المؤلفة من العربات المختلفة الانواع وقطارات البخار والتراموای والزوارق التی تجری علی وجه النهر کعدد النمل کلها غیر وافیة بحاجات أهل هذه المدینة للانتقال من شاطئ الی شاطئ فقادهم میلهم للاختصار وتوفیر الزمن وتسهیل العمل الی احداث هذه الاعمال الشاقة فان أحدها (تیمز تونل) یبلغ طوله ٣٦٦ مترا وهو عبارة عن ممشاتین معقودتین متصلتین ببوائك واساطین علی مسافات متساویة ویمر تحت قاع الماء بخمسة أمتار وقد بلغت نفقاته ١٥,٣٥٠,٠٠٠ فرنك وكان فی أول الامر مخصصا لافراد الناس ینزلون الیه من سلم مظلم منزلق ارتفاعه ٩١ مترا ولکنه لم یحز من الخلائق اقبالا مع کون أجرة المرور کانت زهیدة جدا وهی بنس واحد (٤ ملیمات) فاشترته شرکة خصوصیة فی سنة ١٨٧٢ ومدت فیه خطوطا حدیدیة تجری علیها القطارات وتتصل بسکة حدید العاصمة وقد کان انشاؤه فی سنة ١٨٢٥ وأما النَفَق الثانی فهو بجانب برج لوندرة واسمه (تَوَرْ سُبْوَیْ) وهو عبارة عن قناة من حدید الزهر قطرها متران وطولها ٣٧٥ مترینزل الیه من سلمتی حلزونیین علی ٩٦ درجة موضوعین علی کل من ضفتی النهر (واجرة المرور نصف بنس أی ملیمان) وکان البدء فیه فی شهر فبرایر سنة

١٨٦٩ واتمامه فى شهر ابريل سنة ١٨٧٠ ولم تزد نفقاته عن ٤٥٠٫٠٠٠ فرنك

وأما الثالث فقد انشأته شركة السكة الحديدية الكهربائية واحتفل البرنس دوغال بافتتاحه فى ٤ نوفبر سنة ١٨٩٠

نعم أنى خصصت هذه الرسالة لذكر بعض آثار لوندرة وعمائرها وتحفها وضواحيها ولكنى لاأجد متسعا للقول على حدائقها العشر التى يضرب بها المثل فى العالم كله ولا على بستان النبات ومافيه من غرائب الحيوانات (وهوملك لاحدى الشركات) ولاعلى كنائسها المهمة مثل القديس بولس وديروستمينستر والهيكل والكنائس الانكليزية والبيع المنشقة عنها والبيع الكاثوليكية والاجنبية فان عددها فى المدينة وارباضها يناهز الالف ونصف الالف ولليهود فيها ٦٠ كنيسا الى غير ذلك من أماكن العبادة العديدة التى اقامتها طوائف دينية لايحصيها الا الله . وكيف يتسنى لى أو لغيرى تلخيص شئ وجيز فى مثل هذه العجالة عن قصور تلك المدينة مثل دار الندوة (البرلمان) وقصر سان جمس وقصر بوكنجم والويت هول (وقد كان فيه اعدام الملك تشارلس الاول) وقصر مارلبورو وقصر كنسنتن وقصر لمبث (وهو مقر رئيس أساقفة الكنيسة الانكليزية) وقد رأيت فيه مصحفا بخط أحد سلاطين مصر

موضوعا فى الكنيسة بجانب الانجيل وغير ذلك من قصور الملوك والامراء أو المخصصة للنوادى والاجتماعات وبمثل ذلك أعترف بانه ليس فى وسعى أن آتى بلمع يسيرة عن الأماكن المدنية والعمائر العمومية مثل جلد هول (الذى هو دار أمنة المدينة) وفى احدى قاعاتها تمثالان عظيمان من الخشب المجوف يمثلان يأجوج ومأجوج وتسع هذه القاعة ٧ آلاف نفس وفيها مكتبة حرة فيها سبعون ألف مجلد وفيها متحف للآثار والمخلفات الباقية من لوندرة القديمة وقد عرضوا فيها امضاء شاعرهم شكسبير على صك مبايعة اشتروه للمتحف بمبلغ لا يقل عن ١٤٥ جنيه وفى الدار تلك العربة التى يركب عليها اللورد أمين المدينـة فى التاسع من شهر نوفمبر يوم الاحتفال بتثبيته وتبلغ النفقات اللازمـة لترميمها ٢٥٠ جنيه فى كل سـنة منذ انشائها فى سـنة ١٧٥٧ أو المنشن هوس (هو القصر الذى يسكن فيه اللورد أمين المدينة مدة سنة انتخابه) أو البنك (ويرد اليه فى كل يوم ٥٠ ألف ورقة قيمتها مليون جنيه فيمزقون أحد أطرافها ويحفظونها مدة ١٠ سنوات ويصدرون غيرها للتعامل وفيه مطابع كثيرة كل واحدة تخرج فى اليوم الواحد ١٦ ألف ورقة مختلفة القيمة وقد بلغ عـدد الورق الذى أرجع الى البنك فى يوم ٨ اكتوبر سنة ٩٢ ٦٧,٤١٧ وقيمتها ١,٥٠٧,٢٧٥

جنيه ورأيت فيه ورقة قيمتها مليون جنيه ولا ثانية لها ورأيت
ورقة تداولتها الايدى مدة ١١١ سنة وبلغت أرباحها المركبة
٦٠٠٠ جنيه وفيه ٤٩ مكتبا ويخفره بالليل قره قول فيه ٣٤
عسكريا وضابط واحد وهو غير قابل للاحتراق وفيه سبائك كثيرة
من الذهب الابريز والفضة الخالصة وفيه آلات لوزن الجنيهات تلقى
بالجنيهات الصحيحة فى مكان وبالتى نقصت بالمداولة والمعاملة فى
مكان آخر وتزن فى الدقيقة الواحدة ٢٣ جنيها وفى كل يوم من
٦٠ ألف الى ٧٠ ألف جنيه وقد كان رأس مال البنك فى أول
الامر ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه وصار الآن ١٤,٥٥٣,٠٠٠ جنيه
انكليزى وقد بلغ عدد الورق الذى صدره البنك فى خمس سنوات
ثم عاد اليه ودفع قيمته ٧٧,٧٤٥,٠٠٠ ورقة بنك نوت تملأ
١٣,٤٠٠ علبة واذا وضعت هذه العلب بجانب بعضها بلغ طولها
ميلين اثنين وثلث ميل ولو وضعت هذه الاوراق نفسها فوق بعضها
لكان ارتفاعها خمسة أميال وثلثى ميل ولو صفت الى جانب
بعضها طرفا لطرف لتكون منها شريط طوله ١٢,٤٥٥ ميل ولو حسبنا
مسطحها لوجدناه يساوى مسطح حديقة الهايد بارك (ومعلوم ان
مسطحها ١٦٠ هيكتار) وقد كانت قيمتها الاصلية عبارة عن

١،٧٥٠،٦٢٦،٦٠٠ جنيه انكليزى وثقلها ٩٠ طونولاطة وثلثا طونولاطة)

ولا أذكر الآن شيأ عن البورصة وأعمالها ودار البوسطة والتلغراف والكمرك ودار الضرب (ويبلغ عدد العملة التى تصنعها فى الاربعة وعشرين ساعة ٥٠٠،٠٠٠ جنيه انكليزى) وكيف يتسنى لى التلميح بكلمتين الى برج لوندرة وما فيه من الاسلحة الفاخرة والحلى المجوهرة أو المتحف البريطانى وقد طار صيته فى الآفاق بكثرة مافيه من الذخائر والاعلاق وتنوع النفائس واختلاف المخلفات مما يجعله فى مقدمة متاحف الدنيا حتى ان غرفة المطالعة فيه لامثيل لها فى العالم كله بل ان مجرد المرور على مافيه من المحفوظات يستغرق نحو الاسبوع بالتمام بل ان برنامجاته وفهارسه هى عبارة عن مجلدات ضخام ويجيء بعده غيره من المتاحف الكثيرة المتنوعة ومعارض الصور والرسوم والفنون والعلوم

وماذا عسانى أقول الآن على نظام البلدية فى هذه المدينة الواسعة أو على ترتيب الشرطة الذين يزيد عددهم عن ١٤،٩٠٠ رجل أو على محاكمها الكثيرة العدد المتنوعة الاختصاصات أو على مدارس الحقوق الاربعة أو على محلات البرّ والاحسان

ودور الثقافة والجمعيات الخيرية المخصصة لتربية أبناء الفقراء فان
عددها يتجاوز الالف ومقدار المبالغ التى تنفقها بما فيها التبرعات
والهبات (والنقوط التى تجمع فى الكنائس) تزيد عن سبعة ملايين
من الجنيهات والمستشفيات فيها على أنواع فنها ماهو عمومى ومنها
ماهو مخصص لبعض الامراض مثل مداواة الطواعين والوقاية
منها وعلل الصدر والربو والرمد وادواء العين وغير ذلك من
الآفات والعاهات ومنها ماهو للمجاذيب (وعددهم فى بعضها ٥٠٠
ولا غرابة) ومنها ماهو للاطفال أو للنساء أو للولادة هذا بصرف
النظر عن الاجزاخانات العديدة التى توزع الادوية احتسابا لوجه
الله وعدد الاسرة فى هذه المستشفيات يزيد عن ٩٠٠٠ ويدخل
بها فى السنة أكثر من ٨٠,٠٠٠ مريض وهى توزع الادوية
مجانا على أكثر من ١,٢٣٠,٠٠٠ نفس وفى بعضها مدارس
للطب والتشريح أو الاقرباذين أو غير ذلك من فروع الطب
وفيها كتبخانات معتبرة ومتاحف متنوعة ومعامل كيماوية وغرف
للطبيعة وبساتين للنبات ومجاميع باتولوجية وغير ذلك وفيها
مراب للايتام قد يزيد عددهم فى بعضها عن ٤٦٠ وقد كان أحد
الماهرين فى صناعة الموسيقى يجيء فيها ويقرع أرغنا فى غاية
الاتقان أهداه له (وهو فيه الى الآن) وكانت الخلائق تتهافت

على هـذا المكان من كل فج لسماع هـذا المطرب الفريد وقد تحصل من أجرة دخولهم مبلغ يزيد على ١٠،٠٠٠ جنيه خصصه للاربي ومن فيه من الايتام ولم يأخـذ منه بارة واحدة

وفي لوندرة فضلا عن ذلك كثير من الاماكن الخيرية وجمعيات البر ومساعدة العملة والسعي في نفع بني الانسان وفيها كثير من التكايا التي يجبر المتكففون على الدخول فيها والاشتغال بما هم أهل له وفوق ذلك ترى هنالك كثيرا من المستشفيات المختلفة الانواع لاجل الجنود البرية والبحرية الذين أصابتهم العاهات

وماذا أقول على المؤنة في مدينة يزيد عـدد السكان فيها عن الخمسة ملايين ونصف مليون وكلهم لابد لهم من الطعام فيها أربع مرات تقـريبا في كل يوم حتى ان ماتستهلكه في العام الواحد يبلغ هذه المقادير

٨٠٠،٠٠٠ ثور

٤٠٥،٠٠٠ رأس من الضأن والعجول والخنازير

(وقد أثبت علماء الاحصاء ان متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكانها في اليوم الواحد يزيد عن ١٤٠ جراما من اللحم)

٩،٠٠٠،٠٠٠ من الطيور وحيوانات الصيد

(أما الاسماك مثل سمك المرجان المعروف فى كتب العرب باسم طرستوج وعند اليونان طريغلا وعند عوام الاندلس المول . ثم السلباج المعروف بالمارماهيج وبالنون وبالانقليس وبثعبان البحر . ثم التن (واسمه كذلك فى الكتب العربية) . ثم السردين واسمه عند العرب العرم . ثم محصولات البحر من الحيوانات الرخوة مثل الجندفلى والقرقله والاسترديا والمحار بانواعه والسرطان الكبير وأبو جلمبو وأبو تكنى والبضاليدس وبراغيث البحر وبلحه والحلزون والسرطان وقنفذ البحر المعروف عند أهل الاسكندرية الآن باسم رتسا ويسمى عندهم أيضا قنشد (ولاشك عندى أن هذه اللفظة محرفة عن كلمة قنفد) وغيرذلك من الاصناف العديدة التى لا أعرف أسماءها فانها تنهال على المدينة بمقادير هائلة لا يتصورها العقل يشهد لذلك أن هنالك ا لافا وآلافا من الزوارق والقوارب لا حرفة لها سوى نقل هـذه الحيوانات الرخوة القوقعية هى والروبيان المعروف عند الفرنساوية باسم هومار (Homard) وقال ابن البيطار (ان المصريين يسمونه فرندس وان أهل الاندلس كانوا يسمونه قرون)

١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ هيكتولتر من اللبن
٢٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ بيضة
١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو جرام من السمن والزبدة
٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو جرام من الجبن
٤٥٫٠٠٠ طونولاطه من أصناف الخضراوات المهمة ومنها نبات الحرف فقط (وهو المعروف عند العرب أيضا بالرشاد وعند الفرنساوية بلكرسون Cresson) مقداره من ثمانمائة الى تسعمائة طونولاطة
٥٠٫٠٠٠ طونولاطه من أنواع الفاكهة
وغـــــير ذلك وغير ذلك وغير ذلك *

أما السوائل التي يستهلكونها فلا تقل عن ذلك بل هي أيضا بنسبة هـذه المقادير الهائلة فانها تتجاوز ١٨٠ مليون لتر في الاربعـة آلاف خمارة والسبعمائة ألف بيت خصوصي ويمكن تقدير المشروبات الروحية بثمانية عشر مليونا من اللترات واذا قابلنا بين النبيذ وبين الجعة (البيرة) وجدناه شيأ لا يذكر بجانبها اذ لا يشرب به الا الاواسط والاغنياء ومع ذلك فكمية استهلاكه في العام الواحد لا تقل عن ٣١ مليونا من اللترات أما الفحم الحجري فيجيء منه في كل عام كميات تزيد على ١١ مليون طونولاطـة

وثلاثة أرباع هذه المقادير الجسيمة ترد عن طريق النهر والباقى فى السكة الحديدية

وأهم أسواقها (وهو سوق سميثفلد) يشغل مسطحا قدره ٣٧ ألف متر وفيها سوق آخر (اسمه سوق البهائم) قد يسع فى آن واحد ٧٠٫٠٠٠ ثور و ٣٫٠٠٠ عجل و ٣٥٫٠٠٠ شاة و ٤٫٠٠٠ خنزير وقد يكون فى بعض الايام مخصصا لبيع الخيول وفيها سوق آخر للسمك والقواقع ليس الا وآخر للاطيار فقط وآخر للخضار والاثمار والازهار دون ماعداها وآخر للخيل وحدها الى غير ذلك مما يطول شرحه

أما التجارة والصناعة والمينا وأحواضها ومخازنها فهى عالم كبير مستقل بنفسه ولا أعلم ماذا أقول عنها الآن بعد أن تحققت أن ميناها هى أهم موانى العالم وأكثرها محطا للسفائن اذ أن متوسط مايرد عليها سنويا يبلغ ٧٠٫٠٠٠ سفينة مجموع حمولتها ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠ طونولاطه وقيمة مافيها من البضائع والارزاق يزيد على مائة وعشرين مليونا من الجنيهات الانكليزية أما الاحواض ومخازن التجارة فمن أهم مناظر لوندرة وأبدعها تجعل للناظر (خصوصا اذا وقف على قنطرة لوندرة ـ لندن بريدج ـ) فكرة فى أهمية العاصمة الانكليزية وجسامتها واتساع نطاقها بما

فيها من المراكب المتراكبة والبضائع المتراكمة والخلائق المتزاحمة ولا يسمح لى المقام بتفصيل قليل عن حركتها الهائلة

وفى المدينة ثلاث شركات متعهدة باضاءتها بالغاز وقد قدره أهل المعرفة بمبلغ ٥٦٠ مليونا من الامتار المكعبة وتستهلك للحصول عليه مليونى طونولاطه من الفحم الحجرى وغاز الاستصباح هذا يجرى فى قنوات مجموع طولها ٤ مليون كيلومتر وتزيد النفقات السنوية عن ٣٫٦٠٠٫٠٠٠ جنيه مع أن المبالغ اللازمة لسقى المدينة بالمياه لاتصل الى نصف هذا المبلغ الجسيم وهناك شركات كثيرة تألفت للاضاءة بالنور الكهربائى وكان قبل هذه السنة قاصرا على منازل الافراد ومخازنهم ولكنه فى أول هذا العام صار استخدامه فى بعض الشوارع المهمة والميادين الاصلية

ويجرنى الكلام على النور الى الحديث على النار فقد كان رجال المطافئ قبل سنة ١٨٣٣ تحت ادارة شركات خصوصية تجارية أو تابعين لبعض فروع الادارة البلدية وكانت نتيجة هذا الافتراق وقوع أضرار بالغة لانهم فى أغلب الاحيان كانوا يتركون النار تفعل أفاعيلها وتلتهم المنازل التى لم تكن مؤمنة عندهم أو تابعة لهم ولكن هذه الشركات اجتمعت كلها فى تلك السنة واتحدت وامتزجت ببعضها فألفت شركة عمومية واحدة لمقاومة

الحرائق واعلم أن لعمالها مهارة لايناظرهم فيها أحد فى الكون الا ماعلمته عن رجال المطافئ فى أمريكا ويستخدمون فى مصلحتهم ١٨ سلكا تلغرافيا و ٧٥ سلكا تلفونيا يجمع بينها وبين بعضها ٥٥ مكتبا اداريا فاذا شبت النار فى بعض المواضع تيسر لهم أن يستحضروا من الآلات والاجهزة كل ما يلزم فى بضعة دقائق وتتصل مراكز رجال المطافئ بدواوين النظارات والمصالح العمومية والمتاحف والمعارض وغير ذلك من المبانى الاميرية بواسطة ٣٨٥ مزولة استغاثة وعدد رجال المطافئ ٧٠٠ ولهم زى مخصوص معروف وعندهم ٤٧ طلمبة بخارية و ٩ طلمبات بخارية عوامة و ٢٢٤ سلم للاستنقاذ من مخالب الحريق وغير ذلك من الاجهزة الكثيرة المتفرقة فى كافة أنحاء المدينة وقد أطفؤا فى سنة ١٨٩٠ حرائق بلغ عددها ٢٥٠٠ منها ١٥٣ ذات أهمية عظيمة ومات فى هذه الحرائق ٤٤ شخصا

وبعد الكلام على النار يجيء بالطبع الكلام على الماء فاعلم أن المياه اللازمة للشرب فى لوندرة ليست من نهر التيمز بل قد تأسست شركات عديدة لجلبها من غدران ونهيرات أخرى فى قنوات هائلة مرفوعة على عمدان عظيمة وقباب جسيمة (مثل الدوامس المعروفة بالعيون التى كانت تستقى منها قلعة الجبل عصر

فى الزمان السابق ولاتزال آثارها باقية الى الآن) ثم تنصب المياه
فى أحواض واسعة ثم ترشح من قاعها بمرورها على أحجار هشة
تعلوها طبقات من الرمل الغليظ والحصى الدقيق وتبلغ كمية المياه
الواردة الى المدينة فى كل يوم بالتعديل المتوسط ٠٠٠و٠٠٠ر١٦٧
لتر منها ٠٠٠و٠٠٠ر٥٠٠ يستعملها الاهالى فى قضاء حوائجهم
ولوازم منازلهم فيكون متوسط مايستهلكه النفر الواحد من سكان
لوندرة ١١٧ لتر من الماء فى كل يوم

وأستطرد بهذه المناسبة الى الاشارة الى مصارف لوندرة وبالوعاتها
فقد كانت كلها تنصب فى أول الامر فى نهر التيمز حتى جعلته
مقرا للاقذار ومنبعا للجراثيم القتالة وأصلا فى تسميم الهواء
وسببا فى ازدياد الامراض وإتلاف صحة السكان وفتك الموت
بهم فتكا ذريعا فان متوسط المواد العفنية التى كانت تنساق
اليه فى كل يوم يبلغ ٠٠٠ر٤٠٠ متر مكعب وفى سنة ١٨٥٥ اجتهد
مجلس شورى العاصمة (البلدية) بدفع هذه المضار ودرس مشروعا
للمصارف يصرف عن المدينة هذه المخاوف ويلقى بهذه القاذورات
الى ماتحت لوندرة بستة وعشرين ميلا فى النهر الى البحر بواسطة
طلمبات بخارية قوتها ١٠٠٠ حصان بخارى ولكن هذه
العملية لاتحصل الا فى وقت الجزر أى عند نزول مياه النهر فى

البحر فيأخذ التيار هذه القاذورات وهذه العفونات بعيدا عن المدينة ويذهب بأضرارها أدراج الرياح وتبلغ كمية المواد البرازية الملقاة بهذه الكيفية فى النهر ٣٢٣٫٧٣٤ مترا مكعب فى كل يوم

وليس هذا كله شيأ فى جانب مايمكن أن يقال على لوندرة لكن لابد من الانتقال الى ذكر طرف وجيز على بعض ضواحيها مثل رِشْمُنْدْ فانها مدينة صغيرة تختال فى حلل الجمال واقعة على الضِفَة اليمنى لنهر التيمز وعلى منحدر تلال بهجة فيها غابات ومنازل خلوية تبتهج العين برؤيتها وفيها قنطرة بديعة وآثار قصر قديم وهى مشهورة بصناعة فطير يجبن يسمونه (بنات الشرف) لان وصائف مليكة الانكليز هن اللاتى اخترعنه وأشهر مافى هذه المدينة هو روضها الاريض الكائن على هضبة فسيحة وفى وسطه برك كثيرة تبدو منها للناظر مشاهد تروق النواظر ويخرج القوم الى هذا الروض للرياضة فى فصل الصيف واستنشاق النسيم الصحيح العليل وخلاصة القول ان وجودها على مقربة من لوندرة نعمة كبرى للنازلين بها والمقيمين فيها بل برهان جديد على أن الانكليز ينتقلون من الطرف الى الطرف ولا يعرفون الوسط

وأما وندسور فهى مدينة تبعد عن لوندرة ٢٢ ميلا تقريبا

وعدد سكانها ١٢٫٢٧٨ وأهم مافيها هو قصر الملكة المعروف باسمها وهو عبارة عن قلعة حصينة ولا يشبه قصور الملوك الا بما حواه من بعض الزخرفة والرسوم ولكنه فى نظرى لايضاهى أقل قصر من القصور الملوكية التى شاهدتها بايطاليا بل إن أفخم مدخنة (وجاق) للاصطلاء فيه هى أقل من أقل مدخنة فى قصور الجيزة والجزيرة ونحوهما مع عدم لزومها فى بلادنا ، شدة احتياجهم لها فى انجلترة وقد زرت الاصطبلات والعربخانات الملوكية ولكنى أستغرب كيف ان نفقاتها بلغت ٧٠٫٠٠٠ جنيه انكليزى نعم انهم لم يطلعونا على عربات التشريفة الخاصة بالملكة ولكن عربات معيتها وحاشيتها يمكننى أن أقول انها أقل من نظائرها فى المعية الخديوية السنية وكذلك الخيول فانها وان كانت من الأصائل البالغة فى القوة والجمال ولكنى (وان لم أكن من أهل هذا الفن) أقدر أن أقول انها أقل من الجياد الاصائل التى عند سعادة على باشا شريف وأما بناء الاصطبلات نفسه فأقول ولا أخشى تكذيبا انه أقل زخرفة واتقانا من الاصطبل الجميل الجليل الذى ابتناه حضرة عزت بك القاضى بالمحكمة المختلطة فى سرايه التى بجانب السراى المنيرة وان كان هذا صغيرا جدا فى جانب جسامة ذاك

أما الحدائق التى فى القصر وحواليه فهى من أبهى مايراه الانسان وأجمل منها تلك الغابة البعيدة عن مدينة وندسور قليلا المعروفة باسم (فرجينيا ووتر) والذى يزيد فى بهجتها أنها كانت فى أول الامر عبارة عن مستنقعات تبعث بالعفونة الى الهواء وبجراثيم الامراض الى ماحولها من الجهات فحولوها ونظموها ودبروا تصريف الماء منها واليها حتى أصبحت جنة تسر الناظرين وسبحان من يغير ولا يتغير تبارك الله رب العالمين

وقبل أن أختم هذه الرسالة أرى من الواجب علىّ ذكر معرض أقامه بعض الافراد فى مدينة لوندرة وسماه (نياجارا هول) ولكنه يفرّج الزائرين فيه الآن على مدينة منف عاصمة الفراعنة أيام مجدها وعظمتها ولا أقدر أن أوفى صانع الرسم حقه من المدح على تصوير القصور والاشجار والاصنام والمعابد والنيل والاهرام وأبى الهول والاسرائيليين حين خروجهم من مصر وغير ذلك فانه أبدع كل الابداع حتى ان الرائى يتخيلها مجسمة للعيان بعيدة عن بعضها كما فى الطبيعة بأحسن شكل وأكمل أسلوب وكل ذلك على قطعة كبيرة من القماش تحيط بالمكان الذى يقف فيه المتفرج معجبا بهذه الدقة فى العمل وهذا التناهى فى الاتقان وسأشرح الكلام عليها فى الرحلة ان شاء الله فقد رحب بى صاحب

المكان ترحيبا خصوصيا لكونى من المصريين ولكونه من اعضاء المؤتمر وأتحفنى بجميع الاستعلامات اللازمة وأطلعنى على جميع التفاصيل التى لايطلع عليها الجمهور بما استوجب جزيل شكرانى وجليل امتنانى

وأغرب مارأيته فى ملحقات هذا المكان رجل من اخواننا أبناء الشرق واسمه المعلم الياس ليان حلوة قد برع فى أعمال النقش على الخشب بالطرق الشرقية القديمة التى كادت تندثر فى هذا الزمان وقد رأيت له من الاعمال ماأدهشنى اتقانها ونظامها وتناسقها مما جعل أهل الفن من الاوروباويين الذين يقدمون الى هذا المكان يعترفون له بالبراعة والاقتدار وقال لى انه يعد جميع هذه المصنوعات لمعرض أمريكا القادم تشريفا للشرق وبنيه ورأيت فيه من العواطف القومية والاحساسات الوطنية مازاد فى اعجابى به وفوق ذلك فهو خبير بلعب السيف والنقر على آلات الطرب وقد تأثرت حينما رأيته محافظا على محبة ملته ودولته وعادات أهله وبلدته ووددت لو أن أهل الشرق يلتفتون لصنائعهم ويشجعون القائمين بها لكى لاتزول وتصبح أثرا بعد عين خصوصا لما رأيت أمم الغرب يتفاخرون بصناعاتهم الخاصة بهم وبيراعتهم فيها على من عداهم وحكوماتهم تساعدهم على الارتقاء والتفنن فيها حتى يفوقوا

أمثالهم فتكتسب بذلك أوطانهم حسا ومعنى مكاسب لاتقدر
وودت أيضا لو كانت ظروف الاحوال تساعدنى على مساعدة
هذا الرجل وأمثاله من أهل بلادنا حتى يكون لها بهم و بأمثالهم
شأن رفيع فى سوق الحضارة ومعرض العمران الذى سيقوم فى
شيكاغو وعسى أن يكون لهذا النداء صدى فى الاوطان لما وراءه
من المنافع التى لاتنكر والله يهدى من كان له قلب أو ألقى السمع
وهو شهيد .

الرسالة الرابعة عشرة

السفر من انجلترة الى فرنسا

عن طريق دوفر وكالة

وذكراميان

مبارحة لوندرة

لقد احترت والله حينما اخترت الانتقال من الكلام على لوندرة بعد الاطالة فى الكتابة عليها والتوسع فى القول عنها بمقدار ماوصلت اليه يدى فى الرسالتين الخاصتين بها فانى لاأزال أجد للشرح مجالا يستغرق رسائل ضافية الذيول بل مجلدات تملأ المكاتب وتشحن الاذهان بالغرائب وتذكر من يتذكر بما يمكن الانسان أن يصل اليه بالاجتهاد بمفرده أومع استعانته بابناء جنسه وتجلو على أبصار أولى البصائر بعض ماأودعته القدرة الالهية فى العوالم الطبيعية من القوى التى يتوصل العقل لاستكناه خباياها واستكشاف أسرارها ولكنى أرى بالرغم عنى وجوب الانتقال من هذا الموضوع مع ماأتيته فيه من التقصير مضافا الى مافى ذهنى من القصور

التعصب لتساهل المطلقين

على أنى لاأرى لى مندوحة فى إغفال حادثة خطيرة وقعت بالمدينة قبيل مبارحتى لها فلابد لى من ذكرها فى هذا المقام ولو لتأييد ماقلته عن هذه الامة من ميلها للاطراف وغرامها بالتناقض فى كل

الاحوال الادبية بل المادية فقد سبق لى أثناء الكلام على دياناتهم أنهم يحترمون جميع المذاهب والعقائد ولكنهم يبغضون المذهب الكاثوليكى بغضا ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف وانهم يكرهون البابا كراهة التحريم فاسمع الآن ماحصل أثناء انتخاب اللورد امين المدينة

اجتمع رؤساء الطوائف وأكابر التجّار لانتخاب شيخ لهم فكان المختار هو المستر ستوارت كيلّ فقام البرتستانت واعترضوا وصخبوا ولجوا بالسخط وهاجوا وماجوا وكتبوا استرحامات كثيرة وقع عليها الالوف والالوف من أهالى لوندرة يسألون فيها الملكة أن لاتوافق على هذا التعيين وأن تصدر أمرها باعادة الانتخاب فانعقدت جمعية لفصل الخلاف فقال قائل منهم مانالت لندرة حريتها وماتمتعت بامتيازاتها الا بعد أن أهرق البروتستانت دماءهم فى هذا السبيل فمن العار على العاصمة أن يكون شيخ مشايخها منتميا الى الكرسى البابوى وعضده فى هذا الرأى كثيرون من المجتمعين ولكن المعتدلين فازوا بالغلبة بعد أن طالت المشاحات وتعارضت المشاحنات فانهم قالوا قد امتازت انجلترة بحب الحرية فى العمل وان لوندرة مدينة الحرية الدينية وهذه المشاجرات لاتليق بامثالهم فقد سبق أن كان شيخ مشايخ لوندرة

اسرائيليا فكيف يجوز ذلك ولايصح فى شرع المنصفين أن يكون
كاثوليكيا فألزمتهم الحجة وتقررت الرياسة للرجل ثم اذا نظرنا الى
المختار نفسه نراه أشد تعصبا من خصومه فقد قرر أنه لايعترف
الا بالبابا ثم بالملكة وهى كلمة لم يجسر على التفوه بها من قبله
انسان ولذلك رفض الحضور الى كثير من الاجتماعات الدينية
جرت العادة بان يحضرها اللورد أمين المدينة منذ القديم وقد أبى
أن يذهب بموجب وظيفته الرسمية الى الكنيسة الفلانية والمعبد
الفلانى وأصر فى عدم الذهاب بنفسه وفى ارسال مندوب من
قبله فانه اشترط عليهم أن لايكون له معاون ينوب عنه فى هذه
الامور الرسمية فهلا ترى من أغرب الغرائب شدة تمسك أولئك
وعدم تنازل هذا الى هذه الدرجة حتى كان كل من الفريقين
على طرفى نقيض بحيث يكاد الانسان يثبت الحق للبروتستانت
فى اعتراضهم على نصب شيخ يأبى أن يسايرهم الى هذا الحد فى
شعائرهم الدينية ولو حرمة للعادات القديمة والاصول المرعية

نات أمين
ينة لوندرة

ولما كنت فى باريس وافتنى الجرائد فى ١٠ نوفبر منبئة بانه
فى اليوم الذى قبله تم الاحتفال بتثبيت اللورد أمين المدينة فى
هذه السنة ولكون الرجل من الكاثوليكيين وهذه أول مرة
انتخب فيها كاثوليكى للقيام بهذه الوظيفة المهمة عقيب الانشقاق

الذى جعل للمذهب البروتستانتى السيطرة فى انجلتره كان للاحتفال أهمية خصوصية وقد بلغت أكلافه ٢٥٠٠٠ فرنك وهذا الرجل (ستوارت كيل) من الثروة والغنى والعلم بمكان ولكنه مهما كان ايراده لايمكنه أن يقوم بالمصاريف الباهظة التى يستوجبها مركزه اذالم تساعده لجان الطوائف الحرفية والصناعية فى لوندرة والدليل على ذلك أن سلفه فى السنة الماضية صرف ٣٠٠٠٠ فرنك فى أمور متنوعة وقد بلغت ولائم الغداء والعشاء التى أقامها احتفالا باللجان الرئيسية لمدينة لوندرة ١٠٠٠٠٠ فرنك وبلغت نفقات الوليمة التى أعدها احياء لعيد الملكة ٣٧٥٠٠٠ فرنك وأما المأدبة التى أقامها ابتهاجا بنجاة البرنس دوغال من المرض فقد بلغت مبلغا يفوق حساب الحاسبين فانها أوجبت عليه صرف ٦٧٥٠٠٠ فرنك مع ان مرتب الوظيفة فى السنة هو ١٠،٠٠٠ جنيه انكليزى ليس الا

مصاريف الانتخابات

ولا بأس من ذكر بعض أرقام فى هذا المقام تدل على ماأنفقه القوم فى سنة ١٨٩٢ لاجل حصولهم على الانتخاب وانتظامهم فى سلك أعضاء البرلمان فقد كان عدد المترشحين له فى لوندرة وحدها ١٣٠٧ من الاشخاص وبلغ ماأنفقوه من المال لاستمالة العامة ولنوال الاصوات بتقديم المآكل والمشارب

وطبع الآراء والافكار ونحو ذلك مبلغ ٩٥٨٥٣٢ جنيها انكليزيا ولم ينتخب منهم الا ٦٧٠ فقط وقد بلغ ما أنفقه واحد منهم ٩٠٠ جنيه انكليزى أوصلته الى نوال ١٤٦١ صوتا فيكون ثمن الصوت الواحد عليه ١٢ شلنا (٦٠ قرشا صاغا) وبلغت نفقة الحصول على الصوت الواحد فى بعض الجهات ٣٢٣ فرنكا (نحو ١٢٣٥ قرشا صاغا) ومع ذلك لم يفز بالانتخاب ذلك الذى أنفق كل هذا المال . أما مشاهير القوم فلم ينفقوا شيأ زائدا عن المعتاد بالنسبة لغيرهم فان غلادستون أنفق ٩٤٥ جنيها والسير وليم هاركور ٤٢٥٧٥ فرنكا — وهذا كله خلاف النفقات اللازمة لتمهيد الانتخاب فتأمل وارجع بنا الى الموضوع

القيام من لوندرة — قمت من لوندرة فى مساء ١١ اكتوبر وركبت القطار بالليل كما جرت عادتى للاستكثار من الوقت وعدم ضياع الفرص هباء منثورا فوصلت مدينة دوفر فى منتصف الليل وكان فى امكانى ركوب متن البخار والتوجه توا الى فرنسا ولكننى آثرت رؤية دوفر وتمضية نصف نهار بها كى أودع فيها انجلترة بعد أن أشاهد ما خلفه الرومان فى هذه المدينة الساحلية من الآثار وما أحدثه الانكليز من موجبات التحصين والدفاع

فعوّلت على النزول بها وما افترّ ثغر الصباح حتى تجوّلت فى المدينة وطفت انحاءها مع دليل من أهلها واليك ماوقفت عليه فيها بالاجمال

عموميات على دوفر

هذه المدينة لايزيد عدد سكانها عن ٣٠٢٧٠ من النفوس وهى ذات موقع معجب فى نهاية واد رائق وتعلوها أجراف عالية من الصخور تحيط بها من كل الجهات وكان أوّل شئ عنيت به بعد التجوال فى طرقاتها وميادينها أنى صعدت على جبل عال فوقه قلعة حصينة ترتفع عن مستوى سطح البحر بثلاثة وتسعين مترا ورأيت فيها كثيرا من المبانى القديمة الرومانية ممتزجة بصروح أقامها الانكليز لتكميل وسائل الدفاع فى هذه النقطة الحربية المهمة وأقدم جزء فى هذه القلعة الممتدة بغير انتظام على مسافة ١٤ هيكتارا هو البرج الرومانى وارتفاعه ١٢ مترا وشكله ثمانى من الخارج مربع من الداخل وليس فيه سلالم تسمح بالصعود الى قمته وقد وضعوا فيه ناقوس الكنيسة العسكرية التى الى شرقيه وربما كان الرومان يستخدمونه فى ارسال النور الى المراكب القادمة بالليل وفى المخابرة معها برايات الاشارات حينما يكون قدومها بالنهار أما الكنيسة فان أساسها يدل على أنها من صنع السكسونيين (قدماء الانجليز) وهى من أقدم العمائر

الدينية التى فى بلاد انجلتره وأما المبانى النورماندية فهى كثيرة جدا وأهمها صرح يرى على مسافة بعيدة فى البحر وقد كانت الشمس طالعة فتيسر لى وأنا فوقه رؤية شطوط فرنسا بارشاد الدليل قبل منتهى الافق بقليل وقد توجهت الى ثكنة أى قشلاق هناك ورأيت العساكر فى حالة التعلم والتمرن على الحركات ولم أستنكف من زيارة المطبخ بل انى عجبت لنظافته واتقانه وجودة المأكولات المخصصة للعساكر الانفار مما يغبطهم أو يحسدهم عليه آلاف وآلاف من أهل انجلترة الذين يموتون جوعا فى كل يوم ثم زرت خزانة السلاح وما فيها من المخلفات الحربيـة والغنائم التى أخذها الانجليز من أعدائهم فى ساحات الوغى البرية والبحرية ورأيت فيما بين المدافع الكبيرة مدفعا طويلا أرسلته احدى ملكات هولاندة (الفلمنك) هدية لانكلترة وعليه أشعار منظومة على لسان حاله بمعنى انه يرسل القلل الى الاعداء فيردهم على أعقابهم خاسرين ويبعث بمقذوفاته الى القلاع والحصون فينسفها عن آخرها ثم نزلت من طوابى هذه الروابى الى أهم ميدان فى المدينة فرأيت موسيقى تصدح فى ضحى النهار وعلمت أن مجلس البلدية هو القائم بنفقاتها لايجاد الطرب والانشراح فى المدينة على الدوام

حال المفارق وطنه والقادم عليه ومن لا يزال بعيدا عنه

ولكنى لم يسمح لى وقتى بتشنيف آذانى الشرقيـة بنغماتها الغربية لان القطار حضر من لوندرة وفيه جماعة المسافرين الى قارة أوروبا فلحقت بهم واتبعت خطواتهم حتى وصلنا السفينة وتبوأ القوم مقعدهم منها وأخذت أطوف جوانبها وأعلو ظهرها لرؤية المنـاظر وتعهد ماحوالىّ من المعاهد وما هو الا ان أبحرت حتى رأيت أغلب الحـاضرين قد انقسموا قسمين بقى بعضهم فى مؤخرها وذهب الآخرون الى مقدمها وكان الفريق الاوّل يطيـل النظر الى المـدينة وأطرافهـا وأبراجها والفريق الثـانى يحـدق النظر والنظارات الى الامام والى أقاصى الافق وبقيت أطوف ذات اليمـين وذات اليسار وأدفـع بخطواتى الى الامام ثم أكر راجعا الى الخلف الى أن أدركت بعد سماع تلاغى الفريقين أن أهل الخلف من أبناء الجزيرة يحيون بلادهم ويتزوّدون منها بنظرة أخـيرة وأن أهل الامام اشـتد بهم الهيام للتعجيل برؤية بقاعهم ولكن الضباب يصحبه السحاب انتشر بأقرب من لمح البصر فكان يحول دون ادراكهم الوطر غير انه لم يثن عزيمتهم عن التكرار فى اطالة الانظار وانشاد الاغانى والاشعار والترنح لقرب الوصول من الديار ثم استمر الطرفان على هذا الشان حتى انتصف الطريق فبدت صخور فرنسا وشطوطها كأنها أشباح تتظاهر فى ظلال الخيال

وحينئذ أخذ الانكليز يقتربون من أواخر السفينة بقدر ما أمكنهم مستعينين بآلات التقريب كأنهم يسألون تلك الجزيرة بل الام الحنونة أن تبقى محافظة عليهم مراعية لهم فى غربتهم ناشرة لواء حمايتها عليهم أينما حلوا وأينما ساروا وأما أنا فكنت فى هذه الحال أرسل أشعة القلب وانظار الفؤاد الى ديار ألفتها وربوع نبت بها وأقوام ترعرعت بينهم قد شبوا على المكرمات واستقوا من نيل الكمالات فحييتهم على البعاد تحية ممزوجة بخالص الوداد والاخلاص وكلفت النسيم بالتسليم على خير أمة أخرجت للناس

منظر المطر فى البحر

ولما اقتربنا من شطوط فرنسا رأيت فى الافق شيأ يشبه الاحبال والاسلاك قد وصلت بين الارض والسماء وبعد تحقيق النظر علمت انه المطر فبقيت أتأمل فيه وأسبح مرسله ومنشيه حتى ألقت السفينة مرساها وقد كان باسم الله مجراها ومرساها فان البحر كان برّا بنا ولم يمسسنا بأدنى أذى والحمد لله

دخول فرنسا

ولما نزلت بكاله فضلت التعريج بأميان (Amiens) على التوجه الى باريس لكى أزور كنيستها الجامعة التى طار صيتها فى الآفاق وهناك وجه آخر حملنى على النزول بها فانى أردت أن أزور هذه المدينة التى كان لاحد أبنائها يد عظيمة فى أكبر المصائب

التى دمرت الانسانية وخربت الديار وعفت الآثار فان رجلا منها كان سببا فى ايقاع أشد فتنة وقعت واستدامت مدة طويلة بين الغرب والشرق بل بين النصرانية والاسلام وذلك الرجل هو المعروف بيطرس الناسك أو الراهب (Pierre l'Ermite) وأصل اسمه كوكوبترو وأصله من هذه المدينة فخرج منها طالبا زيارة بيت المقدس فكانت هذه الزيارة سببا فى حمله أهل أوروبا على حمل السلاح ومقاتلة المسلمين بكل ما استطاعوا فهلكت ملايين منهم فى نفس بلادهم وفى أرض آسيا الصغرى والديار المصرية ووقع فى هذه الحروب الصليبية من الوقائع ماتقشعرله الابدان وتذوب من هوله الاكباد وسبب ذلك كله رجل واحد أخذ فى تهييج النصارى وزعمائهم وجعل يغريهم على الايقاع بالمشرقيين واهلاكهم حتى كان ما كان من الحروب الصليبية الشنيعة التى اترك تفاصيلها للمؤرخين وأرجع لموضوع الكلام

أمضيت الليلة بأميان ولما جاءت كتائب النور كنت فى طليعتها وطفت المدينة ومتاحفها ومكاتبها وآثارها مما لا أجد مندوحة عن الاشارة اليه بالايجاز فى هذه الرسالة كما سيأتى

عموميات على أميان

هذه المدينة متقادمة فى العهد بحيث لا يتيسر لاهل التاريخ تعيين الوقت الذى ظهرت فيه ولا معرفة الذين وضعوا قواعدها ورفعوا معالمها واها فى تاريخ فرنسا الحربى فخر أثيل وذكر جميل رقد توجه أهلها فى الزمان العتيق لمحاربة انطيوخوس ملك الشام ورجعوا حاملين ألوية التمدن مما اكتسبوه فى آسيا من العرفان وعدد سكانها الآن ٨٣٦٤٩ نفسا وفيها جمعية للفنون الادبية وبستان للتجارب ومدرسة زراعية عملية وفيها ادارة تلتقط الاطفال والايتام والمعتوهين الفقراء وتقوم بلوازمهم وفيها برج قديم مظلم اسمه بفروا قد التهمته النيران فى كثير من الاحيان وهو حبس للبلدية وفيه ربيئة يقيم به على الدوام للانذار بما يقع فى المدينة من الحرائق فاذا رأى آثار النار فى احدى الديار دق جرسا زنته ١١٠٠٠ كيلوجرام فيبادر رجال المطافئ لاخماد أنفاسها وتلافى اتلافها وهم يستخدمون هذا الجرس أيضا فى المواسم والاحتفالات وفيه ساعة كبيرة جدا لتعيين الوقت بصفة رسمية وقد صعدت الى قته ولكن ظلمته الداخلية أحدثت فى انزعاجا لا يمكنى أن أصفه الآن مع ان شكله من الخارج أنيق ومنظر المدينة من أعلاه رشيق فلله هذا البرج قد جمع بين الانذار بالشرور والتبشير بالسرور وجوفه مستودع للظلام وجسمه محفوف بالانوار

فظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب أو كأنه من أعمال الانكليز لأستجماعه بين الضدين

وأما المكتبة العمومية المعروفة بمكتبة الخط (بضم الخاء) فان أهميتها تزيد عن حاجات المدينة اذ فيها ٥٠٠ كتاب بخط اليد وأكثر من ٨٠٠٠٠ مجلد مطبوع ومما يستحق الذكر فيها أن أرملة الكونت روليسكا كير (وهو من أبناء المدينة) تبرعت للمكتبة بجميع الكتب التى خلفها زوجها (وقدرها ١٥٠٠٠ مجلد) مع ما يتبعها من الدواليب والادراج والتحف القديمة والصور الثمينة وأغلبها له علاقة بالرموز النصرانية والمخلفات الدينية العتيقة والقسم المهم من هذه الكتب هو عبارة عن مجموعة للسياحات فى الارض المقدسة وفى الكتبخانة تماثيل كثيرة لأهم رجال المدينة الذين خدموها وأخص بالذكر منهم تمثال الموسيو بوفيللى وسأتكلم عليه بعد قليل ومن أعجب ما رأيته فى الحديقة العمومية بهذه المدينة جذع شجرة نخرة عليها بعض أغصان نضرة وفيها تجاويف كما يشاهد فى الاشجار العتيقة التى نزل بها البلى وما زالت فيها قوة الحياة ولكن هذا الجذع وهذه الاغصان ليست الا من الصاج والاسمنت اصطنعها بعض المتفننين بناء على اختبار جعلت له المدينة مكافأة عينتها ومن ذلك أنى رأيت فى دار بعض الافراد تمثالا

تخيما من المرمر الناصع يمثل وجهاء المدينة وعظماءها الذين فاقوا غيرهم فى فنون الرسم والعمارة والتصوير اصطنعه ذلك الرجل على نفقته بقصد وضعه فى الميدان العام ولكن المجلس البلدى رأى من المحذورات مايمنعه عن قبول هذه الهدية النفيسة فوضعها الرجل فى داره بحيث يراها المارة

وقد رأيت فيها ملعبا للخيول والحيوانات المستأنسة (سيرك) وكان مبنى بالآجر ولكنه مكسو بطبقات من الاسمنت بحيث تمثل للناظر أنه مشيد كله بأحجار النحت والدستور والرخام وهو من الاهمية بمكان عظيم ينطق بما لمهندسيه من المهارة والجراءة والاقدام فانهم نظموه بحيث يمكن بسهولة وفتية تحويله الى قاعة فسيحة مثل القاعات التى فى قهاوى الملاهى والمغانى وتسع ٣٥٠٠ متفرج وأما زخرفة الجدران فحدث عنها ولا حرج وأما تراكيب الحديد المستند عليها السقف من غير ارتكاز على الارض فى قاعة بهذا الاتساع فانها تدهش الناظر بل تخيفه وتلزمه الاقرار بابداع الصانع وهى مرتبة بحيث يمكن للجمهور الخروج منها فى برهة قصيرة اذا وقع اضطراب أو حدث طارئ وهى تضاء بالليل بالنور الكهربائى ترسله اليها آلات موضوعة تحت الارض فى غاية النظام والاحكام

ودخلت فى ملعب آخر أقامه بعض الافراد لعرض الحيوانات المفترسة وتسخيرها فى الالعاب امام الجمهور وانما أردت بهذه الاشارة تنبيه الاذهان الى صاحب هذا الملعب فانى سأشرح الكلام عليه فى الرحلة وأبين مانا له بالجد من المجد حتى صار شيأ مذكوراً ونال الرعاية من الملوك والامراء بعد أن كان فقيرا معدما ويتيما مهملا

وقد استخدمت السكة الحديدية بعض الخنادق التى كانت حول المدينة لمسير قسم من طريق القطارات فيها والبعض الآخر نظموه سككا ودروبا سلطانية كما فى باريس وأغلب مدائن فرنسا

تجارة أميان وصناعتها

وتدور تجارة المدينة وصناعتها على الاقمشة من جميع الاشكال والانواع والقطيفة الخاصة باللباس وبالأثاث وغير ذلك وفيها مغازل للكتان يشتغل فيها نحو ٣٠٠٠ من العمال وأما مغازل الصوف فيشتغل فيها ١٢٠٠ عامل وفيها غير ذلك من أنواع التجارة وأصناف الصناعة مما لا حاجة لذكره

التعليم بأميان

وفيها أماكن لتعليم الالمانية والانكليزية للرجال والنساء مجانا فى ساعات معينة وأيضا لتعليم الميكانيكا التطبيقية ورسم صور الآلات وقانون التجارة وفن التشريع الصناعى وفن امساك الدفاتر

فى الصنائع والجغرافيا الصناعية والنسيج بالنظريات والنسيج العملى وتطبيق الكيمياء على الصباغة وفن الصباغة ومعالجة الاصباغ والموسيقى وفن تفصيل القطيفة وغير ذلك مثل الرسم الابتدائى والتصوير بالجبس ونقش الاحجار والرسم التقليدى والتشريح وتاريخ الفنون والرسم العملى والرياضيات وفن الرسم (لاجل البنات) الخ وليس على الطالب الا أن يشعر كاتب أسرار أمين المدينة لنوال تذكرة يكون دخوله بمقتضاها فى الاوقات المعينة — وفى المدينة مدارس منتظمة للعلمين والمدرسين (بدرجاتها الثلاث) وللفنون الصناعية والحرفية وفيها ١٦ مدرسة ابتدائية للصبيان و ١٧ للبنات و ١١ مدرسة للامهات ومدرسة لتعليم الصنائع الخاصة بالحديد والاخشاب وأخرى للطب والصيدلية وأخرى للموسيقى وأخرى للفنون المنزلية الخ

عموميات على أميان

وفى اميان كثير من التكايا المخصصة للطاعنين فى السن من الذكور والاناث والايتام والاطفال الذين يتركهم أهلهم بعد الولادة وللمصابين بالادواء العقيمة العضالة وللعدمين من الجنسين وكفيفى البصر أو المصابين بأمراض فى عيونهم وغير ذلك

وفيها بستان للنبات يحتوى على قاعات للتاريخ الطبيعى

وعنابر لتربية نباتات البلاد الحارة وتعطى فيه دروس عمومية فى علم النبات

وفى المدينة ٥ جرائد يومية و ٧ أسبوعية منها واحدة نصف أسبوعية وواحدة دينية وواحدة زراعية وفيها غير ذلك من المنشورات الدورية شئ كثير وفيها ثلاثة متاحف أحدها عام للفنون والصنائع والثانى خاص بالاطيار والثالث للتاريخ الطبيعى وسأتكلم عليها فى الرحلة ان شاء الله

وفى المدينة خمسون قنطرة تصل أطرافها ببعضها لان نهر السوم يشقها من أولها لآخرها وأهمها سبعة

تكية المجاذيب والعميان

ومن أهم ماينبغى ذكره ورؤيته فى هذه المدينة دار المجاذيب وتكية العميان فان المسيو بوفيللى المذكور أوصى عند موته بمبلغ ٥٠٠,٠٠٠ فرنك لتشييد البيمارستان وبمثله لانشاء تكية للعميان يكون فيها أقسام للمتزوجين وأخرى للعزاب والارامل من الجنسين ومدرسة للبنات وأخرى للصبيان وقد زرت تكية العميان بنوع خصوصى لانتشار الرمد فى بلادنا وتفقدت كل مافيها من الترتيب والنظام بارشاد حضرة ناظرها فانه هش للقائى ورحب بى وقدم لى كل ماطلبته منه من البيانات ولكن لايسمح لى المقام بسردها الآن فأدخرها الى مابعد وأتكلم على الكنيسة الجامعة وبها تكون خاتمة رسالتى هذه

الكنيسة الجامعة بأميان

أول من أدخل الديانة النصرانية الى هـذه المدينة رجل اسمه القديس فيرمان فى سنة ٣٠١ ثم حكم عليه بضرب عنقه فى سنة ٣٠٣ فى قصر قديم من بناء الرومان وبعد ذلك دفنت جثته خارج المدينـة وهو أول أساقفة أميان ثم توالت الايام وتناسى الناس خبر ذلك الذى جاء مبشرا بالانجيل حتى ظهرت كرامات على ماير ويه القوم وتتناقله الافواه فاستدل بها الاسقف التاسع واسمه القديس سوق على قبر القديس فيرمان ولذلك تبرع أهل أميان والمدن المجاورة لها بهدايا كثيرة وتحف نفيسة لبناء كنيسة جامعة من الخشب داخـل المدينة باسم القديس فيرمان فجاء النرمانديون (ويعرفون عنـد عرب الاندلس باسم المجوس) فى سنة ٨٨١ وأحرقوها فأعادها أهلها ثم التهمتها النيران واستمر الامر على هذا الحـال من تعمير وتدمير حتى كانت سنة ١٢١٨ فاحترقت عن آخرهـا ولم يبق لها أثر فى الوجود فلم تمض سنتان حتى شرع القوم فى وضـع الحجر الاول من الكنيسـة الحاليـة وفى سنة ١٢٥٨ حصـل حريق أتلف بعض أجزائها ووقعت الصاعقة فى سـنة ١٥٢٧ على ناقوسها فحطمته تحطيما ولكن أهلها رمموا ذلك وأصلحوا ماأفسـد الدهر ومسطح الارض التى تشغلها الآن عبارة عن ٨٠٠٠ متر وسمهما يرتفع عن أعلى

نقطة من سطحها ٤٤ مترا ونصف متر وفوقه صليب من الحديد
ارتفاعه تسعة أمتار وفيها من الداخل ١٢٦ سارية تتكئ عليها
قبابها وعقودها وأما شبابيك الزجاج ففيها تصاوير وألوان تدهش
الانسان وكذلك الارغن والوردات الزجاجية الهائلة التى تمثل
الفصول الاربعة وفيها كثير من قبور المشاهير وتماثيل القديسين
وأما منبر الوعظ والخوروس فهما أعجوبة من أعاجيب الصناعة
بما فيهما من التفنن فى النقش على الخشب فانهما يصوّران
للناظر جميع ماجاء فى العهد العتيق من الحكايات والوقائع تمثيلا
باتقان وإحكام ومن أغرب مارأيته فى هذا الخشب الغريب
ان النقاشين تركوا فيه بعض قطع طويلة متصلة به من الطرفين
وهى فى هيئة الاوتار فاذا غمزها الانسان باصبعه أخرجت صوتا
مطربا لطيفا واذا نقر عليها الماهر فى صناعة الموسيقى ربما أمكنه
ابراز بعض الانغام بايقاع متناسق متناسب كما هو فى الآلات المعدة
لذلك وكل هذا الخشب من الجودة والمتانة بمكان عظيم وقد كانت
أجرة الصناع فيه من ٤ الى ٩ مليم فى اليوم الواحد ويخيل
للناظر اليه أن الغبار مخيم عليه ولكنه بعيد من ذلك بل انه
نظيف جدا واذا لمسه الانسان لايتلوث اصبعه بشئ من السواد
وقد قال لنا الخادم ان ذلك الشئ الشبيه بالغبار له سبب فى التاريخ

وذلك انه لما وقعت احدى الثورات بفرنسا خشى أسقف الكنيسة
على هـذه المصنوعات الجميلة من أن تتطاول اليها أيدى العوام
فيبددونها ويهشمونها فاحضر كثيرا من الهشيم والبرسيم وشحن به
الكنيسة من أولها الى آخرها وبقيت مخزنا بهذه الكيفية مدة
طويلة من الزمان أوجبت تداخل الغبار فى جزيئات الخشب
واكتسابه هذا اللون الباهت الذى يشاهد عليها الآن وخلاصة
القول ان هذه الكنيسة من أجمل وأبدع وأكمل وأبرع ما رأيته
للآن فى سياحتى بل هى فى هـذه المدينة كدرة يتيمة تحسـدها
عليها رومة وفى هذه الكلمة من مدحها ما يفى بالمرام لمن شاهد
أو علم جمال الكنائس فى عاصمة النصرانية والسلام

الرسالة الخامسة عشرة

العودة الى باريس

من لى بباحث فى أخلاق الانسان يكون قد وقف نفسه على درس الحيرة والاضطراب وتحقيق تأثيرهما وتعرف تنوعاتهما وقد حضرنى حينما عولت على كتابة هذه الحروف وأعددت القلم والقرطاس واستفتحت بتحرير ديباجة العنوان ثم أبقيت يدى معلقة فى الفضاء والقلم بين أصابعى فى الهواء وأعينى شاخصة تنظر ولا ترى وأسنانى تصطك اصطكاكا متواترا وشفاهى يتلاعب بها الاختلاج من غير انتظام ثم تقع السفلى منهما بين الاسنان فينبهنى الالم فأضع القلم وأرفع يدى الى جبينى كأنى أعصره عصرا لأستخرج التبيان منه قسرا ثم أسكن بها فكرى طورا وأرجع لحالتى الاولى من امساك اليراع وامساك الذهن حتى كدت أعافى نفسى من الخوض فى هذا الموضوع لولا سبق الوعد فى الرسالة الثامنة بتلخيص وجيز على باريز يعرف القارئ بها ويصف له بعض أحوالها ويقص عليه شذورا من أنبائها

وما مصدر هذه الحيرة وحقك عجز عن التسطير أو احجام فى ميدان التحرير والتحبير ولكن هى المواضيع انهالت علىّ انهيالا

هالنى وتزاحمت تزاحما تراخت معـه عزائمى حتى أشبهت (هى) أقواما احتشدوا فى دار شبت بها النار فطفقوا يتسارعون للخروج من باب ليس لهم سواه وصاروا يتـدافعون ولا يعلمون انهـم يتمانعون وأنهم إذن عما قليل هالكون فقام فيهم شيخ فطين ونبههم الى هذا الخطر المبين وحثهم على التؤدة والسكينة للنجاة من هذه المصيبة العظيمـة فاراعوه السمع وسلموا كلهم من الروع وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله

فعنّ لى حينئذ أن أقتدى بهم وأذكر الحيرة فى الابتداء ثم التوصـل للاهتداء بقسمة المواضيـع الى مطالب أتكلم فيها على باريس من جملة وجوه بحسب ماوصـل اليه جهدى ووقفت عليه بنفسى

كلمتان على باريس

يقول أهـل هذه المدينة انها الآن وستكون على مدى الازمان حاضرة الحضارة والعمران ومدينة المدنية فى كل ميدان لايضيرها اضطراب السياسة فيها أو انشقاق الاحزاب بين أهاليها وأن الاجانب يفدون اليها ويتقاطرون عليها اذ ليس فى العالم الاباريس واحدة (وأنت تعلم أن فى احدى الواحات المصرية قرية حقيرة تسمى باريس — فيالله من هذا التناقض) ويقولون ان من

أقصى أمانى الاغراب ان يمتعوا أنظارهم بمجالى محاسنها ولاسيما أهل الارياف والاقاليم فى فرنسا فانهم يرون وجوب المجىء اليها خصوصا بعد الزواج ليقضوا بها (هلال العسل) وليس ذلك الا لانها تفردت عما سواها وفاقت على ماعداها بما جمعت من أسباب اللهو ووسائل الانشراح واراحة الخاطر وتمضية اوقات الصفاء والهناء وخلاصة القول انها مركز للجذب العام وفتنة لجميع الانام

هذه المدينة يشقها نهر السين (La Seine) الى نصفين يكادان يكونان متعادلين وهى منقسمة الى ثمانين خطا (بضم الخاء) فى عشرين قسما على رأس كل قسم رئيس يعرف بامين المدينة (شيخ البلد) وثلاثة مساعدين وعلى رأس الجميع موظف عال لقبه مأمور ضبطية السين وعليه القيام بوظيفة الامين العام (شيخ عموم البلد)

وعدد سكانها ٢٫٤٢٢٫٦٦٩ نفس ومسطح البقعة التى تشغلها من الارض فيما بين الحصون التى حولها عبارة عن ٨٠٠٠ هكتار وطول محيطها ٣٤ كيلومترا والحصون عبارة عن دائرة مزدوجة طولها ٣٤ كيلومترا و ٥٣٠ متر وفيها ٥٦ بابا للمدينة و ٩ معابر ترمنها السكة الحديدية ومعبران لنهر السين وآخران لترعتين . وطول الطرقات العمومية فيها هو

٨٨٨،٠٠٠ متر ومسطحها عبارة عن ١٥٣٢ هيكتار وفيها أكثر من ٨٢،٠٠٠ دار . وميزانيتها فى السنة تبلغ ٢٨٠ مليون من الفرنكات

ولما كانت الكوليرة ضاربة أطنابها بها فى الصيف الماضى تكبدت المدينة نفقات باهظة فى رش السوائل المطهرة فى الطرق العمومية ولغسل أماكن القاذورات والمباول فى كل يوم من أيام الوباء حتى بلغت المصاريف ٤،٣٠٠ فرنك فى اليوم الواحد وقد بلغت مصاريف التطهير وتنقية الهواء فى المدارس التابعه للمدينة ٨،٠٠٠ فرنك وقد كان مجموع المصاريف التى أنفقت بهذا السبب فى فترة اجتماع المجلس البلدى ٥٧،٠٤٦،٦٧ من الفرنكات

٢

متاحف باريس

أول شئ تنساق اليه أقدام السائح الذى يقصد الاطلاع على الغرائب ومشاهدة الطرائف انما هو المتاحف وأحقها بالتقديم هو متحف اللوفر فانه يحتوى على أكمل مجموعة فى العالم من حيث الفنون الصناعية وقد كان انشاؤه فى قصر اللوفر فى سنة ١٧٩١ بأمر من الجمعية الاهلية فجعلوه مقرا لجميع الاعمال الغريبة التى كانت متفرقة فى قصور الملوك ثم جاء أساتذة الفنون المتقنين وحلوه

برسوماتهم ونقوشهم وكثر المتبرعون بفرائد الصور وذخائر الاشكال حتى أصبح من أكمل وأجمل متاحف الدنيا وانى أشير الآن بالاجمال الى ما فيه من الاقسام فان التفصيل يكاد يكون من المستحيل — فيه قسم للتماثيل والانصاب من الرخام (ومنها الزهرة إلهة الجمال لميلو ثمنها وحدها ٦٠٠ ألف فرنك) ومن النحاس من صنع الاقدمين أو محاكاة لهم وفيه نقوش دينية على المرمر وأبواب هياكل ومعابد ثم نقوش وكتابات رومانية بارزة وفى احدى قاعاته إناآن كل واحد منهما من حجر واحد ومتباعدين عن بعضهما نحو ٣٠ مترا واذا تكلم الانسان فى أحدهما سمعه صاحبه من الثانى وهذا من غرائب الصدى وليس اهمامن مثيل الافى أمريكا على ما علمت وفيه قاعات لاوانى الفخار وللوح الرسم والتصوير مما وراء العقول ولا تسلنى الآن عما فيه من مخلفات قدماء المصريين والرومانيين والاشوريين والبابليين وغيرهم من أمم السلف وفيه متحف للجزائر وآسيا الصغرى وخلاصة القول أنه فى باريس كالدرة اليتيمة فى القلادة الثمينة — وفى الدور الثانى منه متحف للبحرية فيه صور المراكب وجميع آلات البحر وأدواته عند جميع الامم وفيه خريطة كبيرة مجسمة من الجبس تمثل قنال السويس وأعماله ومدائنه أهداها له دولسبس وفيه متحف

صينى — أما أثمان الاعمال التى فيــه وزخرفة القصر فهى من قبيل ماورد فى ألف ليلة وليلة

أما متحف لكسمبرج فهو مخصص لحفظ رسوم المتفننين العصريين ونقوشهم وعلى بابه تمثال بهيئــة فرنسا وهى تقدم أكاليل الفخار الى إلهتى النقش والتصوير وفيه كثير من النقوش فى الحجر والرخام والرسوم على القماش مما يقضى بالعجب العجاب

أما متحف الحمامات ودار كلونى فيمتاز عن السابقين بانه مخصص لكثير من المجموعات المحتوية على آثار الاقدمين ومخلفاتهــم النفيسة من كل نوع ومن أعمــال أمم مختلفة — وقصر الحمامات هو أقدم العمــائر فى هذه المدينة حتى انى حينمــا شاهدته تذكرت انى فى باريس وتصورت أنى فى رومة خصوصا عندما دخلت فى قاعته الكبيرة الباقية الى الآن فى غاية الحفظ والصيانة تحت قبتها العتيقة الفسيحة ويقول بعض المؤرخين ان يوليان المرتد نودى به امبراطورا رومانيا فى هذه القاعة (سنة ٣٦٠ ق م) وفى المتحف الآن أكثر من ١٢٠٠٠ قطعة معروضــة على الانظار وكلهــا من الفائدة والاهمية بمكان اذ تحتوى على كثير من أمتعة القدماء وأبسطتهم ومنسوجاتهم وعلى عربات مذهبة كان يستعملها الملوك فى القرون الوسطى وبعضها يجره الجياد و بعضها مما يحمله الرجال

على الاعناق ولا أظن ان فى متاحف المدائن الاخرى مجموعة تعادلها وفى الدور الاوّل من هذا المتحف مجموعة من الاسلحة والدروع والدرق والمجانّ والخود للمقاتلين وللخيول ومن الاوانى المعدنية ثم مجموعة من الاوانى الخزفية (وفيها مجموعة من صناعة رودس وأخرى أندلسية) والمينا والخشب المنقوش المحلى بالصور الباهية ومجموعة من الاقداح والاكواب والقازوزات والقارورات وفى هذا المتحف غرفة تحتوى على مجموعة من المصنوعات العبرانية أهدتها له البارونة ناتالى دوروتشيلد من ضمن مافيها تمثال لتابوت العهد على هيئة دولاب وشمعدانات ذات سبعة فروع وثمانية وتسعة وكلها من الخشب المنقوش والفضة الخالصة والنحاس الصافى وفى المتحف خلاف ذلك من صناديق القدماء وأسرة الملوك والاوانى المتخذة من خشب الآبنوس وسن الفيل ورقع الشطرنج والبلور الصخرى والساعات ومقارم الدخان والمفاتيح والسكردانات والمناقد وكرة أرضية من نحاس مذهب والاقفال والاغلاق والمتارس (الدرابيس) والمصوغات مثل تيجان الملوك القوطيين وأكاليل الابريز الخالص الاصم المحلاة باحجار الصفير والدر العديم النظير ومذبح (من أقسام الكنيسة) من النضار الدقيق المطروق بصناعة واتقان والاساور

والخواتم و ورد من الذهب وغير ذلك مما يعجز القلم عن وصفه وتحار الافكار من مشاهدته منضودا محفوظا كما كان وكأحسن مايكون

أما قصر الحمامات فقد كان بناؤه فى سنة ٣٠٠ ميلادية بامر الامبراطور الرومانى كونستانس كلود ثم اتخذه ملوك فرنسا فيما بعد سكنا لهم مدة من الزمان ولما تركوه اشترى أطلاله أحد القساوسة وبعد ذلك اشترته مدينة باريس وأحاطته بحديقة لطيفة وجعلته مقرا للتماثيل الرخامية والحجرية التى أقيمت فى باريس فى العصر الذى شيد فيه القصر وأطلق عليه اسم قصر الحمامات إذلم يبق من معالمه سوى قاعة الاستحمام وفى البستان كثير من الأنصاب والعمدان أغلبها كانت فى القصر أيام كان يسكنه القسيسون ومن أهم مافيها صليب من الحديد انتزعه الفرنساوية من كنيسة سان والدمير بمدينة سباستبول وغير ذلك

وأما متحف الآلات والفنون الصناعية (ويسمى أيضا بالمحفظ الاهلى للفنون والصنائع) فقد أقيم فى مكان كنيسة قديمة أضيف اليها جملة قاعات كثيرة وعلى بوابته تمثالا العلم والصناعة وفيه مكتبة تحتوى على ٣٠,٠٠٠ مجلد خاصة بتطبيق العلوم والفنون على الصناعة وفى احدى غرفه رسم بعض المجيدين فى

التصوير تماثيل الصناعة والرسم والتصوير من جهة والعلم والطبيعة والكيمياء من جهة أخرى وفيه معامل للكيمياء والطبيعة وتعطى فيه دروس ليلية فى العلوم وتطبيقها على الصنائع مجانا لكل طالب يقوم بها رجال من أشهر النابغين فى هذه الفروع

وهو يحتوى على جميع أصناف المحاريث وآلات متنوعة للتقطير وتكرير السكر ومثال معمل للعربات وأدوات الخراطة والخياطة والنسيج والغزل وبعض عينات من المنسوجات والآلات الخاصة بنظريات الحركة والانتقال وآلات تحويل الحركة وتوليدها وآلات العدد والتلغراف الكهربائى وغير الكهربائى والتلفون وآلات الصوت والجلوانو بلاستيا والموازين والاثقال وآلات علم الطبيعة وأدوات استخدام حرارة الشمس وجهازات كهربائية متنوعة وآلات علم الآثار العلوية وآلات تقييد الارصاد وآلات استخراج غاز الاستصباح وجهازات الاستضاءة وآلات الورق وآلات الطباعة والنقش والتصوير الشمسى ثم المتحصلات الكيماوية وآلات طبع الالوان والاصباغ على الاقمشة وتماثيل معامل حمض الكبريتيك ثم كيفيات اصطناع الخزف والفخار والمينا والزجاج والبلور وغير ذلك مما تتعذر الاحاطة به ويستدعى المشاهدة وتمضية الوقت النفيس وأهم مااستوقف أنظارى تماثيل

استخراج الفحم الحجرى وأدواته وآلاته وجهازاته وآباره وسبر أغواره والمعادن التى تخرج معه والاصباغ والروائح والاعطار التى تستخرج منه وغير ذلك وقد رأيت فى نموذجات المنسوجات قطعة من شغل مصر أهداها الخديو الاسبق الى هذا المتحف وفيها أشعار عربية مكتوبة باحرف من القصب ومزركشة بذوق وحذق بحيث انها تجعل لصناعة بلادنا مقاما محمودا بين مايجاورها من منسوجات الامم الاخرى

وفى تياترو الاوبرا متحف ومكتبة للتشخيص والتمثيل والروايات وفن الألحان ولكن المتحف ليس من الاهمية بحسب مايتصوره الذى يسمع عنه وبعكس ذلك المكتبة

أما متحف فنون الزخرفة والتزويق فالغاية منه المساعدة على توسيع نطاق أعمال المشتغلين بتطبيق العلوم على الصنائع اذ يرون فيه نموذجات لاتحصى من صنع الاقدمين والمحدثين فتتربى بذلك ملكتهم ويقتدرون على الاختراع والتنويع فانها تحتوى على مجاميع متعددة فيها تصاوير على القماش ونقوش على الاخشاب والاحجار والمعادن ومصنوعات شرقية مثل الانسجة والعاج والابسطة والخزف والزجاج من صنع فارس وغيرها وفيها أيضا تصاوير بالالوان وأقمشة قديمة وحديثة وأثاثات المنازل ثم طريق

التزويق بحسب العصور قديما وحديثا وغير ذلك مما يطول شرحه

أما تحف تطبيق فن النحت فهو فى قصر التروكاديرو ويحتوى على نموذجات بالجبس من أهم أعمال المبانى فى مشارق الارض ومغاربها فى العصور السالفة ومن بوّابات وعمدان وجدران وعقود وقبور ونقوش بارزة فى الحجر وغير ذلك مما يطلق عليه لفظة آثار وهى مرتبة بحسب تاريخ أوقاتها وبيان الاماكن التى فيها الآثار الاصلية وماهية الموضوع بالايجاز وأول مايراه الانسان فيها هو نقوش قدماء المصريين وغيرهم من الامم القديمة حتى ينتهى الى القرن الثامن عشر فيرى غرفة فيها أعمال من جميع الامم كأنها فهرست للغرف التى سبقتها أو بيان اجمالى لما رآه الانسان قبلها

وأما تحف طبائع الامم وأحوالها فهو فى الدور الاول من قصر التروكاديرو أيضا ويحتوى على ٤٠٠٠٠ قطعة تمثل أصناف الامم وكيفية معيشتهم وتغذيتهم ولباسهم وسلاحهم بالاقدار الطبيعية التى تصورهم للانسان كأنه يراهم كلهم بالتمام فى أقاليم استراليا والاوقيانوسية وغيرها مثل ملبوس الرؤساء وشباك الصيد فى البحر وحبائل القنص فى البر والمساكن وصورة المتوحشين وغير ذلك مما يتعلق بامم أفريقية وامريكا وأوروبا وآسيا ويرى الانسان فيها الزوارق

والنقوش والاكواخ والمنسوجات والاسلحة والمصنوعات الزجاجية والفخارية والاطلال الدارسة وسارية من حجر واحد تشبه شكل الآدمى فى تكوينها الطبيعى (واردة من بلاد المكسيك) والمحاريب والمعابد والهياكل وبعض موميات واردة من أمريكا وجهازات الجنائز والاحتفالات بالاموات وكل ذلك مما يتعلق بالقبائل المتوحشة والبدوية والمتمدنة والحضرية سواء كانت تسكن عند القطب الشمالى أو بجانب الخط الاستوائى أو تحته أو فيما بينهما — وفيه غرفة مخصصة لبيان أهل فرنسا بحسب أقاليمها وتنوع معيشتهم ومساكنهم وأخلاقهم وغير ذلك

أما متحف التربية فيحتوى على مكتبة مركزية خاصة بالتعليم الابتدائى فيها الكتب المؤلفة فى فن التربية وأساليب التعليم ورسوم وأشكال وخرائط ومجاميع وكتب مطالعة وغير ذلك مما يلزم الدارسين والمدرسين وفيه زيادة على ذلك مكتبة متنقلة تعير الكتب الى القائمين بوظائف التعليم فى سائر أنحاء فرنسا وفيه آلات التعليم وأدواته وأجهزته وجملة مجاميع للتاريخ الطبيعى ولتعليم الرسم والتصوير فى المدارس الابتدائية والثانوية ومدارس المعلمين وفيه تماثيل للمبانى الدراسية لبيان أوفقها للصحة والتعليم من حيث التهوية والاضاءة وغير ذلك من المرافق — وهذا

المتحف المفيد يحتوى على قاعة كبيرة فيها كلها خرائط جغرافيـة فقط وغرف أخرى للرسم ومعامـل للكيمياء والطبيعة والاشغال اليـدوية وأخرى تحتوى على أثاث المـدارس وأدوات الدراسة ونموذجات تصوّر المدارس الغير فرنساوية وفى الدور الاول مكتبة التربيـة الفرنساوية والاجنبية وأهم قسم فيها هو مكتبة للوسيو رابو تحتوى على ٦٨٤٨ مجلد خاصة بهـذا الفرع من التعليم وقد اشترتها الدولة بعد وفاته باسم هـذا المتحف وبعض الكتب الموجودة فى هذه المجموعـة قد صارت الآن أندر من الكبريت الاحمر وفيها أيضا مجموعة تحتوى على كتب التعليم فى القرن السادس عشر وفى الدور الاول مجموعـة علميـة ومعامل للعـلوم الطبيعية وأثاثات مدرسـية وشرائح فرنساوية وأجنبية خاصـة بالمدارس ــ وقـد ترتب على انشاء هـذا المتحف فوائد كثـيرة خصوصا المكتبة المتنقلة فانه قـد يتفق وجود بعض من المترشحين لوظائف التدريس أو للترقى الى وظائف سامية ولا يكون فى وسعهم الاستحصال على الكتب الدراسـية اللازمـة لبعدهم عن المدن الكبيرة واضيق ذات يدهم فأنشأت الدولة هذا المتحف ليعيرهم الكتب اللازمـة بناء على طلبهـم فيرسلها لهم خالصـة أجرة البريد فى صناديق محكمة من الخشب مدة شهر أو شهرين

بحسب مايريدون ولهم الحق فى تمديد الاجل المحدود وسأشرح الكلام فى الرحلة على هـذا المتحف بنوع خصوصى لما له من المزايا الكبيرة

أما متحف جيمى أو متحف الاديان الاهلى فانه يتضمن كل ماجمعه الموسيو اميل جيمى E. Guimet أثناء سياحاته فى بلاد المشرق ثم انه تبرع بهذه المجموعة النفيسة التى تبلغ قيمتها أكثر من ٤ ملايين من الفرنكات لمدينة باريس لاجل افادة أبناء وطنه والغاية منها درس الاديان القديمة وعقائد المشرق بحسب الرسوم الصحيحة والتماثيل والكتب والتصاوير الاصلية الصادرة عن نفس المتعبدين وهى مرتبـة بحسب المـذاهب والاعتقادات والاوقات واعلم أن هذا الرجل الكريم فضلا عن هذه الهبة السنية تبرع بنصف المصاريف اللازمة لبناء دار المتحف وقد بلغنى من ثقة أن رجلا من أغنياء الانكليز عرض عليه مبلغا وافرا من النقود لمشترى جزء زهيد من المجموعة فاجابه بما معناه (انما تعبت وجمعت ما ترى لافادة أبناء بلادى وللاعانة على رفع شأن وطنى وذلك أثمن وأعلى مما تعرضـه علىّ الآن بما لا يقدر بأى حال) فهكذا تكون الشهامة والمروءة فى محبـة الوطن والسعى فى اعلاء كلمته وتمجيد ذكره ومن أهـم مافى هـذا المتحف مكتبـة تحتوى على

كتب كثيرة بخط اليد و ١٤٠٠٠ مجلد فى مواضيع متنوعة و ٧٫٠٠٠ مجلد صينى و يابانى ومصرى قديم وهو يحتوى على مصنوعات من الخزف خاصة بديانة الصين واليابان وقدماء اليونان وايطاليا وفرنسا وقبائل افريقية والاوقيانوسية وآلهتهم وتعبداتهم وهيا كلهم ومعابدهم وفيه هيا كل كثيرة منها هيكل يسمى بالمندرة يحتوى على ١٩ إلها (والمندرة هى المعبد الذى يجتمع فيه جميع الآلهة عند اليابان مثل البانتيون عند اليونان والكعبة عند الجاهلية وأقدم هذه المنادر هى مندرة سين جون وكان فيها ١٫٠٦٠ إله) وآلهة الهيكل المحفوظ بهذا المتحف تنقسم الى ثلاثة أقسام لتدبير الكون وهى الكمال فى الاعتقاد البوذى ثم التجسد لخلاص الارواح بطريق الاقناع ثم التحول لجذب النفوس بالوعيد والتهديد ـ وهنالك أيضا آثار كثيرة مما يتعلق بديانة الفراعنة وكيفية معيشتهم فى هذه الدنيا ونعيمهم فى الحياة الاخرى وفى ضمنها تماثيل آلهة وتمائم وأوراق بردى ومذابح وهياكل وأحجار مقدسة وغير ذلك ـ وفى هذا المتحف غرف للتدريس والعمل وجميع جدرانه مغشاة برسوم وأشكال تناسب الاشياء المعروضة فى كل غرفة أوتكملها بحيث ان الناظر الدقيق يقف تمام الوقوف على كيفية التعبد والتدين عند كل قبيلة

من هـذه القبائل ــ وقـد رأيت فى فناء المتحف عنبرا لتربية النباتات المجلوبة الى فرنسا من البـلاد الحارة وفى أقصى الفناء قاعة يصعد اليها بسلم وفيها مجموعة من الاحجار المختلفة ورجامات القبور القديمة عنى بجمعها أثناء سياحته فى آسيا جناب الموسيو دومرجان (De Morgan) الذى هو مدير المتحف المصرى الآن ــ وقد تقرر أثناء اقامتى فى باريس أن تلامـذة المدارس العالية وتلامذة المدارس الحرفية فى هذه العاصمة يذهبون الى هذا المتحف فى كل يومين مرة بالمناوبة مع بعضهما لاجل الوقوف على كيفيات اصطناع الخزف والطقوس الدينية بارشاد الموكلين بحفظ المتحف أو الموسيو جيمى نفسه

أما متحف والنتين هاوى فقـد سمى باسم أول من أسس مدارس العميان وهو وان كان صغيرا الآن لكنه جدير بالنظر اذ يحتوى على الآلات والادوات الخاصة باعمال العميان وعلى كثير من مصنوعاتهم فى جميع البلاد ــ كان دليلى فيه أحدهم وهو الموسيو جيلبو أحد أساتذة مـدرسة العميان فأطلعنى على جميع مافيه قطعة قطعة بارشاد وثبات ومعرفـة بمواضع كل شئ حتى انبهرت من هذا الدليل الماهر فانه له معرفة بالغزل والنسيج وكثير من الصنائع اليدوية وأخص معلوماته الجغرافية والتاريخ والفنون

الادبية وقد أتحفنى ببعض من مؤلفاته وفيها ديوان شعر يعبر فيه عن عواطف العميان واحساساتهم وكيف يقدرون الاشياء وله كتب أخرى كثيرة تدل على فضله وسعة اطلاعه وهو الذى سعى فى تأسيس هذا المتحف على نفقته ثم أمدته الجمعيات والمدارس فى البلاد الاوروباوية والامريكانية بتحف أخرى ولا يزال يدفع ايجار المنزل من ايراده

وفى باريس متاحف أخرى كثيرة لايجوز لى أن أتكلم عليها لانى لم أزرها وقد جرت عادتى أنى لا أذكر الا ماعرفته بنفسى ولكنى أشير الى أسماء بعضها مثل متحف الطوبجية والاثاث الاهلى والطب ومقابلة التشريح والمعادن وآلات الموسيقى والرصدخانة والنقود والمحفوظات (الدفترخانة) والمتحف التاريخى لمدينة باريس (وبه مكتبة فيها نحو ٩٠٠٠٠ مجلد) ومتحف المجموعات الفنية لمدينة باريس ومتحف كاين وقد أسسته زوجة كاين ومتحف جاليرا ومتحف الغشاشين (ويوجد له نظير فى كرك الاسكندرية) وفوق ذلك فان لاغلب المدارس والجمعيات العلمية والفنية متاحف خاصة بها

٣

قصور باريس

هـذه بلد القصور رحيثما قلب الانسان ناظره رأى قصرا شاهقا و بنيانا شامخا واتقانا زائدا ولكني لاأتكلم الآن الاعلى بعض القصور المهمة وأترك الباقي لفرصة أخرى

فمن أفخرها قصر التويلري يدل على ذلك مابقي منـه بعـد الحريقةالتي التهمتهأثناءثورة الكومون في شهر مايوسنة ١٨٧١ كان بناؤه في سـنة ١٥٦٤ وقد أقيمت فيمكانه الآن حديقة أنيقة مزدانة بأنواع الازهار تتخللها تماثيل رمزية وفساقي تدفع الماء الى حيضان بهجة بكيفيات رشيقة تسر الناظرين

أماقصر اللوفرفقد شيد في عام ١٥٤١ على أطلال قلعةعثر القوم على بعض بقاياها تحت الارض في سنة ١٨٨٣ وسكنه كثير من ملوك فرنسا قبـل أن يكمل تماما حتى جاء الامـبراطور نابليون الاول فشدد الاوامر باتمامه ولكنه لم يساعده الزمان على بلوغ الغايةفي هذا الامر الجليل فلما كان الامبراطورنابليون الثالث أتمه على الوجه المرغوب واحتفل بافتتاحه في سنة ١٨٥٧ وقد بلغت أكلافه ثلاثة ملايين من الجنيهات الاسترليفية (٧٥ مليون فرنك) وفيه رسوم ونقوش وتصاوير وتماثيل وزخرفة وتزويق في الجبس والحجر والرخام والخشب وعلى وجهاته وعقوده وجدرانه

وسقوفه ونوافذه ومطلاته وأفنائه ورحباته تسلب العقول وتخلب الالباب وواجهته الاصلية مركبة من عمد مستندة على عمد تماثيلا لاجل وأعظم هيا كل العبادة عند قدماء اليونان وخلاصة القول انه اليوم تحفة حوت متاحف واعجوبة جمعت عجائب

ومما يلحق بهذا القصر ميدان الكاروسل (Carrousel أى ميدان البرجاس) وهو من أجل ميادين باريس ويبتدئ بقوس فخار هائل تحيط به البساتين الناضرة ويحف به من اليمين والشمال تمثالان رمزيان للحرية والشريعة ومن هذا المكان يمتد النظر الى بستان التويلرى والمسلة المصرية وقصر الشانزلزى وقوس فخار الكوكب وينتهى الميدان المذكور بحدائق اللوفر وفيه تجاه قوس فخار الكاروسل عمود أثرى أقيم لتخليد ذكر غامبتا المشهور وهذا العمود يتركب من كتلة حجرية عظيمة تحيط بها تماثيل من البرونز (الشَبَهان) تصور الحقيقة والقوة والحرية والمساواة وفوق هـذه القاعدة منشور هرمى من الصوان يبرز منه تمثال الرجل واقفا ومائلا برأسه الى الخلف قليلا وباسطا ذراعـه الايمن بشهامة وهو يرشـد أبناء وطنه الى الواجب والشرف وتحت أقدامه الذائدون عن حياض الوطن يرعاهم ملاك فرنسا وقد ارتفع بأجنحتـه الى عنان السماء فقاموا من سقطتهم ونفضوا ما عليهم من الغبار وجمعوا أسلحتهم المتكسرة وعلى الواجهات

الاخرى من المنشور رجُل مقتطفة من المقالات الرنانة التى ألقاها هذا الخطيب على قومه يدعوهم الى الدفاع عن بلادهم الى آخر نقطة من حياتهم وغير ذلك وفوق قمة هذا الاثر تمثال رمزى للديمقراطية (أى حكومة الاهالى بأنفسهم) وقد فازت وعلت كلمتها فامتطت صهوة غضنفر ذى أجنحة — وقد أقيم هذا التمثال فى ١٣ يوليو سنة ١٨٨٨ بنقود جمعها القوم من اكتتاب عام اشترك فيه أبناء فرنسا المقيمون فى حومتها والبعيدون عنها

وأما قصر البورصة — فهو على شكل معبد يونانى بما فى واجهته وحوله وفى داخله من السوارى والاساطين وطوله ٦٩ مترا وعرضه ٤١ وفى أركانه من الخارج تماثيل أربعة للتجارة والعدالة القنصلية والصناعة والزراعة وفى داخله قاعة كبيرة للعمليات المالية تسع ألفى شخص وعلى جدرانها تصاوير بالغة فى الاتقان بحيث يخالها الناظر نقوشا بارزة وهى عبارة عن الاحتفال بافتتاح البورصة على يد شارل التاسع وفرنسا وهى تستقبل الاتاوة من أقسام الدنيا الخمسة واتحاد التجارة والعلوم والصنائع وأهم المدائن فى فرنسا — وقد زرت هذا القصر ولكننى أعترف بأنى لم يتيسر لى أن أدرك شيأ من أحواله أو أقف على نزر من تفاصيل ماجرياته حتى كنت أتحف بها القراء وغاية مارأيته فيه جلبة

وضوضاء وصياح وسحاب وتماوج وتدافع وأيد ترفع وأرجل تهرول وأقوام يخرجون وآخرون يدخلون وفى يد كل واحد قرطاس وقلم من الرصاص وصكوك مختلفة الالوان ولا أدرى كيف يتفاهمون فى بابلهم هذه وان كانوا كلهم بلغة واحدة يتخاطبون — وفى هذا القصر مكتب للتلغراف وآخر للتلفون وبارومتر كبير وسكردان يتناولون فيه غداءهم من غير أن يتعدوا عن الميدان

أما قصر الانواليد (العساكر السقط) — فقد شاده الملك لويز الرابع عشر فى سنة ١٦٧٠ فان هذا الملك العظيم أراد أن يضمن حياة طيبة للعساكر الذين تبتر بعض أعضائهم أو تصيبهم بعض العاهات ولايكون لهم وسيلة للتعيش بعد أن وخط الشيب رؤسهم وهم فى سلك النظام ولكن الذى نظم هذا القصر حقيقة وأجاد ترتيبه انما هو نابليون — ومسطح الارض التى يشغلها هذا القصر عبارة عن ١٢٦,٩٨٥ متر مربع وهو معدّ فى الاصل لسكن ٥,٠٠٠ نفس ولكنه اليوم لايحتوى الا على ربع خمس هذا العدد لان قدماء الجهادية فى هذا الزمان يفضلون تمضية مابقى من عمرهم فى استقلال وحرية وانفاق المعاش الذى يخوّله لهم القانون بحسب مايريدون — أما النازلون به فتعتنى الدولة عناية تامة

بمسكنهم ومطعمهم وملبسهم وتدفئتهم وكل مايلزم لهم

وامام هذا القصر رحبة فسيحة طولها ٥٠٠ متر وعرضها ٢٥٠ وفيها صنوف كثيرة من الاشجار

وبعد هذه الرحبة فناء خارجى تحف به الخنادق من كل جانب ويحدق به من اليمين والشمال بطارية مدافع اغتنمها الجيش الفرنساوى فى حروبه وهى التى تستخدم فى إنباء الباريسيين بالحوادث الكبيرة مثل الانتصارات والمواسم وغير ذلك وحول هذه المدافع مدافع أخرى من طرازات متنوعة وعيارات مختلفة وفى خلال صفوفها ممشى يتنزه فيها قدماء الجنود النازلين بالقصر - أما واجهة هذا البناء الفخيم فتحدث فى النفس جلالة وفى الفكر إجلالا وطولها ٢١٠ متر وفيها ١٣٣ شباك وعلى يمين الباب تمثال إله الحرب وعلى يساره إله الحكمة وفى الدهاليز تمثيل بعض الوقائع التى انتصر فيها الفرنساويون وفى الفناء الداخلى تماثيل كثير من قوادهم وشجعانهم وأهم ماإستوقف أنظارى فى نفس القصر هو المكتبة التى أسسها نابليون وهى تحتوى على ٣٠ ألف مجلد تقريبا ولايجوز الدخول والشغل فيها الا للعساكر السقط ومن ملحقاتها قاعة تحتوى على صور جميع مارشالات فرنسا ومديرى هذا القصر وتصغير يمثل للرائى

عمود وندوم المشهور والقنبلة التى قتلت تورين فى سنة ١٦٧٥ وهو من أفرس ابطالهم ومثال من الجبس لتمثاله فوق فرسه وبعض المخلفات التى تركها نابليون فى جزيرة سنت هيلانة (محل منفاه) جمعها بعض المغرمين بمجده مثـل أغصـان من الشجرة التى كان يستظل بها وقطرات من الينبوع الذى كان يستقى منه وقبضة من التراب الذى وطئه بقدمه وقصة من شعره وقطعة من ورقه وما أشبه ذلك وضعها بعض المجيدين فى لوحة تأخذ بالابصار لما أودعه فيها من الابداع وهنالك أيضا أشياء كثيرة من التى كان يستخدمها الامبراطور فى منفاه

وفى هذا القصر كنيسة باسم القديس سان لويس وليست ذات أهمية بالنسـبة ابنائها بل لانها مخصصة لدفن المـارشالات ومديرى القصر ولانها تحتوى على كثـير من الآثار التى تحيي ذكر ابطالهم المعدودين وفى قبتها كثـير من الرايات التى اغتنمها القوم فى مواقع القتـال فى افريقيـة والقريم وايطاليا والصـين والمكسيك والتونكين وفى احدى بيعها صورة لسيدنا عيسى عليه السـلام مرسومـة على القماش ولكن النـاظر اليها يخال أنها مجسمة بكل انتظام

وخلف هذه الكنيسة قبر الامبراطور فى قبة هى أجمل أثر دينى مصنوع فى فرنسا بحسب الطرز اليونانى ولا يدخل القوم اليها الا بعد أن يرفعوا قبعاتهم تعظيما وتفخيما وفيها بيعة تحتوى على بقايا جيروم شقيق الامبراطور وبقايا ابنه البكرى وبيعة أخرى فيها قبر يوترين ذلك البطل العظيم وامامها بيعة فيها عظام ووبان Vauban وبجانبها ناووس فاخر يحتوى على بقايا شقيق آخر للامبراطور

أما قبر الامبراطور نفســه فهو فى ناووس من الصوان الاحمر لم ير الراؤن مثـله فى البهـجة والفخامة وهو فى وسط القبة فى حفرة عميقة مكشوفة للأنظار ومبلطة بالفسيفساء وهنالك من التصاوير الهائلة وقبور المخلصين لهـذا الرجل وتماثيل انتصاراته وغـير ذلك مما يدهش الابصار ويقضى على الانسان بالاعظام والاكبار ويجعـل خطواته مقرونة بالتحسب والهوينا ويذكره بأن هـذا العالم مصـيره الفناء وان نهايات المجد الزوال ويتذكـر قول القـائل ﴿ألا كل شئ ماخلا الله باطل﴾ خصوصا عند مايقرأ هـذه العبارة التى أوصى بها نابليون ﴿أتمنى أن تدفن عظامى على ضفاف نهر السين فى وسط هذه الامة التى أحببتها حبا جمـا﴾ فيخرج المتفرج وهو يقول الملك لله والدوام لله سبحان الحى الذى لايموت انا لله وانا اليه راجعون

وأما قصر الفنون المستظرفة - فقد أقيم على اطلال ديروتم
تشييده فى سنة ١٨٣٩ وفيه مدرسة لتعليم الرسم والنحت والعمارة
والنقش بازاءه وذلك التعليم نظرى وعملى ولهذا القصر فنا آن
وضعت فى أولهما أبواب قصور قديمة وأعمدة متقنة باشكال
مختلفة وتماثيل للماهرين من الصانعين وغير ذلك وفى وسطه عمود
من المرمر الاحمر مشوب بالشب وفوقه تمثال الخصب وأما الفناء
الثانى ففيه مجاميع من تماثيل وقطع تماثيل من أيام القرون
المتوسطة الى عصرنا هذا وفى وسطه فسقية من قطعة واحدة
من الحجر كانت امام قاعة الطعام فى أحد الديور لاجل غسل
الايدى وعلى الواجهة الاصلية لهذا القصر هذه الكلمات الثلاث
(رسم عمارة نحت) منقوشة بعناية واتقان وتفنن وابداع وعلى
اليمين والشمال أسماء الاساتذة الذين نبغوا فى هذه الفنون وفى
دهاليز القصر وغرفه أمثلة لتماثيل قديمة ومعابد وثنية ومصنوعات
فى النحاس وتصاوير رفائيل فى قصر الفاتيكان وأشهر العمائر فى
فرنسا وغيرها وصور أعضاء جمعية الرسم والنحت وبعض أساتذة
المدرسة وفيها مكتبة تحتوى على ١٢ ألف مجلد ونحو مليون قطعة
من النقوش وفيه مجموعة للصور التى تحوز الطبقة الاولى فى امتحان
رومة وهى أعلى درجة يمكن للمصور الماهر أن يتوصل اليها

وخلاصة القول انها حوت من ظرائف الفنون مايثبت فى تلامذتها قوة التصور وابراز الافكار على القرطاس أو الاحجار

أما قصر لكسمبورج - فهو الآن مستقر مجلس السناتو (شيوخ فرنسا) وقد زرته أربع مرات بواسطة حضرة الفاضل الكامل الموسيو بوليا (M. Pauliat) أحد اعضائه الموقرين وهو قد وقف نفسه على خدمة أبناء العرب فى الجزائر وتونس والذب عن حقوقهم ورفع الاذى عنهم وللمسلمين فى قلبه محبة شديدة وبواسطته تمكنت من الحضور فى الجلسات أربع مرات ووقفت على أساليب المذاكرة والمداولة والمناظرة والمناضلة ولو شئت حضور الجلسات أكثر من ذلك لتمكنت بواسطته جزاه الله خيرا - هذا القصر أمرت بتشييده مارى دومدسيس زوجة هنرى الرابع على مثال القصر الذى تربت فيه فى فلورانسة ثم تقلبت عليه الاحوال فبعد ان كان سكنا للملوك أصبح سجنا فى أيام الثورة الفرنساوية ثم مقرا لمجلس المشيخة ثم للقنصلية ثم للسناتو ثم لنبلاء فرنسا ثم لمحافظة السين (دار أمانة المدينة) ثم للسناتو فى هذا الزمان وفيه مكتبة تحتوى على أكثر من ٥٠,٠٠٠ مجلد وفوقها قبة مغشاة باشكال ناضرة فاخرة - وفى القصر تماثيل نصفية لبارات فرنسا (Pairs de France) وشيوخها قديما

وهو من أجمل القصور وأكثرها زخرفة وتزويقا وقاعة الجلسات فيه
عبارة عن نصفي دائرة متقابلين يجلس الاعضاء باحزابهم وانشقاقاتهم
وتنوعاتهم في النصف الاكبر وأما الرئيس ولجنة الادارة ففي
النصف الآخر وعند ماتفتح الجلسة لايتم الانتظام بل يستمر
الاعضاء الذين يدخلون على التسامر فيما بينهم وعدم الالتفات
للخطباء ولا للرئيس وترى الموكلين بالخدمة يتصايحون بهذه
العبارة (صه أيها السادات) ويرددونها جملة مرات فتذهب في
الهواء تتردد من جدار يدفعها الى جدار من غير أن يكون لها
تأثير على الحضار وترى بعض القوم يخرجون وآخرون يدخلون
والرئيس يدق الجرس في كل نفس فلا يؤثر أكثر من صياح
الجرس حتى اذاجاءت مواضيع المذاكرة الحقيقية وقام الخطيب
الذي عليه الدور أخذ الانتظام حده وصار القوم يرمقونه
ويتفهمون كلامه ومنهم من يجيبه بالتفنيد وآخر يؤيده بالتاكيد
وفريق يصفق له استحسانا وآخرون يهزون الاكتاف استهجانا
وبعضهم يقاطعه في الكلام وغيرهم يساعده على الاتمام
والرئيس يدعو الجميع الى ملازمة النظام وهكذا حتى ينتهي
الخطيب مما ندب نفسه اليه فيحتل مكانه أحد المتحزبين له
أو عليه ويصعد الوزير لتأييد سياسة الحكومة وتزكية مساعيها

أو لبيان ما يطلبه الاعضاء من الافصاح عن حالة البلاد فى الداخل أو الخارج ولا يزال القوم فى أخذ وعطاء وبيع وشراء واستفهام عن ابهام وافصاح بقول صراح حتى تنفض الجلسة ويفيض الاعضاء من حيث أفاض الناس ولا يصبح الصباح الا وقد طبعت أعمال الجلسة وما قيل فيها كلمة كلمة وحرفا حرفا بالتمام والكمال اذ فى خدمة المجلس كتّاب مختزلون (Sténographes) ينقلون بالاشارات المختصرة كل ما يلقيه الخطيب من البيانات أو يرد عليه من الاعتراضات أو يقع من الاضطرابات أو يظهر من الاشارات ثم يرسلونها للمطبعة بعد كل عشر دقائق وهناك يصير نقلها أو ترجمتها للكتابة العادية وجمعها واعدادها للطبع فلا يجيء نصف الليل الا وقد تم طبع الجريدة الرسمية وفيها حوادث الجلسة بالتفصيل الذى ليس بعده تفصيل مع ان الجلسة لا تفتح الا فى الساعة الثالثة ونصف من بعد الظهر وقد تنتهى فيما بين الساعة الخامسة والسادسة أو بعد هذه بقليل

وأما قصر بوربون — فهو مقر مجلس النوّاب وله واجهتان احداهما تطل على نهر السين والاخرى على ميدان باسم القصر والاولى هى الواجهة الاصلية وفوق عمدانها نقوش ورسوم تمثل فرنسا وفى يدها الدستور وحواليها تماثيل الحرية والسلام والحرب والفنون

والنصاحة والصناعة والتجارة وقاعة الجلسات كلها من المرمر وحواليها عمدان منضودة وهى على شكل نصف دائرة تسع ٥٨٤ نائب ونظام الجلسات فيها يشبهه فى السناتو سوى ان اللغط فيها أكثر والعراك أظهر والخصام أقرب من حبل الوريد والدعوة الى المبارزة ليست بالامر الجديد بل قد تحصل فى كل لحظة عقيب أقل لفظة وقد رأيت فى كلا المجلسين ان بعض الخطباء لا يوفق الى نوال القبول من عموم الحاضرين فيعطف بمناسبة حيثما اتفق الى ذكر الوطن وشرفه ومجده وفخره ووجوب التفانى فى اعلاء مقامه وبذل المهج لاعزازه ثم يحيي القائمين بنصرته الذائدين عن حومته ويترحم على وفاة من وفاه حقه وعرف واجبه وهكذا من الاساليب الخطابية فيخلب الالباب ويسحر العقول ويستجذب القبول فيجاوبه السامعون بالتصفيق وعلامات الاستحسان وكلمات الاعجاب خصوصا اذا كان مقوالا سيالا وخطيبا مِصْقَعا يعرف كيف يقرن الاشارات بالكلمات وكيف يكون توقيع الالفاظ ليكون لها وقع فى الفؤاد ــ وقد اتفق فى الجلسة التى حضرتها فى مجلس النواب حصول مطر بغير سحاب استبدلت فيه الامواه بالاوراق فكانت تتناثر على الاعضاء من غير افتراق وذلك ان رجلا اسمه الكساندر هوليه تربص فرصة مناسبة فقذف عليهم

بكراريس مطبوعة عنوانها (هتك ستر الطرارين) ولكن الجنود قبضوا عليه فى الحال وأودعوه السجن تحت المحاكمة . قالت بعض الجرائد انه يعنى بذلك مسألة بناما فكتب الرجل الى الجرائد انه لم يحم حول هذا المقصد ولا أعلم الآن ماذا تم فى أمره

وأما قصر الصناعة ـ فهو معد للمعارض السنوية والجزئية أقيم فى سنة ١٨٥٥ بمناسبة المعرض العام من مال شركة مؤلفة من كثير من المساهمين ثم اشترته الدولة وله فناء مستطيل طوله ٢٥٠ متر وعرضه ١١٠ متر ومسطحه ٣٢٠٠٠ متر وعلى بابه تمثال كبير يمثل فرنسا وهى توزع أكاليل الفخار من الذهب النضار على الصناعة والفنون وهما جالستان تحت أقدامها وعلى الجدران المحيطة بالقصر أسماء الذين برعوا فى العلوم والفنون والصناعة مرقومة بحروف من الابريز وقد جعلوه بعد سنة ١٨٥٥ مقرا للمعارض السنوية للرسم والنحت والعمل والصناعة وفن الحدائق ومعارض الخيول والحيوانات والاطيار الخ وكان فيه أثناء مقامى بباريس معرض أشغال النساء فكان فيه جميع أصناف ملبوساتهن بحسب الازياء وتنوعها فى كل عصر وعند كل أمة قديمة أو حديثة نسقوها على شكل معجب مطرب وخصوصا قبعاتهن وأشكالها المختلفة وتفننهن فيها بما يجذب

الابصار ويسلب الالباب وليس هـذا مقام الشرح عليها فأترك وصفها الى فرصة أخرى

وخلف هذا القصر بناء من الحديد والذى يسمى كشك مدينة باريس وهو معـد لجملة معارض متنوعة وكان به أيام مقامى فى هـذا البلد معرض الصـنائع المتعلقة بلحم الخنزير وكانت الدولة ترسل اليه الموسيقى العسكرية تصدح فيه بالحانها الشجية

واختم الكلام فى هذا الموضوع الطويل العريض بخلاصة قصيرة على قصر التروكاديرو فقد بنى على رابية بمناسبة المعرض العام الذى أقـيم فى سـنة ١٨٧٨ واشـتركت فيـه حكومتنا المصرية وأصابت حظا وافرا من الفضل والفخار وهو يشتمل على أحاسن أساليب البناء وطرازات العمارة وفوقه تمثال الشهرة وفى فيها بوق تنفخ فيه وفيه قاعة المواسم والاحتفالات مزخرفة بنقوش وتصاوير وفى هـذه القاعة مكان للموسيقيين يسع ٤٠٠ نفر منهم بآلاتهم وأما القاعة نفسها فيمكن ان يجلس بها ٥٠٠٠ متفرج بالراحة وتحتـه مربى لاسماك المياه العذبة موضوعة فى مغارات فسيحة تتجدد فيها المياه على الدوام ومنظر هـذا القصر وعمدانه وابراجه وأروقته وأجنحته وحديقته وفسقيته مما يفتن العقول ويستغرق الزمان فى التأمل والامعان

وفى باريس غير ذلك عدد كثير من القصور العمومية والخصوصية ولا أتكلم عليها لانى لم أدخلها

٤

معامل باريس

مثل هذه المدينة العظيمة لايخلو من المعامل المتناهية فى الاتقان ولكنى لا أتكلم الآن الا على معامل الجبلين (بضم الجيم وسكون الباء وكسر اللام) ومعامل الدخان

فأما الاول فقد كان انشاؤه فى سنة ١٦٠٣ على يد الملك هنرى الرابع وبعد أن دار الشغل فيه نحو خمسين عاما اشتراه لويز الرابع عشر وجعله معملا للامتعة والاثاثات الملوكية بناء على اشارة وزيره كولبير فكان يشتغل العمال فيه بالطنافس والستائر المشهورة التى لانظير لها فى الكون وباشغال النقص والفسيفساء وبتلقيم العاج وتطعيم الابنوس وبصياغة الحلى والجواهر وباصطناع التماثيل المخصصة لقصر فرساى وبعد حكم هذا الملك اقتصر المعمل على اصطناع الطنافس والستائر وفى ٢٥ مايو سنة ١٨٧١ أحرق ثوار الكومون بفرنسا جزأ منه فالتهمت النار كثيرا من نفائس الطنافس وسائر الستائر وقد أبدع هذا المعمل فى تقليد الرسم وألوانه بالنسيج فى انواله على منواله مع الدقة والرقة

حتى أن الملوك والامراء ليزخرفون قصورهم ومتاحفهم بمصنوعاته التى سارت بحسنها الركبان وفيه متحف حوى شيأ كثيرا من غرائب منسوجاته ومنسوجات الامم الاخرى وقد رأيت قباطى مصر المشهورة فى كتب العرب مع انى من بلادها ولم أرها فيها وربما تكلمت على هذا المعمل الجليل بما يستحقه من التفصيل اذا ساعدت العناية فى فرصة أخرى

وأما المعمل الثانى أى معمل الدخان فهو فى بناء كبير يبلغ مسطحه هكتاران ونصف وله خمسة أدوار ويشتغل فيه ١٫٩٠٠ عامل أكثرهم من النساء ورأيت فيه من جميع أصناف الدخان وكيفية تهيئته بعد عرضه لعمليات متعددة وإعداده سجائر سائغة للشاربين ويبلغ مقدار الدخان الذى يبيعه فى السنة الواحدة ٧٫٦٥٠٫٠٠٠ كيلوجرام وقد علمت من مديره أنّ قيمة الربح الصافى الذى يصيب الخزينة من معامل الدخان فى السنة هو ٣٥٠ مليون فرنك (١٤ مليون جنيه انكليزى) مع أن جميع المستخدمين بهلهم معاش كامل من غير أن يخصم منهم يوم احتياطى

ولوجود هذه المعامل فى كل أوربا منفعة أخرى أعم وأهم وهى ان الذين يشربون الدخان فى هذه البلاد موقنون بجودة الصنف

وانه ليس مشوبا بورق الخس والقلقاس وخوص النخل وغير ذلك مما تتولد منه بعض الامراض الصدرية التى لايشفى منها صاحبها كما أنه يتعذر أو يتعسر شفاؤه من معاقرة هذا النوع من الشراب ولما كانت هـذه المسئلة ذات أهمية عمومية عظيمة فقد اتفقت مع حضرة المدير المشار اليه على ان يتحفنى بما يلزم من المعلومات والبيانات لانشرها بين قومى عسى أن يكون لها بعض الفـائدة وقـد بلغ مجموع اسـتهلاك الدخان فى فرنسا فى سـنة ١٨٩١ ٣٥،٨١٣،٨٥٤ كيلوجراما منها ٢٩،١١٠،٠٩٢ كيلوجراما من الدخان المعد للتدخين و٥،٤٥٧،٤١٣ من الدخان المعـد للنشوق و١،٢٤٦،٣٤٩ من الدخان المعد للمضغ واليك جدول الاستهلاك بالكيلوجرام فى جملة سـنين لمعرفـة زيادة انتشار هـذه العـادة أو الآفة

سـنة	دخان التدخين	دخان النشوق	دخان المضغ	مجموع الكميات المباعة
١٨٦٩	٢٢،٦١٩،٠٧٩	٨،١٦٨،٤٥٠	١،٢٤٥،٢٢٩	٣٢،٠٣٢،٧٥٨
١٨٧٤	٢١،٣٤٨،٣٢٢	٦،٥٧٣،٦٤٤	٠،٩٦٢،٥٩٥	٢٨،٨٨٤،٥٦١
١٨٧٦	٢٤،٣٠٣،٩٤٢	٦،٨٢٧،٦١٤	١،١٦٥،٦٨٢	٣٢،٢٩٧،٢٣٨
١٨٨٢	٢٨،٠٥١،٠٩٩	٦،٧٠٢،٦٥٩	١،١٨٠،٩٥٧	٣٥،٩٣٤،٧١٥
١٨٨٩	٢٨،٧٨٤،٦٦٠	٥،٨٣٤،٣٩٠	١،٢٠٠،٢٦٢	٣٥،٨١٩،٣١٢
١٨٩١	٢٩،١١٠،٠٩٢	٥،٤٥٧،٤١٣	١،٢٤٦،٣٤٩	٣٥،٨١٣،٨٥٤

ولأجل أن تكون المقارنة صحيحة ينبغي التنبيه على وجوب تنزيل نحو مليوني كيلوجرام من المقادير الخاصة بسنة ١٨٦٩ وذلك في نظير استهلاك أهل مقاطعتي الالزاس واللورين فانهما انفصلتا من فرنسا بعد حرب السبعين ومن هذا الجدول يتضح أن مجموع استهلاك الدخان لم يتغير تغيرا محسوسا منذ سنة ١٨٨٤ وان استهلاك دخان التدخين قد ازداد بالتدريج بنحو مليون من الكيلوجرامات ومثله دخان المضغ ولكن النشوق أخذ في النزول بنسبة ٢٠ في المائة

وقد بلغت كميات الدخان المستهلك في مقاطعة السين وحدها (وهي التي بندرها باريس) في سنة ١٨٩١ نحو ٤,١٦٤,٧٩٠ كيلوجرام (منها ٣,٥٣٧,٧٧٨ للتدخين و ٥٣٧,١٥٧ للنشوق و ٨٩,٨٥٥ للمضغ) يقابلها في سنة ١٨٧٩ ٣,٦٩٨,٠٠٠ (منها ٢,٨٥٠,٣٧٧ للتدخين و ٧٥٣,٠٢٨ للنشوق و ٩٤,٨٣٥ للمضغ)

٥

خزائن الكتب بباريس

اشتهرت هذه المدينة بالفوقان على غيرها في ميدان الخلاعة والجد فانها مقر الملاهي والبدع والمبتدعات ومركز المعارف والمعالي والمخترعات فلا يخلو أقل بيت فيها من خزانة كتب بحسب حالة صاحبه وذوقه فكل أهاليها يقرؤن ويكتبون حتى ان سائق

العربية بل والكناس اذا لم يكونا مشغولين بالسوق والكتابة يكونان منكبين على القراءة والدراسة وبهذه النسبة يقاس ولوع القوم بتثقيف العقول وتنوير الاذهان كلما صعدنا فى سلم الارتقاء الى أعلى الطبقات ولا أدعى الاقتدار على استيفاء الكلام فى هذا المطلب عن خزائن الكتب فى باريس ولكنى أذكر لمعا يسيرة عنها بغاية الايجاز حتى يتصور القارئ ماهيتها فيتمكن من الحكم عليها

وذلك لان وجود الكتبخانات من أسمى الدلائل على ارتقاء المدنية وضخامة العمران ومن اوجب الأعمال لتخليد الذكر وحسن الاحدوثة حتى لقد سعى الملوك فى جميع الاعصار فى جمع الكتب والعناية بها لينوه التاريخ بذكرهم فى جملة المساعدين على نشر المعارف وتوسيع دائرة العلوم أما الآن وقد اتسع نطاق العرفان وساغت موارد التعليم للطالبين فقد صارت العناية بالكتب فرض عين على جميع الحكومات المتمدنة

المكتبة الاهلية — هذه المكتبة يكاد لايكون لها مثيل فى العالم وأول من عنى بتأسيسها شارل الخامس ملك فرنسا فى سنة ١٣٨٥ فانه جمع ١٢ ألف مجلد وجعلها بقصر اللوفر ثم انها نقلت منه فيما بعد الى جهات أخرى لاحاجه لبيانها

ولما جاء الملك فرنسوا الاول اهتم بها اهتماما خصوصيا وزاد فى عددها لغرامه بالمعارف وولوعه بالعلوم حتى انه نقلها الى قصره فى فونتيبلو لتكون على مقربة منه ثم ان الملك شارل التاسع أعادها الى باريس ولكن ازديادها فى كل يوم كان يوجب نقلها من مكان الى آخر على انها مع كل هذه العناية لم تزد عن خمسة عشر ألف مجلد فى أول عهد الملك لويز الرابع عشر فاهتم حينئذ وزيراه كولبير ولوفوا بشأنها وتقدمها اهتماما لايزال مستمرا الى يومنا هذا ثم توالت عليها الهدايا والعطايا والوصايا من كتب بخط اليد ومداليات وأحجار منقوشة ونقود ومبصومات وغير ذلك ولقد بلغت المطبوعات فيها فى سنة ١٧٨٩ ثلثمائة ألف مجلد (٣٠٠,٠٠٠) ثم ازداد هذا العدد زيادة كلية فى أيام الثورة الفرنساوية بما توارد عليها من الكتب التى انتزعت من الاديار ومن قصور المهاجرين حتى صار من المستحيل عمل فهرست أو برنامج للمكتبة واكتفى القوم بوضع الكتب المستجدة فى أقسامها الخاصة بها باعتبار الحروف الهجائية لاسم المؤلف

ومما يستحق الذكر أنها صارت فى دفعتين عرضة لمصيبة من أعظم المصائب ولم تنج منها الا بما بذله مستخدموها من شدة العناية وصادق الاخلاص فان البروسيانيين لما حاصروا باريس فى سنة ١٨٧٠ كانت المكتبة مهددة بالحريق فى كل لحظة اذلو

وقعت عليها قنبلة لكانت أعدمت هذه الكنوز الثمينة الى أبد الآبدين فلذلك كان أغلب مستخدميها يذهبون بالنهار الى الحصون والقلاع للدفاع عن المدينة ومتى جنّ الليل يرجعون الى المكتبة و يطوفون حولها خفراء عليها وبعضهم يصعد على أسطحتها للوقاية من هذا العدوّ المبين وهو النار ولما دخل البروسيانيون باريس اجتهد عمال المكتبة فى اخفاء أهم مافيها من الكتب التى بخط اليد حتى لاتطمح اليها أنظار الفاتحين

ولما تم عقد الصلح وعادت السكينة الى ربوع فرنسا جاء خطر جديد لم يكن فى الحسبان وهو ثورة الكومون وذلك انه لما زحف الثائرون من فرساى على باريس ودخلوها كانت النار تتهدد الكتبخانة من كل جانب ولكن الله سلم

VERSAI

ولما عادت المياه الى مجاريها واشتغل الناس بالعلوم والمعارف اكتسبت المكتبة أهمية فوق العادة حتى بلغ عدد الكتب التى وردت اليها فى سنة ١٨٩٠ وحدها ٧٠,٠٠٠ مجلد

وعدد مافيها من الكتب الآن يبلغ مليونين ونصف مليون واذا أضفنا الى ذلك العدد ما هنالك من المجاميع والكتب المكررة لبلغ العدد ثلاثة ملايين بالتقريب

ولا شك ان هذه الكنوز المتعددة تستوجب تحرير فهرست

واف ببيان محتوياتها وقد راعت ذلك الجمعية التشريعية فأصدرت بهذا المعنى أمرا عاليا فى ٢ يناير سنة ١٧٩٢

ولكن كثرة الوارد حالت دون كل نظام غير أن عمالها قد ابتدؤا فى سنة ١٨٥٢ بتحرير أوراق منعزلة بالبيان الكافى عن كل كتاب ورد للكتبخانة وقد كاد الفهرست العمومى يتم اليوم واعلم ان المبلغ المخصص للطبع هو قليل جدا بالنسبة لجسامة العمل فانه عبارة عن ١٠ آلاف أو ١٢ ألف فرنك فقط مع ان المتحف البريطانى بلوندرة ينفق فى مثل هذا السبيل ٢٠٦,١٢٥ فرنك وفى غرفة المطالعة ٧٥٠٠ مجلد ويقابلها فى مثلها فى المتحف البريطانى ٥٠,٠٠٠ ولكن المانع الوحيد هو ضيق المحل فى باريس

وكانت المكتبة متصلة بعمائر ومساكن لبعض الافراد فقرر البرلمان مبلغ ٦٦,٥٠٠,٠٠١ فرنك لعزلها عنها فاجتهدت الدولة حينئذ حتى اشترت هذه المبانى واضافتها الى المكتبة لتوسيع نطاقها وعزلها عما يجاورها بحيث أصبحت فى سنة ١٨٨٢ كجزيرة تحيط بها شوارع أربعة من الجهات الاربع وتلك العناية بقصد الوقاية من اتصال الحريق اليها مما يجاورها ولزيادة التحفظ وضعوا فيها مركزا لرجال المطافئ وهى على أربعة أقسام أولها قسم المطبوعات والخرائط والمجموعات الجغرافية وثانيها قسم الكتب المخطوطة (التى بخط اليد) والنظامات

السياسية والاجازات أى الدبلومات وثالثها قسم الميداليات والاحجار المنقوشة والقديمة ورابعها قسم المبصومات . وفى الخزانة غرفة للمطالعة تفتح فى كل يوم من الاسبوع حتى فى أيام الاحد من الساعة التاسعة صباحا الى الساعة الرابعة او الخامسة أو السادسة الافرنكية من المساء بحسب اختلاف الفصول وفيها غرفة أخرى للاشتغال بالكتب ومراجعتها

فأما قسم المطبوعات فهو فريد فى أوروبا يزيد على جميع مكاتبها بكثرة ما فيه من الكتب النادرة المعدومة فانه وحده يحتوى على ٢,٥٠٠,٠٠٠ مجلد من ضمنها الكتب التى ظهرت أيام نشأة المطبعة أو التى طبعت فى أشهر المطابع القديمة

وأما غرفة المطالعة ففيها طاولات عظيمة يجلس حواليها ١٠٠ مطالع بالراحة وفيها نحو ٢٥,٠٠٠ مجلد من مجموعات دورية وعلمية وموسوعات ومعاجم وأشهر الكتب المتداولة فى الآداب والعلوم والصنائع وغير ذلك وعلى عقود هذه الغرفة اسماء أشهر الطباعين والمشتغلين بفن الكتب

وأما غرفة الشغل فساحتها ١,١٥٥ متر مربع ويمكن أن يجلس فيها ٣٤٤ شخص بكمال السعة والراحة وسقفها عبارة عن ٩ قباب مغشاة من الداخل بالقيشانى ومتكئة على أسانيد

مقربصة من الحديد قائمة على ١٦ عمودا من الحديد الزهر ارتفاع كل عمود منها ١٠. أمتار وحوالى هـذه الغـرفـة دواليب فيها نحو ١٠٫٠٠٠ مجلد من معاجم ومجاميع وغـير ذلك، وهى متصـلة بخزانة الكتب الخاصة بها وفيها أكثر من ١٫٢٠٠٫٠٠٠ مجلد ويتصل بهذا القسم المجموعة الجغرافية ولا نظيرلها فى أوروبا كلها اذ جمعت فيهـا الدولة الفرنساوية خرائط جغرافية للممالك والبقاع والبلدان وأغلبها مصنوع بالجبس وفيه خرائط فرنساوية وأجنبية من جميع اللغات ويبلغ عددها ٢٥٠٫٠٠٠ خرطة

أما القسم الثانى ففيـه أوراق وكتب من جميع اللغات ومجموعها ٩٠٫١١٩ مجلد منها نحو ٨٫٠٠٠ مزينة باشكال وتصاوير وحروف مذهبـة ومزوقة ويتبعـه مجموعـة من أوراق البردى المصرى والاغريقى واللطينى وتعليمات شارلمان والعهود والعقود من سنة ١٢٠٠ الى سـنة ١٤٣٥ ومنشوران من البابا على ورق من البردى تاريخه سـنة ٩٩٩ وغير ذلك وفيـه حجرة قد وضعت فيها جميع مؤلفات فولتير فيلسوفهم وشاعرهم وأديبهـم ومؤرخهم المشهور وفيه أيضا صناديق مغطاة بالواح من الزجاج تحتوى على أندر ماوجـد من المطبوعات والمخطوطات ذات القيمة الغالية تدل على أصول المطبعة والتجليد وغير ذلك وفيها كتب بخط اليـد يونانيـة وشرقية وأمريكـانية وكتب كانت ملكا للملوك

والسلاطين وتجليد عجيب بالعاج والباغة وأوراق بردى ورق غزال وغيره وخطوط بعض المشاهير

أما القسم الثالث فاول من أسسه لويز الرابع عشر وهو من أهم المجموعات المماثلة له فى العالم فانه يحتوى على أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ ميدالية وفى الدهليز الموصل اليه منطقة فلك البروج التى كانت بدندرة ومجلس أجداد تحوتمس الثالث وكلاهما مما أتى به الفرنساوية من مدينة طيبة بالصعيد ويوجد به أيضا ألواح قديمة من أحجار متنوعة عليها نقوش بلغات شتى مهجورة وفيها أحجار دقيقة كريمة منقوشة أو محفورة بالتجويف أو بالتبريز ونقود اسلامية وغير اسلامية وغير ذلك مما يطول شرحه

وأما القسم الرابع ففيه أكثر من ٢,٢٠٠,٠٠٠ قطعة مجموعة فى ١٤,٠٠٠ مجلد و ٤٠٠ لوح من الورق المتين المعروف بالكرتون وفيها مبصومات تدل على تاريخ الفنون فى فرنسا من ابتداء القرن الخامس عشر الى عصرنا هذا وغير ذلك

﴿ونعنى بالمبصومات تلك الرسوم المصنوعة بالريشة أو بالقلم الرصاص لكى تكون قاعدة فى الطبع وهى بالنسبة لالواح الصور الزيتية كالترجمة للاصل﴾

ولنتكلم الآن على ميزانيتها اظهارا لمزيد أهميتها فقد كانت فى سنة ٩٢ ٧٨٨,٠٠٠ فرنك منها ٤٣٦ ألف للمستخدمين و ٢٧٢ ألف

للادوات والمهمات و ٨٠,٠٠٠ للفهرست والمخصص للمشترى من هذه المبالغ هو ٨٠ ألف فرنك وللتجليد ٢٥,٠٠٠ فرنك

أما ميزانية المتحف البريطانى فانها تزيد على ٥٠ ألف جنيه أى ١,٢٥٠,٠٠٠ فرنك نصفها للماهيات والنصف الآخر لمشترى الكتب وتجليدها وغير ذلك نعم ان المتحف البريطانى فيه كثير من المجاميع العلمية غير الكتب والآثار والمخلفات القديمة ولذلك ينبغى لنا المقابلة بين قسم المطبوعات فى كل منهما فقط

ففى باريس ٦٠ مستخدما وعاملا وفى مثله فى لوندرة ١٢٢ مستخدم وعامل مرتبهم ٤٩٦,٠٥٠ فرنك وهذا جدول مقابلة الماهيات

(مكتبة باريس)

١	مدير عام	١٠٠٠٠	فرنك
١	سكرتير وصراف	٧٠٠٠	«
٤	امناء	١٠٠٠٠	«
٦	مساعدو أمناء	٧٠٠٠	«
٥٠	كتبخانجي ووكلاء وتحت التمرين وغيرهم من أصحاب اليومية والكتبة	١٨٠٠ الى ٦٠٠٠	«

(المتحف البريطانى)

١	حافظ	١٨٧٥٠	فرنك
٤	مساعدون	من ١٢٥٠٠	الى ٥٠٠٠

١٣	معاون درجة أولى	«	٦٢٥٠	» ١١٢٥٠
٢٢	« « ثانية	«	٣٧٥٠	» ١٠٢٥٠
٣٦	« « ثالثة	«	٢٧٥٠	» ٣٠٠٠
٤٦	فراش	«	١٥٠٠	» ٢٥٠٠

وكانت ميزانية المكتبة الاهلية فى أيام لويز الخامس عشر عبارة عن ٦٨٠٠٠ ليره أى فرنك منها ٤٦٤٦٩ للمستخدمين و ٢١٥٣١ لمشترى الكتب والادوات. وفى سنة ١٧٧٨ بلغت ٧٣٠٠٠ ليره ثم ازدادت فى أواخر حكم الملك لو يز السادس عشر حتى بلغت مبلغاً جسيماً جداً بالنسبة لذلك الوقت وهو ١٦٩٫٢٢٠ ليره وعشرة صلادى منها ٦٣٫٠٠٠ للمشتروات

كتبخانة سنت جنفياف (بقاءين فارسيتين) - تحتوى على ٢٠٠ ألف مجلد منها أربعة آلاف بخط اليد وفيها زيادة على ذلك ٢٥ ألف لوحة مزدانة بنقوش بديعة وفيها خرائط قديمة كثيرة ومبصومات وفيها غرفة مطالعة خصوصية تحتوى على أغرب ما فيها من مجاميع وكتب بخط اليد ومطبوعة ونقوش وفيها تمثال أولرمش جيرنج أول من أدخل فن الطباعة الى باريس فى سنة ١٤٧٠ وغيره من المشاهير وفيها غرفة مطالعة عمومية تسع ٤٢٠ شخص وحواليها ستائر من صنع الجُبلين تمثل المطالعة

(١) TAPESTRY WORK

وقد دهمها الليل وهو رمز الى الشغل النهارى والليلى فى هـذه الغرفة

كتبخانة مازارين ـ وهى فى جمعية المعارف وفيها ٢٥٠ ألف مجلد منها ٦ آلاف بخط اليد

هـذه هى أشهر المكاتب العمومية وفى المدينـة مما يقاربها مكتبة متحف الفنون والصـنائع وقد قلنا انها تحتوى على ٣٠ ألف مجلد ومكتبة مدرسـة فرنسا الجامعة وفيها ٤٣ ألف مجلد ومكتبة مدرسـة الفنون المستظرفة وقد قلنا ان عدد كتبها ١٢ ألف ومكتبة المجموعات التاريخية لمدينـة باريس وفيها ٩٠ ألف مجلد و ٧٠ ألف مبصوم ومكتبة مدرسة المعادن وفيها ٦ آلاف مجلد ومكتبة بستان النبات وفيها ٨٠٠٠٠ مجلد ومكتبة الاوبرا وفيها ١٥ ألف مجلـد وكراسـة و ٦٠ ألف مبصوم وفيها كثير من الرسوم والتصاوير والتماثيل الخاصة بفن التشخيص والموسيقى والقيان والقينات وقد ذكرنا كتبخانات أخرى فى الفصـل المتقدم

واعلم أن لكل جمعيـة مهما كانت غايتها ومذهبها ومشربها فى السياسة والصـناعة والعلوم مكتبة خاصة بها تعـد المجلدات فيها بالالوف وعشرات الالوف وكذلك الشركات والمـدارس

والمكاتب العمومية ولاغلب الكتبخانات فترة معينة فى السنة تقفل فيها

٦

العمائر الدينية فى باريس

يوجد بهذه المدينة ٧٠ كنيسة (جامعةذات أبرشية) غير البيع الصغيرة التى قد لايخلو بعضها من الاهمية وكل سائح يريد أن يقف على الدقائق وأن يكون له بعض احاطة عمومية باحوال البلاد التى يجوبها لايصح له أن يغض الطرف عنها ولكنى أقتصر فى هذه الخلاصة على بعض اشارات خفيفة وأقوال وجيزة

كنيسة نوتردام — كان البدء فى بنايتها سنة ١١٦٥ ثم توالى عليها التدمير والترميم والتكميل والتحويل والتبديل حتى استقرت على ما هى عليه الآن منذ سنة ١٨٤٥ وطولها ١٣٣ متر وعرضها ٤٨ وارتفاعها ٣٣،٧٧ مترا فى المتوسط ولم يحصل تدشينها (١) الا فى سنة ١٨٦٤ وهى من أجل العمائر التى فى فرنسا

(١) قال فى القاموس فى مادة د ش ن ما نصه « الدشن يعنون به الثوب الجديد لم يلبس والدار الجديدة لم تسكن » وجاء اللسان بعبارة اوضح وهى « الداشن معرب من الدشن وهو كلام عراقى وليس من كلام اهل البادية كأنهم يعنون به الثوب الجديد لم يلبس أو الدار الجديدة لم تسكن ولا استعملت » اه وعندى ان التدشين اقرب الالفاظ العربية واولاها بالترجمة Inauguration التى شاعت ترجمتها بلفظة «افتتاح» او «احتفال» لان معناها الابتداء للمرة الاولى فى عرض =

على الطرز القوطى المتفرد بالشكل البيضاوى ويحف بواجهتها برجان ضخمان وفيها كثير من تماثيل القديسين والقديسات وغيرهم وملوك وأمراء وفيها جرس زنته ١٣ ألف كيلو جرام وجرس مأخوذ من سباستبول حينما تحالف الفرنساوية والانكليز وسرادنيا مع الدولة العلية أيدها الله على الروسية وغلبوا الروس على سباستبول وفيها وردة من الزجاج عرضها ٩ أمتار و ٦٠ سنتى تمثل بأشكالها وألوانها الحوار بين الاثنى عشر وهم مجتمعون فى مكان واحد وفوقها سهم من خشب البلوط مغشى بالرصاص مركب من ثلاثة أدوار أفرغ صانعه جهده فى تنسيقها وتزويقها وهذه الادوار على شكل هرمى ويرتفع السهم عن الارض بخمسة وتسعين مترا وثقله ٧٥,٠٠٠ كيلو جرام منها ٥٠٠,٠٠٠

= اثر من الآثار او عمارة او محل مهما كان نوعه على الانظار مثل تمثال او ترعة أو خط حديدى أو عمود او مدرسة او غير ذلك واباحته لاستعمال العامة وفى ذلك قرب تام الدار الجديدة لم تسكن ولا استعملت . وقد يستعمل المسيحيون لفظة «تكريس» فيما يتعلق بالكنائس والمعابد وما اشبهها وهى مقلوبة من كلمة افرنكية Sacre اى تقديس وربما كان لها اصل فى اللغة العربية قال فى القاموس «والتكريس تأسيس البناء «وقال فى اللسان» وتكرس أس البناء صلب واشتد . . . . اجعل لهذا الحائط كرسيا اى اجعل له ما يعمده ويمسكه . . . . وكل ما جمع بعضه فوق بعض فقد كرس وتكرس»

من الخشب و ٢٥٫٠٠٠ من الرصاص وفى داخل الكنيسة
٣٧ بيعة ومنابر متناهية فى الجمال يعظ فيها القساوسة الناس
وفى الخوروس أشغال فى الخشب تبهر الانظار خصوصا التراكيب
والترابيع المعروفة بالعربية التى هى عبارة عن خطوط مشتبكة
متداخلة فى بعضها على طريقة أهل المشرق والأندلس
وفيها أرغن من أكبر أمثاله فى فرنسا وأكملها يحتوى على ٦٫٠٠٠
قصبة لاخراج الهواء وتوقيع الانغام — وأهم مافيها بصرف النظر
عن ضخامة البناء واتساع الارجاء وانتظام العقود وارتفاع القباب
انما هو خزينة الذخائر فانها تحتوى على مخلفات ثمينة مصنوعة من
الفضة الخالصة والذهب الصافى ومرصعة بالاحجار الكريمة وآنية
مقدسة ومباخر مفتخرة والعباءة التى تردى بها نابليون حينما كرسه البابا
امبراطورا على فرنسا والتحف النفيسة التى أهداها الامبراطرة والملوك
والملكة مارية انطوانيت وتمثال من الفضة للسيدة مريم عليها
السلام وصور وتماثيل رؤساء الاساقفة فى باريس ومجموعة من
الاحجار الكريمة محفورا فيها صور جميع الباباوات الماضين وجملة
صلبان وكؤس وجامات وشمعدانات وغير ذلك من الحلى والملابس
المزركشة المرصعة التى تستخدم فى الاحتفالات الدينية الكبيرة
وفى بعض الأيام يعرضون على الجماعات المتقاطرة الى الكنيسة

صندوقا فيه إكليل الشوك وبعض المسامير التى يقال انها استخدمت فى صلب كلمة الله (عليه السلام) ويعرضون قطعة من خشب الصليب أحضرها هى والاكاليل والمسامير القديس لويس من بلاد المشرق أيام الحروب الصليبية

وخلف هذه الكنيسة منتزه بديع يفضى الى مكان مريع تنقبض له النفوس وتصم من ذكره الآذان وهو المعروف عندهم بالمورج تعرض الحكومة فيه الاموات الذين لايعرف أهلهم حتى اذا استدل عليهم أحد من العموم أرشد جهات الادارة عنهم وقد زرته ورأيتهم يحفظون الغرقى والمقتولين والمشنوقين وغيرهم مع العناية المتناهية والاحتراسات الواقية فلا تخرج منهم رائحة مطلقا وليس منظرهم بشعا مشوّها بل تراهم كانهم نيام لابسون ملابس لائقة ولايظهر منهم الاوجوههم

البيعة المقدّسة — بنيت فى سنة ١٢٤٢ وتمت بعد ذلك بخمس سنين وهى فى باريس كالدرة اليتيمة فى العقد النفيس خصوصا سهمها الذى لم ير الراؤن ابدع منه فى الحسن والجمال وهى أقدم وأجل مافى باريس من العمائر القوطية بناها الملك لويس التاسع القديس ليضع بها الاكايل الشوكى والمسامير وقطعة الخشب التى سبق لنا الكلام عليها بعد أن اشتراها من بودوين الثانى

ملك القسطنطينية وقد استخدمت حينا من الدهر كمستودع للمحفوظات القضائية ولكنهم رمموها الآن كما ينبغي واقتضت العمارة فيها ثلاثين سنة من الزمان و بظاهر واجهتها تمثال الملك لويس وشقيقه لويس الاسقف وفوقهما تمثال العذراء عليها السلام والبيعة من الداخل تتلألأ بالزخرفة الفاتنة والنقوش المذهبة وهى على شكل بيعتين احداهما فوق الاخرى فأما السفلى فلا تستعمل الآن فى تعبداتهم الدينية وأما العليا فيحصل فيها القُدّاس فى يوم ١٦ اكتوبر وقد كان القضاة بالمحاكم ملزمين بحضوره قبل هذا الزمان وبجانب سواريها تماثيل الحواريين الاثنى عشر وفيها من الشبابيك مايبهر الابصار وتحار فيه الافكار من انسجام ألوان الزجاج وتناهى بهائه وصفائه مع الاحكام فى التنسيق والاجادة فى التزويق وفوق البوّابة وردة من قطع الزجاج تقرّ لرؤيتها العيون وتعترف بجمالها العقول

كنيسة سنت أوستاش — أحسن الأوقات لزيارة هذه الكنيسة المتناهية فى الضخامة يوم الاحد اذ يكون فيها تلحين الآلات الموسيقية وتوقيع النغمات الصوتية بكيفية تطرب لها الاسماع وهى شبيهة ببعض القصور العربية من أن خارجها لا ينبئ بشئ عما فى داخلها من الزخرفة والاتقان فان واجهتها وجهاتها

من الخارج حقيرة بالنسبة لما يكنه داخلها من متانة الصناعة وجسامة المقادير وضخامة الاحجار وارتفاع العقود ارتفاعا متطاولا واتساع الاقواس اتساعا هائلا حتى ان الانسان ليخيل له انها أعدت للتحصن والاعتقال وكان البدء فى تشييدها فى سنة ١٥٣٢ وتمت فى سنة ١٦٤١ ولذلك لم تجئ على مثال واحد أو من طرز متجانس من الطرازات المتعارفة فى فن العمارة ولكنها من أجل كنائس باريس وأكثرها زخرفة وتزويقا وطالما مررت عليها ولم تكن نفسى تحدثنى بضياع الوقت فى الدخول اليها ولما شاهدتها رأيت أنها بعكس خضراء الدمن ظاهر قبيح وباطن مليح ولا أرى من حاجة للكلام الآن على مافيها من المصنوعات والتحف والنقوش فى الرخام والمعادن والاحجار أو البيع الكثيرة المشحونة بالزخارف والطرائف أو زجاج الشبابيك أو منابر الوعظ أو مفاتيح العقود التى تربط الاقواس والحنايا ولكنى أقول ان الضياء فيها أكثر منه فى أمثالها كأن هواءها أجود وأخف على الروح وقد دفن بها كثير من مشاهير الفرنساوية مثل كولبير وزير لويز الرابع عشر والقصصى لافونتين الطائر الصيت المخلد الذكر وغيرهما من كبراء رجال السيف والقلم والحل والعقد والادب والحسب

كنيسة سنت جرمان لوكسروا — هى فى ميدان اللوفر بنيت

فى القرن السادس للميلاد وكان ملوك فرنسا يحضرون القداس فيها ثم توالت عليها الايام واتفق أن النور مانديين اعتقلوا بها فى سنة ٨٨٥ ثم جعلوا عاليها سافلها فأقام القوم بناءها فى أوائل القرن الحادى عشر ثم شرعوا فى تجديد معالمها وتغيير أوضاعها ولم يتم تشييدها فى هذه المرة الثالثة الا بعد مضى ثلاثة قرون من الزمان وانما ذكرت هذه الكنيسة لشهرتها فى التاريخ اذ أنه فى ليلة ٢٤ أغسطس سنة ١٥٧٢ (وهو اليوم المشهور بواقعة سنت بارتلمى التى قتل فيها الكاثوليكيون البروتستانتيين قتلا ذريعا شنيعا فظيعا) اتفق المحالفون المتمالؤن على ان يشدوا فى العمل حينما يدق ناقوس هذه الكنيسة للايذان بقداس الصباح وفى يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٣١ أقيم فيها احتفال جنازى عن نفس دوك دوبرى ولكن احزاب الثورة التى حصلت فى يوليو أوّلوا هذا الاحتفال تأويلا فاسدا واتخذوا ذلك ذريعة للتشنيع على الكنيسة فباغتها العوام والطغام ونهبوا كل مافيها من النفائس والاعلاق ثم أقفلت الكنيسة وجعلت مقرا لدار أمانة المدينة مدة سبع سنين وفى ١٣ مايو سنة ١٨٣٧ أعيدت الى وظيفتها الاولى

أما داخلها وبيعها فمثل الكنائس الاخرى ولكن احدى هذه البيع تمتاز بكثرة الزخرفة على الطراز القوطى وفيها بيعة أخرى تحاكى برسومها وزجاجها البيعة المقدسة التى ذكرناها

كنيسة سان سولپيس - هى عبارة عن عمارة بالغة فى

الجمال متناهية فى الاتساع كان وضع الحجر الاول فيها بحضور الملكة
انه دوتريش (Anne d'Autriche) فى سنة ١٦٤٦ وواجهتها
عبارة عن أسوار قائمة على بعضها بشكل يروق الانظار فيما بين
البرجين الشامخين وفى دائرها من الداخل رواق واسعة تعلوها أساطين
متقنة ويبع متعددة تزيد فى بهجتها وفوقها قبة مزخرفة بصور
ونقوش من صنع بعض الماهرين فى هذه الفنون وفى وسط صحنها
مسلة من المرمر يمر عليها خط من النحاس للدلالة على الاتجاه الشمالى
وفيها منبر للوعظ فى غاية مايكون من الحسن أمر بصنعه المارشال
ريشليو وفيها عدا ذلك أشياء كثيرة لاتستحق الذكر الآن سوى
الارغن فانه من أكمل وأجمل ماوجد من هذا القبيل والقوقعتين
العظيمتين اللتين يوضع فيهما الماء المقدس وهما هدية من جمهورية
البندقية الى فرانسوا الاول وسبيل فاخر محاط بتماثيل بوسويه
وفنلون وماسيليون وفليشيه وهم من أهم وعاظ الكنيسة وأدباء
الفرنساوية فى عصر لويز الرابع عشر

البانتيون — مجرد ذكر هذا الاسم يشعر بالعظمة والجلال
ويبعث فى النفس هيبة ووقارا وفى الفؤاد اجلالا واكبارا كيف
لاوهو مستودع لبقايا الذين خدموا العلوم والفنون وسعوا فى تعزيز
وطنهم وترقية بلادهم حتى جعلوا لها بين الامم مقاما محمودا وفضلا
مشهودا ولا يدخله انسان الا وتداخله السكينة والتؤدة فيسير

فيه على أطراف الاقدام ملازما الصمت التام بل تكاد تخرج من فيه ألفاظ التحية والسلام على عظام هؤلاء العظام

والبانتيون كلمة يونانية من پاس أى جميع وثيوس أى إله ومعناها المعبد المخصص لجميع الآلهة مثل الكعبة فى أيام الجاهلية فان كل قبيلة كانت تتخذلها معبودا مخصوصا وتضعه فيها وبقى ذلك الى أن بطل بمجئ الدين الاسلامى الحنيف وكثيرا ماتستعمل لفظة پانتيون للدلالة على التعظيم والاجلال اللذين يقوم بهما الخلق فى حق المشاهير وأهل الفضل فيقولون ان فلانا له مقام معين فى پانتيون التاريخ وهكذا

بنى هذا المكان فى سنة ١٧٦٤ وجعل كنيسة باسم القديسة سنت جنڤياف (بجيم وفاءين فارسيتين) راعية باريس وحاميتها ثم جاءت الحكومة الاتفاقية فى سنة ١٧٩١ فغيرت ماوضع له ومنعت العبادة منه وأطلقت عليه اسم البانتيون وكتبت على واجهته هذه العبارة الوجيزة فى الكلمات البليغة فى المعانى والدلالات

لعظماء الرجال شكر الاوطان

(Aux grands hommes, la patrie reconnaissante)

فلما آل الامر والسلطان لعائلة بوربون ورجعت الحكومة الملوكية أعيد البانتيون الى أصله حتى كانت الثورة فى سنة ١٨٣٠ فسمى

البانتيون مرة ثانية واستمر كذلك مدة ٣١ سنة الى أن جاء الامبراطور
نابليون الثالث فاصدر تقليدا ملوكيا يقضى باعادته للديانة باسم سنت
جنفياف ولكن الحكومة الجمهورية الحالية أصدرت أمرا عاليا
فى يوم ٣٢ مايو سنة ١٨٨٥ عقيب وفاة فيكتور هوجو مباشرة
باعادة اسم البانتيون للمرة الثالثة وبعد صدور هذا الامر بأيام
قليلة احتفل الفرنساويون قاطبة بنقل جثة هذا الشاعر العظيم
الى البانتيون ودفنوها بجانب مقبرة جان جاك روسو وفولتير
وميرابو وكان هذا الاحتفال بالغا فى العظمة بحيث لم يسبق له
مثال واشتركت فيه الدولة بصفة رسمية والامة بأجمعها ممن فى
فرنسا وفى الخارج

واعلم أن واجهة هذا الهيكل قائمة على اثنتين وعشرين
اسطوانة وفوقها نقوش بارزة تمثل الوطن واقفا بين الحرية والتاريخ
وهو يوزع أكاليل المجد وشارات الفخار على عظماء الرجال مثل
بونابرت من جهة اليمين ومن جهة اليسار روسو وفولتير وميرابو ودافيد
وغيرهم من رجال فرنسا المعدودين

وطول هذه العمارة الفخيمة ١١٣ متر وعرضها ٨٥ مترا
وفوقها قبة قطرها ٨٣ مترا

أما داخله ففيه كثير من التماثيل والصور الدينية والتاريخية

التى لها علاقة بالمدينة ولا حاجة لتفصيلها الآن أما القبة فهى عبارة عن ثلاث قباب فوق بعضها وفيها كلها نقوش لا يستحق الذكر منها الا ما يستجلب الانظار فى القبة الثانية من الرسوم التى تصور الموت والوطن والعدل والمجد وعلى العمدان التى تستند عليها القبة يرى الانسان ألواحا مزدانة بأسماء أبناء الوطن الذين ماتوا فى سبيل الدفاع عن القوانين والحرية فى ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ يوليو سنة ١٨٣١ وسأتكلم عليهم بمناسبة العمود الذى أقيم لاحياء ذكرهم

ومما ينبغى تنبيه الشرقى اليه من الرسوم الكثيرة المزدانة بها جدران هذا الهيكل الصورة التى تمثل الامبراطور شارلمان وهو يعيد العلوم والآداب بعد اندراسها ويفتح المدارس و يؤسس المكاتب ويستقبل وفود الخليفة هرون الرشيد ومعهم من قبل أمير المؤمنين مفاتيح القبر المقدس هدية منه لهذا الملك العظيم الشأن وهنالك طنفستان من ستائر الجبلين قيمتهما ١٠٠٫٠٠٠ فرنك (أربعة آلاف جنيه انكليزى تقريبا)

ومن صعد الى أعلى قمة القبة رأى أبهج المناظر وأحسن المرائى اذ يكون مشرفا على باريس وطرقاتها وقصورها وحركتها أما الدور الذى تحت الارض فهو عبارة عن جملة مغارات

منقسمة الى أروقة منتظمة يتردد فيها الصدى بكيفية تقرب مما رأيته بل سمعته فى رومة وبيشة وكنيسة القديس بولس بلوندرة وفى اللوفر ومحفظ الفنون والصنائع بباريس وغير ذلك وفيه قبور كثير من عظماء فرنسا الذين يتفاخر بهم أبناؤها اذا جمعتهم المحافل ٠

وقد كان رجوعى الى باريس عقيب وفاة رنان (Renan) ببضعة أيام وكانت الجرائد ورجال السياسة مشتغلين بمسئلة نقله الى البانتيون وكثر حديث القوم بهذا الشأن الى درجة لايمكن تصورها وجرت مسئلة رنان الى التحدث بنقل غيره من مشاهيرهم أيضا فقدم وزير المعارف مشروع قانون لمجلس النواب لكى يصادق عليه حتى يكون نقل بقايا رنان بمقتضاه وقد قال الوزير فى تقريره مامعناه (ان حكومة الجمهورية تقترح على المجلس اشراك ميشليه وكينيه مع رنان فى هذا الاجلال والتعظيم فانهم وان اختلفت ملكاتهم وتباينت أفكارهم ومصنفاتهم فلا تزال بينهم رابطة لايمحوها مرور الزمان اذ كانوا كلهم أساتذة فى مدرسة فرنسا وقد أنشأها مؤسسها لخدمة المعارف الحرة وهم كلهم قد جاهدوا لتأييد الاستقلال فيما يتعلق بابداء الافكار وكلهم احتملوا الشدائد وقاسوا المصاعب فى هذا السبيل)

ولكن الجرائد وبعض أعضاء مجلس النواب شطوا فى الطلب وتغالوا فى نقـل عظام بعض المشاهير الى البانتيون وكثـير منهم أخـذ فى التهزىء والتهكم وفريق آخر فى نحت كلمات مستنفرة من انظة بانتيون وهكذا مما هو شأن الجرائد فى هذه البلاد عند حلول أىّ حادث يستلفت الانظار فقام جماعة بطلب نقل عظام بعض البارعين فى توقيع الانغام وآخرون منتصرون لنقل بعض المؤرخين أو رجال السـياسة أو المعارف أو النظم أو الادب أو التصوير أو الطب أو نشر الكتب أو الكيمياء أو الاقتصاد أو اللغات أو أعضاء مجلس النواب أو غير ذلك وقام بعض النواب بطلب نقل بقايا تيارس المشهور فردت عليه أخت زوجته بكتاب أرسلته الى كافة الجرائد ترجوه فيه العدول عن هذا الطلب لان زوج شقيقها كان على الدوام يعرب عن رغبته فى أن تدفن عظامه بجانب أهله وقالت له فى ختامه (انى أسألك أن تتكرم بالكف عن اقتراحك وأن تترك الموسيو تيارس بعيدا عن اضطرابات السياسة فى مكان الراحة والسلام الذى اختاره أهله له) وبمثـل ذلك أجاب بعض ورثة الشاعر المشهور لامرتين والمؤرخ ميشليه برفض نقلهـما الى البانتيون وغيرهما وغيرهما و رأيت كثيرا من الجرائد المعتبرة والثانوية اتخذت هذه الحوادث فرصة لاستعمال ألفاظ الطيش والخفة فيقولون

۞ عقود البانتيون الباردة – خباياه المظلمة – زواياه المحزنة – هيكل الملل – مدفن عظماء الرجال الذين يؤدّى لهم الوطن ماعليه من دين الشكران بشح وتقتير – ان هذه العمارة التى احترمتها يدا فلان (كأن انشاء هذا البانتيون جريمة لا تغتفر) أراها لاتحتوى على شئ من الاجلال الذى يتصور القوم اتحاف عظام العظماء به بعد وفاتهم – ان دانتى الشاعر الطليانى الذى كتب على الجحيم لواطلع على هذه الاروقة الصاقعة بجماها فى سقر وبئس المستقر ۞ وأمثال ذلك من عبارات السخرية التى لاأتذكرها ولاأذكرها

وبمناسبة هذا البانتيون أذكر خلاصة موجزة على العمائر المشاكلة له فى بعض البلاد التى مررت عليها فانى رأيت فى معظم الكنائس التى تفرجت عليها ان لم أقل كلها قبورا لمشاهير أبناء الوطن ومن أهم مايستوقف أنظار المتسوّح فى أوروبا عند قدومه الى ايطاليا البانتيون الرومانى القديم وفيه الآن قبر الطيب الذكر ڤيكتور عمانويل وفى كل سنة يتقاطر الطليانيون الذين تشربت قلوبهم بحب الوطن الى هذا المكان ويزورون هذا القبر بغاية التبجيل والتوقير وبجانب الملك قبر رفائيل الرسام المشهور وغيره من النابغين فى الفنون المستظرفة وفى فلورانسة مكان يسمى سنتاكروتشى (الصليب المقدس) ويسمى بانتيون ايطاليا لانه

يحتوى على كثير من تماثيل عظمائها فى كل فن ونوع من التصوير والادب والفلسفة والموسيقى والنحت والنقش والسياسة والدولة والعلم الطبيعى وبعض أعضاء العائلة الملوكية وغيرهم ممن كان يندرس ذكرهم لولم يكن اسمهم منقوشا على الرخام ومعروضا لانظار العامة والخاصة على الدوام ولا أطيل الكلام بذكرما فى المدائن الاخرى وأذكر ما فى لوندرة فكل الصيد فى جوف الفرا فان دير ويستمينستر هو أحق هذه العمائر باسم البانتيون أى الاثر الذى يقيمه الوطن الشاكر لابنائه فضلهم العارف لهم حق خدمتهم وذلك لان من يريد أن يقف حقيقة على عظمة الامة الانجليزية ومجدها فى التاريخ ينبغى له أن يذهب الى هذا الدير الذى يحتوى على أكثر من ثلثمائة أثر أقامها الوطن لعظماء الرجال فى السياسة والعلوم والموسيقى والفلسفة والشعر والسياحة والملاحة والاستكشاف والاستنباط وتشخيص الروايات وأعضاء العائلة الملوكية وكل من عاون على اعزاز انجلترة ورفع منارها باية كيفية من الكيفيات ولا شك ان الرجل من أبناء بريطانيا العظمى حينما يدخل الى هذا المكان ويطوفه ويقرأ مافيه من الاسماء يكبر فى عين نفسه ويرى من الواجب عليه ان يبذل كل جهده ليكون جديرا بالانتساب الى هؤلاء الاجداد ولا يكتفى بان يقول كان أبى أو صنع قومى

٧

جبانات باريس

كانت المدافن فى هذه المدينة بجوار الكنائس فأقصتها الدولة الى ماوراء المساكن حفظا للصحة وتوسيعا لنطاق البلد ويبلغ عددها الآن ٥٩ جبانة منها ١٣ داخلة فى حومة باريس والباقى خارجها وأجدرها بزيارة الغريب ثلاثة فقط وأهمها وأكبرها مقبرة الاب لاشيز ولذلك توجهت اليها ثلاث مرات فى ثلاثة أيام لانتظامها واحتوائها على كثير من عظماء الرجال

هذه المقبرة كائنة على رابية ذات انحدار خفيف ويبلغ مسطحها ١٣ هيكتارا وكانت ملكا لرجل من اليسوعيين اسمه الاب لاشيز (كان أمين سر الاعتراف للملك لويز الرابع عشر)

ولهذه المقبرة ذكر متواتر فى روايات الفرنساوية وأقاصيصهم مما يتعلق بالغرام ولكن أشهر ماوقع فيها انما هو المقاتلة العنيفة بل المذبحة الشنيعة التى حصلت فى ثورة الكومون

كان انشاء هذه الجبانة وهندستها فى سنة ١٨٠٤ ثم أخذت بعد ذلك فى الاتساع والامتداد من جهة المشرق حتى أصبحت الآن عبارة عن ٤٣ هيكتارا أو ٩٤٠٠٠٠ متر وعدد سكان قبورها وحدها ٣ مليون أى أكثر من الاحياء فى باريس كلها وفيها

١٥٠ طريق ويمر تحتها نفق لسكة حديد الحزام Chemin de fer de ceinture التي تمر حول المدينة فيكون الاحياء تحت الاموات وفوقهم وليس فيها شئ مما يقبض النفوس ويزعج الناظرين بل يعتبرها كل من زارها كأنها من أحد المتنزهات البديعة وخصوصا حينما يتجوّل فيها الانسان تاركا نفسه مع تيار الافكار متأملا فى هذه الحياة الدنيا ثم يقف من غير قصد فيقرأ الاسماء التى على القبور ويرى بينها بالصدفة اسم رجل عظيم أفاد الوطن أو الانسانية بكاباته أو أعماله فانى كنت فى هذه الحالة يحصل لى انشراح عظيم كأنى أكتشفت أمرا جليلا أو وقفت على سر نافع وتعرفت بالرجل ذاتيا خصوصا وان قبور العظماء ليست كلها على حافة الطرقات أوفى المواضع التى تستوقف الانظار فترى العالم بجانب الزارع وبعدهما صانع يخلفه شاعر يتلوه مؤرخ فتاجر فرجل حيثما اتفق فقائد كبير أو أمير شهير أو فيلسوف نابغ أومحسن فاضل الى غير ذلك من جميع أصناف الناس وطبقاتهم وأذكر الآن بعض الذين وقفت أمام قبورهم وتذكرت أعمالهم وما استفدته من تأليفهم أوالذين سمعت بشهرتهم مكتفيا بذكر الاسماء لعدم الاطالة واعدا نفسى بالاشارة فى الرحلة الى أعمالهم مثال ذلك فيسكونتى وروسّينى والفريدوموسيه ولونوار وفاوين ومادام بلان ولاّرازو وفولپينى وفيرون واورنانو ومادام هوارو

وما دام ماری روبَّز ومورل ووالسكی ولازارجو ورنياتللی والاثر المقام للعساكر الفرنساوية الذين قتلوا فی الدفاع عن وطنهم فی حرب سنة ١٨٧٠ المشهورة والاثر المقام للحرس الأهلی الذين قتلوا فی الحرب المذكورة وقبر ميشليه وآدم والكونتس داجولت ودوسيز وسوليه وكاموس وبرجيه والاثر المقام لتيارس المشهور ومنه يرى الناظر أمامه قبة البانتيون ثم قبر بلانكی وبيّار ومد موازل الوتر ومد موازل دوجبليس ولابلاس وغرسية وموليير بجانب لافونتين وجی لوساك ومقبرة لهو جوسان سيمون وبنيامين كونستان وماكدونلد والجرال فوا وبيرانجيه وبومارشيه وسكريب وڤوانی وجرامون ولوبل والمقبرة التی أعدتها سارة برنار لنفسها وهی تتعهدها بنفسها فی أوقات كثيرة وقبر أبادی والمقبرة المخصصة للمسلمين الذين يتوفاهم الله فی باريس وقبر مد موازل دوشسنوا وتاليران ولافيت ومقبرة لدولسس وأندريو ورسپای وموبخ وكازمير بيرييه وفونتان وديدو ومقبرة الاسرائيليين وفيها ميشل ليڤی (لاوی) وروتشليد ومادام ڤولد وراشل (راحيل) المشخصة المشهورة وغيرهم ثم قبور باجيس وجيريكو وبللينی ودنون ودلامبر

ورأيت أثرا يشبه ضريحا مكتوبا عليه ماهذه ترجمته (مقبرة الاب الابدی) وأقول انهم يعنون بالاب الابدی المولی الواحد الاحد الذی لم يلد ولم يولد تعالی الله عما يصفون

وانما ذكرت هذه العبارة من باب الغرابة والعلم بالشئ وناقل الكفر ليس بكافر

وبعد أن استغفرت الله تنزهت صفاته وتقدست أسماؤه مررت كعادتى فرأيت قبر شينييه وكوفييه ومنتون ولدرو رولين وكوسين ومالهرب وأوبير وأراجو ومدموازل لونورمان الكاهنة العرافة المعروفة التى أنبأت نابليون بجميع وقائعه فى المستقبل بواسطة ورق الكتشينة بغاية الضبط وتمام التدقيق وكان كما قالت من غير تحريف أوتبديل وقد اتفق انها حوكمت جملة مرار وكانت على الدوام تقول للقضاة انكم انما تتعبون أنفسكم سدى وتضيعون أوقاتكم عبثا فانى لا أموت الا بعد سبعين سنة (أو عدد آخر لا أتذكره الآن) وبالفعل كانت وفاتها فى الوقت الذى أخبرت به وقبور بول بودرى ولويس دافيد وكسافييه بيشا ولافوازييه وبرناردان دوسان بيير وشيروبينى والمارشال فيكتور والاثر المقام للذين ذهبوا فريسة الحوادث فى شهر يونيو سنة ١٨٣٢ وقبر نيلاتون وشامبوليون وكللرمان وجوفروان سانسير والجنرال جوبير ودوبويترن ولافاليت وسوشيه ودافيد دانجيه وبود والمارشال لوفقر وماسينا وبيسكو والمارشال مورتييه والمارشال نى والمارشال لوبو وراسين وجوفروا سنت هيلير ورميدوف وبراديبه ودروجيه واللان كاردك والمشخصة

دجارت وبالزاك واوجين دولاكروا وقبر العلامتين كروسى سبينللى وسيفل وقد ماتا شهيدين فى سبيل المعارف حينما صعدا فى الجو بالقبة الطيارة الى طبقة عالية جدا وحققا أمورا كثيرة مفيدة ثم سقطت بهما فلم تقم لهما بعدها قائمة وقبر الكونتس داجو صاحبة التآليف المشهورة التى أخفت فيها اسمها حيث اتسمت بدانييل سترن وغيرهم من المشاهير الذين يطول ذكرهم فى هذه الورقات وهنا أنبه القارئ الى أن بعض الاكابر الذين ذكرت أسماءهم يوجدون مدفونين فى جهات أخرى من باريس أو فى مدائن غيرها ولكن الحكومة جعلت لهم قبورا فى هذه الجبانة احياء لذكرهم وتنشيطا للاقتداء بهم وليس فى هذا شئ من الغرابة بالنسبة لعناية هذه البلاد بعظمائها

بل الاغرب والاعجب أنى رأيت ضريحا فخيما عليه تمثال رجل وامرأة بجانب بعضهما وفوقهما قبة لطيفة على عمد رشيقة تحف بها أشجار صغيرة وأزهار نضرة وقرأت عليهما هذين الاسمين (هيلوييس وأبيلار) وصار اسمهما علما على المحبة الزوجية الصادقة الحقيقية وقد أحضر هذان التمثالان الى باريس وعنيت الدولة بوضعهما فى هذه المقبرة فى مكان لطيف وعلمت انه متى اصطحب فتى بفتاة وتبادلا عهود المودة الحقة والالفة الصادقة وشرعا فى عقد الزواج بإتيان

الى هذا المكان فى كثير من الاحيان فى أوقات خلو المقبرة من الناس، ويضعان الازهار والاكاليل على هذا الضريح تيمنا بثبات الوداد وتفاؤلا بتبادل الصداقة من الطرفين ولهذين الاسمين قصة أرى من الواجب ذكرها هنا لزيادة الايضاح بل لزيادة الاستغراب وذلك ان هذا الرجل من مشاهير الفلاسفة واسمه ورد بهذه الاختلافات
Abaalarz, Abailard, Abélard, Abeillard, Belardus, Abailardus, Abaulardus, Abaielardus,
بل و Bailart وهو من كبار الفلاسفة اللاهوتيين التعليميين وله مذهب مشهور فى الفلسفة وابتكارات ومصنفات مفيدة فى الموسيقى وكان يعيش فى منزل شماس له حفيدة من أشراف فرنسا بارعة فى الجمال واسمها هيلوييس فكلفه أن يتمم تعليمها ويؤدبها فكلف بها ابيلار حتى لقد كتب فى هذا المعنى يقول «ما كان لنا سوى بيت واحد فالبثنا ان صار لنا فؤاد واحد» وبعد زمن قليل أحست الفتاة بالحبل فكاشفت أستاذها (أوخليلها) بذلك فهرب بهاذات ليلة وأخفاها فى شمال فرنسا عند أخته فوضعت ولدا سمته بطرس اسطرلاب وحينئذ أراد الرجل أن يتزوج عشيقته ولكنها رفضت قائلة بان ذلك وخيم العواقب على محبوب قلبها وقد كتبت له (ان أصحاب المدارك ونوابغ الرجال لايصح لهم أن يربكوا أنفسهم بالعائلة ومشاغلها) وأيدت رأيها بنصوص من أقوال اللاهوتيين من

اللاتينيين واليونان ويقال انها أجابته الى طلبه فى آخر الامر بعد كثرة الحاحه ولما اطلع الشماس على هذا السر شرع فى الاقتصاص من الفيلسوف فارشى خادمه ودخل عليه بالليل ومعه نفر من ذوى قرابته وصحابته ثم أوثقوا كتاف ابيلار وجبوا خصاه فألح الفيلسوف اللاهوتى المخصى على خليلته أو زوجته بان تترهب فأجابت ثم لحق بها فى الدير وأسس دير الراهبات ومازال يمارس التعليم والتدريس بما ينطبق تارة على أفكار اللاهوتيين ويخالفهم أخرى وهو يوالى وداده لصاحبته التى بقيت أصدق الناس على ولائه حتى فارق الحياة

وقد رأيت أيضا عمودا أقامته الحكومة كأنه قبر لكل من يموت غريبا فيعتبره أهل الميت قبرا له ولذلك تتراكم عليه الاكاليل فى بعض المواسم بما يفوق العد والوصف

واعلم أنه وافق وقوع مولد جميع القديسين أيام مُقامى بباريس فاغتنمت هذه الفرصة وتوجهت لهذه المقبرة لكى أقابل ما أراه فيها بما هو جار عندنا وهذا اليوم يسمونه عيد الاموات وقد نزل المطر رذاذا طول النهار ولكنه لم يمنع أهل باريس من التوجه الى مقابر أهليهم وذويهم ووضع الاكاليل والازهار عليها كما هى عادة الافرنج ولا أذكر شيأ عن تزاحم الجماهير فى هذه المقبرة التى زرتها حينئذ وأكتفى بذكر العدد وقدره ٤٨٫٣١٠ ومع ذلك فقد قال لى

الثقات ان الازدحام كان أقل مما فى الاعوام الماضية وبلغ عدد
الذين توجهوا الى جميع الجبانات (بما فيها الاب لاشيز) ٢٦٧ر١٩١
ولو فرضنا ان نصف هذا العدد كان حاملا لباقات أزهار ثمنها فى المتوسط
فرنك واحد لتحصل عندنا ٥٣٫٤٢٤ جنيه انكليزى (منها نحو
٢٫٠٠٠ لعمود الغرقى الذى ذكرته) وهو أقل مايمكن تقديره لان
الفقير منهم يقتر على نفسه و يقتصد من مأكله ومشربه عند اقتراب
هذا الموسم لكى يتمكن من شراء اكليل يهديه الى فقيده العزيز
المحبوب فان عادة اهداء الاكاليل متمكنة عندهم الى درجة
لايتصوّرها العقل حتى انه كثيرا مايتفق ان الرجل أو المرأة يموت
جوعا واذا طلب من أصحابه وأصدقائه شيأ يستعين به على سد
رمقه أجابوه بالرفض فاذا مات فى عصر النهار أو فى اليوم الثانى
بادرت الجماعة التى ينتمى اليها (مصوّرين حدادين نجارين طحانين
أو أعلى أو أدنى من ذلك) بفتح قائمة اكتتاب تبلغ قيمتها مئات من
الفرنكات فيشترون بها رجاما يضعونه على قبره وإكليلا يحتفلون
بايداعه عقيب دفنه

وأذكر بمناسبة الاحتفال بالاموات ان الفرنساوية أشد الامم
الذين رأيتهم اعتبارا للميت حتى انه متى مر سرير الجنازة يبادر الرفيع
قبل الوضيع برفع قبعته اجلالا واعظاما مهما كانت درجة الذى
فارق الحياة الدنيا وهو شبيه بما بقى عند بعض المصريين المتمسكين
بعاداتهم الشرقية الجيدة فانك تراهم عند مرور النعش أمامهم يقفون

إجلالا ويتشهدون ويقرؤن شيأ من القرآن الكريم مع بعض كلمات مؤثرة مأثورة فياحبذا هذه العادة وياحبذا الاحتفاظ بها

وقرأت فى الجرائد بمناسبة عيد الاموات ان جميع الفرنساوية الذين فى برلين توجهوا بصحبة أعضاء جمعية محبة الانسانية وموظفى سفارة الحكومة الجمهورية الى قبر العساكر الفرنساوية الذين قتلوا فى برلين اثناء حرب سنة ١٨٧٠ وان وفدا حضر من فرنسا الى هذه العاصمة لهذه الغاية وكذلك جرت جماعة الفرنساوية المتوطنين فى بروسل Bruxelles عاصمة البلجيكا على عادتهم فتوجهوا فى احتفال عظيم الى الاثر المقام لاحياء ذكر الجنود الذين ماتوا فى خدمة وطنهم وكان السابق فى هذه المظاهرة المليـة القومية اعضاء غرفة التجارة فانهم وضعوا على الاثر اكليلا جميلا عليه هذه العبارة (من اعضاء غرفة التجارة الفرنساوية ببروسل الى مواطنيهم الذين ماتوا فى سبيل الوطن — أول نوفمبر سنة ١٨٩٢) ثم جاءت جمعية التعاون الفرنساوية ووضعت اكليلا فى غاية الاتقان مصنوعا من الحديد المطروق وعليه هذه الكلمات (الى الجنود الفرنساوية الذين ماتوا لاجل الوطن فى سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧١ — من جمعية التعاون الفرنساوية ببروسل سنة ١٨٩٢) ثم وقف الرئيس على سطح الاثر وألقى خطابا لابأس من تعريبه فى هذا المقام وهو

أقيمت الآثار وشيدت الانصاب في كل مكان سقطت فيه العساكر اثناء دفاعها عن الوطن في سنتي ٧٠ و ٧١ فسواء في ذلك المدائن الكبيرة والكفور الحقيرة

وقد اختار النزلاء الفرنساويون منذ بضعة سنين هذا اليوم أول نوفمبر لتمجيد سيرة أولئك الشجعان الذين أثخنتهم الجراح وفقدوا بعض الاطراف والاعضاء فلاذوا بهذه الارض أرض بلجيكا لقضاء ما بقي من أيامهم فيها

ومن الامور المستعذبة الموجبة للتسلية الباعثة على العزاء أنهم مع بعدهم عن مسقط رأسهم وأرض اجدادهم قد صادفوا هنا عناية أخوية جديرة بالمدح والثناء — ان بلجيكا أكرمت مثواهم وعاملتهم بالحسنى — فهذه العبارة الجميلة المنقوشة بحروف من الذهب على هذا القبر العام الذي ضم بقاياهم يكون فيها ذكرى للاجيال الحاضرة والآتية بما اصطنعته بلجيكا من العمل الممدوح المحمود واليد المشكورة المبرورة

ولنا الهناء نحن اعضاء جمعية التعاون الفرنساوية على مجيئنا الى هذا المكان ننشر فيه على قبور هؤلاء العزاز تلك الراية المثلثة التي كانوا يسيرون تحت ظلها في ميادين القتال — فلتحي بلجيكا ولتحي فرنسا انتهى

وقد أصغى جميع الحاضرين الى هذا المقال بغاية الرعاية

والاجلال وعند ماأتم الرئيس كلامه أبدوا كلهم علائم الاقرار والاستحسان

٨

بعض الاعمدة والبوابات والفساقى وبرج ايفل

ان الاعمدة الاثرية فى باريس هى ثلاثة أولها وأقلها أهمية عمود سواسون وهو الاثر الوحيد الذى بقى من القصر المعروف بهذا الاسم وارتفاعه ٣٠ مترا ويقال انه كان مرصدا لمنجم الملكة كاترينة دومدسيس كان يراقب فيه حركات الافلاك واقتران الكواكب ليتمكن من اخبارها بالكائنات قبل كينونتها وفى داخله سلم يوصل الى قمته وفى أعلاه مزولة شمسية

والثانى هو عمود فاندوم فى الميدان الجميل البهيج المعروف بهذا الاسم وهو مسبوك من برونز ١٢٠٠ مدفع اغتنمتها الجيوش الفرنساوية فى الوقائع الحربية وتمت اقامته فى سنة ١٨١٠ وارتفاعه ٤٤ مترا و ٢٠ سنتيمترا وقطره ٤ أمتار وفى منتهاه تمثال نابليون متشحا بملابس امبراطور رومانى وعلى هذا العمود نقوش وكتابات تخلد انتصارات الفرنساوية فى أوائل هذا القرن والعمود الثالث هو المعروف بعمود يوليو وهو فى وسط ميدان

الباستيل أقيم تخليداً لذكر الحرية فى نفس المكان الذى كانت فيه قلعة الباستيل معدن الجور والحيف والاستبداد وعليه بحروف من الذهب أسماء الذين استماتوا فى اعلاء كلمة الحرية ونشر رايتها على ديار فرنسا فى سنة ١٧٨٩ وفى سنة ١٨٣٠ وفى أسفله مقابر أولئك الابطال محطا للاعجاب والاجلال ومن صعد الى قمة هذا العمود الذى يبلغ ارتفاعه ٤٧ مترا رأى باريس كلها تحت أقدامه وأمتع ناظريه بمرأى جميل معجب وفوق هذا العمود تمثال من البرونز المذهب يمثل ملاك الحرية وفى يده مصباح يرسل النور منه الى جميع أطراف العالم

وبمناسبة العمدان نذكر المسلة المصرية المعروفة بمسلة كيلوبطرة التى هى أجمل حلية فى أجمل ميدان فى أجمل مدينة قد أهداها المخلد الذكر محيي مصر المغفور له أفندينا الكبير الحاج محمد على باشا الى فرنسا فوضعتها فى ميدان الكونكورد (الائتلاف) الذى تحف به تماثيل كثيرة تمثل مدائن فرنسا التى خدمت الوطن برجالها وأعمالها وهذه المسلة من حجر واحد من الصوان الوردى وعليها كثير من النقوش البربائية وطولها ٢٢ مترا و٨٣ سنتيمترا ووزنها ٢٥٠,٠٠٠ كيلوجرام وفى أسفلها ترى نقوشا بالذهب تمثل كيفية اقامتها ورفعها بمقتضى علم الاثقال وكان ذلك فى سنة ١٨٣١ على يد المهندس الماهر الموسيو لبا

أما البوابات والاقواس فهى كثيرة نذكر منها باب القديس دنيس (وهو الذى بعد أن قطعت رأسه فى أيام الاضطهاد رفعه من الارض بين يديه وهو مضرج بالدماء) وهو أثر جميل قد توالت عليه العمارة والترميم وكانت اقامته فى سنة ١٦٧٢ تمجيدا لذكر لويز الرابع عشر وتذكارا لفتوحاته فى بلاد الالمان

وكذلك باب القديس مارتين على مقربة من الباب السابق تذكارا لفتح اقليم فرانش كونتى وهزيمة الالمان على يد لويز الرابع عشر وفيه نقوش بارزة متقنة

وقوس الكوكب وهو أكبر بوابات الفوز والانتصار الموجودة فى باريس فان مجموع ارتفاعه ٤٥ مترا و ٣٣ سنتيمترا وعرضه ٤٤,٨٢ مترا وأول من ابتدأ فى تشييده هو نابليون فى سنة ١٨٠٦ لاجل تخليد فتوحات الجيوش الفرنساوية واحياء مآثرها ولكنه لم يتم الا فى عهد الملك لويز فيلب

وبلغت نفقاته ٩,٠٥١,١١٥ من الفرنكات (قريبا من ٣٦١٣٢١ جنيه) وهو كله مغشى بنقوش فى الحجر مناسبة لمقتضى الحال وحول أركانه الاربع تماثيل ضخمة تصور هيئة السفر والمقاومة والفوز وعقد الصلح وفى بعض أعاليه رسوم بعضها يصور واقعة

أبي قير وأخرى تمثل استيلاء الفرنساوية على الاسكندرية - وقد تقصده ثوار الكرمون في سنة ١٨٧١ فوجهوا قنابلهم نحوه ووالوا اطلاق المدافع عليه ثلاثة أسابيع متوالية كان عدد المقذوفات التي أصابته في كل يوم بالمتوسط ٩٠ فيكون مجموع ماأصابه من القنابل ٢٠٠٠ بالتمام ولكن القوم أعادوا ترميمه واصلاحه بعد أن انطفأت نار هذه الثورة الشنيعة

وفي يوم ٣١ مايوسنة ١٨٨٥ عرضت الدولة الفرنساوية تحت هذا القوس التابوت المحتوي على جسد الطيب الذكر فيكتور هوجو باحتفال جليل استمر ٢٤ ساعة

وقد صعدت الى أعلى هذا القوس فاستغرق ذلك من وقتي ٨ دقائق ورأيت من فوقه منظرا بهيجا جدا اذ أني كنت في ميدان يصب فيه ١٢ دربا سلطانيا محتوية على صفين من الاشجار وخلفها المباني الفخيمة أو البساتين البديعة

وقد سبق لي كلام وجيز على قوس فخار الكاروسل فلا موجب لاعادته في هذا المقام وانما أستعيضه بذكر برج القديس جاك فانه في وسط حديقة أنيقة في مركز ميدان الشاتليه

وهو من أظرف الآثار القديمة الباقية في باريس وفي أسفله جملة عمدان في وسطها تمثال العلامة المحقق باسكال وفي قمته

بتمثال القديس المذكور ـ وارتفاع هذا البرج ٥٢ مترا وفيه بعض آلات فلكية خاصة بعلوم الآثار العلوية وفيه غرفة يحضر اليها التلامذة لتعلم الرصد وما يتعلق به وقد تناقل القوم ان العلامة باسكال جدد فيه تجاربه المتعلقة بمعرفة مقادير ضغط الهواء على البارومتر

وأما الفساقى فهى كثيرة فى باريس منها ۞ فسقية كوفييه العالم بالتاريخ الطبيعى صاحب الاكتشافات الكثيرة ومخترع علم الكائنات الحفرية وفوق هذه الفسقية تمثال من الحجر للتاريخ الطبيعى ۞ ثم فسقية الشاتليه فى مكان سجن كان هنالك قديما وهى فى وسط الميدان المعروف بهذا الاسم الآن وعليها تماثيل للامانة والقوة والقانون والتيقظ وينـدفع الماء الى حوضها من أفواه أسفنكسات (أبو الهول) وفوق الفسقية تمثال الانتصار وفى يده إكليل الفخار ۞ ثم فسقية جرينل وفيها تمثال باريس وهى جالسة فى سفينة وتحت قدميها نهرا السين والمارن وحولها تماثيل الفصول الاربعة والسفينتان اللتان هما شعار لها ۞ ثم فسقية الابرياء تحيط بها حديقة زهرية وهى من أجل الآثار التى يقصدها الزوار وعليها نقوش تمثل جنيات الماء فى غاية الابداع وقد كانت أولا فى سوق الفواكه ثم نقلوها الى محلها

الآن جرا جرا ۞ ثم فسقية لوفوا وهى بناء أنيق أمام المكتبة الاهلية وتحتوى على تماثيل متقنة تمثل الانهار الاربعة التى فى فرنسا تحمل الحوض العلوى الذى ينحدر منه الماء فى الفسقية ۞ ثم فسقية موليير من الرخام الناصع أقيمت بواسطة اكتتاب أهلى وفى أعلاها تمثال هذا الشاعر المجيد وعلى يمينه و يساره تمثال الكوميدية الجدية والكوميدية الهزلية ومعنى الكوميدية التشخيص المضحك وهذه الفسقية أقيمت أمام البيت الذى مات فيه الرجل ۞ وفسقية الرصدخانة وهى عبارة عن حوض فيه ثمانية أفراس بحرية وكلاهما من البرونز وفى وسطها تمثال أقسام الدنيا الاربعة تعلوه كرة أرضية ۞ ثم فسقية القديس جرجس وفيها تمثال الايمان والرجاء والاحسان فى المرمر ۞ ثم فسقية سان سولپيس فى وسط الميدان الكائن امام الكنيسة المعروفة بهذا الاسم وحول هذه الفسقية تماثيل بوسويه وفنلون وماسيلون وفليشييه وهم من أكبر وعاظ الكنيسة وأشهر كتاب الفرنساوية ۞ ثم فسقية الانتصار مزدانة بتماثيل الايمان والتيقظ والقانون والقوة وفوق الجميع تمثال الانتصار مموه بماء الذهب

وفى باريس فساق أخرى مثل اللتين يزدان بهما ميدان الكونكورد (الائتلاف) واحداهما رمز للملاحة فى النهر والثانية للملاحة فى البحر ومثل اللتين فى ميدان التياتر و الفرنساوى

وفسقية مدسيس ونوتردام والقـديس ميشل (وقد كانت العمارة جارية فيها أثناء وجودى بباريس)

أما برج ايفل فقدطار خبره وعرف أمره وقدره بحيث كان الواجب أن يهمل ذكره ولكننى أتحف القارئ بمعلومات جديدة وأقص عليه شيأ من التأثير الذى حصل لى أثناء ارتقائه فى المصعدة (Ascenseur) والنزول منه على درج السلالم ولا حاجة للاحاطة بانه أعلى جميع الآثار التى شاهدها الانسان فى جميع الازمان فوق سطح هذه الكرة الارضية وانه يخترق كبد السحاب (من غير مجاز) بارتفاعـه البالغ ٣٠٠ متر وطالما كان المطر يتهاطل على أسافله وحواليـه من غـير أن يصيب الذين قد ارتقوا الى ذروته بحيث انه لو كان فيهم ممدوح لصح لشاعره أن يقول انه علا حقيقـة على السحاب مثـل ذلك الذى قيل فيـه انه علا فى الحياة وفى الممات وعدوا له ذلك من المعجزات

وفوق قمة هذا البرج قبة عليها فنار يبعث الضياء فيبدد حجب الظلام بما يرسله من مختلف الالوان بحسب ألواح الزجاج ويمتد شعاع النور الى مسافة قاصية وبعرض واسع وأول ما رأيت الفنار وأنا فوق احدى قناطر السين رأيت مناشيره أشبه شئ بأجنحة طاحونة عظيمة يديرها الهواء بسرعة وأما البرج فهو أشبه شئ بشمعدان

هائل خصوصا مع وجود النور فى أعلاه وهذا الشمعدان مرتكز على أربع قوائم مسافة الانفراج بين كل قائمة والثانية عند القاعدة ١٠٠ متر وكنت أثناء اقامتى بباريس أتربص فى كل صباح فرصة الصعود الى هذا البرج الفريد لأتمتع بما حوله من المناظر الرائقة ولكن توالى احتجاب الشمس فى أغلب الايام كان يحول دون هذا المرام حتى خشيت تعذر الحصول على هذه الامنية لاقتراب ميعاد اقفالى ولكن الله يسر لى يوما طلعت فيه الشمس ببهجتها وأرسلت صافى أشعتها فبادرت اليه مسرعا وأنا لاأصدق نفسى من شدة الفرح وكنت كلما صعدت فى طبقة أرى المدينة تنضم الى بعضها وتتقارب أبعادها وتتصاغر مسافاتها وتتلاقى أطرافها فتبدو بكمال جمالها فرجة للناظرين وبينها نهر السين كقناة طويلة يتصور الانسان أنه يكفيه أقل وثوب للانتقال من أحد شطيها الى الآخر وعليها القناطر العديدة أشبه بخطوط كثيرة مستطيلة كأنها شريط رفيع من البناء أو سلك رقيق من الحديد وكانت برك الماء كدموع من مآقى المشتاق وبعض بنى الانسان أشبه بالازهار أو بتلك العرائس الصغيرة التى يتلاعب بها الصبايا والبعض الآخر كأنهم من قوم يأجوج ومأجوج أو من أولئك الاقزام العائشين فى أواسط افريقية وكانت باريس بازدحامها

كقرية النمل أو خلاية النحل وكنت كلما ارتقيت ازدادت أمامى بهجة الرياض الانيقة والقصور الرشيقة المجاورة للبرج مثل قصر التروكادير و وحديقة الشان دومارس وفسقيته البديعة وقبة القصر المركزى وفوقها تمثال الشهرة ثم قبة رواق الآلات وقبة الانفاليد والبانتيون ثم تياترو الاوبرا وقصر الصناعة وعمود فاندوم و برج كنيسة نوتردام وفى أثناء ذلك كنت أسمع اعتراك الرياح فى الصبا والجنوب وتضارب تياراتها فى القبول والدبور فتحدث لها قرقعة كأشد مايكون من تلاطم الامواج فى البحر العجاج وبينما أنا غارق فى هذه الاحوال نبهنى بعض الذين صعدوا الى صحيفة يكتب عليها الزائر اسمه أو أى عبارة تخطر بباله فأخذت القلم ورقمت ما أملت به على القريحة لله درك يا ايفل لقد برعت فيما أبدعت ونبغت بما اخترعت فعلوت بعقلك على سائر أبناء عصرك كما ارتفع برجك الى عنان السماء فاتقا جميع الآثار الشماء مفصحا بكل لسان عن فضل الامة الفرنساوية فى ميدان العرفان

ثم نزلت متمهلا متأملا وقد كبر الرجل فى عينى أكثر مما كنت تصورته خصوصا بعد أن علمت ان الموسيو ايفل اذا جلس

على كرسيه امام مكتبته يكون ضغطه على الارض أكثر من ضغط هذا البرج الهائل وذلك أن قوة الضغط التى تحدث على الارض اذا جلس على الكرسى (هو أو أى انسان آخر) تكون باعتبار ثلاثة أو أربعة كيلوجرامات بالاقل عن كل سنتيمتر مربع بخلاف البرج فان تأثيره على الارض هو باعتبار كيلوجرامين اثنين فقط مع أنّ ثقل البوية التى على جدرانه قد قدرها العلماء بنحو ٣٠ طونولاطة وقرروا أن مجموع وزنه (من غير البوية) يعادل ٧ مليون كيلوجرام وقالوا ان الهواء الموجود فى قصر الآلات يزن ربع هذا المقدار مع اطافته فيا للعجب العجاب من غرائب الاحصاء والحساب

ومما يجمل بنا ذكره فى هذا المقام أنهم استخدموا هذا البرج لامور كثيرة مثل الاكل والشرب والتصوير والبيع ونحو ذلك وانهم وضعوا فيه منذ سنة ١٨٩١ مانومترا زئبقيا لقياس تمدد البخار هو أكبر وأجسم ماظهر فى الوجود الى هذا الزمان وقد أعدوا فى الصيف الماضى تياترو فى احدى طبقات هذا البرج وكانوا يشخصون فيه رواية عنوانها (باريس فى الهواء) ومن المعلوم ان رجال الافرنج يرفعون قبعاتهم أثناء التشخيص ولكنه اتفق فى بعض المرات وجود رجل لم يتبع هذه السنة بل أبقى عُمارته على رأسه فتذمر

الحاضرون واعتبروا ذلك اهانة منـه وخروجا عن حد الادب ثم طالبوه برفع القبعة فأبى فجاء اليه مدير التياترو وأظهر له وجوب الامتثال فما ازداد الرجـل الا عنادا واصرارا بحيث لم يكن للمدير من واسطة سوى استدعاء رجال الشرطة واخراج الرجـل بالقوة ولكنه تدبر وتمهـل ثم ذهب بجانب رئيس الموسيقى فهمس فى اذنه بكلمة واحدة أجابه عليها صاحبه بعلامات الامتثال ثم رفع عصاه فلحنت جوقة الموسيقى السلام الروسى فكان الرجل أول من وقف ورفع قبعته اجـلالا وتعظيما ثم قال (ان هـذا خبث منك وكيد عظيم . انى أخشى تيار الهواء فى مثل هـذا المكان وأفضل الانصراف على هـذا الاضطرار) ثم خرج وشكر الناس حذق المدير وفطانته فى صرف هـذا الحادث الذى أوجب لغطا كثيرا واضطرابا شديدا وذلك لان التقرب فى هـذه الايام شـديد وثيق فيما بين فرنسا والروسية ومتى سمع أحـد الفرنساويين النشيد الروسى الوطنى قابله بالاجـلال فى الحال وكذلك الروس يكشفون الرؤس عند مايسمعون النشيد الفرنساوى حتى ان رجـلا من محررى الجرائد فى بطرسبرج واسمه بربوف حضر الى باريس أثناء اقامتى بها ساعيا على أقدامه ليس الا فى كل هذه المسافة التى يبلغ طولها ٩,٥٠٠ كيلو متر فقط وكان يمشى فى اليوم الواحد ٣٠ أو ٤٠ كيلو مترا وقد استغرقت هـذه النزهة

منه نحو ٨ شهور ونصف ولما حل بباريس كان آلاف كثيرة من الناس فى انتظاره فحياهم وحيوه و رحبوا به كثيرا وأطنبت الجرائد بمدحه

وقد ظهرت فى هذه الايام الاخيرة جريدة اسمها (برج ايفل)

٩

بستان النباتات

كان تأسيس هذا البستان فى سنة ١٦٢٦ وافتتاحه للجمهور فى عام ١٦٥٠ وهو ينقسم الى أربعة أقسام أوّلها البستان وثانيها مربى الحيوانات وثالثها متحف التاريخ الطبيعى ورابعها الانبار (العنابر) الزجاجية المعدّة لتربية نباتات البلاد الحارة ومما يليق ذكره أن الانسان اذا دخل من أكبر أبواب هذا البستان يرى أمامه ممشيين من الصفصاف غرسهما العلامة بوفون المشهور وفى منتهى البستان توجد الدار التى مات فيها الرجل المذكور فى يوم ١٦ ابريل سنة ١٧٨٨ وفى هذا البستان مدرسة لشجيرات الزخرفة ومدرستان لاشجار الفاكهة احداهما مخصصة للفاكهة ذات النواة وأما الثانية فلاشجار الفاكهة ذات البزر وفيها ١٨٠٠ نوع من أشجار الكمثرى وهناك مجموعة أشجار مثمرة تحت الدرس

والمطالعة ومدرسة لعلم النبات تحتوى على أكثر من ١٣٫٠٠٠ نوع من النبات

وأما مربى الحيوانات ففيه ٢٢ مقصورة عليها أبواب من قضبان الحديد تسرح فيها الحيوانات الضارية والوحوش الكاسرة والطيور الجارحة كالأسد والفهد والببر والقرانق والنمر والدب والنسر والعقاب والرخ والكندور وغير ذلك وفيها أصناف لا تحصى من الحيوانات المعروفة فى بلادنا والمجهولة لنا مثل الايائل والوعول والاروية وتيوس الجبل والأثوار والابقار والاغنام والماعز والجاموس ذى السنام والكنجورو والذئاب والضباع والحلاليف وبنات آوى والعقبان والنسور وغير ذلك مما لا تمكن الاحاطة به مع تعدد أصناف النوع الواحد وهنالك قطعة مستديرة مغشاة بأسلاك الحديد تسمى قصر القردة فيه منها أجناس كثيرة بين كبيرة وصغيرة وأمام هذا القصر مستدير كبير ترى فيه الافيال وأفراس البحر والكركدن وأصناف الهجين وهنالك تمر قناة من الماء تسبح فيها خلائق كثيرة من الطيور المائية وبالقرب منها ترى حيوانات بحرية تسمى آساد الماء وبجانبها أبراج لانواع كثيرة من الطيور ومراب لاطيار الصيد المرغوبة مثل الصقور والبواشق والشواهين وغير ذلك وهنالك أصناف من الايائل الخنزيرية التى توجد فى بلاد

الهند وبالقرب من هذا المكان مربى أطيار الدج والقطا والحجل والفواخت والوُرق والورشان والشفانن والطياهيج وغيرها والطيور المغردة وأنواع الببغاء والطواويس ــ وقد رأيت فى كشك الزواحف أصنافا كثيرة من الثعابين السامة وغير السامة وعددا عظيما من السلاحف والورل والضفادع والعلاجيم وأصناف التمساح التى اشتهر بها نيلنا السعيد وحرم من رؤيتها المصريون فلا بدلهم من المجىء الى باريس لرؤية هذا الحيوان المشهور حيا يرزق لا معلقا على بعض البيوت لفائدة لم أقف عليها مع كثرة السؤال عنها(١) وفى هذا الكشك أيضا أصناف كثيرة من أسماك المياه العذبة

ولا بد لنا من ذكر كلمتين أيضا على رواق تطبيق التشريح وعلم الانسان (الانتروبولوجيا) فانه يحتوى على ٢٤٠٠٠ تجهيز وأكثر من ١٣٠٠٠ نموذج يختص أكثرها بدرس السلائل البشرية القديمة والحالية و ٣٠٠٠٠ جمجمة و ٢٠٠ هيكل عظمى وجملة قطع تتعلق بالانسان الحفرى (الذى وجد فى الكائنات الحفرية) ــ وفى الدور الاول من هذا الرواق مجموعة

(١) ربما كان ذلك من باب التيمن بحصول الخصب والبركة كما هو الشأن فى نهر النيل بالنسبة لقطر مصر السعيد فان التمساح أخص حيوانات النيل المبارك لانه امتاز به على سائر الانهار تقريبا وبه يرمز اليه عند أرباب الصنائع والفنون من القدماء والمحدثين ــ وربما كانت هذه العادة بقية من آثار الجاهلية المصرية والفراعنة الاولين فان هذا الحيوان كان من أقدس المعبودات فى قسم كبير من وادى النيل

وافرة من هيا كل جميع الحيوانات وغرف كثيرة مخصصة لدرس التشريح الانسانى وفيها صور جميع الاجناس بحيث تمكن الباحث من مقابلتها ببعضها وهنالك مجموعة كاملة من رؤس مصنوعة من الجبس يمكن لاهل علم الفراسة أن يطبقوا معارفهم عليها أو يزيدوا فى معلوماتهم بواسطتها وخصوصا أن القوم اعتنوا بتمثيل رؤس بعض المشاهير فى ارتكاب الجرائم واقتراف الجنايات ـ وأمام باب هذا الرواق حوت هائل طوله أربعة عشر مترا (من الصنف المعروف بالهائشة) وهيكل عظمى وجماجم من أفراد هذا النوع وسمعت أنه يوجد متحف لما قبل الطوفان غير أنى لم يتيسر لى رؤيته مع كونى توجهت الى هذا البستان ثلاث مرات فى ثلاثة أيام ولكن اتساعه وكثرة مافيه من الغرائب حالا بينى وبين رؤيته بجميع أجزائه وتفاصيله وقد رأيت هنالك شيوخ البحر تسبح فى برك من الماء ولها صيحة مزعجة ورأيت أشجارا لاتفارقها الخضرة على الدوام ولا حاجة لذكر العناية الزائدة التى تلاقيها نباتات البلاد الحارة فى عنابر هذا البستان فانها فوق الوصف ولكن القوم لم يتمكنوا الى الآن من تربية النخل المثمر وان كانوا توصلوا الى حفظ كثير من أصناف النخيل الخاصة ببلاد الهند وأواسط أفريقيا

وأما متحف التاريخ الطبيعى فيحتوى على شئ جسيم وعدد عظيم من الحيوانات النادرة الكبيرة وهما كل الحيتان (الهوائش)

والآساد والانعار والدباب والقرود والزواحف والطيور والاسماك والحيوانات الرخوة والحشرات كل ذلك بهندام ونظام لايمكننى ان أصوّره للقارئ باى حال فان وصف مافى هذا المتحف يستغرق مجلدات كثيرة وحياة علماء عديدين قدوقف كل واحد منهم نفسه على درس فرع صغير من فروع هذه الفنون

وهنالك أيضا رواق كبير فيه مجموعات مشتبكة من الاحجار الضالة والنيازك والشهب الساقطة من السماء ومجموعة فيها أنواع الطبقات التى تتركب منها قشرة الكرة الارضية وصخور ومعادن وأحجار كريمة ثم رواق النباتات وفيه تماثيل الفطر والكمأة (بنات الرعد) بالجبس ومجموعة من الفواكه الجافة والفواكه اللحمية والازهار محفوظة فى الكؤل ومن النباتات ٢٠,٠٠٠ نوع وأكثر من ٥٠٠,٠٠٠ عينة وكثير من أصناف النباتات الخضرية

١٠

المدارس والمحلات الخيرية والاعانات

رأيت كثيرا من المدارس و وقفت على بعض أساليب التعليم وأحطت بوسائل التقديم وأرى الآن وجوب الاكتفاء بالكلام على مدرسة النظامات السياسية ومدرسة العميان ومدرسة الخرس عسى أن يكون لشرحى فائدة فى بلادى

أمامدرسة النظامات السياسية (Ecole des chartes) فيتلقى مدرسة الطلبة فيها كثيرا من الفنون أخصها علم أصول اللغة الرومانية السابقة واشتقاقاتها وعلم الكتب وتنظيم خزائنها وعلم السياسة وتاريخ النظامات السياسية والترتيبات الادارية والقضائية فى ديار فرنسا ثم عيون التاريخ الفرنساوى وفن تنظيم أوراق المحفوظات وتاريخ القانون المدنى والكنائسى فى القرون الوسطى وعلم الآثار (الاركيولوجيا) فى القرون الوسطى ـ وتفتح قاعات الدروس للطلبة من الساعة التاسعة الافرنكية صباحا الى الساعة الرابعة أو الخامسة بعد الظهر بحسب اختلاف الفصول ولا يتجاوز عددهم فى السنة الواحدة ٢٠ تلميذا وينبغى أن يكونوا من الفرنساويين الحائزين شهادة البكالوريا فى العلوم البالغين من العمر ٢٥ سنة كاملة بالاقل ويلزم امتحانهم فى الترجمة من والى اللغة اللاتينية من غير استعانة باى معجم أو قاموس وفى تاريخ فرنسا وجغرافيتها قبل أول القرن التاسع عشر ومن يكون منهم عارفا بالالمانية أو الانجليزية أو الاسبانية أو الطليانية يكون له فضل السبق على غيره عند تساوى الدرجات وقد ترتب على احداث هذه المدرسة فوائد جمة أؤجل تفصيلها الى الرحلة ان شاء الله

مدرسة العميان

أما مدرسة العميان فنظرا لفوائدها الجمة خصوصا فى قطرنا المصرى يجب علىّ أن أتوسع فى القول عليها قليلا مدخرا الاشباع الى الرحلة

يوجد فى فرنسا ٣٢,٠٠٠ أعمى لهم من المدارس الخاصة بهم نحو ٦٠ مدرسة وأهم هذه المدارس وأكملها مدرسة شبان العميان الاهلية Ecole Nationale des Jeunes aveugles الكائنة فى باريس بدرب الانفاليد وقد كان تأسيسها على يد الفرنساوى فالنتين هاوى فى سنة ١٧٨٤ وهى أول مدرسة ظهرت فى الوجود من هذا القبيل وربما كانت أفضل من المدارس المماثلة لها وأحسنها نظاما وترتيبا وفيها الآن ١٥٥ غلام و ٨٠ فتاة ومدة التدريس عشر سنوات تكون بين سن ١٠ و ٢١ سنة ويتلقون فيها علوما عقلية وفنونا حرفية

فأما التعليم العقلى فهو ابتدائى وعال وقاعدة القراءة والكتابة فيها جارية على الاسلوب الذى ابتدعه الاعمى الفرنساوى براىّ فى سنة ١٨٢٦ وهو عبارة عن رسم الحروف بنقط بارزة لا تزيد عن ستة عن أى حرف

وأما التعليم الحرفى فيشمل الغزل والخراطة وعمل الكراسى

وأشغال الابرة والنسيج والموسيقى والالحان (وهذان الفنان قد بلغا الدرجة القصوى والمكانة العظمى حتى لقد فاق تلاميذان وتلميذة من المتخرجين بهذه المدرسة فى امتحانات عمومية على كثيرين من المتمتعين بنور الباصرة)

ومساحة الارض التى تشغلها هذه المدرسة هى ١١٫٨٠٠ متر منها ٣٫٥٠٠ مشغولة بالمبانى وفى فنائها تمثال مؤسسها وهو يحاول تعليم الاعمى وللفتيات قسم منعزل تمام الانعزال عن قسم الفتيان وللاساتذة غرف لسكناهم بالمدرسة فيها كل مايحتاجون اليه وهنالك سقيفة كبيرة يتنزه التلامذة تحتها ويتفرغون للعب والرياضات أثناء اشتداد الاهوية ونزول المطر وتغير حالة الجو — أما نظام التهوية وتدبير التدفئة ففى غاية من الكمال والموافقة فى الغرف والفصول والمكاتب والورش والمآكل والعنابر (الانبار) وفيها بيعة صغيرة للطقوس الدينية وحمامات فيها ٣٠ قسما وفى كل قسم منها جهازات الدوش (صب الماء رشاشا لانعاش كافة الجسد) بحيث يستحم كل تلميذ وتلميذة مرة واحدة فى كل خمسة عشر يوما بالاقل وفى المدرسة ورش للتعمير والتصليح والترميم خاصة بالآلات الموسيقية التى يستعملها التلامذة ولذلك غايتان أولاهما الاقتصاد فلا تتكلف المدرسة نفقة ذلك فى

الخارج والثانية تمرين التلامذة على اصلاح آلاتهم بانفسهم واضافة ماينقصها و تعرف مواقع الخلل فيها حينما يسقط مسمار أو ينقطع وتر وفى المدرسة مطبعة خاصة بها يطبع فيها التلامذة كتبا كثيرة فى فنون الآداب والموسيقى مما يحتاج اليه العميان

وقد رأيت أيضا مكتبة فيها ٢٥٠ مجلد بالنقط البارزة و ١٦٠٠ من الكتب المطبوعة بالكيفية الاعتيادية وهنالك واعظ يقوم بالقاء الدروس الدينية وأما التلامذة الذين لايدينون بالمذهب الكاثوليكى بل بمذهب آخر معتبر فى الحكومة فتعليمهم يكون بحسب ديانتهم بعد الاتفاق على ذلك بين المدرسة و بين أهاليهم وشؤن الصحة منوطة بطبيب وحكيم أسنان موظفين فى المدرسة (وعند الاحتياج يستشار حكماء آخرون) وطبيب عيون وجراح ولايقبل التلامذة الافيما بين السنة العاشرة والثالثة عشرة وقد خرج منها كثيرمن النابغين الذين أعلوا قدرها وشرفوا ذكرها بما اكتسبوه من حسن الاحدوثة وما قاموا به من الخدم الجليلة فنهم براى الذى أشرنا اليه قبلا و رود نباخ الذى كان أمينا لاحدى مدائن البلجيكا ونائبا عن الامة فى مجلس النواب البلجيكى من سنة ١٨٣٢ الى يوم وفاته فى سنة ١٨٣٩ و بنجون الذى كان مدرسا للعلوم الرياضية فى مدرسة أنجى الشهيرة وحائزا

بوسام اللجيون دونور من درجة شفاليه ثم فوكو ذلك الميكانيكى البارع الذى اخترع جهازات كثيرة لتسهيل المكاتبة بين العميان والمبصرين وجوتيية و روسل ولوبل وهم من أساتذة المدرسة قد صنفوا تلاحين موسيقية دينية وعمومية لها عند العارفين قيمة عظيمة وغير هؤلاء عدد عظيم يضيق عن سرده المقام ويوجد فى فرنسا الآن أكثر من ٢٠٠ أعمى ينالون ربحا واسعا ورزقا حلالا طيبا من صناعة البيانو بل ان بعضهم يديرون مخازن بيع آلات البيانو أو اصطناعها

وقد تأسست شركة مهمة لاستخدامهم ومعاونتهم والاهتمام بكل مايتعلق بهم حسا ومعنى وبسط لواء حمايتها ورعايتها عليهم فى جميع الاحوال وفى طول حياتهم ولا تطلب منهم فى نظير ذلك سوى السير المحمود والاقبال على العمل بقدر ماتسمح لهم به حالتهم وبلغت ايراداتها فى آخر دسمبر سنة ١٨٩١ ٣٢,٣٣٥ من الفرنكات (نحو ١٢٩٣ جنيه ونصف تقريبا) ومصروفاتها ٢١,٥٧٩ من الفرنكات (نحو ٨٦٣ جنيه وربع تقريبا) والباقى فى صندوقها ١٠٧٥٥ من الفرنكات (أى قريبا من ٤٣٠ جنيه وربع) وأما رأس مالها فهو عبارة عن ١٨٥٤٩٦ من الفرنكات وقد اتسع نطاقها وكثر عدد المشتركين فيها بالاقساط

والتبرعات حتى بلغ عـددهم ٨٥٠ شخص منهـم ٢٨ من أكابر سيدات فرنسا جعلت الجمعية تحت حمايتهن و ١٧٨ من السيدات و ١٥٢ من العـذارى و ١١٤ من التلامـذة الموجودين فيها لتلقى الدرس منهم ٤٠ فتاة

وقد تأسست جمعية أخرى باسم ڤالنتين هاوى غايتها تعليم العميان الذين يعلمون وتشغيل العميان الذين لايعلمون ولها ثلاث جرائد خاصة بالعميان الاولى (ڤالنتين هاوى) وهى مجلة عمومية تبحث فى جميع المسائل المتعلقة بالعميان والثانية (لويس براى) وهى جريدة تطبع بالحروف البارزة لكى يقرأها العميان والثالثة (مجلة براى) مثل التى قبلها وتظهـر فى كل يوم أحـد مشحونة بالمسائل الادبيـة والعلمية والموسيقية ولهذه الجمعية قاعة للخطابة يتباحثون فيها فى كل مايهم العميان وتتبعها أيضا مكتبة متنقلة تعير العميان الكتب المطبوعة بالحروف البارزة ليقرؤها فى بيوتهم ويستفيدوا منها فى أوقات فراغهم — ومن ملحقاتها المتحف وقد تكلمت عليه بمافيه الكفاية والله ولى المحسنين

مدرسة الخرس

أما مدرسة الخرس فلا يدخلها غير الذكور ومدة التعليم ثمان سنوات فيتعلمون فيها زيادة عن المعارف الابتدائية أحـد الفنون الآتية وهى طبع الحجر (مع الكتابة والنقش على الحجر)

ونقش الخشب وطبع الحروف والنجارة واصطناع الاحذية وفن البساتين وأما التعليم الديني فيقال عنه فيها كما قيل في مدرسة العميان - والغذاء مرتب بكيفية توافق الصم الخرس ولهم حمامات بجهازات ايذروليكية وحوض للسباحة ومروج واسعة وصحون فسيحة يلعبون فيها الجباز ويتعوّدون على الرياضات الجسدية وخلاصة القول ان المدرسة تعتني عناية كاملة بتقوية أبدانهم وأمزجتهم وفيها طبيب ومساعدان له وحكيم عيون وجراح عارف بفن الاسنان ومستشفى يقوم بالخدمة فيه ممرضات حائزات للدبلومة وقد شاهدت التعليم حينما يجيء الطفل فيها أول سنة ويترقى شيأ فشيأ بكيفية تدهش العقول فانهم منعوا استعمال الاشارات بالاصابع مرة واحدة ولا يتجاسر أحد من الاساتذة أو التلامذة على ابداء أية اشارة ظاهرة أو خفية وكل التعليم جار فيها (وفي جميع مدارس أوروبا وأمريكا كما علمته) بواسطة النطق بالاصوات ولذلك يجتهدون في تعليم الاخرس مخارج الحروف بغاية الدقة ونهاية الاعتناء وقد تكلمت مع بعض الخرس فكانوا يجيبونني بالجواب المناسب غير أنني في أول الامر رفعت صوتي كثيرا فلم يفهمني الاخرس مطلقا مع أنني رأيته يفهم ناظر المدرسة كأسرع ما يمكن بالنسبة لحالته فتنكرت الامر وحينئذ دعاني

الناظر لان أخفض صوتى (لانى مهمابالغت فى رفعه فان يسمعنى أبدا) وان أكلمه وجها لوجه حتى ينظر حركات شفتىّ ولسانىّ فعملت بما رسم وأجابنى الاخرس على الوجه المرغوب ثم انى أمليت على جملة من التلامذة عبارة فرنساوية فكتبوها بالضبط الا واحدمنهم أخطأ فى حرف واحدلتشابه المخارج ثم كتبوا اسمى واسم بلدى على التختة ولم يهملوا الا حرف H المقابل للحاء فى لفظة ﴿ أحمد ﴾ لعدم امكان النطق به فى الفرنساوية وأما الفنون الحرفية والصنائع اليدوية وحرث الارض وغرسها فنى درجة من التقدم يغبطهم عليها أكثر الناطقين بالضاد وبغير الضاد وفى المدرسة متحف جليل يحتوى على جميع الطرق التى تؤدى لتعليم الاخرس ورسوم ونقوش وتصاوير كثيرة من صنع الخرس وقد كان لبعضها فوقان عند العارفين على ماصنعه كثير من الناطقين ويقال ان هذا المتحف لانظيرله فى البلاد الاخرى فان الاب دولوبى (وهو أول من عنى بتعليمهم) له أكثر من ١٠٠ قطعة تراه فيها مصورا فى جميع أحواله وهنالك عدد عظيم من التحف المتنوعة التى برع فى إحداثها كثير من الصم البكم الذين نبغوا فى جميع انحاء العالم ومما ينبغى ذكره بوجه الايجازان هذا المتحف يحتوى على رسوم الاماكن التى استقرت بها هذه المدرسة قديما

وحديثا ومناظر تصور هيئة أهم مدارس الخرس فى فرنسا وفى
الخارج وصور الاب سيكار ومعلمى الخرس من الفرنساويين
والاجانب وكثير من أعاظم العالم الذين لهم دخل فى تاريخ تعليم
الخرس من مؤسسى المدارس ونظارها والمحسنين ومشاهير الكتاب
ورجال الحكومات وأهل السياسة ثم أعمال الخرس فى جميع
العصور وعند جميع الامم من مصورين ونقاشين ونحاتين ورسامين
وطباعين وفوتوغرافيين ومهندسين ثم صور كثير من مشاهير أرباب
الفنون الخرس ثم ميداليات ومسكوكات وكتابات بخط اليد وأشياء
نادرة وغير ذلك مما يتعلق بهذه الطائفة

وقد تألفت جمعية لتعضيد الخرس ووافق أنها اثناء اقامتى
فى باريس أولمت وليمة فاخرة احتفالا بحلول السنة المتممة للمائة
وثمانين من يوم ميلاد الاب دولو بى نعم انى لم أحضر هذه الحفلة
الغريبة الشائقة ولكنى لاأرى بأسا من افادة القارئ بما علمته
عنها من الجرائد وذلك ان المدعوين كانوا كثيرين وكانت
الحفلة تحت رياسة الموسيو كوشفر وهو من المهندسين الذين
تخرجوا بهذه المدرسة وبعد انقضاء الطعام وقف حضرة الرئيس
يخطب فى القوم . . . . . ببلاغة باهرة مستعينا بالايماء والاشارة
فانه ألم أحسن إلمام بذكر حياة الاب دولو بى وسرد مآثره التى

أفاضت الخيرات على جزء عظيم من بنى الانسان ثم شكر الجمهورية الفرنساوية على مساعدتها فى تحسين حال أمثاله ثم ختم مقاله باهداء ميدالية الى أحد النقاشين البارعين من الخرس وقدمها له باسم وزير التجارة والصناعة ثم تلاه كثير من الخطباء الخرس وكانوا كلهم يفيدون الحاضرين باشارات ظاهرة مفهومة

اماكن البر والاحسان

أما أماكن البر والاحسان واصطناع المعروف واغاثة الملهوف فهى أكثر من أن تعد ولها شؤن كثيرة وفائدة عظمى فنها ماتساعد الامهات لتمكنهن من ارضاع أطفالهن أو فقراء المعتوهين الناقهين بعد خروجهم من البيمارستانات أو تلتقط اليتامى اناثا أو ذكورا وتتكفل بتعليمهم وتربيتهم فى طريق الشرف والاستقامة أوتعاون فقراء الالزاسيين واللورانيين الذين تركوا وطنهم وآثروا الفقر مع بقاء الجنسية الفرنساوية لهم على الدخول تحت أحكام المانيا أو تضم الامهات الفقيرات أو تضيف النساء والرجال الذين لامأوى لهم بالليل أو تتكفل بالفقراء من الرجال أو النساء الى أن يجدوا لهم خدمة يتعيشون منها أو بالنساء الحبالى فقط أو الطاعنين فى السن دون سواهم أو لوصف الادوية أو لتقديم الدواء أوللوالدات بعد الولادة وهن فى دور النقاهة أو للفتيات بعد مرضهن أولتقديم الاشغال للخياطات اللاتى

ليس لهن بخدمة أو للتكفل بالابناء حين اشتغال والديهم عنهم بسبب كسب القوت أو لتطبيب الاطفال على العموم أو المصابين بداء مخصوص مثل الخنازيرى والكَلَب أو الادواء العضالة وغيرها أو لاستخدام العذارى فى مخازن التجارة أو لاستخدام النعلة والعملة من الجنسين والكتاب والحسّاب وغيرهما أو لتعليم الزراعة أو لتبنى الاولاد ووضعهم فى مرابى الايتام أو لاستخدام اليتامى والاولاد الذين تركهم أهلهم أو لمساعدة العائلات أو لتعليم الاطفال الفقراء حرفة الصياغة والجواهر والساعات وغير ذلك من الفنون الحرفية أو للاغراب الامريكانيين أو الانجليز أو النمساويين أو المجريين أو الطليانيين أو البولونيين (اللاهيين) أو السويسريين أو البلجيكيين أو جميع الامم أو لتقديم الخبز أو لتقديم صنف من الطعام أو لفقراء المرضى أو لتعضيد التكايا أو لقبول المعلمات اللاتى ليس لهن وظيفة يتعيشن منها أو لفقراء الاسرائيليين أو لتقديم الجهازات اللازمة لمن تقطع بعض أعضائهم أو للولادة أو لتسهيل الزواج بحسب قواعد الدين واجراء المساعى اللازمة بين الطرفين أو لتسهيل الزواج بالطريقة المدنية من غير توسط القسيس وتقديم كل مايلزم من الصكوك والاوراق مجانا والتكفل باثبات نسب الاولاد وجعلهم شرعيين أو لحماية الجنود البرية

والبحرية الذين أحرزوا نشانات فى وقائع التونكين أو لمساعدة جرحى الجنود (وهذه الجمعية مركبة من النساء) أو للذين كانوا فى سلك الجندية وحازوا وسامات اللچيون دونور أو الذين سبقت لهم الخدمة فى الجيش أو لمساعدة عائلات وأرامل ضباط البرية والبحرية أو عمال الحكومة الذين تشابه وظائفهم وظائف الضباط أو لترتيب معاشات للعسكرية أو لحماية الذين يتطوعون فى الخدمة العسكرية أو لتخديم الشبان الذين يتخرجون ببعض المدارس أو لاقراض عائلات العملة المبالغ اللازمة (من غير فائدة) لاستخلاص الاشياء التى وضعوها فى بنك الرهونات ثم جاء الاجل ولم يتيسر لهم المال المطلوب أو لدفع ايجار مساكن الفقراء أولاعادة الفقراء والمرضى الى أوطانهم أولمساعدة المحتاجين من المشتغلين بحرفة سباق الخيول أو لبذل الاعانة اللازمة فى الحال أولمساعدة الذين يروحون شهداء تأدية الواجب (وقد أرسلت هذه الجمعية فى شهر اكتوبر الماضى ٤٠٠ فرنك لشيخ احدى البلاد ليوصلها لارملة رئيس المحطة وقد دهسه الوابور بينما كان يجتهد فى انقاذ امرأة ارتبكت على الشريط وقد أتى الوابور و ٣٠٠ فرنك لعائلة رجل مستخدم بالدخولية دهسته العربات بينما كان يمانع تهريب بعض الاصناف و ٢٠٠ فرنك لرجل

من بوليس باريس أصابته جراح بليغة بينما كان يحاول توقيف خيول حرونة — وقد وردت لها فى الشهر المذكور وصية من زوجة أحد القضاة بمبلغ ١٥,٠٠٠ فرنك ووصية أخرى قدرها خمسون ألف فرنك من أحد النقاشين وثالثة من احدى العذارى وقدرها ٥٠٠٠ فرنك) وهناك أيضا جمعيات لا تدخل تحت حصر فانى عددت الجمعيات التى وقفت على اسمائها وعنواناتها وبيان أعمالها فاذا هى ٢٤٥ جمعية بعضها له فرعان وخمسة وعشرة بل خمسة وعشرون وبعضها خاص بطائفة من الناس أو بدين مخصوص أو بجنسية واحدة أو بسن معين أو ببنى الانسان على العموم

وفضلا عن ذلك فان الاكتتابات تراها فى كل جرائدهم لاقل حادثة مثال ذلك أنى رأيت اعلانات من دار أمانة القسم الاول من باريس تدعو فيه أهل الخير لمد يد المساعدة اليها لتعاون الفقراء على احتمال البرد وشدائده وتقول فيه انها أنفقت فى السنة الماضية الاعانات التى جمعتها من أرباب اليسار وقدرها ٢٠,٠٠٠ فرنك وأنت تعلم ان باريس تحتوى على ٢٠ قسما ولابد انها كلها سارية على هذا المنوال ومثال ذلك انه لما أضرب العمال فى مناجم الفحم الحجرى بكارمو Carmaux عن العمل فتحت جريدة الانترانسيجان اكتتابا اشترك فيه كثير من الناس وكنت أرى

فى أعمدتها ان فلانا وفلانا وفلانا من الفعلة فى كذا تبرعوا
بمبلغ فرنك واحد ولكننى ما كنت أستخف بذلك مثل أولئك
الذين يحتقرون صغائر الاشياء ولايعلمون انها أس الاجتماع
ومنبع العمران ودليلى على ذلك ان الانترانسيجان جمع من هذا
الاكتتاب مبلغا يزيد على ١٨,٠٠٠ فرنك ثم ان المجلس البلدى
فى باريس أرسل لهؤلاء العملة مبلغ ١٠,٠٠٠ فرنك صفقة
واحدة وقد توَاردت عليهم الاعانات من جميع الجهات ومن جميع
الطوائف ولابد أن القارئ وقف فى الجرائد السياسية على تفاصيل هذه
الحادثة الهائلة التى اضطربت لها أساطين السياسة فى فرنسا وشغلت
العالم باسره فلذلك لا أرى وجها للخوض فيها فضلا عن أن
شرحها يحتاج لوقت طويل ومثال ذلك أيضا الاعانات التى بادر
أهل فرنسا على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم بارسالها الى الجرحى
من جنودهم فى غزوة داهوماى فمن ذلك ما قرأته حينئذ فى
الجرائد أن المحفل الماسونى (الزاس ولورين) قد أرسل لهم ٢٠٠
فرنك على يد وكيل وزارة المستعمرات وأرسلت لهم جمعية نساء
فرنسا وللجنود التى فى التونكين ٣٧ صندوقا فيها أصناف كثيرة
من المأكولات والملبوسات وغير ذلك واقتدت بها طوائف كثيرة فى
هذا السعى الحميد ولكن جريدة الفيجارو فاقت الجميع فانها كتبت

فى يوم ٧ نوفبر تستحث أهل البر وخصوصا كبراء التجار على المساعدة فى الاكتتاب لجنود داهوماى وقالت انها تفتحه فى ثانى يوم وتقفله فى اليوم الثالث وان ذلك يستوجب التعجيل ولم يرد اليوم الثالث وهو ٩ نوفبر حتى كتبت تقول «لقد أجيب نداؤنا باكثر من جميع امالنا فقد اجتمع فى مكتب الفيجارو فى أقل من يومين ٢٢,٠٠٠ زجاجة من نبيذ بوردو والشامپانيا والمياه المعدنية و ٢٥٠٠ علبة من المربيات وأصناف المأكولات المحفوظة و ٢,٩٥٠ قطعة من مربعات الشكولاته و ٢٣,٤٥٠ سجارة افرنكية و ٣,٠٠٠ سجارة مصرية وأكثر من ١٠,٠٠٠ صنف من الاصناف المتنوعة مثل شراب الروم والشارتروز ومثل التابيوكا وغير ذلك مما سبق لنا سرده فى العدد الماضى وكان مبلغ النقود التى وردت لنا ٤٣,٠٠٠ فرنك ونصف (١,٧٢٠ جنيه تقريبا فى يومين اثنين خلاف الاصناف الاخرى) وقد أقفلنا باب الاكتتاب» ثم أوردت بيان الاصناف وأسماء المتبرعين ولا فائدة فى احاطة القراء بذلك فان هذا الاقبال يغنى عن الشرح والبيان وفى مثل ذلك فليتنافس المتنافسون - ومثل ذلك اهتمامهم بعائلات الذين ماتوا فى حادثة انفجار الديناميت فى شارع بونزانفان أثناء اقامتى فى باريس فكان رئيس الجمهورية أول من اهتم بشأنها وقد

أرسل مندوبا من قبله ذهب الى منزل كل واحدة من الارامل وأعطاها اعانات من جيب رئيس الجمهورية الخصوصى وأعلمها بانه مشارك لها فى أحزانها ثم توجه الموسيو لوبى رئيس الوزراء حينئذ فزار كل واحدة منهن فى مسكنها وقدم لها مساعداته شخصيا ووعدهن بان الحكومة تتكفل بالارامل وتتعهد بتربية اليتامى ثم جاء محافظ المدينة ووزع عليهن ٧٠٠٠ فرنك ثم تعهدهن مرة ثانية وقدم لهن ما ورد اليه برسمهن من لجنة مصانع الحديد فى فرنسا ولجنة مناجم الفحم الحجرى وقدم لهن أيضا مبالغ جمعت فى احدى الولائم وقد علمت ان مقدار ما أرسلته لجنة مناجم الفحم ٥٠٠٠ فرنك ووردت المساعدات من جميع أنحاء فرنسا بما يضيق عنه المقام ثم تقرر ترتيب معاش لعائلات المصابين الذين كانوا فى خدمة الحكومة يكون نصفه من ميزانية الحكومة والنصف الآخر من ميزانية مدينة باريس وكان فيهم رجل من خدامى القومبانية (التى قصد أصحاب الديناميت تدميرها) فلذلك تقرر صرف المعاش لارملته وأولاده باحتساب النصف على الحكومة والنصف الآخر على القومبانية المذكورة وهى قومبانية معادن الفحم الحجرى فى كارمو — وخلاصة القول ان تفننهم فى وسائل الاعانة واقبالهم عليها أمر

يستغرق شرحه مجلدات ضافية الذيول يدل على ذلك ما قدره أهل المعرفة من ان مبلغ الاعانات التى يبذلها أفراد الناس فى باريس على حدتهم يزيد على ٢٥ مليونا من الفرنكات فى كل سنة (انظر جريدة الطان عدد ١١٥٤٨ من هذه السنة) ومع كل هذا الاجتهاد فلا يزال بعض الناس يموتون فيها جوعا وان كانت النسبة أقل بكثير مما فى لوندرة فقد رأيت فى العدد ٣٧٠٠ من جريدة الغولوا جملة طويلة على الفاقة والخلو من العمل فى باريس اقتطف منها بعض شذرات جديرة بالاعتبار

قالت انه بحسب البيانات الرسمية والاستعلامات المؤكدة التى استحصلت عليها يتضح أن عدد العملة الذين منعتهم شدة الشتاء ووقوف حركة الاشغال من كسب القوت يقرب من خمسين ألفا وان طلبات الاعانة قد تواردت على مكاتب الاحسان العام بمقادير جسيمة أزيد من المعتاد وان هذه المكاتب تمد ساعد المساعدة لنحو ٩٢ أو ٩٣ ألفا من المحتاجين وانها تقوم بمعالجة نحو ٩٠ ألف مريض و ١٩ ألف والدة فى منازلهم وان عدد الملهوفين بحسب التعديل المتوسط سيزيد فى هذا العام زيادة تذكر — أما الملاجئ الليلية التى يلوذ بها الفقراء عديمو السكن فقد بلغ عدد الوارد على أحدها فى كل يوم بالمتوسط ٢٠٠

رجل مع انه لايسع الا ١٥٠ وكان عدد النساء أكثر بكثير مما قدر لهن فان الوارد منهن فى اليوم الواحد بالمتوسط نحو ٥٠ مع انه لايسع الا ١٥ وان استمر الشتاء على شدته وكلبه كما هو المنظور يزداد عددهن أكثر من ذلك وقد بلغ عدد النساء والاطفال الذين لجؤا اليه فى العام الماضى ٣,٦١٧ مضوا به ٩٦٥٧ ليلة وفى جملتهن الخدامات والمعلمات والابكار والارامل وامثالهن وغير ذلك والمقرر فى هذا الملجا اعطاء الرجال كسرة من الخبز فى الليل و ورقة للخباز لاخذ رغيف وقليل من المرق بالنهار وأما النساء فلهن الخبز والمرق فى نفس الملجا نعم ان هذه الكسرة وهذا القليل من المرق أمر زهيد جدا لايعتدّ به ولكنه فى الجملة تصل قيمته الى ٢٥ ألف فرنك هذا فضلا عن كون بعض معامل الصناعة فى باريس تعهد بتقديم ٥,٠٠٠ كيلو من الخبز فى كل شتاء الى هذا الملجا احتسابا لوجه الله تعالى ومعاونة له على أعماله الخيرية وهذا الملجأ يوزع على أضيافه فى كل عام من ٢٠ الى ٢٤ ألف كسوة وقيص وجوراب وصدار وفستان وحذاء وغير ذلك وانى لاأرى بعد ذلك كله حاجة للشرح والبيان بل أحمد الله على حالة بلادنا وأهلها

١١

التياترات والملاهى والمتنزهات

أصبح التشخيص فى باريس من الكماليات الحاجية التى لاغنى لاهلها عنها حتى ان الرجل ليقتصد من مصرفه الضرورى لتمضية الليلة فى أحد التياترات وكثيرا ماتستكبد بعض العائلات نفقة باهظة جدا لقصر احدى المقصورات بواسطة الاشتراك (وخصوصا مقصورات الاوبرا) ليقال عنها ان لها مكانا معينا فى هذا التياترو أو فى ذلك المرسح ولذلك لايندر ان يحل موسم افتتاح التياترات الكبيرة وليس فيها محل خال للايجار والاعظم من ذلك ان الاوبرا يؤجر أماكنه بالستة شهور بل بالسنة الكاملة ويخيل لى ان أغلب نساء هذه العائلات انما يحضرن هذه الملاهى لعرض ملابسهن وابداعهن فى زخرفتها و زركشتها ولاستجلاب العيون والعوينات نحوهن لالقصد سماع الاغانى والالحان أو شهود التشخيص والتمثيل اذ أنهن يكن غالبا فى اثناء ذلك مشتغلات باصلاح الفستان وهندمة دوائره ومستديراته وتعديل الصدار وتمنيق الوشاح والمخايلة بالمراوح ذات الالوان التى تأخذ بالابصار وتراهن عندما يستقربهن المجلس ينددن بعد هذه الهندمات الضرورية لهن باستعمال النظارات المقربة

المكبرة المجسمة لمراقبة بعضهن بعضا واستيقاف رائد الطرف نحو التى تجلت فى جلباب الظرف وفاقت بحسن الشكل وبرعت بجمال المنظر ثم يرسلن اللحاظ الفاترة فى بعض الفترات لرؤية الرجال وهم يرمقونهن على الدوام حتى اذا جاءت ساعة التشخيص التفت هؤلاء اليه وأقبل أولئك على شؤنهن الاولى من اصلاح الملابس والاتقان فى التبرج والاغراب فى البهرجة مع توالى النظر فى المرايا أو المسامرة مع بعضهن ومبادلة أفكارهن فيما يتعلق بهن

تلك ياصاح حالة السياترات على العموم والاوبرا على الخصوص وصفتها كما رأيتها . قتديا بعمرو بن العاص ذلك الصحابى الجليل الذى مع قرب عهده بالبداوة لم يتحاش من قول الحق فى رسالته المشهورة التى بعث بها الى امام المسلمين وأمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وأرضاهما حيث قال فى عرض وصفه لمصر وأهلها (ونساؤها طرب) ولم يؤاخذه الخليفة الراشد المشهور بالصرامة والجد والصلابة فى الحق الى آخر حد

وقد اقتديت أيضا بطارق بن زياد فاتح الاندلس فانه قد وصف نساءها حينما خطب فى قومه يحرضهم على قتال رذريق ملك الاندلس وأطنب فى ذكر محاسنهن وجمالهن وغير ذلك مما

قراه فى خطبته التى أوردها صاحب نفح الطيب وجميع مؤرخى الاندلس وقد ترجمت الى أغلب اللغات الافرنجية

وقد نحوت أيضا نحو ذلك الرحالة المشهور بابن جبير فانه وصف نساء الافرنج فى صقلية وصفا مدققا كما يعلمه من له اطلاع على كتابه المطبوع المتداول وذلك لان وظيفة السائح تقرير الحقائق كما هى وذكر الوقائع كما حصلت

وفى أول ليلة توجهت الى الاوبرا ورأيت مقصورات الطرف فى مناصيرهن كأنهن كواكب السماء قد انتشرت أو أزهار البهاء قد انتثرت حدثتنى النفس بان أصعد بعد تشخيص الفصل الاول الى بهو الاستراحة البهيج لالاسترق السمع ولكن لاسترق البصر فرأيتهن كلهن يصدق عليهن قول كعب بن زهير فى قصيدته التى مدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة * لايشتكى قصر منها ولاطول

ومعلوم ان خاتم الانبياء الذى بعث لتتميم مكارم الاخلاق أعجب بهذه القصيدة اعجابا لامزيد عليه ولم يعب على قائلها وجود مثل هذا البيت فيها بل نظر الى مجموعها وما اشتملت عليه من الحكم الباهرات حتى انه لم يكتف بحقن دم الشاعر بعد أن كان

أهدره بل خلع عليه بردته الشريفة ولا عجب اذا حق للغريب المتأمل في هذه الحال أن ينشد قول من قال

وانك ان أرسلت طرفك رائدا * لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر * عليه ولا عن بعضه أنت صابر

والذى جرأنى على الاتيان بهذا الوصف القليل هو ما جريت عليه من الاحاطة ببعض أحوال باريس وان لكل مقام مقالا فان من أراد أن يلم بشئ على التياترات فى هذه البلاد لا يجوز له أن يضرب صفحا عن ذكر النساء فيها لانهن حياتها و روحها ولولاهن لما كان لها ذكر ولا قامت لها قائمة بل ان الرجل ليعتبر نفسه من أسعد السعداء اذا أصبح ورأى فى الجرائد ان زوجته أو أخته أو ابنته أومن تنسب اليه هى التى كانت محط الانظار ومحل الاعجاب والاستحسان فهذه هى عاداتهم وهذه هى أخلاقهم يشاركهم فيها عامة الاوروباويين تقريبا ولم أر مندوحة عن الالماع اليها

أما التياترات فى حد نفسها فاهمها الاوبرا وقد كان الاحتفال بافتتاحه فى ١٧ يناير سنة ١٨٧٥ بعد أن استمرت العمارة فيه مدة ١٥ سنة وبلغت نفقاته ٦٥ مليونا من الفرنكات وبهو المتفرجين يسع ٢٠٠و٣ شخص أما ما فيه من المبانى

ما الجسيمة الفاخرة والرسوم الباهية الباهرة والصور الجليلة الجميلة والتماثيل المتقنة المحكمة والنقوش المزخرفة والسلالم والقباب والثريات وغير ذلك من الامتعة الغالية العالية فذلك بمقدار مبلغ النفقات وفى ذلك مايغنى عن الافاضة

ويجىء بعده التياترو الفرنساوى أو الكوميدية الفرنساوية وقد كان تشييده فى سنة ١٧٨٢ ويحتوى على كثير من آثار الفنون المستظرفة ويعتبره الفرنساوية فخرا قائما لهم وان الروايات التى تشخص به مسبوكة فى أحسن قالب وأكمل ذوق ولكن الرواية التى شهدتها لاتشهد بذلك وان كان مؤلفها من أكبر أكابرهم وهو ابن الكساندر دوماس ومن أعضاء الاكادمية الفرنساوية فانها عبارة عن امرأة تحققت خيانة زوجها لها فاستعملت كل الوسائل فى ارجاعه عن جهله ولم تنجح فاضطرت ذات ليلة لاقتفاء أثره فى البااللو ثم فى المواخير وقلدته فى جميع أعماله ثم أخبرته بذلك بتفصيل وتدقيق أثبتت له حضورها فى المكان الذى كان فيه متخذة لها صاحبا حيثما اتفق من الشبان الى غير ذلك مما لايساعدنى القلم على كتابته وان كانت فى آخر الامر أثبتت براءتها بقولها عن الشاب المذكور (لقد كذب) فانها طلبت من زوجها أن يستعلم منه بطريقة خفية فأخبره بمايؤكد

الظن والريبة وانى أدع الآن تفصيل أفكارى فى هذا الموضوع الى الرحلة وانما أقول ان أغلب الروايات التى تشخص فى فرنسا بل وفى أوروبا يكاد يكون الغرض منها تعليم النساء الحيل والمكايد مع انهن بنات بجدتها وسأقيم البراهين على ذلك بتلخيص بعض الروايات التى يزدحم عليها القوم ولا ازدحام الجياع على القصاع

وكذلك أقول عن جميع التياترات التى زرتها ماعدا الاوبرا فى قليل من الاحيان وتياترو الشاتليه غالبا فانه مخصص للقطع التاريخية ومما يستحق الذكر فى هذا التياترو الاخير أن عدد الراقصات فيه يبلغ ٢٠٠ عدا المشخصات والمشخصين

واعلم أنه يوجد فى بعض التياترات نظارات موضوعة فى ظهور الكراسى بكيفية ميكانيكية لطيفة بحيث ان غطاءها ينفتح بمجرد وضع نصف فرنك فى فتحة فيها وبعد تمام التشخيص يعيدها المتفرج لمكانها

ومن أغرب مايتعلق بالتياترات تلك الآلة الكهربائية المسماة بالتياتروفون (أى سماعة التياترو) وبيان ذلك أن لاغلب الجرائد المهمة قاعات فسيحة يسمونها قاعة التلغرافات ولكنها أشبه شئ بمعرض للصور والرسوم وبعض المصنوعات الدقيقة اللطيفة وغير ذلك من مستظرف الآلات ومستحدث البدع فتوجهت

الى كثير منها و رأيت فيها شيأ شبيها بالتلفون وفيه فوهة مخصوصة يضع الانسان فيها نصف فرنك أوفرنكا بحسب المدة التى يريدها ثم يضع السماعات على أذنيه فيسمع التشخيص بغاية الوضاحة كأنه حاضر فى أحسن محل بالتياترو ويسمع الغناء بصوت صريح ويقف على جميع الاقوال التى يتبادلها المشخصون أثناء التمثيل مما قد لايسمعه اذا كان جالسا فى الصف الخامس من المتفرجين ولكن هذه الآلة لاتمكن المستمع بها من سماع التصفيق أو الموسيقى أوغير ذلك مما لايتعلق بالتشخيص مباشرة لانها مدبرة بحيث تنقل كل صوت يقع فى نفس المرسح الذى يقف عليه المشخصون دون سواه وقد حضرت بهذه الكيفية قطعا كثيرة من بعض الروايات التى أعرفها اذ كنت كل ليلة أتوجه الى قاعة التلغرافات فى جريدة غير قاعة جريدة الامس

أما قهاوى المغانى وأماكن الرقص وما يشابهها مما يدخل فى هذا الموضوع فهى أكثر من أن يتصورها الانسان وكلها فى كل ليلة تكون غاصة بالجماهير المجمهرة والعوالم المتقاطرة

أما المنتزهات والمسابقات على الخيول والعربات والاقدام والعجيلات المفردة والثنائيه والثلاثية (السيكلت والبيسكل والتريسكل) وقباب الزحلقة على الثلج الطبيعى والصناعى والسباحة

والملاحة والصيد والقنص والرماية ومرائى العالم (صندوق الدنيا أو البانوراما) فقد تفننوا وتعمقوا فيها الى درجة قاصية حتى ان جرائدهم تخصص لذلك كله أعمدة طويلة فى كل يوم بل ان لكل نوع منها جريدة أو أكثر خاصة به ومنتدى (كلوب) يجمع أهله — وكثيرا ماتكون مسابقاتهم على الاقدام أو العجيلات المفردة من مدينة الى مدينة أخرى بعيدتين عن بعضهما بمسافات كبيرة وقد يشاركهم كثير من النساء فى هذه المسابقات ويفزن فى غالب الاحوال بقصب السبق فى هذه المضامير المتنوعة المتعددة

ومن شدة غرامهم بالزحلقة على الثلج أحدثوا فى الصيف الماضى قبل رجوعى الى باريس بقليل مكانا سموه (القطب الشمالى) وأحضروا له من آلات التبريد والتثليج (مثل الآلات المعروفة فى مصر المعدة لاصطناع الثلج) مافيه الكفاية لتجميد الماء وايجاد الثلج الصناعى بكمية وافرة وحجم سميك يمكن المولعين بهذا النوع من الرياضة من قضاء مآربهم فى غير فصل الشتاء وقد نال هذا المحل اقبالا عظيما جدا مع ارتفاع أثمان الدخول وتأجير القبقاب وتناول المشروبات وغير ذلك وهذا أكبر دليل على أن القوم لم يقدروا على كتمان اشتياقهم لهذه المسابقة الى أن يحل أوانها حتى انى لم أر بدًا من زيارته فى بعض الليالى حبا للاستطلاع

والوقوف على حركته وكيفيـة ادارته فتوجهت أوّلا الى الحمام التركى (وهو على طرز الحمامات العموميـة فى مصر لا يفترق عنها الا بفـرط نظافته ووجود المرشات الباردة وبركة السباحـة وكمال المعدات) وقد رأيت فى جملة المكبسين الافرنج الذين به رجلا من الاسكندريين اسمـه حسن قد فارق ديار مصر مـع عائلة أمريكانية منذ ١٨ سنة ثم انفصل من هذه العائلة واستقر فى باريس يكسب قوته بكده وسعيه وبعد الحمام انتقلت الى القطب الشمالى فاذا هو مكان فسيح جـدا فيه صور ورسوم تصوّر هيئة القطب الشمـالى وثلوجه ونباتاته وسحبه وكواكبه وغير ذلك ورأيت الآلات وكيفية ادارتها ووقفت على سير هذه المصلحة المستجدة بالتفصيل وعرفت أسرارها مما سأخلده بالبيان الشافى فى الرحلة ان شاء الله وقـد هـزنى الشوق الى مجاراتهم ووطء الثلج بتلك الاقدام المصرية التى لم يتح لهـا قط فرصـة مثل هذه فى وادى النيل السعيد فاتخذت أسـتاذا يسندنى وكنت أحس بالبرد فى أقدامى والخجـل فى نفسى من رؤية الغلمـان والفتيان والبنات والعذارى يتسابقون كالريح الهبوب ويرقصون على هـذه المرآة الصقيلة رقصا موزونا مع نغمات الموسيقى وايقاعاتها ومنهم من كان يرسم دوائر كبيرة ثم صغيرة فأصغر وهكذا حتى يصل الى نقطة المركز

ومنهم من ...... كان يقع على قطبه الجنوبى .... فى هذا القطب الشمالى .... وأنانى خلال ذلك أنقل رجلا بعد أن أتحقق من ثبات الاخرى مع التوثق من استنادى على أستاذى كأننى طفل قد ابتدأ فى التخطى أو فيل جسيم يسير بكل تؤدة على حافة هاوية عميقة أو على شفا جرف هار وفى أثناء ذلك أخبرنى الاستاذ بان جماعة من الافرنج عزموا على ايجاد محل نظير القطب الشمالى فى مصر القاهرة بدلا من المكان المصفح بالقار والاسفلت المعروف باسم (كيروسكيتنج رنك) فقلت فى نفسى لقد صدق من قال ان هؤلاء القوم لايمتنع عليهم شئ من مستصعبات الطبيعة (لان عقلهم فى كفهم)

١٢

التماثيل والميادين والرهريات المربعة (الاسكوير) والارصفة والمطاهر

تحلت مدينة باريس مثل أكثر المدائن الاوروباوية بتماثيل كثيرة لاعظم رجالها ولا أذكر الآن مافى داخل القصور والنظارات والمصالح العمومية الاميرية وديار البلدية والمتاحف وغرف الجمعيات العلمية والصناعية والتجارية وغير ذلك من دور العامة والخاصة وانما أذكر مارأيته فى بعض الشوارع والميادين فن ذلك تمثال الجمهورية وتحت أقدامها غضنفر يحمى كأس الانتخابات العمومية

وعلى قاعدة التمثال رسوم بارزة تمثل أهمّ أعمال الجمهورية الاولى والثانية والثالثة فى فرنسا وتماثيل الحرية والمساواة والاخاء وارتفاع هذا الاثر ٢١ مترا ثم تمثال الملك هنرى الرابع وتاريخه مشهور خصوصا فى تودّده للامة وتقربه من الاهالى حتى انه حينما كان غائبا عن باريس وتمرد عليه أهلها ورفعوا لواء العصيان لبعض أمور دينية رجع اليهم وحاصرهم وضيق عليهم الحصار ولما علم بشدّة الضنك الذى صاروا اليه أخذ يرسل اليهم الخبز من فوق الاسوار مع استمراره على الحصار وكان يقول انى لا أريد أن أملكهم بالجوع فذلك مما تأباه الشهامة والفروسية (١) ثم تمثال

---

(١) الابلغ من ذلك فى الشهامة والكرامة والمروءة والانسانية ما سبق اليه العرب أهل النخوة والنجدة قبل هذا الملك الفرنساوى بسنين وقرون فقد روى ثقات المؤرخين عن قبيلتى الاوس والخزرج (الانصار فيما بعد) وهم أعز الناس أنفسا وأشرفهم هِمَماً لم يؤدوا اتاوة قط الى أحد من الملوك أن تبعا الاكبر المعروف بابى كرب كاتبهم يستدعيهم الى طاعته ويتوعدهم ان لم يفعلوا أن يغزوهم فكتبوا اليه

العبد تبعكم يريد قتالنا ※ ومكانه بالمنزل المتذلل
انا اناس لا ينام بأرضنا ※ عض الرسول ببظر أم المرسل

فغزاهم أبو كرب فكانوا يحاربونه بالنهار ويقرونه بالليل فقال أبو كرب ما رأيت قوما أكرم من هؤلاء يحاربوننا بالنهار ويخرجون لنا العشاء بالليل ارتحلوا عنهم (انظر صحيفة ٥٥ من الجزء الثانى من العقد الفريد لابن عبد ربه طبعة بولاق سنة ١٢٩٣

وأبلغ من هذا وذاك ما وقع من رجل وحده لكتيبة تحاربه فقد جاء فى الانباء

الجمهورية أمام قصر جمعية المعارف وتمثال الفتاة جان دارك المشهورة بإخراج الانكليز من فرنسا وتمثال لويز الرابع عشر ملك فرنسا المشهور وتمثالين لفولتير وتمثال لكلود برنار وآخر لدانتى الشاعر الطليانى المخلد الذكر ولويز بلان الكاتب الطائر الصيت خصوصا بتواريخه على ثورات فرنسا وشارلمان الملك وديدرو من أكبر فلاسفتهم ورأس المؤلفين للموسوعات الفرنساوية وبيرانجية صاحب التلاحين والأغانى التى يكاد يحفظها كل فرد منهم والكساندر دوماس صاحب الروايات العديدة المترجم بعضها الى اللغة العربية وجان جاك روسو ذلك الفيلسوف العظيم الذى كان له يد طولى فى

الصادقة أن تبعا الآخر وهو أبو كرب بن حسان بن أسعد الحميرى خرج من اليمن يريد المشرق كما كانت التبابعة تفعل فمر بالمدينة وخلف بها ابنا له ثم ذهب الى الشام والعراق وهناك بلغه قتل ابنه غيلة بالمدينة فكر راجعا وقد أقسم بخراب المدينة وقطع نخلها واستئصال أهلها وسبى الذرية ثم أرسل الى أشراف المدينة وفيهم أُحيحة بن الجُلاح (والأحيحة فى اللغة الغيظ وحزازة الغم والجُلاح السيل الجراف) فلما تقابل الجماعة مع الملك لم يفطن أحد منهم لما أصابه السيئة غير أحيحة فذهب وتحصن فى حصن له وأرسل الملك بالليل فقتل القوم كلهم وجرد كتيبة من خيله لطلبه فحاصروه ثلاثا فكان يقاتلهم ويرميهم بالنبل والحجارة نهارا ويرميهم بالتمر ليلا فلما مضت الثلاث رجعوا الى تبع فقالوا له تبعثنا الى رجل يقاتلنا بالنهار ويضيفنا بالليل فتركه وأمرهم أن يحرقوا نخله

(انظر حديث الرجل فى صحيفة ١١٩ من الجزء الثالث عشر من كتاب الأغانى المطبوع فى بولاق سنة ١٢٨٥ وفى صحيفة ٢٣ من الجزء الثانى من خزانة الأدب للبغدادى المطبوعة فى بولاق سنة ١٢٩٩

تثقيف عقول الامـة وتنوير الاذهان وشا كسبير شاعر الانكليز وفيلسوفهم صاحب رواية كيلوبطرة ملكة مصر وقد بلغ فيها نهاية الاجادة ولامرتين ذلك الشاعر المفلق والكاتب المجيـد وكثـيرا ما كتب على المشرق ومصر والدولة العليـة خصوصا كتابات تسحر العقول وتخلب الالباب وقد تولى رياسة الجمهوريه وتمثال دانتون المشهور الذى حرك سا كن الوطنية فى قلوب قومه بخطبه الرنانة ومقالاته المأثورة ومن أهـم كلماته قوله (لكى نقهر عدو الوطن يلزمنا الاقدام ثم الاقدام وعلى الدوام الاقدام) وهى بلغتهـم فى نهايات الفصاحـة مع بساطة الشكل كالسهل الممتنع عنـدنا وتمثال الاب دولوبى (ذى الحسام) وهو أول من عنى بتعليـم الخرس وقد سـبق لنا ذكره ثم تمثال الرياضى المحقق والطبيعى المدقق العلامة باسكال وقد أشرنا اليـه فيما سبق وهنالك تماثيل كثيرة لعظمائهم يضـيق عن سردها المقام والذى يسـتحق التخصيص الآن هو تمثال رجل كان جاويشا فى غزوة التونكين واسمه الجاويش بوبيلاو وليس فى فرنسا كلها تمثال لصـف ضابط سواه وسبب عناية القوم به لهذه الدرجـة واكتتابهـم فى جميع أطراف فرنسا لجمع المال اللازم لتشييد هـذا الاثر أن الجنود الفرنساوية حاصرهـم أهل التونكين فى غابة كثيفـة وأوشكوا

على إبادتهم عن آخرهم لولا وجود هذا الرجل فانه تعرض لهم وفدى قومه بنفسه اذ شاغل التونكينيين بثبات جاش وجراءة حتى تيسر لقومه وجود مخرج من هذه الورطة وقد قتل الرجل في هذه الواقعة بعد أن أبلى فى أعدائه بلاءحسنا وبهذه المناسبة أذكر مارأيته فى تورينو والشئ بالشئ يذكر رأيت فى أحسن ميادينها تمثال رجل من افراد العساكر (نفر) لم يحرز أدنى رتبة فتعجبت من هذه الحفاوة به واستفهمت عن السبب فقيل لى انه أنقذ المدينة بأسرها من أعدائها وفدى بلاده بنفسه وذلك أنه لما كانت الحرب بين النمساويين والطليانيين اتفق أن أهل أوستريا فازوا على أهل تورينو وألزموا جنودهم الفرار واحتلوا قلعتهم فلكى ينتقم هذا الجندى من أعدائه ويأخذ بثار وطنه اختبأ فى مخزن البارود (الجبخانة) ثم أولع فيه النار فطارت القلعة بمن فيها وهلك هو وجميع الجنود النمساويين وقد كانوا اعتقلوا بها وكان الرجل أول من مات ولكنه أنقذ حياة بنى وطنه أجمعين

أما الميادين فى باريس فكلها فى غاية الجمال ونهاية النظافة تحف بها المبانى الخطيرة والقصور الجسيمة ويبلغ عددها نحو الستين ولكنى بالمقابلة وحفظ النسبة أقول ان الميادين العمومية فى فلورانسة أكثر منها فى باريس وقد رأيت أيضا كثيرا من

الزهريات المربعة (واسمها بالافرنجية سكوير لفظ انكليزى لانها من خصوصيات المدائن الانكليزية) ولها فى مصر نظائر مثل التى فى رحبة عابدين والعتبة الخضراء وميدان الاوبرا وغير ذلك وكلها مزدانة بالتماثيل والفساقى والازهار والشجيرات الغريبة والاعشاب النضيرة وهى محط العناية التامة من ديوان البلدية لانها تساعد مثل الميادين على اصلاح الهواء وترويح النفوس وعددها ٢٥ زهرية

أما الارصفة والقناطر التى على نهر السين فهى من أهم المتنزهات وجميع الارصفة مبنية بحجر الدستور ولها برازيق ودرابزونات عليها كثير من صناديق الخشب هى مخازن لبائعى الكتب القديمة ومتسوقى كتب (اللقطة) ولقد استغرقت منى هذه الارصفة ساعات طويلة فى أغلب أيامى واشتريت منها كتبا كثيرة بأثمان زهيدة وعدد الارصفة ٣٦ وأغلبها عليه أشجار ظليلة وأما القناطر فعدتها ٢٨ ومنها ماهومبنى بالحجر ومنها ماهو مركب من الحديد وعلى بعضها تماثيل فوق سطحها أو على أساطينها ومن المعلوم ان نهر السين يخترق باريس كهيئة قوس يبلغ طوله ١٢،٠٠٠ متر إلا قليلا فتكون المسافة المتوسطة بين كل قنطرة والثانية نحو ٤٦٧ متر تقريبا وأحسن وقت لرؤية هذه القناطر

هو الليل اذ تكون مضاءة هى والارصفة بالمصابيح المختلفة الالوان وترسل النور على صفحات النهر فتكون كذهب الاصيل على لجين الماء

١٣

المطبعة الاهلية و بنك فرانسا و بنك الرهونات

لايمكن زيارة هذه المطبعة الا فى يوم الخميس الساعة ٦ بعد الظهر بالضبط بعد الاستحصال على تذكرة خصوصية من المدير واذا حضر الزائر بعد الميقات المحدد لايجوز له الدخول وقد طفتها ورأيت أعمالها الجسيمة وعمالها العديدين الذين يزيدون على ١٢٠٠ ذكورا واناثا يقومون بكافة ماتستلزمه صناعات الكتب من سبك الحروف الى تجليد الكتب ونقش الفوتوغرافيه والرسوم على الاحجار وفى المطبعة ٢٨٨ نوع من الحروف منها ١٥٣ خاصة باللغات الاجنبية وبواسطتها يتيسر لها طبع كتب بثمانية وخمسين لسانا شرقيا وقد ظهر فيها من الكتب والرسائل العربية أصلا وترجمة مايكاد يكون مجهولا فى بلادنا وفى فنائها تمثال لجوتنبرج مخترع الطبع

أما بنك فرنسا فيكاد يضارع مثيله فى انكلترة ولقراطيسه ثقة عامة فى جميع أنحاء المسكونة وقد تزيد قيمتها فى بلاد كثيرة

من أوروبا وأمريكا ومن أهم مايستوقف الانظار به بهو الذهب وهو عبارة عن قاعة طويلة مزخرفة بنقوش مذهبة وأخشاب مصنوعة باتقان واجادة وقد كانت بالقصر الذى هو فيه الآن أيام كان سكنا لبعض أفراد العائلة الملوكية فابقاها البنك على حالها بل أجرى فيها ترميمات تزيد نفقتها عن المليونين من الفرنكات وهى معدة لاجتماع المساهمين فى بعض أيام من السنة فقط

أما بنك الرهونات فتعريب اسمه الفرنساوى هو (جبل التقوى) وله فروع ونظائر فى جميع أقطار الارض وفى اسمه العربى دلالة كافية على ماينعاطاه من الاعمال وفى كل سنة يباشر جرداعموميا على الامتعة والجواهر والسندات والقراطيس المالية المرهونة فيه منذ سنوات عديدة وفى هذه السنة حصلت هذه العملية المهمة ومن جملة الغرائب التى تدونت فى قائمة الجرد ستارة مضى عليها فيه اثنتان وعشرون سنة وصاحبها يجدد الرهن فى كل سنة وهذا الامر ليس فى شئ من الغرابة بجانب مطرية مرهونة فيه منذ سنة ١٨٤٩ على مبلغ ٦ فرنكات وقد أربت فوائد هذا المبلغ على ثلاثين فرنكا فتأمل

١٤

الاسواق والمطاعم ومعارض الصناعة والزراعة ونحو ذلك

أسواق المؤنة المركزية فى هذه المدينة تشغل مسطحا من الارض قدره ٧٠،٠٠٠ متر مربع وقد كان وضع أول حجر منها فى سنة ١٨٥١ وهى عبارة عن كشكات من الحديد ليس الا يعلوها سطح من التوتيا وتحتها سراديب فيها مخازن وسكة حديدية ستتصل عما قليل بسكة حزام العاصمة وفى كل كشك ٥٢٠ دكان وعدد الكشكات الموجودة الآن ١٠ وقد قدروا نفقات هذا العمل الجسيم بستين مليونا من الفرنكات واستخدموا الكهرباء فى اضاءتها بالليل منذ سنة ١٨٩١ ويوجد فى جميع أقسام باريس أسواق مؤنة ثانوية منظمة على نسق الاسواق المركزية وأحسن وقت لزيارتها ورؤية حركتها هو وقت التموّن أى فى بكرة النهار قبل طلوع الشمس وضف الى ذلك أسواق الأزهار وهى تزيد على الخمسة وأسواق الاطيار وسوق الكلاب وسوق الجلود وسوق الخيول وسوق العلف وسوق البهائم (وله اتصال بالمذابح) وسوق التمبل (الهيكل) وهو فى يد قومبانيسة ومسطحه ١٤١١٠ متر وفيه ٢٤٠٠ دكان تباع فيها جميع الاصناف

أما المطاعم المعروفة باللوكاندات فهى كثيرة جدا ومنها

مايكون الاكل فيه بثمن محدود أو بحسب قيمة كل صنف على حدته ومنها ماقد تبلغ الغدوة والعشوة فيه ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة فرنك ومنها مالا تتجاوز الاكلة فيه ثلاث فرنكات أو اثنين بل أقل من ذلك وأغلبها مزخرفة مضاءة بالكهرباء وفى كثير منها خلايات بمنعزلة خصوصية ومنها ماهو مخصص لصنف واحد من المأكولات و بعضها يكون مفتوحا طول الليل وغير ذلك وأغلب القهاوى ومشارب الجعة (البيراريات) والخمارات تقدم الزاد لمن أراد

والذى ينبغى ذكره بنوع التخصيص فى هذا الباب هو مطاعم دوفال فقد بلغنى أن هذا الرجل كان قصابا (جزارا) ثم كانت تتأخر عنده اللحوم فيبيعها بأبخس الاثمان أولا يجد لتصريفها من سبيل فخطر على باله أن يتخذ مطعما يشوى فيه هذه اللحوم و يبيعها بثمن بخس للآكلين فشرع فى العمل وأقبل عليه الدهر فتوسع فى هذا الموضوع حتى صارت مطاعمه مقصودة من العامة والخاصة يتقاطر عليها الاكابر والاصاغر وذلك لبخس الاثمان وزيادة العناية وجودة المأكولات مع زخرفة الاماكن واضاءتها بالكهرباء وادارة هذه المطاعم الآن فى يد قومبانية من المساهمين وقد بلغ عددها فى أول يناير سنة ١٨٩٢ ٢٦ خلاف فندقين كبيرين وخلاف المخازن العمومية ومعمل الفطير والمغسل ومخازن الانبذة وعددها أربعة منها واحد فى بوردو وخلاف دكاكين الجزارة فى ثلاثة شوارع واذا توجه

الانسان الى مطعم من هذه المطاعم فى وقت الظهر أو بعد المغرب
رأى منظرا غريبا اذ يرى كتائب الخادمين مسرعين مهرولين
وجيوش الآكلين متشدقين ماضغين بالعين مع المواظبة على
الشراب الحلال والحرام والداخلين أكثر من الخارجين ويكون
المكان بهذه الخلائق المتموجة أشبه بأحد شوارع لوندرة وعلى
ذكر لوندرة أقول انى أتعجب كل العجب من عدم مجىء هذه الفكرة
لرجل من أبناء بريطانيا العظمى فانها أشبه بما صنعه كوك
وهو يتلى وغيرهما والاغرب من ذلك أنه لم يقم للآن رجل من الانكليز
يعمل يضارع هذه المطاعم فى «موسوعات الدنيا» بل قد نسجت
قومبانية باريسية أخرى على منوال دوفال وأنشأت أربعة مطاعم
وفندقا بقهوة ومطعم فى أهم شوارع باريس ودروبها وهى وان
كانت فى درجة من الرفاهية وحسن الحال لكنها لاتضاهى نجاح
مطاعم دوفال - والعادة فى هذا النوع من المطاعم أن يعطى
للانسان عند دخوله قائمة مطبوعة فيها الاثمان فقط ومتى طلب
صنفا أشر الخادم أمام الثمن المقرر له حتى اذا فرغ الآكل توجه
بهذه القائمة الى أمين الصندوق ونقده المطلوب ثم ردها عند
الخروج للعامل الذى أعطاها له عند الدخول

أما معارض الصناعة فلها فيما أرى غايتان أولاهما تنشيط

الصناع وحثهم على التفنن والاختراع وثانيهما تعريف الاهالى بما
ينجم عن ذلك من الفائدة والاقتصاد والحصول على أمور قد تطلبها
النفس من غير أن يقدر اللسان على التعبير عنها لعدم سابقة
العلم بها ولذلك أنشأت مدينة باريس كشكا على حافة نهر السين
يعرف باسمها وتأتى الجمعيات الحرفية والطوائف الصناعية لعرض
مصنوعاتها فيه والمباراة لحيازة شهادات الشرف ووسامات الافتخار
من أعضاء مجالس المحلفين الخبيرين المعينين لكل نوع — واتفق
انه فى أثناء وجودى بباريس كان الدور لمتعاطى صناعة لحم
الخنزير فتوجهت الى الكشك حبا للاستطلاع ورأيت فيه
الموسيقى العسكرية تصدح بألحانها المطربة وأعمال الصناع
معروضة على الانظار بتأنق وتجمل بحيث كانت تستوجب إعجاب
القوم وتستدعى شهيتهم فينظرون اليها نظرا متواليا ويبلعون
ريقهم ثم يقصدون الحانات فيتعاطون المشروبات فكأنهم
حينما أطربتهم نغمات الموسيقى تصوروا أنهم أكلوا من هذا
الصنف المستطاب لهم ورأوا من الواجب اتمام القصف بمعاقرة
بنت الكرم وسأتكلم فيما بعد على هذا المعرض بتفصيل يشفى
الغليل — ثم جاء الدور للطحانين فافتتح مؤتمرهم باحتفال عظيم
كان رئيسه وزير التجارة ومعه كثير من كبار الموظفين فى نظارته

ورئيس جمعية الطحانين بفرنسا - ثم معرض جمعية المشتغلين بتربية الازهار ثم معرض دولى للاطيار ثم غير ذلك من المعارض التى لايسعنى سردها الآن وكلها تتجدد فى كل عام مع زيادة فى التفنن والاغراب - وكل واحد من هذه المعارض يبتدئ باحتفالات باهرة وينتهى بولائم فاخرة

١٥

ضواحى باريس

لاتخلو عاصمة من ضواح يقصدها أهل الثروة وطالبو النزهة لترويح النفس من ضوضاء المدائن الكبيرة ولكنى لم أزر من ضواحى باريس سوى فنسن وفرساوى فأما مدينة فنسن (وسكانها ٢٢,٢٧٨) فما تستحق الذكر لولا الغابة الجميلة التى بها والقلعة المهمة المنيعة المعروفة باسمها وقد زرت هذه القلعة بتصريح خصوصى ورأيت غرف التعذيب وآلات العذاب والمكان الشاهق الذى هرب منه الدوك دوبوفور وقناة السين التى كانت ترمى بها جثة المعذب بعد أن يسقى كأس الحمام وغرفة سجن بها أحد القساوسة ٧ سنوات وأخرى اعتقل فيها أحد الكرادلة ٧ شهور ولكن ذلك كله أصبح أثرا بعد عين وصار كأداة ملغاة لاعمل لها حتى انهم سدوا فوهة البئر الموصل لقناة السين وقد

يبلغ غلظ الحائط فى أعالى هذه القلعة ثلاثة أمتار ورأيت خزائن السلاح ولكنها ليست شيأ مذكورا بجانب مارأيته فى برج لوندرة وحصن دوفر من أعمال انكلترة وأما الغابة ومنتزهاتها وبحيراتها وجزائرها وخلاويها فسأتكلم عليها فى الرحلة مع الالماع بشئ الى غابة بولونيا والبوت شومون وغير ذلك

أما قصر فرساى فقد كان مقر ملوك فرنسا وهو فى منتهى الجلالة والفخامة بحيث لايكاد يعادله شئ مما رأيته وقد حوى صور جميع ملوك فرنسا ومشاهيرها على الجدران والرخام والقماش وغير ذلك بغاية الابداع ونهاية الاتقان ومن أراد أن يقف على تاريخ فرنسا فى سويعات قليلة فما عليه الا أن ينظر الرسوم التى ازدانت بها غرفه فانه يرى فيها جميع وقائعها وأعمالها وكل مايتعلق بتواريخها ومما استوقف انظارى بنوع خصوصى صورة الشيخ السادات والسيد البكرى والشيخ الشرقاوى وغيرهم من أكابر مصر أيام دخلها بونابرت وقد رأيت أسرة ملوك فرنسا وأثاثاتهم وأمتعتهم الخاصة بشؤنهم الداخلية ورسوما تمثل الحروب الصليبية وحروب افريقية والقرم وايطاليا وغير ذلك مما لايدخل تحت حصر وأحفظ لنفسى حق الكلام عليه وعلى الروض الانق والفساقى البديعة وعربات

الملوك التى بقصر آخر بجواره يعرف (بالتريانون) وغير ذلك مما يضيق عنه نطاق هذه الاوراق

١٦

اهل باريس

أف لك يا باريس وألف أف فقد أعيانى فيك الوصف واضطرتنى كثرة ما فيك من المآثر والمفاخر وتعدد المشاهد والمعاهد للاطالة فى المقالة بما ربما يوجب الملالة والكلالة مع أنى لم أغترف للقارئ الاقطرة من بحرك ولم أروحه الانفحة من زهرك ولايزال مجال الكتابة واسعا أمامى فسيحا لجولان أقلامى ولكننى لاأرى مندوحة عن اقفاله الآن لافتتاحه بعد القفول الى الاوطان وأختم هذه الرسالة بذكر كلمات عن أهلك وأخلاقهم وحركتهم ونشاطهم وأفكارهم وآرائهم فقد آن لى أن أقدمهم الى بنى مصر بناء على ما حققته بالاختبار وعرفته بعد بعض المعاشرة حتى انى لاأرى وصفا يصدق عليهم أكثر مما قاله أحد ولاة قرطبة فى أيام الاسلام بعد أن تخلى عن ادارتها فانه وصف أهلها بالقيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بامورهم كالجمل ان خففت عنه الحمل صاح وان أثقلته به صاح فلا يدرى أين رضاه وفى ذلك دليل على ان أفراد الانسان مهما كانت بلادهم قاصية وعاداتهم

متباينة وطبائعهم متخالفة وأقاليمهم متنوعة ومعتقداتهم متباعدة فلا تزال فى أفكارهم وحدة تجمعهم وفى نفوسهم حاجات مشتركة بينهم :

وأهل باريس أكثر من رأيتهم من الامم نظرا فى الفرق الحاصل بين أفراد الهيئة الاجتماعية فانهم يرون الوضيعين كثيرين والرفيعين قليلين والواصلين الى ذروة النعيم عددهم أقل من القليل فيقولون لم هذا الاختلاف ونحن كلنا متساوون وأبناء نوع واحد تجمعنا راية الجمهورية وقد كتبت عليها هذه الكلمات (حرية — مساواة — إخاء) ولما انتشر التعليم فيما بينهم ونفذت أشعته بين لفيف المتناولين الحرف الدنيئة منهم تصور هؤلاء الافراد أنهم يعرفون أكثر مما يعلمون وصاروا لا يقيسون أنفسهم بمن هو أعلم منهم بل ينظرون الى من هم أحط فى الدرجة فداخلهم الاعجاب بنفوسهم حتى خيلت لهم الخيلاء أنهم أهل للكلام فى كل موضوع وأن لهم الحق فى الحل والعقد فى جميع المسائل على اختلاف طبقاتها وأخذوا يجاهرون باللوم والتأنيب ويقولون انهم لو كانت الامور بايديهم لكانت مساعيهم أحمد عاقبة وأعمالهم أتم فائدة ولذلك تشعبت أفكارهم وكثرت مقالاتهم فى حل المسئلة الاجتماعية وترتيب نظام الجمعية البشرية على أسلوب يقى بجمع

الحاجات فيقول فريق منهم (اننا لا نطلب شيأ ما من أحدها ولا حاجة لنا بكائن من كان فلماذا لايتركنا الغير نعيش متمتعين بالحرية راتعين في بحبوحة الاستقلال . أليس من المستغربات الزامنا بدفع الضرائب والغرامات من المال الذى جمعناه بكدنا وسعينا بحجة القيام بنفقات يسمونها عمومية وهى لاتهمنا ولاتعنينا . أليس أن مانكسبه بعرق جبيننا ملك حلال لنا فلماذا يضطرنا الغير لبذله في إغناء الغير) ويقوم فريق آخر يعضده ويقول (ليت شعرى هل كتب علينا التعب والنصب لاجل أن نحمل ثمرة اتعابنا الى مأمور التحصيل لاغناء المميزين وهم عدد قليل لعمرى انه لاحاجة لنا في أن يتحلى رئيس الشرطة وصاحب العسس باشرطة من النصب والذهب أوأن يكون لحضرة المدير عربات تجرها الجياد الصافنات) فيقوم فريق آخر ويقول (انى لا أكثر الندب على المال فانه لامراء أن رئيس الشرطة وصاحب العسس لايمكنهما ان يتفرغا للزراعة والصناعة بينماهما آخذان في تعقب اللصوص وقطع دابر قطاع الطريق ولذلك فانه ينبغى لنا ان نكسوهم ومن رأيي أن شرائط النصب والذهب ليست من الزيادات والنوافل لانها تحدث الهيبة ولاألوم المدير على اتخاذ الخيول فانه يجب عليه قطع المسافات الطويلة لتفقد

أحوال مذيريته ولكن الذى لايمكننى ان أتحمله وأرضى به هو أن القوم يفدون علينا فى كل عام وينتزعون منا زهرة الشبان ليدخلوهم فى سلك الاجناد والاعوان .... الله الله أليس من أشنع الامور وأبشع الاعمال سوق أولئك الشبان الى سوق المذبحة الذى يسمونه بالحرب فلماذا نحارب ولماذا نضارب أليس أن الاولى ان نلبث فى ديارنا بسلام وأمان منقطعين لحرث الارض وحمل المحصول الى السوق ومعاملة كافة الناس بالتى هى أحسن) فيقوم فريق آخر ويقول (نعمت هذه الافكار وياحبذا هذا الرأى لو كانت الناس كلهم عقلاء وقائمين برفع منار العدل فيما بينهم . قولوا الحق أفلو اعتدى جاركم على قيراط من أرضكم أماتقوم القيامة . لعمرى انكم تشرعون الاسنة وتشهرون السيف البتار وتفضى بكم الحال الى اهراق الدماء . ألا نعمت الحرفة حرفة الجندى يذود عن حياض وطنه ويحمى أهل بلده فان ذلك من أوجب الواجبات اذ من المنازعات مالا يجدى فيها المكالمة بل الملائكة ومنها مالاينجح فيها المدافع الا اذا صاح بافواه المدافع) ثم تتشعب أفكار كل فريق ويستحسن بعضهم مايقبحه الآخر ويأتى هذا ببعض التعديل وذاك بشئ من التبديل

ولهم مثل ذلك فيما يتعلق بالنواب عن البلاد فيقول بعضهم

(انى لا أرى الفائدة التى تعود علينا من اختيار رجل يذهب الى مجلس النواب لينوب عنا وليشتغل بمصالح البلاد وذلك لوجوه أولها أننا نجرى فى هذا الانتخاب كالعميان الذين لا يهتدون الى الطريق فان القوم يقولون لنا هذا الرجل يصلح وذلك الرجل لا يصلح ونحن نجهل حقيقة الاثنين فى أغلب الاحوال وكل منهما يشنف أسماعنا بما يخرجه من وطابه من مستعذب المقال ويعدنا بانه يوصلنا الى تمام السعادة ولكن أين منا الماهر الذى يقدر على تمييز البواطن من الظواهر وتعرف الخبيث من الطيب فانى اذا توجهت الى السوق أقدر على تمييز الحبوب الجيدة والاثمار الصالحة ولكننى أقول الحق انى فى اختيار النائب لا أعرف ماذا أنا صانع ولا أقدر أن أحكم عليه مثل حكمى على غيره من الاشياء التى لى بها تمام الخبرة فان حضرة شيخ البلد «أمين المدينة» يوزع علينا قوائم الانتخاب ويقول لنا ان فلانا هو الحائز لكافة الاوصاف اللازمة و ينبغى انتخابه فمن رأيى ان ينفرد أمناء المدن بعملية الانتخاب لأن رأيهم هو الغالب وحينئذ يتم هذا الامر فى وقت قصير وفى اختصار الزمن فائدة عظيمة) فيقول فريق آخر (متى عجز الانسان لاى سبب من الاسباب عن مباشرة شؤنه بنفسه فالواجب عليه أن ينيط واحدا غيره يختاره لها فاذا لم يكن

عنده من المعلومات مايكفى لهذا الانتخاب يجب عليه الاسترشاد برأى حكيم ناصح يثق بقوله و يعوّل على رأيه وحينئذ يكون له يد فى ادارة أحوال بلاده ويداخله السرور بأن له كلمة معدودة وصوتا معتبرا) فيقول فريق آخر (كل ذلك حسن ولكنى أرى أن أمور البلاد وادارة شؤنها تصلح كثيرا اذا كانت فى يد رجل واحد يحكمها بحسب ماأوتى من الحكمة فانه متى كان الحاكم واحدا كانت مصلحته الشخصية أكبر قاض عليه فى ادارة الامة على أكمل منوال حتى يتقرب منها ويتحبب اليها ومن المقرر الذى لايختلف فيه اثنان غرق السفينة التى فيها ريسان وقد رأيت فى بعض الايام عربة يجرها ستة من الافراس ارتبكت فى طريق كثر وحله ووعثه فتقدم لانقاذها كثير من الناس فكان بعضهم يدفع العربة ذات اليمين وآخر ذات اليسار وبعضهم يشدها من الخلف بينما نفر يجرونها من الامام ويجىء جماعة فيفوقون السياط على الخيول وهى لاتزداد الاحرنا وتعاصيا وفى أثناء ذلك تزداد العربة غوصا فى الوحل وارتطاما ولما رأى سائق العربة هذه الحالة أبعد جميع هؤلاء الناصحين الغيرناصحين ورصف خيوله بجانب بعضها ثم استوى على كرسيه وهمهم على الخيل من غير أن يرفع عليها سوطه فعرفت صوته وجمعت قواها ثم نهضت بحملها الثقيل نهضة

واحـدة استخلصت العربة من الاوحال وسارت تركض بها فى أحسن حال فهكذا تكون ادارة الاعمال) فيقوم فريق آخر ويقول (انما أفلح سائق العربة لمهارته وحسن ادارته ومعرفتـه بمهنته ولان خيوله كانت قادرة على جرجاها والا فـلو كان فوق طاقتها لما قدرت أن تقوم به أبدا ولكن الرجل لو كان غير كفء لوظيفته لاشك انه كان يعتبر نفسه سعيدا من وجود ناصحين له صادقين فى خدمته يعاونونه على الخروج من مثل هذه الورطة بسلام بل ربما كان يشكر العناية الصمدانية اذا كانت تقيض له فى مثل هذه الحال رجلا أقدر منه على قيادة العربة وخيولها حتى يلقى اليه بالزمام ويتعلم منـه كيف تكون الادارة فى المسالك الحرجـة والمواقف الوعرة ولو كانت خيـله لاقبَل لها بجر العربة فهـل كان يرفض نصيحة العقلاء الذين يشيرون عليه بتخفيف الحمل أو تمهيد الطريق امام العجلات وازالة مايعترضها من الاحجار والموانع الاخرى فلذلك لا ينبغى الاستخفاف بالمشورة فان من انفرد برأيه زل ومن استغنى بعقله ضل وما خاب من استخار ولا ندم من استشار)

هـذا مثال من ألف مثال مما رأيتـه من حركة الافكار ولاأود الاطالة بشرح أفكار القوم فى المسئلة الاجتماعية وهياجهم الى درجة لا يتصورها العقل وسأشرح ذلك فى الرحلة بالتفصيل وأطلع قومى على غرائب هؤلاء الاقوام والله المستعان

الرسالة السادسة عشرة

وهي الاخيرة من الرسائل المؤتمرية

وداع باريز

وذكر الاندلس والبرتقال

بوجه الاجمال

من غرناطة في يوم الاثنين المبارك ٥ رجب الفرد سنة ١٣١٠

٢٣ ينايرسنة ٩٣

وداع باريز — قضت نواميس الكون الانساني ونظامات الوجود العمراني بان دوام الحال من المحال وانه لابد من الفراق مهما طال التلاق وان لكل اجتماع انقطاعا ولكل اتصال انفصالا تلك سنة الله في خلقه جيلا فجيلا ولن تجد لسنة الله تبديلا

أطلت المقام في باريز الى مابعد الميقات الذي كنت ضربته لمبارحتها بايام كثيرة فانني كنت كلما عزمت على السفر رأيت وجوب التأجيل لمناظرة بعض الآثار أو لشهود أنواع من الاحتفال أو غير ذلك مما يستوقف الراحل ويستغرق الاوقات ويحبس السائر عن عدوه ويخرس الطائر المفصح بشدوه فكم فيها من مسارح

تنضج بها الجوانح ومحاسن يشغل بها عن وكره السانح ومطارح تطرح ذكر الوطن من ذاكرة السائح حتى اعترانى الكلال والملال من كثرة مارأيت وما سمعت وصرت أترقب الفرص لتيسر الخروج من هذه الدار كما دخلتها بسلام فيسر الله الاسباب وفتح الابواب فودعتها فى منتصف ليلة ١٩ الى ٢٠ نوفبر سنة ٩٢ ورحلت عن هذه الارجاء المتألقة والروح بها وعين فيها متعلقة ثم سار القطار ينهب الارض نهبا ويقطع الفيافى فدفدا فدفدا ومر على كثير من مدائن فرنسا العامرة مثل تور (Tours) وهى مشهورة باعتدال اللسان الفرنسوى وصفاء اللغة حتى ان أكثر الطالبين لابدلهم من الاقامة فيها شهورا طويلة لترسخ فيهم ملكته التى لاتشوبها أدنى شائبة ومثل انجوليم (Angoulême) المذكورة فى كتب العرب باسم انقلزم ومثل بوردو (Bordeaux) المشهورة بخمورها شهرة تغنى عن وصفها وقد سماها العرب بحسب التسمية اللاتينية برديل وبردال (وبالذال المعجمة فى كلتا اللفظتين)

وكان بودى أن أقف بكل من هذه المدائن الثلاث بضعة أيام ولكن وقتى لم يكن يسمح لى بانالة نفسى هذه الامانى ولم أصل الى تخوم اسبانيا (١) الابعد أن أمضيت فى القطار مدة أربع

(١) وقد ورد اسمها فى كتب العرب اشبانيا وفى كتاب مختصر الدول لابى الفرج إسفانيا

وعشرين ساعة لم تكتحل فيها عيني باثمد الكرى حتى أجهدني السير وأضناني السرى ولكنني تجددت في القوى حينما شممت عبير الاندلس واستنشقت نفحاته وتمتعت بالنظر الى صافي سمائه وقد ترصعت بالدراري كما هو الشأن في بلادي وأرض مهادي بخلاف ما كنت قد اعتدت عليه في انكلترا وباريز من كدورة الجو وقتمة السماء وتوالي الغيوم وتعاقب الامطار فصرت اسامر بدر الظلام واطارح الكواكب الحديث واشكو اليها مالاقيته في غربتي واطيل النظر اليها حتى لقد كان

يخيل لي ان سمر الشهب في الدجى * وشدت باهدابي اليهن اجفاني

التحسر على الاندلس

وحينئذ شطحت مع تيار الافكار ولكنني مالبثت ان انقبض صدري وعلتني الكآبة وتولاني الانزعاج اذ أحاطت بي جيوش من اللوعة والاسف والحسرة واللهف لانني تفكرت مانا له الاسلام من العز والاقتدار في هاتيك الديار أيام كانت تخفق فوق الاندلس اعلامه وتجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة رافعة رايات المجد والكرامة أيام كانت المآذن قائمة على أعاليه وروابيه تشق أكباد السحاب ويرتفع منها صوت المؤذن الى عنان السماء فتخشع القلوب وتعنو الوجوه لذكر الحي القيوم أيام كانت المساجد عامرة بجماعات الموحدين القانتين وربوع

العلم زاهرة زاهية بالدارسين والمدرسين أيام كان التمدن العربى باسطا بساطه من اطرافه الى اطرافه والمروءة والشهامة ساريتين فى جسمانه أيام كانت خلافة المغرب تفوق مناظرتها فى المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والعظمة والعرفان حتى كانت ملوك أوربا تتزلف الى الخلفاء وتلتمس رعايتهم وحمايتهم أيام نبغ العلماء والمخترعون والمكتشفون الذين أفادوا العالم بأجمعه ورفعوا كلمة الاسلام وجاؤا باقوم برهان على ان الدين الحنيف يساعد بكلياته وجزئياته على البحث فى اسرار الطبيعة وانه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها (١)

وقد اشتد بى الوجد والوله حتى عدمت التعبير وغاب عقلى وما أبصرت نفسى الاولسانى يندفع بترديد بعض أبيات من القصيدة المشهورة التى نظمها أبو البقاء الرُّندى فى رثاء الاندلس وترجمت نثرا ونظما الى اللغة الالمانية والفرنساوية والاسبانية وغيرها وكنت أكثر من ذكرى هذه الابيات بحسب ورودها على لسانى وانى أوردها الآن بنصها (٢)

---

(١) ومازلنا الى الآن نقتبس أنوار الهدى من مؤلفاتهم القليلة التى استبقتها يد الصدفة فنجت من التبديد والتمزيق وسأشير الى بعضها فى الرحلة

(٢) ان العلامة الفرنساوى جرنجرد ديلاجرنج (Grangeret de la Grange) طبع فى باريس سنة ١٨٢٣ كتابا سماه «نخب الازهار فى منتخب

لكل شيء اذا ماتم نقصـــان * فلا يغتر بطيب العيش انسان
هي الامور كما شاهـــدتها دول * من سره زمـــن ساءته أزمان
وهـذه الدار لاتبقي على أحـــد * ولايدوم عـــلى حال لهاشان
يمزق الدهر حتما كل سابغـــة * اذا نبت مشرفيات وخرصان
وينتضي كل سـيف للفناء ولو * كان ابن ذي يزن والغمد غمـدان
أين الملوك ذو والتيجان من يمن * وأين منهـم أكاليـــل وتيجان
وأين ماشاده (١) شداد في إرم * وأين ماساسه في الفرس ساسان
وأين ماحازه قارون مـن ذهب * وأين عاد وشـــداد وقحطان
أتى عـلى الكل أمر لامرد له * حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

الاشعار وأذكى الرياحين من أسنى الدواوين» جمع فيه كثيرا من مستجاد شعر المتنبي بشرح الواحدي له وشعر ابن الفارض وشرحه والصفدي ومن فتوح الشام للواقدي وجملة شعراء متعددين ثم ترجم ذلك كله الى الفرنساوية وعلق عليه كثيرا من الحواشي الادبية والانتقادية واورد في جملتها قصيدة أبي البقاء هذه نقلا عن نسخة من نفح الطيب في مكتبة باريس وهي مترجمة بغاية الدقة والضبط ولما كان الناقل أخطأ في نقل بعض الكلمات فترتب على ذلك ان ترجمة بعض الابيات جاءت مختلة فأحببت التنبيه على هذه الابيات هنا لاكمال الفائدة

(١) نقلها العلامة لاجرانج المذكور هكذا (ساده شداد) بالسين المهملة وترجم عنها بمعناه السيادة ولا معنى لذلك اذ المقصود المباني والآثار التي أقامها شداد في إرم المشهورة بمبانيها الفاخرة

وصار ما كان من ملك ومن ملك * كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله * وأم كسرى فما آواه ايوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب * يوما ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعة * وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها * وما لما حل بالاسلام سلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاء له * هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت (١) * حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية * وأين شاطبة أم أين جيان
وأين قرطبة دار العلوم فكم * من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه * ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما * عسى البقاء اذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف * كما بكى لفراق الالف هيمان
على ديار من الاسلام خالية * قد أقفرت ولها (٢) بالكفر عمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما * فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة * حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلا وله في الدهر موعظة * ان كنت في سنة فالدهر يقظان

(١) أوردها العلامة المذكور (فامتحنت) وهي بالبناء المجهول والمعنى واحد
(٢) . . . . (وبها بالكفر الخ) وهي غلط في الطبع

وماشيا مرحا يلهيه موطنه * أبعد حمص لعز(١) المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها * ومالها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة * كأنها في مجال السبق(٢) عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة * كأنها فى ظلام(٣) النقع نيران
وراتعين وراء البحر فى دعة * لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس * فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنو المستضعفين وهم * اسرى وقتلى فما يهتز انسان
ماذا التقاطع فى الاسلام بينكم * وأنتم يا عباد الله اخوان
ألا نفوس أبيات لها همم * أما على الخير انصار واعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم * أحال حالهم جور وطغيان
بالامس كانوا ملوكا فى منازلهم * واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم * عليهم من ثياب الذل ألوان

---

(١) وفى رواية أخرى (تغرا المرء اوطان) وانى استحسن قوله (لعز المرء) اى الاندلسى لانه صار لا وطن له

(٢) استبدل العلامة ديلا جرانج لفظة (السبق) بقوله (السيف) وترجم بهذا المعنى وهو غلط واضح

(٣) وفى رواية اخرى (فى مثار النقع) والمعنى صحيح لكن الظلام انسب لظهور النيران فيه بوضوح اكثر

ولو رأيت بكاهم حين (١) يبعهم * اهالك الامر واستهوتك أحزان
يارب أم وطفل حيل (٢) بينهما * كما تفــــرق أرواح وأبدان
. . . . * . . . .
. . . . * . . . .
لمثل هذا يذوب القلب من كمد * ان كان فى القلب اسلام وايمان

استمرار الحسرة

وصرت أردد هذه الابيات وغيرها حتى وصلت مدينة ايرون Irun أوّل تخوم اسبانيا من الشمال فنزلت بها وقد انتصف الليل وما صدقت الوصول الى الفندق حتى اضطجعت على الفراش طلبا للراحة الضرورية ولبثت به على خلاف عادتى الى أن قرب الظهر

---

(١) اورد العلامة ديلاجرانج (عند بيعهم) وهو واحد غيرانه قدم هذا البيت على الذى قبله وهو غلط يدل عليه سياق الكلام وانسجام المعانى

(٢) اورد العلامة ديلاجرانج الشطر الاول من هذا البيت هكذا (يارب ام وطفل جبل بينهما) وترجم بما معناه (يا الله هل يلزم ان جبلا يوضع بين الام واولادها وان الارواح تفصل عن الاجساد) وهو غلط مبين لانه تصور ان رب بضم الراء هى رب بفتحها والقطعة الثانية من أسمائه تعالى وأما الاولى بمعنى ربة ورب تماور عامن حروف الجر للتقليل فى المشهور وللتكثير وقيل بل انهما يستفادان من سياق الكلام ثم انه أخطأ فى قراءة (حيل) فوزع النقطتين على الحرفين فرأى (جبل) وهى قراءة يترتب عليها هدبيت الشعر وكان الرجل عارفا ببحوره وأوزانه كما يستدل عليه من شرحه للقصائد التى فى كتابه

ولم أستيقظ الاعلى جلبـة الاطفال وصـياحهم فى لعبهم ولهوهم بترنيمات تكاد تنطبق على وزان هذين البيتين

شرد النوم عن جفونك وانظر * حكمة توقظ النفوس النياما
فحرام على امرئ لم يشاهد * حكمة الله ان يذوق المناما

فقمت فزعا مرعوبا وأنا أقول «أين هذه الحكمة ولماذا ورد هذا البيت على خاطرى مع ان القصائد التى من بحره كثيرة» ثم تذكرت ان السبب فى ذلك ما كنت فيه بالامس فهرعت الى الخروج لانظر البلد وما فيه وما حواليه فرأيت المبانى والنوافذ والاسطحة تشبه ما عهدته طول عمرى فى مصر وكذلك الحارات والزقائق وغيرها

معرفة النحو لا تغنى

وقد كنت وأنا فى باريز درست نحو اللغة الاسبانية للاستعانة على مخاطبة القوم ومبادلة أفكارى معهم مباشرة ولكننى لما حضرت ايرون وتكلمت مع أصحاب الفندق وخصوصا مع الدليل تحقق لى ان درس النحو شئ ومعرفة اللسان شئ آخر وحينئذ زال ما كنت أجده من الغرابة من كون بعض الناس يقضون سنين طويلة مديدة فى درس النحو بجميع فروعه ثم هم لا يعرفون من العربية سوى هذه الآلة

اشتباك الحيرة والهوس بالوطن

وأقول الحق انى لما رأيت اضطرارى لمخاطبة القوم ساعة بالايطالية وتارة بالفرنساوية وغالبا باللغة الاشارية التى يفهمها

جميع أصناف بنى آدم تراخت عزيمتى وثبطت همتى وهممت
بالرجوع من حيث أتيت وخصوصا لما كان يقوم بفكرى
من ان أهل الاندلس الآن أشد أهل الارض تعصبا على المسلمين
وكراهة للعرب وجفوة للغريب مع ماهم فيه من الهرج الدائم
على حكومتهم مما كنت قرأته حديثا فى التلغرافات وانا فى باريز
فضلا عما رأيته فى كتب السياحات من التشنيع عليهم وتخويف
الغريب من الدخول الى ديارهم ولما كان حب البقاء طبيعة فى
الانسان وكانت الحياة غالية خصوصا عند وشك الوقوع فى الخطر مع
اشتداد الحنين بل الوله بالرجوع الى الوطن بعد طول الغيبة
كادت هذه الافكار واضرابها تفوز على ماعندى من الشوق
لرؤية هذه البلاد الجميلة وتعهد بقايا العرب فيها فتذكرت حينئذ
المثل السائر (من لم يركب الاهوال لم ينل الرغائب) وانشدت
على نفسى لاحياء مائت قوتى قول الشاعر

التغلب على الصعوبة

ان كنت تطلب عزا فادرع تعبا * أوفارض بالذل واختر راحة البدن

فتجددت فى عوامل القوى وانبعثت فى جسمانى روح النشاط
وتذكرت انى أكون أول من زار جميع الاندلس من المسلمين
والمصريين خصوصا من ابناء هذا الجيل وكتب مارآه فيها وقارن
بين حالتيها وفى ذلك فخر عظيم

ومن يجد الطريق الى المعالى * فلا يذر المطى بلا سنام

ولذلك توكلت على الله وقمت من ايرون الى فنترابيا (Fontarabia) الى سان سيبستيان (SanSebastian) الى بنبلونة (Pamplona) وتسمى فى قليل من كتابات العرب بمفلونة وقد حكمها المسلمون اثنتى عشرة سنة فقط وهى أنظف مدينة رأيتها وجميع شوارعها وحاراتها وأزقتها تضاء بالنور الكهربائى

زيارة بعض المدن

ثم قمت الى سرقسطة Zoragoza (Saragosse) وقد

نزلنا بها نبغى المقام ثلاثة * فطابت لنا حتى أقمنا بها عشرا

(مدينة سرقسطة) (والجمعية العلمية)

فانى الفيت بها من كرم أهلها وحسن مجاملتهم وكريم توددهم ما كاد ينسينى الاخوان واطلعت فيها على كتب عربية نادرة جدًا وتعلمت فيها الكلام الاسبانى

ثم ان جمعية العلوم الشرعية والادبية Academia Juridico-literaria عينتنى عضوا افتخاريا بها واحتفلت بى احتفالا فائقا وعقدت جلسة مخصوصة لاستقبالى بغاية التكريم والترحيب فخجلت ان أدخل بينهم خالى اليدين لا أقدم لهم موضوعا فى هذا الحفلة المهمة وألهمنى الله ان أكتب لهم خطبة باللغة الفرنساوية على مدينتهم فى أيام العرب فاستعنت ببعض الكتب القليلة التى وجدتها عند المشتغلين بالعربية من اساتذتها و ببعض ما عنّ بالخاطر وقدمت لهم

خطبة فى ١٥ صحيفة من الورق الكبير المعروف بالفولسكاب المستعمل فى الدواوين وقد راقت لديهم حتى طنطنت الجرائد بها وذكرت هذا الاحتفال بالفاظ التبجيل والاجلال (١) وترجم كثير منها خطبتى الى اللغة الاسبانية على ماعلمته بعد قيامى من سرقسطة وان الجمعية شرعت فى طبعها فى مجموعتها وقد أتحفنى أكثر المؤلفين والعلماء بكتب كثيرة من تأليفهم وخلاصة القول ان هذا اليوم كان من أسعد أوقاتى وانى أحمد الله على هذا التوفيق الذى مكننى من تشريف اسم بلادى وقد أجابوا على خطبتى بالاسبانية والفرنساوية والعربية والطليانية

والسبب فى ذلك انه اتفق فى بعض الأيام انعقاد جلسة الجمعية الشهرية فدعانى حضرة رئيسها الافتخارى وهو العلامة بابلو خيل D. Pablo Gil مقدم الاساتذة فى المدرسة العالية للفلسفة والآداب لان أزورها فتوجهت بصحبته وأجلسنى عن يمينه وبعد ان تمت أعمال الجمعية قدمنى اليها ثم دعانى لان أخطب عليهم بشئ مما يفتح الله به علىّ واذ لم يكن لى سابقة علم بهذا الامر وقفت فيهم وحييتهم بالعربية ليهدأ روعى وأستجمع أفكارى ثم خاطبتهم بالفرنساوية بكلام طويل ولما جلست طلبوا منى أن

(١) أرسلت فى ذلك الوقت نسخا من هذه الجرائد الى العاصمة لبعض اصدقائى

أتكلم بالطليانية ففعلت وحينئذ قام الرئيس الاصيل وطلب من الجمعية تعيينى عضوا افتخاريا بها فاجابت بالاجماع ثم عينوا جلسة غير اعتيادية لاستقبالى وحينئذ أشار علىّ الرئيس الافتخارى بان أشكر الجمعية باللغة الاسبانية فامتثلت مع قلة البضاعة وكنت حينما لا أجد اللفظ المطلوب أضع مكانه كلمة طليانية أوفرنسوية ولوشئت ترجمة ماذكرته الجرائد عن هذا الاحتفال لاستغرق رسالة أكبر من هذه الرسالة

فأما الخطبة التى أجاب بها بالاسبانية الاستاذ المتضلع العلامة خوليان ريبيرا D. Julian Ribera فكانت كلها دررا وغررا تشهد بمزيد اطلاعه على العلاقات العلمية الادبية التى كانت بين المشارقة وخصوصا المصريين وبين أهل الاندلس وسأورد ترجمتها فى فرصة أخرى ويحق لى أن أورد هنا الخطبة العربية التى ألقاها أثناء الاحتفال أحد أعضاء الجمعية وهو الدون سان پيو D. San Pio الذى تلقيت عليه اللغة الاسبانية وها هى بنصها الفائق

« بالنيابة عن جميع اخوانى سلام عليك يا أيها العلامة المصرى »
« أحمد زكى أفندى يودى أن ألقى الآن خطبة ولكنى مثل »
« أيوب قد ازدحمت علىّ الافكار وقد دعانى اخوانى أن أقول شيأ »

« بلغتك الفصحى فأقتصر على ايراد بعض جمل من الكتاب المقدس »
« تخرجك الرب الى مصر فى سفن واذ كر مالاقيته فى هذه »
« المدينة والقادر الكافى يبارك لك فى السفر والأقامة والسلام »

اللغة الاعجمية الاندلسية

وقد اطلعت فى مكتبة الدون بابلو خيل المذكور على كتب عربية كثيرة وأغلبها باللغة التى يسمونها الجميادو (Aljamiado) وذلك لان العرب لما انقرضت دولتهم بالاندلس وبقى بعضهم فيها حافظوا على دينهم مع شدة الاضطهاد ولكنهم نسوا أو ألزموا باهمال اللغة العربية وصارت اللغة القشتالية أى الاسبانية ملكة متوارثة فيهم فكتبوا علومهم بها لكن بحروف عربية وقد رأيت فى سرقسطة ومدريد عددا عظيما من هذه الكتب فى أنواع العلوم النقلية والعقلية ورأيت كثيرا من المصاحف الشريفة مكتوبة بهذه اللغة ترجمها الى الاسبانية بقايا الاعراب المسلمين وهذه اللغة تعرف بـ(الأجميادو) ووجه هذه التسمية ان العرب يسمون كل ماليس بعربى أعجميا وجرى على منوالهم الاندلسيون فكانوا يسمون اللغة القشتالية أى الاسبانية باسم (الاعجمية) ثم انتقلت هذه اللفظة الى اللغة الاسبانية بغير حرف العين لعدم وجود مايقابله فى اللغات الافرنكية فصارت الكلمة مقابل هذا الصوت (ألاجاميا) ولما كان أهل اسبانيا يقلبون أغلب الجيمات خاآت كاسنبينه قالوا (ألاخاميا) أو (ألخميا) ورسموها بحروفهم هكذا بعد ان

بسكنوا حركة اللام (Aljamia) وعلامة النسبة عندهم do توضع فى آخر الكلمة فلذلك قالوا (Aljamiado) اى «الاعجمى»

تحريف الكلمات العربية

واليك الشواهد على قلبهم الجيم خاء فانهم يقولون فى الجام «الفاخى» وفى علم الجبر «الخبرا» وفى الجص «الخيذ» وفى الجب بمعنى الصهريج والجابية « الخبى » وفى الحاجة بمعنى أمتعة البيت «الهاخا» وفى الجعبة «الخابا» وفى الجفنة « الخفنا » وفى الجرس «الخرذ » وفى البرتقال «نارنخا » من قول العرب نارنج وفى محل سجن النصارى عند عرب الاندلس « ساخينا» من قول العرب سجن وفى الترنجة « ترنخا» وفى الجوهر « الخوفر » وفى الجبة « الخوبا » وفى المنجنيق « المنخنيكى » وللجيفة « خيفا » وتاريخ الهجرة « هخيرا » وللخنزير الجبلى أو الحلوف «خبلى» من قول العرب جبلى * هذه بعض ألفاظ علقتها أثناء تلقى اللغة حتى اننى لاحظت دوران هذا الحرف فى غالب كلماتهم الافرنجية التى يكون فيها شين أو جيم أو سين بحيث لو سمعهم رجل من أهل المزاح لاستمنح من القارئ السماح وقال ان لغة القوم تدور على حرف الخاء

ولقد سمعتهم فى بعض الاحيان يقولون الخثيرا (Aljecira) فسألت عن ذلك فاعلمونى بانها الجزيرة الخضراء وحينئذ تشوفت لان أعرف

كيف يسمون بلاد الجزائر فان الفرنسوية يقولون الجيرى (Algérie) والطليانية الجريا (Algeria) ولكننى حمدت الله حينما رأيتهم قد قلبوا فيها وضع الحروف فجعلوا الراء مكان اللام وقالوا أرخليا (Argelia) ولم يقولوا غير ذلك . . .

وقد لاحظت بعض ألفاظ تنافى هذه القاعدة فيقولون فى الخزانة « الاثينا » بمعنى الخزانة المنقورة فى حائط البيت وفى الخروع « تشرفا » وفى طير الخطاف « فاتكسا » وفى المسجد « مسكيتا » ومنها قول الفرنساوية موسكى (Mosquée) وفى الخراز « المفريز » بياء ممالة وفى المخدة « الموهادا » وفى تصغيرها « الموهاديدا » وفى النخاع « الموكاتى » من قول العرب المخ وفى الخبازى « الهبازى » وفى البطيخة « البوديجا والبوديكا وباديها وباديا » وفى الخرشوف « الكتشوفا والكرتشوفا » وفى البخور « البافور » وفى الخروب « الجروبا » وفى الخزامى « الهوثما » وفى المخزن « الماثن » وهو اللفظ الشائع ويقولون فيه أيضا « انجائن والمارثن ومجاثن » (ومنها انتقلت الى كافة اللغات الافرنكية بهذه الصورة ثم ان أهل مصر نقلوها عنهم وتناسوا أصلها فقالوا « مغازة » للمخزن الكبير) والسخرة بمعنى العونة « اذوفرا » والزرنيخ « اذرنيقى » بياءين ممالتين والرخ فى لعب الشطرنج « روكى » وفى الشيخ « كسيكى » بياءين ممالتين وفى الخزأى الحرير « التشنز » وفى الخياط « الفيات » هذا بعض ما لاحظته وسألم فى الرحلة بشئ كثير من قواعد التحريف عندهم فهلا من المستغرب بعد ذلك انهم يقولون ان كلام العرب كله يشبه هذه الاصوات « خبط خبط خبط »

وقد زرت جميع آثار سرقسطة العربية وغير العربية وصعدت الى قمة البرج المائل الذى يشبه برج كنيسة بيشة وهو من صنع الاعراب المرتدين وقد شرع القوم فى تقويض دعائمه خوفا من سقوطه. ثم خرجت منها شاكرا أفضال أهلها مرددا ثنائى عليهم وعلى أخلاقهم الزكية

تجول فى بعض المدن

وزرت قسطجون (Castejon) وميرندة (Miranda) ثم برغش (Burgos) وكنائسها المشهورة وقد رأيت فى احداها لواء فى غاية الابداع والجمال أخذه الاسبانيون من العرب فى واقعة العقاب التى سأذكر عنها شيأ يسيرا فى هذه الرحلة ثم زرت آبلة Avila ثم مدريد Madrid (وتسمى فى كتب العرب القديمة مجريط) (١) وقد رأيت جميع ما فيها من المتاحف والمعارض

(مدريد ومقابلة سفير الدولة العلية)

(١) مجريط بفتح الميم كما ضبطه ياقوت فى معجم البلدان وقد عقد العلامة أحمد فارس المشهور فصلا فى كتاب «الجاسوس على القاموس» أشار فيه الى بعض انتقادات جغرافية على الفيروزابادى بمناسبة ذكره لبعض بلدان الاندلس فى قاموسه ولكن وقع صاحب الجاسوس نفسه فى وهم ارى من الواجب اصلاحه فى هذا المقام وبيان ذلك ان المجد ذكر بلدا اسمه البرة وقال انه من عمل ماردة فجاء صاحب الجاسوس (صحيفة ٣٠) معقبا لهذه العبارة بالتفسير قائلا (أى مدريد) وأقول ان ماردة *Merida* بلد ومدريد بلد آخر وماردة فى الجنوب الغربى بقرب بطليوس *Badajos* على تخوم البرتقال ومدريد فى الوسط وماردة كانت بلدا مشهورا جدا فى أيام العرب ولا يزال فيه الى الآن آثار جليلة تشهد بفخامته بخلاف مدريد فانها عند العرب مجريط وكانت فى أيامهم عبارة عن حصن ليس الا

ولاقيت علماءها وكبراءها ووزراءها واجتمعت بصاحب العطوفة
طرخان بك سفير الدولة العلية الذى كان واليا على جملة ولايات
مهمة من قبل مولانا الخليفة الاعظم أدام الله نصره ورفع كلمته
وقد رأيت منه رجلا عالما بالسياسة والقوانين والنظامات وفيه
من الوطنية وحب الاسلام مالم أجده فى غيره الى الآن ويسرنى
أن أقول انه له مقاما كبيرا فى نفوس كبراء اسبانيا والاسرة المالكة
باسرها وله تمام الاطلاع على اللغة التركية والفارسية واليونانية
والفرنساوية والاسبانية وله المام عظيم بالالمانية والارمنية وبعض
العربية وانى أتمنى من صميم فؤادى ان يكون جميع نواب الدولة
العلية أيدها الله فى جميع الممالك الاوروبية على شاكلته فانما
تعلو الدول بنوابها وتعرف قيمتها بمندوبيها وقد أكثرت فى مدريد
من زيارة المعرض الاوربى الاسبانى الذى أقيم احتفالا بمهرجان
كرستوف كولمب وذلك لانى رأيت فيه كثيرا من الآثار العربية
الاندلسية التى تبعث فى النفس فخارا وفى القلب أحزانا ورأيت لواء
عربيا يشبه لواء برغش تمام المشابهة وبجانبه لواء آخر مما أخذه
الاسبانيون من العرب وقد رأيت فى القسم المخصص للطوبجية
المدافع التى سبق الى اختراعها أهل غرناطة لصد عدوهم عنهم
ورأيت غير ذلك مما لا تمكن الاحاطة به الآن وكنت أكثر من

آثار المعرض

زيارة التياترات فى كل ليلة لاتقان اللغة ولانها فى مدريد مدرسة حقيقية لاخلاق القوم وعاداتهم حتى انى أثناء التشخيص كنت أتصور نفسى فى بعض الشوارع أوفى احدى القرى ثم زرت طليطلة Tolède (١) فاذاهى مدينة عربية محضة لم يعتورها الى الآن أدنى تغيير ولاأتذكر أن مدينة فى مصر حفظت هذا الشكل العربى المعهود كما بقى فيها الى الآن مع توالى الازمان وتبدل الاحوال فلا تزال شوارعها وأزقتها عوج أى متعرجة ملتوية ملتفة صاعدة نازلة حتى يخالها الانسان أشبه شئ بتلك الحشرة المعروفة بام أربعة وأربعين وقدرأيت فيها من آثار العرب ماينطق بفضلهم ويخرس كل متعصب عليهم

طليطلة

ثم رجعت الى مدريد وتفرجت فيها ثلاث مرات على مقاتلة الاثوار المعروفة عند الفرنساوية باسم Course des Taureaux و Combat des Taureaux وعندالاسبانية باسم Corrida de los Toros وقد عرفت جميع تفاصيلها

(١) تسمى عندالعرب مدينة الاملاك أى الملوك لكون اللاتينيين كانوا يسمونها بذلك أيضا (Urbs Regia) وكانت تسمى عند الرومانيين كذلك (Toletum) وبالتصغير (Toletula) ومنه الاسم العربى طليطلة وقد ورد اسمها فى قليل من كتابات العرب توليطُه مثل التسمية الاسبانية ويقول مؤرخو العرب ان معنى توليطُه بلسان قيصر «انت فارح»

وقوانينها وشهدت غرام الاسبانيين رجالا ونساءها الى الدرجة التى لايكاد يتصورها العقل بحيث ان المقاتلين يعتبرون من أهم رجالهم ومن أحب الناس الى الامة التى تجل ذكرهم الى حد يحسدهم عليه سراوات القوم وأماثل الاماجد وانى أؤخر شرح ذلك الى فرصة أخرى لما يستوجبه من زيادة البيان مع مافيه من الطلاوة والمباحث الرائقة وانما أقول الآن ان عرب الاندلس كانوا مولعين بهذا القتال أيضا وكانوا يضارعون الاسبانيين وربما كانوا يفوقونهم

دخول مملكة البرتقال وذكر لشبونة وشنترة

وبعد أن أطلت الاقامة فى مدريد ركبت قطار الاكسبريس الدولى متوجها الى بلاد البرتقال (Portugal) (١) وزرت عاصمتها المعروفة بلسبون (Lisboa) Lisbonne (٢) وقد بدأت بزيارة حضرة قنصل جنرال الدولة العلية وويس قنصلها ورأيت آثارها العربية وغير العربية وفى ثانى يوم من وصولى وردت لى تذاكر من الجمعية الجغرافية الملوكية بالتحية والسلام وبوضع مكتبتها ومتاحفها ومعروضاتها وغرفة السلاح والنشان والبلياردو وغير ذلك تحت تصرفى فزرتهم وشكرتهم واستفدت

---

(١) هذا هو اسمها فى كتب العرب لابورتغال أو بورتكال أو بغير واو فيهما

(٢) يذكرها العرب باسم لشبونة واشبونة والاشبونة

كثيرا من لقائهم وقد زرت المكتبة الاهلية ومدرسة المهندسخانة ومعرض التاريخ الطبيعي وكل ماقدرت عليه ورأيت من أهلها حفاوة تخلد لهم الثناء على صفحات الفؤاد ثم زرت مدينة شنتره Cintra ورأيت حصون العرب على قمم الجبال وبجانب بعضها مسجد باقية آثاره للآن وعلى مقربة منه قبر دفن فيه القوم عظاما وجدوها ولم يعلموا انها للمسلمين أو للنصارى فوضعوا على رجام القبر صورة الصليب وصورة الهلال ثم رجعت الى لشبونة وزرت فيها القسم الذى كانت تسكنه العرب وكان يعرف عندهم باسم الحمة « بتشديد الميم » ويسميه البرتقاليون الآن من باب التحريف « الفاما »

التشرف بمقابلة جلالة الملك

وقد تشرفت بمقابلة جلالة الملك فأكرم وفادتى وأحسن لقائى ولبثت مع جلالته مدة طويلة ثم خرجت شاكرا جليل رعايته وهذه المدينة لها موقع من أجمل مواقع الدنيا يشبه أو يفوق موقع جنوة ونابولى ويقرب من القسطنطينية على ماسمعت ومنظرها يشبه المدائن الشرقية

الفول المدمس بأوروبا

ومما يحسن ذكره من باب الفكاهة انى خرجت ذات يوم فى بكرة النهار لاتفرج على حركة المدينة فى مبدئها فمن جملة مارأيت فيها كثيرا من النساء يسارعن فى حركاتهن وهن حفاة الاقدام وعلى وسطهن حزام كبير بارز بروزا شديدا عن بقية

الجسم بخلاف سائر الافرنجيات فانهن يبذلن غاية جهدهن فى تنحيل الخصر وترفيعه ومما امتاز به هؤلاء النساء فى البرتقال انهن يضعن فى أعناقهن قيطانا يتدلى الى حد ثنيات البطن وينتهى بصليب كبير من النحاس وفوق رؤسهن قطعة من القماش ملتفة على بعضها مثل الحواية و يحملن عليها شيأ شبيها بطست نحاسى مفرطح جدرانه مرتفعة قليلا ورأيت احداهن تصيح بكلام لاأفهمه فتشوفت لاستوقفها وأعرف مامعها فسألت الدليل ذلك ولكنها لما نظرت الى حالتنا وهيئتنا توسمت آننا ممن لايشترى ممامعها فهمت بمغادرتنا فأظهرت لها قطعة من الورق قيمتها نحو قرش صاغ فوقفت وأخذتها ثم فرجتنى على مافى الطست واذا به الفول المدمس ففرحت به كثيرا ووطنت نفسى على أكلة مصرية فى بلاد أوروبا ثم استفهمت عن الاسم فاذا هو (Fava Rica) أى الفول الغنى ولما رجعت الفندق أوصيت صاحبه أن يستحضر لى فى صباح اليوم الثانى مقدارا من هذا الفول الغنى وقد كان غير أنى أردت أن تكون الاكلة مصرية محضة وعلى الاسلوب المتبع عند عموم المصريين فلبثت فى غرفة النوم وأقفلتها إقفالا محكما بعد أن استحضرت البصل حتى لاأكون مثل بنى اسرائيل حينما خرجوا من مصر ولم يجدوا البصل فى التيه فتأسفوا عليه

وتلهفوا ثم انى تمتعت بهذا الفطور والحق يقال أكثر من جميع أيام سياحتى فى أوروبا

مدينتى قلمرية وبرتقال

ثم قمت من الاشبونة الى مدينة كويمبرا Coïmbra المعروفة فى كتب العرب باسم قلمرية وهى الآن دار العلم ومحط المعارف فى بلاد البرتقال وقد رأيت مدارسها الجامعة ومتاحفها وبستان النبات البديع فيها وبعد ان طفت على معظم آثارها قمت الى مدينة بورتو (Porto) واسمها فى كتب العرب برتقال وبها يسمى هذا القطر برتقال كما نقول نحن الآن طرابلس وحاضرتها طرابلس وتونس وحاضرتها تونس وكما نقول بنى سويف وبندرها بنى سويف والفيوم وبندرها الفيوم والمنيا وبندرها المنيا وهكذا فى سيوط وقنا وكما كان الشان فى القليوبية وجرجا والمنوفية قبل أن ينتقل مركز المديرية الى بنها وسوهاج (المعروفة عند العرب بسوهاى) وشبين الكوم وساورد فى الرحلة نصوصا عربية معتبرة تكاد تكون مجهولة للدلالة على صحة هذا الاسم (برتقال)

رأيت فى مدينة البرتقال هذه آثارا كثيرة ولكن العرب لم يخلفوا فيها شيأ يذكر لانهم كانوا يجيؤنها فاتحين ثم يجوزونها الى غيرها من البلاد ولم ترسخ فيها قدمهم غير انى رأيت دار البورصة فيها وهى من الفخامة والجلالة بمكان قد تألف التجار على انشائها

على الطراز العربى ونقشوا أكبر بهو فيها بحسب الاسلوب العربى، وزينوه بالزخارف وكتبوا فى ضمن رسومها البديعة أشعارا عربية سأوردها فى الرحلة وفى جميع الطرازات هذه العبارة ﴿عز لمولانا السلطانة مريم ٢﴾ يريدون عز لمولاتنا السلطانة مريم الثانية

إشكال على الفول المدمس

وقد عن لى وأنا فى هذه المدينة أن أمتع نفسى بأكلة ثانية من الفول الغنى فأوصيت صاحب الفندق أن يستحضر لى جانبا من هذا الطعام اللذيذ حتى أتغدى به فى وقت الظهر وأوصيته أيضا باستحضار الزبد والبصل فنظر الى نظر المستغرب وقال كيف يمكن الغداء بالفول الغنى والبصل والزبد فقاطعته وقلت له هذه ارادتى وما عليك الا الاجابة فامتثل غير قادر على اخفاء زيادة الاستغراب ثم توجهت لزيارة الآثار وغير ذلك حتى جاء وقت الظهر فأسرعت الى الفندق وأنا أتلذذ مقدما بأكلة الفول الغنى التى أعددت نفسى لها فى هذا اليوم السعيد حتى انى لم أتناول شيأ من الزاد فى الصباح وقد صعدت فى الحال الى غرفة نومى فوجدت صينية عليها شىء كثير من .... من .... من الخروب فدققت الجرس بعنف وشدة لكثرة ما اعترانى من الغيظ والحنق فحضر الخادم فقلت له ما هذا الذى فعلت أيديكم فقال انما أجبنا أمرك وأحضرنا الفول الغنى فكررت الاستفهام فقال لى هذا

هو الفول الغنى بعينه فنزلت لصاحب الفندق وباحثته فى هذا الموضوع وأعلمته بمقصودى الذى رأيتـه بكل انشراح فى مدينة الاشبونة فأدرك السر وقال لى ﴿ياسيدى أهل بورتو يسمون الخروب فولا غنيا ولا يعرفون ذاك الصنف الموجود فى أشبونة بل انهـم يتهكمون على الاشبونيين لكونهم يسمون الفول المصنوع بهذه الكيفية فولا غنيا مع انه هو الخروب للمشابهة بين قرن الخروب وقرن الفول ولما كان فى الخروب مميزة على الفول دعوه بالفول الغنى ولهم الحق(١) وهذا ما دعانى للاستغراب حينما طلبت منى فى الصباح أن أحضر لك غداءك من الفول الغنى مع الزبد والبصل﴾ فانشرحت من هذا الشرح مع انى انقبضت للحرمان من أكلتى المصرية والاضطرار للاكل على المائدة العموميـة بالطريقـة الافرنكية ولكن هى السياحة يرى فيها الانسان مايسوء وما يسر

ثم خرجت منها قاصـدا شلمنقة (٢) Salamanca من بلاد اسبانيا ولم أتعرض لتعلم اللغة البرتقالية خوفا من الاختلاط ولكنى

لغة البرتقال والتحريف فيها

---

(١) ليتنبه القارئ الى أنه منهم فلذلك هو يصوب رأيهم

(٢) هذا هو اسمها الحقيقى فى كتب الجغرافية العربية القديمة وابن الاثير فى حوادث سنة ١٤٠ فى الجزء الخامس وغلط وهم صاحب دائرة المعارف حيث سماها سلمنقة بالسين المهملة ثم خلط بينها وبين بلد أخرى اسمها طلمنكة فقال انه اسمها فى بعض كتابات العرب والصواب غير ذلك فان طلمنكة Talamanca بليدة فى ولاية مدريد فى وسط الاندلس كانت من أعمال طليطلة فى أيام العرب وأما شلمنقة فهى فى الشمال من ولاية جليقية التى قد يسميها العرب غليسية Galicie

لاحظت كثرة تردد الفاء والشين والراء فيها فمثال الفاء الحروب يسمونه الفروب والبحيرة يسمونها البفيرة والصهريج يسمونه زفريش ويسمون نوعا من الاغطية والفراء يعرف عند العرب بالحنبل بقولهم «الفامار» وهذه الكلمة الحديثة الآن مأخوذة من الكلمة البرتقالية المهجورة المحرفة عن العربية مباشرة وهى «ألفمبر» ويسمون الخس «ألفس» والهدية «الفدية» والحرمل وهو السذاب البرى «الفرما» وفى الحلاوة «الفلاوا» ويقولون فى الجبة «الفاما» والخياط يسمونه «الفيات» وأمثال ذلك كثيرة لا أطيل بها الآن وأما الشين فان معظم السينات التى فى اللغات الافرنجية يقلبونها شينا ولعل ذلك هو السبب فى ان العرب نطقوا باسماء البلدان التى فيها سين بالشين والامثلة كثيرة يعرفها من له أقل اطلاع على جغرافية هذه البلاد فى كتب العرب وأما الراء فهى كثيرة جدا خصوصا مع الشين حتى تكاد لغتهم بسببها تشبه اللغة النمساوية ولكن الخاء معدومة بالكلية

ذكر النقود باسبانيا والبرتقال

وهنا أذكر أمرا غريبا وهو انى لما كنت فى سرقسطة توجهت فى صباح يوم وصولى الى أجمل دكان للمزين فيها وبعد ان حلقت ذقنى وأصلحت شعر رأسى وضمخته بانواع الخلوق

المستعملة عنـدهم سألت الرجـل عن الاجرة فقال لى ٣ ريالات فبهت فى قلبى وأسفت على مجيئى اليه ولكننى تجلدت وأظهرت (مثل الكثير من الناس) تعارف الجاهل بعكس أهل البديع الذين يظهرون تجاهل العارف ثم قلت وهو كذلك ودفعت اليـه ورقة قيمتها ٢٥ فرنكا فردّ لى ٢٤ فرنكا وربما فعلت بكل سرور ان الريال عند أهل اسبانيا يساوى جزأ من عشرين منه عند أهل بلادنا بل هو أقل من القرش الصاغ بقليل ولكننى حينما جئت الى بلاد البرتقال ونزلت فى لشـبونة اكتريت عربة أوصـلتنى الى الفنـدق ولما نزلت منها سألت ترجمان الفندق عن الاجرة فقال لى ٦٠٠ ريال فقلت فى نفسى هـذه هى الطامة الكبرى وكيف أتظاهر الآن بتعارف الجاهـل وليس معى ورقـة تساوى هـذه الثروة الجسـيمة ومع ذلك تجلدت وصـبرت على مضض الايام واتقيت الله لعله يسهل لى سبيل الخلاص من هذه الورطة فقلت له بصوت أبح «وهو كذلك خذ النقود من صاحب الفندق» وصعدت الى غرفتى أضرب أخماسا لاسداس ولما أصبح الصباح كان أول شئ طلبتـه هو الحساب فجاءنى بعشرات الآلاف فقلت وأنا خائف واجم وكم يساوى هـذا كله من الفرنكات فقيل لى

ان الفرنك مائتا ريال فكدت أخر لله ساجدا وصرفت الغلام لاتضرع بالشكر منفردا وقد قاسيت كثيرا من اشتداد الازمة المالية على هذه البلاد حتى انى كنت أصرف الفرنك الصحيح المعتبر بمائتى ريال وبمائة وتسعين وبمائة وثمانين وبمائة وسبعين بل بمائة وستين فى قلمرية وعرفت حينئذ ان هؤلاء القوم يلزمهم عدد كبير لقيمة قليلة

العودة الى الاندلس

ولما توالت هذه الخسائر المالية استخرت الله فى الرجوع الى الاندلس ووصلت شلمنقة ورأيت آثارها ومدارسها فانها فى اسبانيا مثل قلمرية فى البرتقال وأكسفورد وكمبريج فى انكلترة ورجعت منها الى مدريد فأصابتنى النزلة الوافدة واشتدت على وطأتها حتى كدت أيأس من الحياة لولا مداركة كثير من أصحابى وأصدقائى وعناية الاطباء بشأنى

مقابلة جلالة ملكة الاندلس

وقد كان صاحب السعادة طرخان بك طلب من البطانة الملوكية تشرفى بمقابلة جلالة الملكة وأجيب السؤل ولكن المرض كاد يحول بينى وبين هذا الشرف الاسنى غير ان الله سبحانه وتعالى رأف بى تخفف النازلة عنى وبذلك تيسر لى مقابلة جلالة الملكة فلاطفتنى وتعطفت على كثيرا وتكلمت معى فى اشتات العلوم والادبيات حتى بهرتنى من كثرة اطلاعها ودار الحديث مليا على اللغة العربية وآثار العرب باسبانيا وبغيرها واستطالت المقابلة مدة تنيف على

العشرين دقيقة وكان معى حضرة السيد المفضال والامير الكريم طرخان بك وسأذكر فى الرحلة مادار بيننا من الحديث ثم خرجت من بين يديها شاكرا افضالها على هذه المقابلة الجليلة وقد أخبرنى كثير من أهل البطانة وخصوصا صاحب العطوفة طرخان بك بانها أكثر من المعتاد بكثير فشكرت الله ثم لبثت بمدريد ريثما تعافيت قليلا من النزلة الوافدة التى ضربت فيها أطنابها الآن وفتكت بالاهالى فتكا ذريعا فمات بها كثير من الشيوخ وزاد عدد الوفيات بها وبغيرها من الامراض فى مدريد حتى بلغ ستا وستين وفاة يوميا وكان معدل عددها قبلا احدى وأربعين فى اليوم

ولاجل ذلك أمرنى الاطباء بالتوجه الى بعض البلاد الحارة فى جنوب الاندلس والعبور منها مباشرة الى مصر متى ظهرت آثار الصحة وعاودتنى العافية

اشبلية

فقمت الى اشبيلية (Sevilla) التى كانت تسمى أيضا بحمص وزرت جميع آثارها ودار القطاء فيها وكنائسها وصعدت الى قمة المنارة الاسلامية الفخيمة البديعة التى كانت بجانب أحد المساجد وكانت مستعملة عند العرب لرصد الافلاك فأصبحت الآن مقر الناقوس وزرت القصر Alcazar الذى أنشأه الاسلاميون فأنسانى كل مارأيته من العمائر الجميلة والآثار الجليلة التى رأيتها فى

أعظم مدائن أوروبا وقد وقفت فيه متلهفا وكنت كذلك الشاعر الذى قال

قلت يوما لدار قوم تفانوا * أين سكانك العزاز علينا

فاجابت هنا أقاموا قليلا * ثم ساروا ولست أعلم أينا

ومن غريب مافى اشبيلية ان جميع دورها وقصورها لها فى وسطها فناء فى غاية الاتقان مغروس بزاهر الاشجار ومحفوف بفائق العمدان وفوقه رواق مثل ماهو معروف فى الاسكندريه باسم الحضير وعليه عمدان وحنايا وقواصر مثل التى فى الفناء ولقد تحسنت صحتى باعتلال هوائها حتى صدقت من أنشأ مشببا بها

هواؤها فى جميع الدهر معتدل * طيبا وان حل فصل غير معتدل

ماان يبالى الذى يحتل ساحتها * بالسعد أن لاتحل الشمس بالحمل

ولاغرو فقد اشتهرت باعتدال الهواء وحسن المبانى وهى واقعة على النهر الشهير المعروف بالوادى الكبير Guadalquivir يصعد المدّ فيه ٧٢ ميلا ثم ينحسر ولذلك قال شاعرهم

شق النسيم عليه جيب قميصه * فانساب من شطيه يطلب ثاره

فتضاحكت ورق الحمام بدوحها * هزا فضم من الحياء ازاره

ولقد صدّقت حينما حللت فيها قول بعض واصفيها

ان شرفها غابة بلا أسد   ونهرها نيل بلا تمساح

وهـذا الشَرَف المذكور هو اقليم من أعمالها كائن على تل عال من التراب الاحمر ومسافته ٤٠ ميلا فى مثلها يمشى بها السائر فى ظل التين والزيتون واعلم ان الاسبانيين والافرنج يرسمون اسم هذه البقعة هكذا Axarafe و Aljarafe وهو الآن فى الجغرافية الجديدة لتلك الاقطار عبارة عن البلاد التى فى قسم سان لوكار لامايور أى سان لوكار الكبير San Lucar la Mayor و بعض القرى التابعة لمدينة اشبيلية

ثم خرجت من هذه المدينة الجليلة قاصدا غرناطة (Grenade) Granada وأنا أردد قول الشاعر فيها

ذكرتك يا حمص ذكرى هوى * أمات الحسود وتعنيته
كأنك والشمس عند الغروب * عروس من الحسن مخزونه
غدا النهر عقدك والطود تاجك * والشمس أعلاه ياقوته

وصرت أثناء الطريق أمر على بلاد وقرى كثيرة تذكرنى ما عهدته فى بلاد المشرق وخصوصا المنارات التى كانت قائمة بجانب الجوامع فصارت مجاورة للصوامع ومآذن المساجد التى أصبحت نواقيس للمعابد وصرت أتذكر مجد العرب وعظم دولتهم حتى قدمت الى غرناطة المعروفة قليلا باسم اغرناطة ويسميها العرب دمشق من باب التشبيه واسمها معرب عن الاسبانية ومعناه الرمانة

مدينة غرناطة وقصر الحمرا

وصلت هذه المدينة الى مالم تكد تصل اليه مدينة ما فانها حينما استولى الافرنج على معظم بلاد الاندلس انتقلت اليها بقايا المسلمين فصارت المصر المقصود والمعقل الذى تنضوى اليه العساكر والجنود حتى بلغ عدد فرسانها وحدها ٥٠٠٠٠ ورجالها ٣٥٠٠٠٠ من غير ضواحيها واعمالها فقد كانت جيوشها تبلغ بهم ٢٠٠٠٠٠ يخرجون للقتال من أهـل غرناطـة والبُشَّرات (Alpuxarat) Alpujarrat ووادى آش Guadix وقد رأيت أن أختم رسائلى المؤعرية فى هذه المدينة التى كانت آخر ملاذ للمسلمين

وصلتها بالليل ونزلت فى فندق واشنطون وهو على ما علمت فيما بعد من أهل التحقيق والمعرفة قائم (يا للأسف) على نفس مكان المقبرة الملوكية التى كانت ملوك المغرب تدفن بها ويسميها ابن الخطيب « التربة »

و بعد ان تناولت شيئاً من الزاد عجلت بالاضطجاع وحينئذ ذهب عنى الرقاد لهجوم الافكار وتذكر ما وقع بتلك الاعصار والتفكر فى أحوال الدنيا وتقلبها باهلها حتى أثقلنى السهر وبرح بى التعب فاغمضت الجفون وما استيقظت الا على تجاوب الاطيار فوق أغصان الاشجار كانها تقول لى

تنبه فقد شق النهار مغلسا * كمائمه عن نوره الخضل الندى
مداهن تبر فى أنامل فضـة * على أذرع مخروطة من زبرجد

فقمت ونظرت الى الرياض وغابات الاشجار وتدفق المياه فقلت لله در الشاعر في وصف مثل هذه المناظر

رياض تعشقها سندس * توشت معاطفها بالزهر
مدامعها فوق خدى ربا * لها نظرة فتنت من نظر
وكل مكان بها جنـــة * وكل طريق اليها سقر

ولكنى تذكرت قول الوزير ابن عبدون الاندلسى ولا غرو فان أقوال الوزراء وزراء الاقوال

يا نفحة الزهر من سرالك وافانى * خلوص ريالك فى انفاس آذار
والارض فى حال قد كاد يحرقها * توقد النور لولا ماؤها الجارى
والطير فى ورق الاشجار شادية * كانهن قيان خلف استـــار

ثم طفت بالحمراء Alhambra (١) وقصرها ومساجدها وساحاتها وأطلالها ورسومها وبقاياها التى تذهب بالجنان وتأتى بالجنون فوقفت باهتا حائرا فاقدا اللب والرشاد من هذا الاتقان الذى لم يكن يخطـر على قلبى مع ما سمعتـه عنها من الاوصاف وما شاهدته من غرائب المبانى فى غير هذه الدار حتى لقد اشتد بى الهيام وكنت

أمر على الديار ديار قومى * أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

(١) وهى مدينة ثانية قائمة على قلة الجبل وأما غرناطة فهى فى سفحه

وماحب الديار أهاج وجدى * ولكن حب من سكن الديارا

ثم خرجت منها وأنا أخاطبها بقول الشاعر

وقفت بالحمراء مستعبرا * معتبرا أندب اشتاتا

فقلت ياحمرا ألا فارجعى * قالت وهل يرجع من ماتا

فلم ازل ابكى وابكى بها * هيهات يغنى الدمع هيهاتا

كانما آثار من قد مضى * نوادب يندبن امواتا

وعند الباب قدموا الى دفتر الزيارات فكتبت هذه العبارة التى املاها الخاطر واليد مرتعشة والفؤاد واجف والعين باكية

أحقا هذه الحمرا أحقا أننى فيها

لله هذه القصور وهذه الدور ولله قوم خلد وافخرهم على مدى العصور هذى آثارهم الباقية تنطق بعظمتهم الفائقة وتنبه الغفلان الى بقاء الملك الديان وأن كل من عليها فان وتذكر بنى الانسان بوجوب التعاون على البر والاحسان والتباعد عن التخاذل فهو الخسران ويرحم الله عبدا رأى فتذكر ونظر فاعتبر

احمد زكى

مندوب الحكومة المصرية

فى مؤتمر المستشرقين التاسع بلوندرة

يوم الثلاث ٧ رجب الفرد سنة ١٣١٠

(٢٤ يناير سنة ١٨٩٣)

ثم انتقلت من الحمراء وزرت اسوار المدينة وأبراجها وبعض مناراتها وكثيرا من قصور ملوكها ويعلم الله انني مارأيت في طول سياحاتي شيأ أدق واتقن وأجل وأكمل مما رأيته في هذه المدينة حتى لقد رأيت ان المقرى لم يقرب من الحقيقة حينما مدح غرناطة اثناء وصفه للاندلس بقوله

هي جنة الدنيا التي * قد أذكرت دار المقامه

لاسيما غرناطة الـ * غراء رائقة الوسامه

بروائها وبمائها * وهوائها النافي الوخامه

ورياضها المهتزة الـ * اعطاف من شدو الحمامه

وبمرجها (١) النضر الذي * قد زين الله ارتسامه

وقصورها الزهر التي * يابى لها الحسن انقسامه

ولقد كانت غرناطة لايعدلها في داخلها وخارجها بلد من البلدان

---

(١) مرج غرناطة يعرف عند الافرنج بهذا الاسم (La vega) وهو كلمة اسبانية معناها المرج ومن الغرائب ان الدون ايجيلاذ (Eguilaz) وهو من أعيان أهلها ومن نبهاء المشتغلين بالآداب والآثار العربية قد أطلعني على صورة لاله مصري طولها ٨ سنتيمترات ومنقوشة بالحروف الهيروغليفية وأخبرني ان أحد الفلاحين قد عثر عليها في المرج أثناء الفلاحة وتقليب الارض فنبهته الى وجوب الاعتناء بهذه المسئلة وموالاة البحث لما وراء ذلك من الفوائد التاريخية التي لاتنكر كما علمت ان القوم عثروا بمدينة برشلونة على آثار مصرية كثيرة

ولا يضاهيها فى اتساع عمارتها وطيب قرارتها وطن من الاوطان ولا يأتى على حصر أوصاف جمالها وأصناف جلالها قلم البيان وكانت فى آخر الامر قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها ويقول كتاب العرب ان خارجها لانظيرله فى الدنيا وهو مسيرة ٤٠ ميلا يخترقه نهر شنيل Xenil (Jenil) المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنات والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لامثيل له بسواها ويعرف عند المؤلفين الاسبانيين بهذا الاسم Aindamar محرفا عن اللفظ العربى

ومازلت اتردد بين هاتيك الديار واجوب تلك المعاهد وأنا أرى فى كل حجر وفى كل جدار آية ناطقة بعظمة هذه الامة ومجدها وقد جرنى ذلك الى ذكر بعض أمور مما يدل على بلوغ أهل الاندلس أرقى ذروة من ذرى النعيم وتأنقهم وترفههم للدرجة التى ليس بعدها مطلب أوغاية

ع من تأنق الاندلسيين

فمن ذلك ان اعتماد وهى زوجة المعتمد وأم أولاده المعروفة بالرميكية رأت ذات يوم باشبيلية نساء البادية يبعن اللبن وهى رافعات عن سوقهن يخضن الوحل والطين فقالت له اشتهى ان أفعل أنا وجوارى مثل هؤلاء النساء فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد

رميكية ويوم الطين

،وصير الجميع طينا فى القصر وجعل لها قربا وحبالا من ابريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين الثمين وانالت النفس مناها ثم اتفق بعد ذلك انه حصلت بينهما منافرة كما يحصل عادة بين الازواج فقالت له والله مارأيت منك خيرا فقال لها "ولا يوم الطين" تذكيرا بهذا اليوم الذى أباد فيه من الاموال مالا يعلم مقداره الا الله فاستحيت واعتذرت وسكتت

وقد مدح بعض الشعراء يعقوب أمير المؤمنين بالاندلس بقصيدة فيها ٤٠ بيتا فأعطاه على كل بيت ألف دينار

وكان بعض ملوكهم اذا جاءته رسل من أعدائه يأمر فى الحال باصطناع برك وحولها آساد وأشجار وازهار كلها من الفضة الخالصة والذهب النضار ترهيبا لهم وايقاعا للرعب فى قلوبهم من غير أن يشافههم بكلمة واحدة فينال من ملوكهم كل مايرتضيه

وقد كان عبد الرحمن بن الحكم أمير الاندلس كثير الميل الى النساء وولع بجارية له اسمها طروب وكان بها كلفا شديدا واتفق انها غضت الطرف عنه ذات يوم وقابلته بالصد والاعراض واقتصرت فى مقصورتها فأرسل يترضاها وهى لاتزداد الا اصرارا على الجفاء حتى أرسل الخصيان يغصبونها على الخروج فغلقت الابواب فى وجوههم فذهبوا الى الخليفة يستأذنونه فى اقتلاع الباب فامرهم

بان يسدوه ببدر من الدنانير يرصونها عليه رصا ثم جاء بعد ذلك
يترضاها بنفسه ويعتذر اليها ففتحت الباب وانهالت عليها الاموال
فقال لها كل هذا المال لك دون سوالك ثم أعطاها حلية قيمتها
مائة ألف دينار فقيل له ان مثل هذا لا ينبغى أن يخرج من خزانة
الملك فقال ان لابسه أنفس منه خطرا وأرفع قدرا وأكرم جوهرا
وأشرف عنصرا وفيها يقول

اذا ما بدت لى شمس النها * رطالعة ذكرتنى طروبا

ومن ذلك ان محمد بن عامر المنصور وزير الاندلس المشهور
صنع قصرا من فضة صافية وأهداه للسيدة صبح البشكنشية أم
الخليفة هشام وحمله على رؤس الرجال فجاب حبها بذلك وقامت
بامره عند سيدها الخليفة الحكم حتى قال الخليفة لبعض
خواصه ان هذا الفتى سلب عقول حرمنا بما يتحفهن به

ومن ذلك ان الحكم ثالث خلفاء الاندلس كان له خاصة ألفا
فرس مرتبطة على شاطئ النهر بقبلى قصره تجمعها داران

والاعجب من ذلك ما رواه المؤرخون من ان الخليفة عبد الرحمن
الناصر المشهور أراد الفصد ذات يوم فجلس فى البهو الكبير المشرف
باعلى مدينة الزهراء واستدعى الطبيب لذلك وأخذ الطبيب الآلة

وحبس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ أطل زرزور فصعد على اناء ذهب بالمجلس وأنشد

أيها القاصد رفقا * بأمير المؤمنينا
انما تقصد عرقا * فيه محيا العالمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف أمير المؤمنين ذلك غاية الاستظراف وسُرّ به غاية السرور وسأل عمن اهتدى الى ذلك وعلم الزرزور فذكر له ان السيدة الكبرى مرجانة أم ولده وولى عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك وأعدته لمثل هذا اليوم فوهب لها ما ينيف على ٣٠ ألف دينار

تقدم الاندلسيين

وأمثال هذه الوقائع أكثر من أن تذكر وأقول ان أول تبليط حصل بالمدائن كان فى قرطبة وكذلك الانارة العمومية بالليل قبل أن يعرف ذلك أحد من أهل الارض قاطبة فقد كان السائر يمشى فيها وفى أرباضها على ضوء السرج المتصلة مسافة ١٠ أميال

معارف الاندلسيين

وأما رسوخ قدمهم فى العلم والعرفان فأمر يشهد به العدو والصديق ولا أذكر منهم الآن سوى أبي القاسم بن فرناس فانه أول من استنبط بالاندلس صناعة الزجاج من الحجارة وأول من فك كتاب العروض للخليل وأول من فك الموسيقى وقد صنع فى بيته هيئة السماء وخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق وصنع الآلة المعروفة بالمنقالة ليعرف الاوقات على غير رسم ومثال

وقد احتال فى الطيران فكسا نفسه بالريش واتخذ جناحين وطار فى الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال فى السقوط فتأذى اذ غفل عن اتخاذ الذنب ولم يتنبه الى ان الطائر انما يقع على زمكاه

ولقد كانت ملوك الافرنج جميعا تستخدم الاطباء من العرب واليهود الاندلسيين وكانت الصنائع والفروسية والابهة فى عهدهم فى مزيد وكان عندهم مواضع شتى للفرج واللهو أما علم المساحة والفلك والكيمياء والطب فلم يكن الا فى قرطبة دون غيرها من سائر المدن حتى ان شانجه ملك ليون الملقب بالسمين اضطر الى أن يسافر اليها ليأخذ الطب عن رجل كان مشهورا فى عصره فلما استدعى به الملك أجابه مع الرسول قائلا ان كان للملك حاجة الىّ فليقدم علىّ ومثل ذلك الزيج الذى اشتهر به الفونس العاشر ملك قشتيلية وصار له به فخر على ملوك أوروبا انما حرره له علماء العرب كما يشهد بذلك علماء الافرنج أنفسهم

أسوة حسنة للمصريين

ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام ان القوم ماوصلوا الى هذه الدرجة الا بالعلم والعرفان وما أجدر شباننا المصريين الاذكياء المتعلمين أن يقتدوا بأهل الاندلس فى ذلك الزمان فانهم كانوا جميعا أحرص الناس على التمييز حتى ان الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة ويربأ ان يرى فارغا عالة على الناس وكانوا

يقرؤن جميع العلوم فى المساجد بالاجرة لانهم كانوا يتعلمون لاجل أن يعلموا الخلائق وينوروا الاذهان لالكى يأخذوا جاريا أو معلوما ولذلك كان العالم منهم بارعا لانه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على ترك الشغل الذى يستفيد منه وينفق من عنده حتى يتعلم ومثلهم الآن معظم علماء أوربا

مراعاة الشرع

ومما ينبغى اضافته للعلم مراعاتهم للشرع الشريف حتى لقد كان للدولة الاموية فى أيام عزالاندلس هيبة وتمكين ناموس من قلوب العالم فكان فى ذلك ضخامة لدولتهم ورسوخ لاقدامهم وقد ذكر ابن حيان وقائع كثيرة يستدل منها على توجه الحكم على خليفتهم أوعلى ابنه أو على أحد حاشيته المختص به وانهم كانوا فى نهاية من الانقياد للحق لهم أوعليهم و بذلك انضبطت لهم الامور وكبرت الهمم وترتبت الاحوال وتوطدت القواعد ولما خرقوا هذا الناموس تهتك أمرهم واضمحل شأنهم وفشلوا وذهبت ريحهم حتى قال شاعرهم

أسباب دمارهم وفيها أعظم عبرة

مما يزهدنى فى أرض أندلس * تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها * كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

ومازالوا على هذا الاضمحلال وهذا الانحطاط حتى تقلبت الدول وكان الخرق لايزداد الا اتساعا وصدق عليهم قول الشاعر

فبينا نسوس الناس والامر أمرنا * اذا نحن فيهم سوقة نتنصّف،

فوقع الاختلاف بعد ذلك الائتلاف وأعيا العلاج حكماء الرجال وعصفت عليهم ريح العدوّ والحرب سجال حتى لقد تمكن منهم بالتفريق وإلقاء العداوة بينهم وبين بعضهم بقبيح المنافسة ومرذول الطمع وآل أمرهم الى أن استقل العمال وأقام كل واحد منهم نفسه ملكا في بلد واحد وصاروا يطمعون في بعضهم ويستجيشون بالاسبانيين وبطاغيتهم ويسلمونه حصون المسلمين تشفيا لبعض غاياتهم حتى ان بعض ملوك الطوائف واسمه المأمون قبحه الله وأخزاه بعث الى ملك قشتالة أو قشتالة المعروفة أيضا باسم قشتيلية (Castilla) يستنصره على الموحدين ويسأله ان يبعث له جيشا من الروم يجوز به الى العدوة أى مراكش لقتال يحيى ومن معه من الموحدين فقال له ملك قشتيلية «لا أعطيك جيشا الا على شريطة ان تعطيني ١٠ حصون مما يلي بلادى كما أختارها لنفسى واذا منّ الله عليك ودخلت مدينة مراكش تبني للنصارى الذى يسيرون معك كنيسة في وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم أوقات صلواتهم وإن أسلم أحد من الروم لا يقبل اسلامه ويرد الى اخوانه فيحكمون فيه بحكمهم ومن تنصر من المسلمين فليس لاحد عليه

من سبيل» فاسعفه النذل الجبان فى جميع ماطلب من غير تبصر فى العواقب

ويشبه ذلك أيضا ماجرى فى واقعة العقاب (١) وذلك ان محمد الناصر المشؤم على المسلمين وجزيرة الاندلس بالخصوص جمع جموعا اشتملت على نحو ٦٠٠٠٠٠ مقاتل وداخله الاعجاب والغرور بكثرة من معه من الرجال فصاف الافرنج فكانت الدائرة عليه وعلى المسلمين فان الافرنج دهموهم وهم على غفلة وغير أهبة وخلا بسبب هذه الواقعة أكثر المغرب واستولى الافرنج على معظم الاندلس اذلم ينج من الستمائة ألف غير عدد يسير جدا لايقارب الالف وكانت هذه الواقعة هى الطامة الكبرى على الاندلس بل والمغرب وما ذلك الا اسوء التدبير فان الناصر ووزيره استخفا برجال الاندلس العارفين بقتال الافرنج وشنقا بعضهم وظنا ان كثرة الاجناد تغنى عن دربة القواد ففسدت النيات وتفرقت الكلمة وتخاذل المسلمون حتى ان جماعات الموحدين لم يسلوا سيفا ولم يشرعوا رمحا ولاأخذوا فى شئ من أسباب الدفاع ولا أهبة القتال بل انهزموا الاول حملة الافرنج عليهم قاصدين لذلك والعدو يلى

(١) جمع عقبة لكثرة العقبات التى بجانب مدينة طلوسه *Tolosa* فى شمال اسبانيا وتعرف هذه الواقعة عند الافرنج باسم ترجمتها *Las Navas de Tolosa* وقد أسرت الى الراية التى أخذها الاسبانيون منهم وهى فى برغش

فيهم و يقتل فيهم قتلا ذريعا وهم (يااللنذالة يااللنذالة) معرضون عنه بل عن الدفاع عن أنفسهم و يقول المؤرخون ان الناصر ثبت فى ذلك اليوم ثباتا لم ير لملك قبله

ولم يزل حالهم على هذا الاختلاف حتى حينما انضعضع أمرهم وضيق عليهم العدو أشد الضيق وأحدق بغرناطة من كل مكان ومع ذلك لم تنقطع شأفة الشقاق حتى كان فى هذه المملكة الصغيرة ثلاثة ملوك (١) أحدهم فى غرناطة نفسها والثانى فى أحد ضواحيها

---

(١) فمن أكبر المصائب ان أبا عبد الله (المعروف عند الافرنج باسم *Boabdil* وهو الذى اضطر فيما بعد لتسليم غرناطة للاسبانيين) ثار على عمه أبى القاسم ملك غرناطة فساعده على خلع الطاعة وشق عصا الجماعة الملك فرديننـد الكاثوليكى طمعا فى اشتداد الخصام واحتدام الفتنة ليضعف كل من الاميرين المسلمين صاحبه و يبقى فتح غرناطة هينا عليه ثم توفى أبو القاسم فخلفه على سرير الملك أبو عبد الله المذكور فلم يلتفت فرديننـد الى ما بينهما من سابق المؤالفة والمحالفة بل استضعفه ورأى الغنيمة باردة فهجم عليه بجيوش قشتلية واراغون وبما جاءه من المدد الكثير من أوربا ومع ذلك لم يتمكن من فتح غرناطة الا بعد ست سنوات فانه فى آخر الامر تمكن من حصارها ثمانية شهور وساعده نزول الثلج وكلب الشتاء على قطع الطرق وتضييق الحصار فجاءت الملكة ازابلا لتحضر هذا الفتح بنفسها وتتمتع بالدخول الى غرناطة .

وقد تم التسليم بشروط وامتيازات تدل على ان المدينة كان فى وسعها استمرار الدفاع فانه تقرر ان الفاتحين لا يمسون شيا من أموال المسلمين ولا شرائعهم ولا ديانتهم

المعروف بربض البيازين (١) والثالث فى عملها القريب منها وهو مدينة وادى آش المعروفة أيضا بواديآش و بوادى الاشات وكانوا قد أحسوا بهذا الخطر احساسا الامر يدعليه حتى (٢) انهم استبدلوا الاقوال التى كانت تستعمل عادة فى ضرب السكة بآيات وعبارات توافق

ولاحريتهم وأن لا يتعرضوا اليهم باى وجه كان بل انهم يردون اليهم اسراهم من غير فدية وبما عدح عليه المسلمون و ينبغى تسطيره فى بطون التواريخ تخليدا لمكارمهم انهم اشترطوا أن يكون لليهود كل هذه الامتيازات أيضا وعلى هذه العهود خرج أبو عبدالله من غرناطة وسلم مفاتيحها الفرد نندوايزابلا

و يقول المؤرخون العصريون انه أذرف الدموع حينما رمى ببصره الى هذه المدينة التى كانت فى يد المسلمين منذ ٥٠٠ عام تقريبا فاضطرته الاقدار لتركها عامرة آهلة تفوق كل مدينة سواها وقد رأيت فى بعض التواريخ الافرنكية أنه حينما خنقته العبرة وأخمه البكاء قالت له أمه بيتا من الشعر معناه

ا تبكى مثل النساء على ملك لم تقدر على حفظه مثل الرجال

ولم أقف للآن على لفظ هذا الشعر بالعربية غير ان الشاعر الاديب محمود أفندى واصف قد نظمه فى هذا البيت

ابك مثل النساء ملكا مضاعا ❋ لم تحافظ عليه مثل الرجال

(١) هذا المحل سمى كذلك لكونه كان سوقا لاناس اتخذوا تربية البازحرفة لهم ويسمى عند الافرنج *Albaicin*

(٢) هذا الاستخراج مما ينبغى الالتفات اليه وأقول انه مما لم يتنبه اليه أحد من العلماء الباحثين على ما أعلم وهذا من ضمن الفوائد التى تنتج من علم النقود والمسكوكات

مقتضى الحال وقد رأيتها منقوشـة على الدراهم والدنانير المحفوظة في متحف مدريد وعند الماجد الفاضل الدون أنطونيو فيفس(١) D. Antonio Vives وهو من علماء أهلها المشتغلين بالعربية وبفن النقود وذلك مثل (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعـز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ولا غالب الا الله) . ومثل (غرناطة حاطها الله) . (غرناطة حرسها الله . مالقة حاطها الله) . (المرية حرسها الله) – ومثل (بحـمراء غرناطـة . نصر من الله وفتح قـريب) – ومثـل (العاقبة للمتقين) – ومثـل (وما النصر الا من عند الله) – ومثل (وما النصر الا من عنـد الله العزيز الحكيم صدق الله العظيم) – ومثل (ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) – ومثـل (الامير فـلان أعانه الله ونصره) . أو (أيده الله ونصره) وجميع هـذه العبارات لم تكن مسـتعملة في نقودهم قبـل الايام الاخـيرة التى أعقبها انقراض دولتهم وما زالوا على هذه الذتن حتى انمحى أثرهم من الجزيرة ولقي من بقي فيها من أنواع الاضطهاد والهوان ماسأفصله في الرحلة ان شاء الله

ومما ينبغي ذكره في هذا المقام انهم قد شهد لهم الاعداء قبل الاصدقاء بأنهم لما تم لهم في ظرف أربعة عشر شهرا فتح اسبانيا كلها ماعدا مغارات وصخور أُستُورِيش Asturias (Les Asturies)

---

(١) انظر السبذة التي وضعتها بخصوص أسماء الاعلام صحيفة ٤٢٦

لم يتجاوزوا الحدود ولم يشطوا فى الطلبات كما فعلته جميع الامم الفاتحة بل أبقوا للمغلوبين أموالهم وشرائعهم وديانتهم مكتفين بضرب الجزية وبشرف السيادة والسيطرة (١) بل انه لم يجل قط بخواطرهم الزام أهل الجزيرة بالدخول فى دين الاسلام ولكن لما سقطت غرناطة اشتدت وطأة المحكمة المعروفة بمحكمة التحرى القسيسى (Inquisition) فكان لها من القسوة مع التسطيم فى ارتكاب الفظائع مايخجل له كل من فى قلبه ذرة من المروءة والانسانية وهذه المحاكم قد أمر البابوات بانشائها لخدمة الدين ظاهرا والسياسة باطنا ولكن الاسبانيون أضافوا عليها أعمالا بربرية وحشية تقشعر لهولها الجلود وتجمد منها الدماء فى الشرايين فمن ذلك احراق الملايين من الكتب النفيسة وإبادة الالاف المؤلفة من النفوس البريرة البريئة بأنواع العذاب والاحراق والاغراق وغير ذلك مما لا يكاد يخطر على بال وعندما سقطت غرناطة أراد الكردينال شمينيس Xéminès ان يتنصر جميع المسلمين الذين فيها مع مخالفة ذلك للمعاهدة الصريحة التى عقدت

---

(١) وكذلك السلطان محمد الثانى لما فتح القسطنطينية وبلاد الاغارقة (La Grèce) ترك أهلها يتمتعون بحياتهم بكل سلام وأمان وأباح لهم ممارسة ديانتهم كأنه لم يطرأ عليهم شئ من الانقلاب وجرى على سننه الشريف خلفاؤه من بعده

مع أهل غرناطة وقت التسليم ولما كانت عملية التنصير تستوجب زمانا طويلا أراد الكردينال ان يصل اليها بغاية ما يمكن من السرعة كما تم فتح غرناطة فى وقت قريب فأرسل قسياوسته يعظونهم ويضطهدونهم كما يشهد بذلك نفس مؤرخيهم وما زالوا بهم حتى أخضعوهم واضطروهم للتعميد فدخل بهذه المثابة خمسون ألف نفس فى دين لايعتقدونه ولا يقولون به وياليتهم أبقوهم على ذلك بل جاء الكردينال تركماده Torquemada وزين لايزابلا انهم يظهرون خلاف مايبطنون وانه يسوغ حينئذ مصادرتهم فى أموالهم واعدامهم الحياة وقد كان

ولقد صدق على العرب ما قاله أحد ملوك فرنسا (وهو شارل مارتل) حينما فزع اليه أكابر دولته لما رأوا امتداد فتوحاتهم وسرعة توغلهم فى البلاد فانه قال لهم ما معناه — (الرأى عندى ان لاتعترضوهم فى خرجتهم هذه فانهم كالسيل يحمل من يصادره وهم فى إقبال أمرهم ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد وقلوب تغنى عن حصانة الدروع أمهلوهم حتى تمتلئ أيديهم من الغنائم ويتخذوا المساكن ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم على بعض فحينئذ تتمكنون منهم بايسر أمر) — فكان كذلك بالفتن التى استدامت بين البربر والعرب وبين العرب وبعضهم وصار بعض المسلمين يستعين ويستجيش على

بعض بمن يجاورهم من الاعداء وانقلب الموضوع وتبدلت الاحوال فقد أجلى المسلمون فى أول الامر جميع أهل الجزيرة وأقصوهم الى آخر حدودها شمالا حتى لم يبق منهم الا ٣٠٠ رجل مع ملك يسميه العرب بلاى ويسميه الاسبانيون بلايو Pelayo ويسميه الافرنج بلاج Pélage فالتجأ هذا العدد القليل بمكان يعرف عند العرب بالصخرة ويعرف عند الافرنج الآن باسم جبل كوفادونجا Covadonga ولم يزل المسلمون يلحون عليهم بالقتال حتى مات أصحابه جوعا وبقى فى ٣٠ رجلا و ١٠ نسوة ولا طعام لهم الا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به حتى أعيا المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا (ثلاثون علجا ماعسى أن يجىء منهم) وما علموا ان الائتلاف والاتحاد من جهة القشتاليين والتغابن والتخاذل من جهة أبنائهم وأعقابهم جعل لهؤلاء «الثلاثين علجا» من القوة والكثرة ما لاخفاء به حتى قهروا العرب وأجلوهم بالمرة وأذاقوهم أنواع الذل والهوان مما هو مسطور فى كتب التواريخ وسألم ببعضه فى الرحلة ان شاء الله

واعلم أن اخراج العرب من اسبانيا أضر بهذه المملكة وبأهلها ضررا بليغا لم يحصل له نظير فى مملكة من ممالك العالم على الاطلاق فانها كانت فى أيام العرب عامرة زاهرة بالغة من الحضارة

والجلالة ماهو مشهور معلوم وكان عـدد سكانها فى أزمانهم ٤٠
مليونا فاصبحت الآن مع الرجوع الى العمار وانتظام الاحوال
بعض الانتظام ولم الشعث ورم الرث ورقع الخرق ورتق الفتق
لاتحتوى على أكثر من ١٧ مليونا من النفوس فلذلك ترى
أغلب أراضيها خالية وأكثر مزارعها خاوية ومصادر الثروة فيها
مهملة وأصول الاسترزاق معطلة ولاأريد الاطالة بذكر الاسباب
وانما أقتصر على ايراد شئ قليل يدل على مايضطرنى حجم هذه الرسائل
وموضوعها للاجمال والاقلال فى المقال وذلك ان الملك فيليب الثانى
وحده طرد ممن بقى من المسلمين مابين ٦٠٠ ألف و ٧٠٠ ألف نفس
وكانوا كلهم لايشتغلون بغير الزراعة والتجارة والصناعة لايعرفون
استعمال السلاح باى حال من الاحوال وكانوا مفيدين نافعين
لانهماكهم فى الشغل والعمل فى بلاد اشتهر أهلوها بالبطالة
والكسل وكان القوم يضطرونهم للتظاهر بالنصرانية ويكثرون مع
ذلك من تعذيبهم واضطهادهم ومصادرتهم وتجشيمهم أنواع الاهوال
التى لاتخطر على البال حتى انهم لما بلغ الضيم بهم منتهاه نزعوا
الى الثورة وشق عصا الطاعة فاسترسلوا لداعى الفتنة ولكن أى
فتنة وهم قوم لايدرون شيأ من الطعن والضرب ولذلك لم
يكن على الدولة سوى ارسال نفر قليلين من جنودها لاخماد هذه

الشبيبة الثورة الضعيفة التى لاتذكر إخمادا تم فى أقل من لمح البصر ولقد رقت لبلواهم حينئذ دولة فرنسا حيث رأتهم أناسا مستضعفين لاناصر لهم ولا معين سوى انكبابهم على اتقان الصنائع واخصاب الاراضى ولذلك راسلهم ملك فرانسا هنرى الرابع (وقد أشرنا اليه أثناء كلامنا على التماثيل والانصاب فى باريس) ووعدهم بالامداد والانجاد وانه يجعلهم تحت حمايته حتى لاينالهم ضير ولا أذى ولكن الدهر كان لهم بالمرصاد وشؤم الطالع ونحس البخت من ورائهم أينما وجهوا وجوههم لايرون الانكدا وبؤسا ولايلقون الاانتقاما وتعسا فقد قضى عليهم ان لايخلصوا من ورطة الاوقعوا فى شرمنها وان لايسلكوا سبيلا للنجاة الا انقلب عليهم سبيلا للهلاك ولله فى خلقه تدبير سبحانه قسم الحظوظ فلا عتاب ولاملامه وذلك أنهم لما تلهفوا بقدر ماتلهفوا ثم استنشقوا روح الامل القليل بمساعدة هذا الملك الجليل لم يلبثوا ان انقلبت أمانيهم خسرانا عليهم ووبالا فان أحد الكتاب فى نظارة الخارجية بفرنسا خان الملك وأذاع هذا السر وأعلم ملك اسبانيا بما عزمت عليه فرنسا فكان ذلك سببا للتعجيل فى تفريقهم والاسراع بتمزيقهم والمبادرة لطردهم (وهم بقية بقايا البقايا بالاندلس) غير انهم كانوا شديدى التعلق بالبقاء بالاندلس للتمتع به واستنشاق

نسيه فعرضوا على الملك ان يدفعوا له مليونين من الدنانير ثمنا لا بقائهم فى أرض مهادهم فلم يرض فيليب بذلك على الاطلاق ولكنهم لشدة تعلقهم ببلادهم أنفوا من الخروج مؤثرين الذل فيها على العز فى غيرها فالتجأ نحو ٢٠ ألفا منهم الى الجبال ولم يكن لديهم من وسائل الدفاع سوى الحجارة والمقلاع وهى من الوسائل التى لاتفيد شيأ ولذلك مالبثوا ان اضطروا للتسليم ثم صار نقلهم خارج المملكة ففقد فيليب بذلك أفضل رعاياه وأكثرهم حذقا ومهارة . وقد لجأ أغلب من نجا بحياته من هؤلاء الاندلسيين المطرودين الى افريقية وطنهم الاول وأدخلوا بها من الصنائع والفنون ماجعل صحاريها جنانا وبواديها نعيما . ونهض بعضهم الى أرض فرنسا فى عهد مارى دومدسيس ثم بارحها الذين لم يرضوا بتغيير دينهم الى أرض تونس وأما الباقون فتنصروا واستقروا باقليم بروفنسه (Provence) ولانجدوك (Langdoc) بل ذهب بعضهم الى باريس واستوطن بها وكانوا معروفين متميزين عن بقية القوم ولكنهم مع توالى الزمن امتزجوا بالامة امتزاجا تاما فاستفادت فرنسا من حيث خسرت اسبانيا وهذه سنة الله فى خلقه تتداخل الامم فى بعضها بالاضطهاد وبالفتوحات — وقد قرر العلامة فولتير هذا الموضوع

ولقد أبقى العرب فى اسبانيا آثارا مادية كثيرة لايزال بعضها باقيا الى يومنا هذا كما أنهم خلدوا فيها كثيرا من النظامات والقوانين

والسياسات والتراتيب والاحكام مما يراه الانسان فى هذه البلاد حتى اليوم كما أنهم كان لهم مؤثر كبير فى الاخلاق والآداب حتى لقد رأيت فى أخلاق أهل إسبانيا أخلاق العرب وشهامتهم وكرامتهم فقد لقيت فيهم حسن الوفاء وجيد الطباع والتحبب الى الغريب والفرح بافادته واعانته سواء كانوا يعرفونه أولا يعرفونه وذلك مايجعلنى أفضلهم جهارا وأشهد على رؤس الاشهاد بان أخلاقهم أدمث وألطف وأشرف من جميع الامم التى طفت ديارها فى هذه الرحلة المستطيلة وسأشرح ذلك بالتفصيل عند الفرصة اعطاء لكل ذى حق حقه وتقريرا للوقائع كما هى حتى انى وجدت فيهم من الطباع النبيلة ماقد نسيه أهل البلاد العربية وانى اذا تعصبت لامة من الافرنج فانما يكون ذلك لاهل اسبانيا حياهم الله وبياهم فقد آنست فيهم وفى بلادهم خصوصا أيام كنت أجهل لغتهم وليس لى من صديق فيهم وقبل وصولى الى مدريد مايجعل لسانى يتلو آيات شكرهم فى كل ناد ويفصح بمفاخرهم وآثارهم فى كل واد على توالى الآماد وأكرر قول الاندلسى على جميع البلاد

أخلاق الاسبانيين

تلك الجزيرة لست أنسى حسنها ❁ بتعاقب الاحيان والازمان

تكملة الرسالة الاندلسية

وهى

(نبذة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا)

(والاستشهاد على ذلك بالاسماء والالقاب)

اعلم أن كثيرا من أشراف العائلات الاسبانية الاصلية امتزجت بالعرب امتزاجا كليا ودخلت فى دين الله القويم ولكنها لم تغير ألقابها الخاصة بها لما كان لها بالطبع من الجاه والحسب وقد نبغ منها كثيرون

مثال ذلك ❁ ابن بونه وهو اسم لكثير من أدباء الاندلس وأصله الاسبانى (Bueno و Bono) ومعناها الطيب والجيد — ولاتزال عائلات اسبانيه كثيرة بهذا الاسم الى الآن ❁ ومثل ابن بيبش (وهذا هو الاسم الذى دعانى لتحرير هذه الكالة) وهو اسم لجملة أدباء اندلسيين منهم الغرناطى اللغوى الاديب أبوعبد الله محمد بن بيبش (Ibn Vivax) من شيوخ وزير الاندلس المشهور بابن الخطيب . وأصل اسم العائلة من كلمة اسبانية لاتينية (Vivas و Vives) مشتقة من فعل معناه الحياة والعمر والمعيشة — وربما كان صاحبنا الدون أنطونيو فيفس المذكور بالمتن (صحيفة ٤١٨) من نسل هذه العائلة فاذا صح ذلك الظن

تكون أصلها اسبانية ثم استعربت ثم استسبنت (أى صارت اسبانية كما كانت) ويكون الحكم كذلك فى بقية العائلات المذكورة فى هذه النبذة ۞ ومثل ابن بشكوال Ibn Paxcual وهو الشيخ العالم أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال من مشاهير المؤرخين من أهل قرطبة وله كتب كثيرة جزيلة الفائدة منها كتاب الصلة فى تاريخ أئمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم وهو حجة ثقة واسمه مشتق من Pascual من كلمة لاتينية Paschalis ومعناها المنتسب لعيد الفصح ولايزال باسبانيا وأوروبا عائلات كثيرة بهذا الاسم ۞ ومثل ابن الأُقشتين وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الاديب محمد بن موسى بن هاشم وهذا الاسم من كلمة اسبانية Agustin فرنساويتها Augustin ولاتينيتها Augustinus ومعناها العظيم الجليل ۞ ومثل ابن الباذش وابن البيذش Ibn-al-Pedex وهى كلمة اسبانية لاتينية نص ابن الأبار على ان معناها القدمان أى الرجلان Pedes وهو لقب لاديب غرناطى توفى سنة ٥٢٨ ۞ ومثل ابن بُرَّال Borrel و Burriel وهو أبو بكر من مشاهير أدباء الاندلس ولايزال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة ۞ ومثل ابن بَشْتَغَيْر (Ibn Baxtagair) وهو من أدباء الاندلس واسمه أبو جعفر ولقبه من كلمة لاتينية Bastagarius معناها الموكل بنقل أمتعة

الدولة أو الكنيسة فى الاحتفالات العمومية ۞ ومثل الرُّشاطى وهو النّسابة الاندلسى أبو محمد الرشاطى Arroxati وهذا الاسم مشتق من كلمة اسبانية (روسيتا = Roseta بمعنى الوريدة تصغير وردة) ۞ ومثل ابن الرومية وهو لقب لاحد مشاهير علماء النبات من أهل اشبيلية وبما ان عادة العرب النسبة الى الاب لا الى الام الا فى أحوال استثنائية قليلة جدا فذلك يخيل لى أنهم أبقوا له هذا اللقب دلالة على أصله كما فعلوا بالنسبة لابن القوطية أحد مشاهير كتاب الاندلس فان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza أو Vitiza المعروف عند العرب باسم غيطشه وربما كان الرجل من نسلها ۞ ومثل ابن غَرْسِية وهو لقب لكثير من الاندلسيين منهم الفقيه العلامة عبد الرحمن بن أحمد وهذا اللقب اسبانى محض Garcia وكان فى القديم يكتب هكذا Garsea و Garsia و Garseas و Garseanus ولازال لقبا لعائلات اسبانية كثيرة ۞ ومثل ذو الوزارتين السرقسطى ابن غُنْدَشَلْب وكان صاحب جاه عظيم ونفوذ كبير فى دولة بنى هود بمملكة الثغر الاعلى أى مملكة سرقسطة وله شعر جيد — وهذا الاسم اسبانى محض Gonzalo و Gonzalve و Gonzalez الخ ولايزال اقبا لكثير

من العائلات ۞ ومثل ابن فُورْتِش وهو لقب لبعض علماء الاندلس (ولاتينيته Fortis بمعنى قوى شديد) — ولايزال لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن ۞ ومثل ابن كُنْبَراط Comparath وهو من أهل بلنسية العارفين بالطب وعنه أخذ القاضى أبو الوليد بن رشد Averroès فيلسوف الاندلس المشهور — وهذا اللقب اسبانى محض ۞ ومثل ابن ليون لقبٌ لابى عثمان العالم الاديب الناشئ بمدينة المرية Almeria ولابيه أبي جعفر من علماء الفلاحة المبرزين ومن شيوخ الوزير ابن الخطيب — وهذه الكلمة اسبانية محضة Leon تجئ من اللاتينية ,Leonis بمعنى الاسد ولازالت لقبا لكثير من العائلات الاسبانية الآن ۞ ومثل ابن سَلْبَطُور من مشاهير علماء الاندلس وهذا اللقب مستعمل الى اليوم — وهو بالاسبانية Salvador وبالطليانية Salvatore وبالفرنساوية Sauveur ومعناه المخلّص والمنقذ والمنجي وهو عَلَم فى العادة عند النصارى على سيدنا عيسى عليه صلاة الله وسلامه — ومثل ابن فيِرُّه لقب للعالم الاندلسى المشهور صاحب الشاطبية وقد نص ابن خلكان على انه لقب اسبانى معناه الحديد — واعلم ان الحديد يسمى عند الفرنساويين Fer وعند الطليانيين Ferro وكان يسمى كذلك فى القديم عند أهل اسبانيا مشتقين له من اللفظة

اللاتينية ولكنهم اليوم حرفوه فلا يقولون « فِيرُّه Ferro » اذا أرادوا ذكر الحديد بل يقولون من باب التحريف « Hierro هيره» وهم لا ينطقون مطلقا بحرف H مقابل الهاء ولكنهم يقولون عن السكك الحديدية Caminos de و Ferrocariles hierro فترى ان كلمة « فِيرُّه » لازالت باقية عندهم فى بعض التراكيب ۞ ومثل ابن فورتون وابن مورجون لكثير من علماء الاندلس وهما لقبان اسبانيان محضان لايزالان مستعملين الى اليوم Fortun و Morejon ۞ — وقد اطلعت على أسماء كثيرة للاندلسيين وليست من العربية فى شئ على الاطلاق مثل تومرت وانجلينو واشقيلولة ومردنيش وهمشك وكثير غيرها ولكننى لم يتيسر لى ارجاعها الى أصولها الافرنكية وسأستو فى ذلك فى فرصة أخرى ان شاء الله

ومن الامور التى يجب ذكرها تكملة لهذه الكلمة أن أهل الاندلس المسلمين تفردوا بزيادة الواو والنون فى آخر ألقابهم بخلاف المشارقة كما تفرد بعض الاعجام بزيادة «ويه» فى سيبويه ونفطويه وعمرويه وخالويه ومردويه ومزرويه وحيويه وشاهويه ودرستويه وراهويه ورزقويه ومادويه وقاذويه وشيرويه وكاكويه وحمويه ورحمويه الخ وكما تفرد الارمن بزيادة «يان» و «آن» فى آخر أسمائهم وكما تفرد الروس بزيادة «أوف»

و «إيف» ولاحاجة لايراد الامثلة هنا فانها مشهورة سوى انى أقول ان بعض أهالى ايران والجركس وغيرهم من التابعين الآن للروسيا ملزمين باضافة «أوف» أو «إيف» على أسمائهم وقد لاقيت فى المؤتمر عالما فارسيا من هذا القبيل اسمه «أحمداغايف بك أى أحمد أغابك» واعلم ان نظير هذين الحرفين «الواو والنون» أى on فى اللغات الافرنكية وخصوصا الاسبانية اذا وضعا فى آخر كلمة افرنجية أفاداها القوة والشدة والتفخيم وكأنى بالاندلسيين أرادوا هذا المعنى من باب التسامى على المشارقة ومثال هذه الاسماء مضافة الى لفظة ابن: بدرون . برون بكرون - جبرون . جلفون - حبرون . حبنون . حضرون . حفصون . حكمون . حمدون . حنون . حيون - خلدون (١) خلفون . خيرون - دحون -

---

(١) أذكرهما من باب التفكهة ان أحد شعراء الاندلس وهو أبو على المالقى هجا العلامة ابن خلدون بهذين البيتين

ياشاعرا يتسامى ✽ وجده خلدون

لم يكف أنك خل ✽ حتى بانك دون

وهذا شبيه بالشاعر الذى ذم نفطويه والقائل أبو عبدالله محمد بن زيد بن على بن الحسن الواسطى المتكلم المشهور قال

من سره أن لايرى فاسقا ✽ فليجتهد أن لايرى نفطويه

أحرقه الله بنصف اسمه ✽ وصير الباقى صراخا عليه

قال ابن خالويه ليس فى العلماء من اسمه ابراهيم وكنيته أبو عبد الله سوى نفطويه وهو بكسر النون وفتحها والكسر أفصح لقب بذلك لدمامته تشبيها له بالنفط

وزقون ـ زرقون . زقنون . زكون . زيدون ـ سحبون .
سعدون . سلبون . سلمون . سمعون . سمجون . سهلون ـ
شبطون Xabaton ـ ضيفون ـ عبدون . عُبَيْدون (وفي هذا الاسم
تصغير بالعربي وتكبير بالافرنجي) . عجلون . عسلون . عفيون .
عمرون . عيسون . عيشون ـ غدرون . غلبون ـ فتحون .
فلون . فرحون ـ قلمون . قنون ـ نطفون . وهبون ـ
يسعون . يشعون . يحيون .

الشاعرة زهون

واعلم أن زيادة الواو والنون تعدت أيضا الى بعض أسماء النساء
نذكر لك اسم الشاعرة نزهون وهى من أشعر نساء الاندلس ومن أكثر
المشتغلين بالنظم بديهةً واجادةً كانت تسكن بغرناطة ولها واقعة
حال مع شاعر أعمى من المشارقة تدل على شدة بديهتها حينما
طارحته الشعر فى حضرة أحد الامراء ولولا مافيها من بعض
الاخلال بالادب لذكرتها من باب التفاخر بها ولكن ذلك لايمنع
الطالب من البحث عليها فى كتاب نفح الطيب المطبوع فى بولاق
صحيفة ٩٠ و ٩١ و ٩٢ وأخبارها فى صحيفة ١١٤٦ و ١١٤٧
من الكتاب المذكور وقد أورد الضبي شيأ من أشعارها فى كتاب بغية
الملتمس فى تاريخ أهل الاندلس فى صحيفة ٥٣٠ (نمرة ١٥٨٨) من
النسخة المطبوعة فى مدريد سنة ١٨٨٥

سعدونة شاعرة

ونذكر أيضا اسم شاعرة أخرى مشهورة وهى سعدونة فقد أضيف الى اسمها علامة التأنيث

والاغرب من ذلك أن بعضهم أضاف على اسمه حرفى الواو والسين وهما علامة الانتهاء فى اللغة اللاتينية Us ومثال ذلك : أحمدوس أنسوس ـ عبدوس . عمروس ـ طحلوس . طملوس ـ فالوس فرعوس . فرغلوس ـ قبتروس . قبيلس ﴿﴾ ومنهم من يسمى حمديس وهذان الحرفان الانتهائيان هما أيضا من خصائص اللغة اللاتينية (Is) كما لايخفى على العارف . واعلم أن هذه الاسماء التى ذكرناها هى أعلام لعلماء ترى تراجمهم فى كتب ابن الابار وابن الفرضى والضبى وابن بشكوال ونفح الطيب وابن خلكان ودائرة المعارف وآثار الادهار ومجموعة القطع العربية التى انتخبها العلامتان الاسبانيان لرتشندى و سيمونيت (Lerchundi y Simonet) والمعجم العربي الاسبانى الذى ألحقاه بكتابهما المذكور

واعلم أيدك الله وأبقاك أنه لما آل أمر بقاياهم بالاندلس الى منتهاه من التلاشى والاضمحلال وتناسوا اللغة العربية وأساليبها مرة واحدة أهملوا لفظة « ابن » واستبدلوها بعلامة الاضافة فى اللغة القشتالية وهى «دو» فكانوا يقولون (فلان دو فلان) أى (فلان من) أو (ابن فلان) ولقد نبهنى بعض الفضلاء الى أن الافرنج قد يكونون استعملوا لفظة (de = ذو) فى اضافة الاسماء والالقاب الخاصة بعائلاتهم الشريفة نقلا عن استعمال العرب اليمانيين الذين يستعملون لفظة (ذو = صاحب) أمام

أسمائهم وانى وان لم يتيسر لى استكمال البحث واستيفاء المراجعة لا أرى مانعا من الظن بان الافرنج قد أخذوا ذلك عن أهل اليمن خصوصا وان التبابعة والاقيال كانوا اولى العز وفى جهات الشمال من آسيا وفى بلاد فارس والهند ومن المحتمل ان كبار عائلات البلاد التى أخضعوها أومروا بها قد تشبهوا بهم فى التكنيه بالقاب الشرف كما يحصل عادة من تقليد الامم المستضعفة للامم القوية العلية الشأن ولا يجهل الباحثون الواقفون على ارتباط اللغات بعضها ان بين اللغات الفارسية والهندية وبين اللغات الاوروبية ارتباطات ومشابهات كثيرة جدا فيما يتعلق باصول الالفاظ والتراكيب النحوية والاساليب الصرفية وطرائق التعبير وغير ذلك من العلاقات والمناسبات التى لا تنكر وانى أذكر لك الآن أسماء بعض ملوك اليمن الذين تصدرت ألقابهم بلفظة (ذو) : ذو الاذعار ــ ذو أصبح ــ ذو الاعواد ــ ذو جدن ــ ذو جيشان ــ ذو رعين ــ ذو رياش ــ ذو سدد ــ ذو شدد ــ ذو الشناتر ــ ذو الصرح ــ ذو ظلم ــ ذو عائش ــ ذو القرنين ــ ذو قلاع ــ ذو كرب ــ ذو كلاع ــ ذو مرثد ــ ذو المنار ــ ذو مهدم ــ ذو نفر ــ ذو نواس ــ ذو هجرس ــ ذو هرب ــ ذو يزن ــ ذو عين

وكذلك وردت أعلام جغرافية كثيرة فى بلاد اليمن وغيرها مصدرة بهذه الاداة (ذو) ولعلى أستكمل البحث عن ذلك فى فرصة أخرى

ونرجع الى الكلام على ما يتعلق ببقايا الاندلسيين فى هذا الموضوع فنقول انهم بعد أن تناسوا لفظة (ابن) وصاروا يقولون (فلان دو فلان) استبدلوا لفظة السيد بالكلمة المقابلة لها فى اللغة القشتالية (الدون) (١) كما يفعل الآن بعض العوام من وضع كلمة موسيو الفرنساوية

(١) وهى مستعملة عند أهل اسبانيا فى مقابلة موسيو عند الفرنساوية وسير عند الانكليز وسنيور عند الطليانية وهى مختصرة من كلمة لاتينية Dominus ومعناها الرب والمولى والسيد وقد أطلق هذا اللقب فى أول الامر على سادات اسبانيا ثم على ملوكها ثم هو الآن لقب التعظيم فيها

باسماء الاعلام العربية فى الكتابات والمخاطبات على ما هو مشاهد اليوم ومثال ذلك عندهم الدون عيسى دوجابر الفقيه الاكبر والمفتى بجامع شقوبية (Ségovie) فى سنة ١٤٦٢ افرنكية فانه ألف كتابا جليلا فى الفقه الاسلامى باللغة الاعجمية (الالخميادو) التى سبق لنا الاشارة اليها وقد طبعت هذا الكتاب جمعية التاريخ الملوكية بمدريد فى سنة ١٨٥٣ فى الجزء الخامس من مطبوعاتها) وعندى نسخة منه تدل على غزارة فضله وواسع علمه ❁ وقد بلغنى من بعض العلماء أن بعض المراكشيين المتوطنين على الساحل يستعملون ذلك التلقيب اليوم — والاغرب من هذا وهذا ما بلغنى فى مدريد من بعض أهل السياحة والتحقيق ان الاعراب البدويين المتوطنين فى صحارى مراكش (أى بعيدا عن الساحل بمسافات شاسعة تمنع خيال الظن بوجود أى تأثير للاختلاط مع أهل اسبانيا الآن) لايزالون يستعملون هذه الطريقة فى التسمية أى وضع كلمة « دو » فى المكان الذى يضع فيه بقية العرب لفظة « ابن » وهذا دليل على اتصال نسبتهم بالاندلسيين الذين أخرجوا من ديارهم — هذا وقد رأيت عند الدون پابلو خيل فى سرقسطة حججا شرعية وصكوك معاملات ووقفيات مكتوبة باللغة الاعجمية (الخميادو) وفيها « الدُّنْيا عائشة » أى السيدة عائشة والدون فلان وهكذا

ثم أقول من باب الاستطراد غير متعرض فى هذا المقام الى

استكمال البحث فانى أريد توفيته فى فرصة أخرى ان الاسبانيين وقع منهم مثل ماوقع من العرب فان الناظر الى اسمائهم لايعسر عليه ان يتعرف فيها اعلاما عربيـة قد يكون بعضها مأخوذا بالوراثة وبعضها عفوا أولمناسبة أخرى ومثال ذلك Codera وهو قديرة (ولايزال الحاج قديرة والحاج قدور من أسماء أهل طرابلس وتونس والجزائر ومراكش) ومثل Zaidyn = زيدين ❁ و Abad اى عباد ❁ و Alvarez = الفارس ❁ و Alvarez del campo أى فارس الميدان ❁ و Baguer = الباقر ❁ و Moreira = مريرة ❁ و Sofi = صوفى ❁ و Ferran = فران ❁ و Almenara اى المنارة ❁ و Alcayde = القائد ❁ و Alcalde = القاضى (ولايزال هذا اللقب عندهم مرادفا للمحافظ والمدير وحاكم البلد كما كان يسمى عند العرب بالقاضى اذ له اختصاصات كثيرة فى الشرع الشريف ويسمى عند الفرنساوية Alcade وان كان الاسبانيون أضافوا لاما L من باب التحريف فى قولهم Alcalde فانما ذلك لاظهار تفخيم الضاد) ❁ و Rabadan = رمضان (الباء حلت تحريفا محل الميم العربية) ❁ و Nasarre = نصار (والاسبانيون ينطقون بحرف S سينا على الدوام مهما كان موقعه بين الحروف الاخرى) ❁ و Calaf = خلف ❁ و Maymon =

ميمون ۞ و Meaza = معازة ۞ و Alvaro = البر ۞ و Alfageme = الحجام الخ

وهذه الاعلام كلها لاناس موجودين فى اسبانيا الآن رأيت بعضها فى كتب الدلالات وعرفت بعضهم بنفسى ومن ينظر الى اعلام الاسبانيين الآن يرى فى آخر أكثرها هذين الحرفين Ez وهما على ماتأكدته علامة على البنوة فكل اسم فى آخره ذلك يكون معناه ابن فلان مثل Fernando أى فرندو ثم Fernandez أى ابن فرندو وهكذا فى جميع الاسماء ولم أر مايشبه ذلك فى بقية اللغات الافرنجية التى اطلعت عليها نعم ان كثيرا من أسماء الانكليز تنتهى بمرادف لفظة ابن وهى سن أو سون son مثل ساموبلسن وروبرتسن وجونسن ونحو ذلك ولكنها لاتشعر بالدلالة على البنوة وربما كان هذا المعنى مفهوما منها فى أول الامر ثم تنوسى الآن مرة واحدة بخلاف ماهو فى اسبانيا

وهذا مايدعونى الى الظن بانه أثر باق من آثار العرب الذين ينتسبون على الدوام الى الاب مع لفظة ابن والذى يقوى ذلك الظن ان هذه الزيادة فى آخر الاعلام الاسبانية تشبه تمام المشابهة لفظة « زاده » و « أوغلى » التى تضاف على أواخر الاعلام التركية والله أعلم

(الخاتمة)

بعد أن زرت غرناطة وكتبت رسالتي الاندلسية التي لم يتيسر لي أن أوردفيها جزأ من عشرين مما وقفت عليه من أحوال الاندلس وما رأيته فيها من آثار العرب و بقية أخلاقهم وغير ذلك مما قد يستغرق مجلدا ضخما قمت الى قرطبة(١) وشاهدت المعاهد والبقايا في هذه البلدة الشائقة بل الجنة الرائقة التي يسقيها الوادي الكبير وتحفها أشجار الليمون والبرتقال والرمان فينتشر أريجها ويضوع نفحها فيتعطر هواؤها ويطيب المقام بها ولم تصل مدينة اسلامية الى ماوصلت اليه قرطبة من كثرة المساجد فانها بلغت فيها ١٦٠٠ مسجد وأوصلها آخرون الى مايزيد عن ضعف ذلك وأهم مارأيته فيها هو المسجد الجامع الذي لانظير له في العالم الاسلامي وقد كان في مكانه كنيسة فاشترى المكان عبد الرحمن الداخل بمبلغ مائة ألف دينار ثم صرف على بنائه وتشييده ثمانية آلاف ولكن الملوك والخلفاء الذين أعقبوه لم يقتصروا على ذلك بل رأوا من الضرورة توسيعه والزيادة فيه وعدد هؤلاء الخلفاء ثمانية وكان كل واحد ينفق بقدر سعته ومنهم الحَكَم أنفق وحده أكثر من ١٦١ ألف دينار وكلها من فيء المسلمين الذي يخص بيت المال

المسجد الجامع في قرطبة

---

(١) يقول العرب ان معناها باللغة القوطية (القلوب المختلفة) وقال بعضهم (أجزو أسكنها)

وحده (وهو عبارة عن خمس الغنائم كما هو معلوم) ولما جاء المنصور بن أبى عامر وزير الاندلس المشهور وعزم على زيادة المسجد ليكون مناسبا لاتساع قرطبة وزيادة سكانها كان يحضر أرباب الدور التى يريد نقلهم عنها فيقول للواحد منهم «ان هذه الدار التى لك يا هذا أريد أن أبتاعها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها فى جامعهم وموضع صلاتهم فشطط واطلب ماشئت» فاذا ذكر له أقصى الثمن أمر أن يضاعف له وأن تشترى بعد ذلك له دار عوضا عنها حتى أتى بامرأة لها دار بصحن الجامع فيها نخلة فقالت «لا أقبل عوضا الا دارا بنخلة» فقال «تبتاع لها دار بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال» فاشتريت لها دار بنخلة وبولغ فى الثمن (وهو دليل على شدة عناية القوم باشياء المشرق وكثرة حنينهم الى النخل الخاص ببلادهم الاصلية ولعبد الرحمن الداخل ولغيره من الملوك قصائد جليلة فى مخاطبة النخل) وقد استمر المنصور فى أعمال الزيادة بالجامع مدة سنتين ونصف وكان يخدم فيه بنفسه كأحد العمال وكان قصده الزيادة فى الاتقان والوثاقة دون الزخرفة واعلم ان هذا المسجد أصبح الآن عبارة عن كنيسة كندرائية جامعة وقد بقيت معالمه الرئيسية على ماهى عليه وأقسم بالله انى أكثرت من البكاء المرحينما درت فى صحونه وبين عمدانه ووقفت فى محرابه وتأملت مافيه من غرائب الاتقان التى لا تخطر على بال مع الفخامة والضخامة وهو متجلبب بجلباب من الجلالة يوحى المهابة التعددية فى نفس الزائر ويجعله يشعر

حقيقة لوجود خالق معبود قسم الحظوظ وقدر الارزاق وأراد ما أراد
ولا أتصور أن الخشوع الديني والخضوع التعبدي يحدث في نفس أي
انسان في أي معبد من المعابد التي أقامتها جميع الامم على إختلاف
نحلها ومقالاتها بكيفية أكثر وأظهر وبانفعال أتم وأكمل مما رأيته
في هذا الجامع الذي يحتوي على ١٢٩٣ عمود من مختلف الرخام والصوان
وكلها منقوشة التاج والقاعدة بكيفيات تخالف بعضها وقد كانت قبته
مستندة على ٣٦٥ عمود من نفيس المرمر وبلغ مسطحه ٢٣١٥٠
ذراع مربع وأما المحراب فقد رأيته مصنوعا من أحجار دقيقة مختلفة
الالوان متركبة مع بعضها على نظام النص والفسيفساء بحيث
تحدث منها أشكال متناهية في الجمال وآيات قرآنية وأحاديث نبوية
واذا نظر اليها الانسان من ذات اليمين رأى ألوانا وأضواء وأشكالا
وتراكيب تخالف كل ما يراه لو وقف جهة الشمال وكذلك الامر
فيما لو وقف في الوسط أو تقدم أو تأخر وهكذا وخلاصة القول انني
أتصور هذه القبلة مركبة من أحجار كريمة دقيقة مرصوفة بجانب
بعضها باكمل ذوق وأحسن أسلوب

ثم خرجت من قرطبة منقبض الصدر مكلوم الفؤاد ولم
أرض برؤية شئ غير المسجد في عاصمة الاندلس العربية

وقمت الى مدريد ومنها الى سرقسطة الى برشلونة Barcelone
الى مارسيلية فبقيت بها أياما شاهدت كل ما يجوز للغريب وعابر

السبيل ان يراه فيها وفى أول فبراير سنة ١٨٩٣ امتنع الخبازون عن اصطناع الخبز لخلاف فى التثمين وقع بينهم وبين البلدية فكان لذلك منظر من أغرب المناظر واستمر الحال ثلاثة أيام كاد الناس يقتلون بعضهم فيها ثم انحسمت النازلة على أحسن حال

ورأيت فيها آثارا كثيرة وأعمالا عظيمة منها القصر والبستان والمنتزه (البرادو) الذى لانظير له فى العالم وكنيسة فاخرة على جبل عال يصعد اليها بعربات تجرها قوة الغاز من أسفل الى أعلى على قضبان حديدية تكاد تكون رأسية عمودية بلصق الجبل وهى تزيد فى العظمة عما رأيته فى تورينو وركبت فى عربات الامنيبوس التى تجرها الكهرباء باسلاك معلقة فى الجو تتصل العربة بها بواسطة سلك معدنى فتندفع العربة الى الامام أو الخلف بقوة شديدة أو خفيفة أو تقف مرة واحدة بحسب ارادة السائق عند اللزوم . وأقول الحق ان أول شئ عنيت به عند دخولى اليها أنى أكلت من طعامها المشهور وهو البوبابيس la bouillabaisse ورأيت كثيرا من مصانعها ومعاملها والذى يستحق الذكر منها الآن بغاية الايجاز هو معمل أنشأه أحد الاطباء للمساعدة على إتمام خلق الجنين الذى يولد بعد ٦ أو ٧ أو ٨ أشهر أى كل جنين يولد قبل الميعاد وتكون فيه الروح ولكنه اذا تُرك مات فى الحال فترى الاجنة موضوعة فى بواقيل زجاجية فيها الحرارة والغذاء

معمل المساعدة على اتمام خلق الاجنة

مدبرتين تدبيرا عجيبا بأنابيب تتصل الى الجنين بدرجات معلومة ولله في خلقه أسرار تبارك الواحد القهار

ثم قمت الى مدينة تولون وهى أهم مينا حربية بحرية ببلاد فرنسا وقد كان للمسلمين بها جامع فخيم فى أيام السلطان سليمان القانونى فان شرلكان ملك فرنسا استنجد بالسلطان العثمانى فارسل له عمارة بحرية تحت قيادة الاميرال خير الدين باشا المعروف عند الافرنج باسم Chéridin المشتهر عندهم أيضا باسم Barbeousse أى ذى الذقن الصهباء وقد أقام الاميرال العثمانى بالمدينة شتاء كاملا وكان له الحكم المطلق فيها وقد جعل أحد دورها الكبيرة مسجدا جامعا للمسلمين

ثم انى قمت الى مدينة نيس (Nice) المعروفة عند العرب باسم نيقة فانهم قد احتلوها هى وشواطئ فرنسا الجنوبية زمنا مديدا وهى من أجمل المدن وألطفها وأنظفها وغاية ما أقوله عنها الآن أنى شاهدت فيها الاحتفال بالكرنفال (أى عيد المرافع) وهو أعظم احتفال يحصل فى العالم كله من هذا القبيل اذ تجىء اليها قطارات مخصوصة لحضور هذا اليوم المشهود من لونديه وباريس وبرلين وويانه ورومة وغيرها من امهات مدن أوروبا كلها بل ويحضرها فى هذه الفرصة كثير من أهل أمريكا ويحتفل به الاهالى والبلدية احتفالا يشمل جميع أجزاء المدينة ويدفع التجار رسما معينا للمعاونة

البلدية على تنظيم الاحتفال والانوار باغرب ماتتصوره العقول وأبهى ماترتاح له النفوس ومتى حلت أيام المرافع ارتفع سلطان العقل من آفاقها وذهب موليا الادبار طالبا النجاة بنفسه فى غير هذه الديار ثم يحتلها سلطان الجنون بجنوده فتسقط التكاليف وتمتنع الحيثيات ويبقى الناس كلهم كاهم كاهم فى درجة واحدة فرحين مستبشرين ضاحكين ساخرين وهم متشحون بغرائب الملابس ويتخذون لوجوههم ورؤسهم صورا ما أنزل الله بها من سلطان ويرقصون جميعهم فى الشوارع مختلطين نساء ورجالا وعذارى وأطفالا ويترامون بقصاصات الورق Confetti والارز والفصولية وباقات الازهار وغير ذلك مما لاتحيط به الافكار وهم يسيرون زرافات ووحدانا مشاة وركبانا ويتخذون عربات غريبة الشكل تضحك الثكلى وتزيل طوعا أوكرها تقطيب الوجه العبوس ويصطنعون سفنا تجرها الافراس والخلاصة أنهم يركبون من الرقاعة والخلاعة كل متن ويذهبون فيهما كل مذهب ومع ذلك ترى النظام سائدا و لادب العمومى ضاربا أطنابه فى قواعده الشكلية فقط وهم فى هذه الايام لا يعرفون الزعل أو الكدر أو الغيظ أو الحنق أو المضايقة أو غير ذلك مما هو من مستوجبات الطبيعة البشرية ولهم فى ذلك نظامات ورسوم معلومة لكل يوم من أيام الاحتفال ولا شك ان شرح ذلك بالبيان الذى يجيش فى صدرى

يستوجب رسالة ضافية مطولة لا يسعها المقام الآن وليس الخبر كالعيان

ثم قمت الى مدينة موناكو ومنت كارلو (منت قارله فى كتب الجغرافية العربية القديمة) ورأيت جمال مناظرهما الطبيعية وصفاء البحر تحت أقدامهما وبهاء الجبال فوقهما ونضرة الاشجار فى جميع جهاتهما وغير ذلك من المناظر الطبيعية والصناعية التى تنبسط لها النفس وينشرح منها الخاطر ومدينة منت كارلو مشهورة بالمنتدى الذى هو أكمل وأجمل منتديات العالم فى لعب الميسر (القمار) وقد زرته للوقوف على حقائقه وأحطت علما بقوانينه واجراآته

ورأيت بها معرضا عاما خصصوا له محلا عظيم الاتساع ليعرض فيه العارضون كل ما يريدونه من صناعة وتجارة وفنون وعلوم وزراعة وغير ذلك وتعطى فيه لاحسن العارضين وسامات وشهادات على سبيل المكافأة - وما أحسن ما قالته احدى الجرائد فى هذا المعنى «كان الاليق بهذه الامارة أن تقيم معرضا لفنون العاب القمار لانها احتكرتها ونبغت فيها بل تفردت بها على غيرها من الممالك والبلدان»

ثم خرجت منهما قاصدا بلاد ايطاليا فمررت على جنوة فبيشة (لاأنساها) فرومة وأقمت بها ثلاثة أيام ورأيت فيها الاحتفال بالكرنفال

وشاهدت حرب الزهور Bataille des fleurs ولكن احتفالها مع جسامته وفخامته لا يساوى جزأ من عشرين مما رأيته فى نيقة Nice. ثم ركبت البحر عن طريق برندزى ووصلت الى الديار وحمدت الله على ما حصل من توفيقه لى وعنايته بى أكثر مما كانت تحوم حوله آمالى

* * *

والناظر الى هذه الرسائل يعلم انى بارحت القاهرة فى يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٩٢ ورجعت اليها فى يوم ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ فتكون مدة رحلتى ستة شهور بالتمام قد لاقيت فيها حر أوروبا وحمارّته كأشد ما يكون وقاسيت بردها وصبارّته فوق ما يقدر عليه شرقى مثلى تغرب فى أوروبا لاول مرة ويرى انى زرت مرتين ثنتين خمسة من عواصم أوروبا وهى رومة وباريس ولوندره ومدريد واشبونة منها مملكتان يحكمهما ملكان من الرجال وهما ايطاليا والبرتقال ومنهما مملكتان أخريان تحكمهما ملكتان وهما انجلترة والاندلس والخامسة جمهورية فرنسا وتقابلت بمسلمى ليفربول وتشرفت بلقاء ملك البرتقال وملكة الاندلس وانى زرت أكثر من أربعين مدينة زيارة تدقيق وتحقيق وتعلمت لغة أهل الاندلس الحالية حتى توصلت الى الكتابة والخطابة بها على قدر الامكان وزرت مناجم الفحم وبلاد

الاندلس بالتفصيل وكتبت شيأ يسيرا مما عرفته عنها ففتحت هذا الباب
وشاهدت ثلاث مدائن مخصصة لطلبة العلم فقط وهى أكسفورد فى
انجلترة وقلمرية فى البرتقال وشلمنقة فى إسبانيا وحضرت عيد الميلاد
فى مدريد وعيد رأس السنة فى لشبونة وأكلت الفول المدمس
باوروبا ولم يحصل ذلك لغيرى من المصريين وحضرت جلسات
مجلسى النواب والشيوخ فى فرنسا وشاهدت الاحتفال الرسمى
بافتتاح مجلس نواب البرتقال وحضور الملك والملكة والقاء الخطبة
الملوكية وشاهدت قتال الأثوار فى اسبانيا واعتصاب الخبازين
وامتناعهم عن عمل الخبز مدة ثلاثة أيام فى مارسيليا والاحتفال
بالكرنفال (المرافع) فى نيقة Nice ورومية وغير ذلك من الامور
الكثيرة المتعددة التى لم يتيسر حصولها مرة واحدة وفى رحلة واحدة
لمصرى قبلى وان ماذكرته وخصوصا عن الاندلس فى هذه الرسائل
هو قليل جدا فى جانب ما أتوسل الى القادر الكافى توالت نعماؤه
ان يوفقنى ويعيننى على تحريره وتدوينه فى الرحلة الكبرى لتكون
هى وهذه الرسائل وسيلة لحث بنى الاوطان على السياحة والافادة
والاستفادة وعسى ان كل واحد يذهب فى أوروبا من طريق غير
الذى رسمته يكتب لنا عما يراه وعما تنبئه به احساساته ليتكون فى

لغتنا الغربية مجموعة سياحات توقف القارئ على أحوال هاتيك البلاد التى أصبحت منبع التقدم ومقر العرفان

***

والمأمول فى وجه الله الكريم المنان أن يوفق أبناء الوطن الى توفيته حقه من الخدمة فى ظل فخر الانام وعماد الزمان ولى العصر ومليك مصر مولانا الاكرم وخديوينا المبجل عباس باشا حلمى الثانى أدامه الله كهفا للمعالى فهو الذى تفضل علىّ بنظره العالى وانعامه المتوالى حتى كتبت هذه الرسائل وبثثتها فى قومى قياما بما وجب له من فرائض الشكر على عبده

المخلص



ملخص الخطبة المؤتمرية

التى ألقيتها باللغة الفرنساوية فى جلسة القسم السامى العام المنعقدة
بمدرسة لوندرة الجامعة فى يوم الخميس ٨ سبتمبر سنة ٩٢
(وقد طبعت بالعربى والفرنساوى فى الجرائد
الرسمية المصرية ثم فى كراسين على
حدتهما بأمر دولتلو أفندم
رياض باشا رئيس مجلس النظار
وناظر المعارف العمومية)

صورة المقدمة التى نشرتها الجريدة الرسمية
(الوقائع المصرية) الصادرة فى ١٣ مارس سنة ١٨٩٣

حضرة أحمد زكى افندى

فى المؤتمر الدولى التاسع للعلوم الشرقية بلوندرة

كان اجتماع المؤتمر التاسع للعلوم الشرقيـة فى مدينة لوندرة عاصمـة الدولة الانكليزية وقد ندب له من مصر مبعوثون كبقية الدول الشرقية والغربية وكان ممن اختارتهـم حكومتنا المصرية

لهذه المأمورية حضرة الفاضل الشهير أحمد أفندى زكى مترجم مجلس النظار لما له لديها من الاعمال العلمية النافعة فتوجه اليه فى أواسط أغسطس سنة ١٨٩٢ ومر قبل وصوله لوندره على بعض الممالك الاوروباويه وطاف كل مدن ايطاليا الشهيرة

وفى أوائل سبتمبر من تلك السنة وصل الى لوندره واشتغل فيها با كمال ما أعده حضرته للعرض على المؤتمر من المؤلفات والمصنفات وفى الخامس منه اجتمع المؤتمر ثم انقسم الى فروع للنظر فيما يعرضه العلماء من المباحث والعلوم فكان حضرته فى القسم المخصص للنظر فى الساميات (نسبة الى سام بن نوح عليه السلام) وقد انتخب للنيابة عن مصر فى اللجنة الدولية العامة التى نيطت بالنظر فى عقد المؤتمرات الآتية وتنظيمها ووضع القوانين اللازمة لهذه الاغراض وقد توالت الجلسات الى الثانى عشر من ذلك الشهر فاجتمع المؤتمر الاجتماع الاخير فخطب جناب الرئيس خطبة انتهائية شكر فيها كل من لبوا الدعوة من الممالك فكان لهم بين وفود المؤتمر علماء وفى هذه الحفلة الختامية ترجم حضرة أحمد افندى زكى القصيدة التى ألقاها حضرة العلامة الفاضل الشيخ محمد راشد (زميله فى هذه المأمورية) من اللغة العربية الى اللغة الفرنساوية بطريقة تشبه ارتجال الشعر فى السرعة والحضور حتى شخص

له المجتمعون وأكبروا ماعمله اذلم يكن له عليها سابقة استحضار ولا اطلاع ثم انفض الجمع باعلان الرئيس بانقضاء جلسات المؤتمر وشكران جميع من حضروه

أما ما لاقاه حضرته من كرم الوفادة والنظر اليه بعين الاعتبار وتقدير عمله واجتهاده والتعرف اليه بما له من آثار الفضل قبل وصوله هو اليهم فكان فوق ماعهد للنظائر والانداد حتى ان جناب اللورد نورثبروك الذى حضر الى المؤتمر بالنيابة عن نجل جلالة الملكة الذى عقد المؤتمر تحت حمايته لما أولم وليمة الاجتماع الاول لهذا المؤتمر لم يدع فيها من علماء الدول الشرقية سوى هذا المندوب المصرى نائبا عن مصر فى تلك الوليمة التى أعدوها من الرسميات هذا ولما انفضت جلسات المؤتمر مكث حضرته فى لوندره أكثر من ثلاثين يوما للبحث فيها ودرس أحوالها ثم تنقل فى كثير من مدن انكلتره وبلاد الغال ثم عاد الى فرانسا وأقام بباريس أكثر من شهر درس فيه أحوال مدنيتها وعلومها وآثارها كما ينبغى ثم تنقل فى بعض مدنها الشهيرة وخرج منها قاصدا بلاد الاندلس (اسبانيا) فلبث بها مدة لاقى فيها أعاظمها وعلماءها وبعض وزرائها ثم توجه الى بلاد البرتقال ولاقى جلالة ملكها وزار بعض مدائنها وبعض حصون العرب الباقية على قلل الجبال الى الآن ثم رجع

الى البلاد الاندلسية لانها هى تقريبا الغاية المقصودة من تلك الرحلة وتشرف بمقابلة ملكة الاندلس مقابلة خصوصية ولبث فى الاندلس ونواحيه ومدنه العربية أسابيع قضاها كلها فى البحث و إمعان النظر فى نفائس الكتب والآثار الموجودة هنالك

ثم قدم الى مصر فى الرابع عشر من شهر فبراير الماضى سنة ١٨٩٣ معرجا على مدائن النزهة التى فى جنوب فرانسا وعلى رومية العظمى عاصمة ايطاليا وفى يوم الاربعاء الماضى تشرف بمقابلة الجناب الخديوى المعظم مقابلة خصوصية فى سراى عابدين العامرة فنال من لدن جنابه العالى وافر الاقبال ومزيد الالتفات وفى أثناء هذه المقابلة رفع حضرته الى المقام الكريم ماأرسله بعض علماء اسبانيا معه من الكتب العربية المطبوعة هنالك هدية للجناب الفخيم وقدم مجموعة صور قصر الحمراء الشهير الذى هو أعظم أثر للعرب قائم فى بلاد الغرب شاهد بما لهم من ضخامة الملك وعظيم العمران فلم يوجد له نظير بين أولئك الامم الى الآن على مابرعوا فيه من الاختراع وتقدمهم فى المدنية والعلوم وفى آخر هذه المجموعة صورة يوم تسليم غرناطة من اخر ملوك العرب وهو أبو عبدالله من بنى نصر الى الملك فرديننذ وزوجته ايزابلا الملكة وكذلك قدم للجناب الرفيع ملخصا عن أعماله التى

قدمها لذلك المؤتمر فى العلوم العربية وبعضا من كتبه التى ترجمها وطبعت أيام غيبته عن مصر فتلقاها الجناب العالى كلها بوجه طلق وأظهر حفظه الله مالا مزيد عليه من علامات الارتياح وقد كان حضرته فى أثناء عرض هذه الصور وتقديم تلك الهدايا يشرح حال الاندلس وما عثر عليه من آثار العرب وكتبهم ولغتهم وعلومهم وأخلاقهم بدقة أبحاثه هنالك وطول معاشرته لكبراء الباحثين من الاسبانيين كل ذلك والجناب العالى مقبل عليه كل الاقبال مظهر له علامات السرور والامتنان

وقد استدامت هذه المقابلة نحو نصف ساعة وخرج بعدها من بين يديه الكريمتين منطلق اللسان بشكر ولى النعم الاكرم الذى أنعم عليه بهذه المأمورية العلمية الجليلة وأتيح له بسببها الوصول الى تلك الغاية الحميدة وأجلها علمه بحالة بلاد الاندلس أيام العرب وما آلت اليه بعد صيرورتها الى الاسبانيين فانه قبل أن يسافر الى ذلك المؤتمر عرض على الجناب العالى حفظه الله أن يذهب الى اسبانيا وهو عائد الى مصر ليستفيد من البحث فيها ويدرس أحوالها القديمة والحديثة ويقابل بين تمدنها فى الحالتين فأذن له جنابه الفخيم فكان ذلك من أجل النعم التى تستوجب الدعاء بدوام مولانا وولى نعمتنا الجناب العالى أدامه الله نصيرا للعلوم وكهفا للمجتهدين من أبناء الوطن

(وهذا ملخص ترجمة الخطبة المؤتمرية)

سادتى

براعة الاستهلال فى هذا المقال حمد الله سبحانه وتعالى ثم شكر ولى النعم مولاى الخديو المعظم فانه أقر الله بوجوده عين بلاده قد تفضل واختارنى للنيابة عن مصر فى هذه الحفلة الجليلة العلمية

وانى أعرب لكم فى فاتحة الكلام عن مزيد سرورى ومنتهى إسعادى بدخولى فى زمرة المشتغلين بالعلوم الشرقية الفضلاء فقد اعترف الخاص والعام بأهمية أعمالهم واقتنع العالم كله بثمرات أتعابهم وسار بذكرهم القاصى والدانى وعضدهم الملوك والامراء فى كل زمان ومكان أجل فقد جمعت هذه الحفلة فحول العلماء وجهابذة الفضلاء الذين توخوا البحث عن الحق الصراح وارسال أشعة التمدن الصادرة عن شمس المعارف الحقيقية لاضاءة كافة الآفاق

وانى لأشكر مسعاكم أيها السادة بالنيابة عن ذلك الشرق الذى لم يقدره القوم حق قدره حتى جاءت أعمالكم المبرورة ومساعيكم المشكورة وزحزحت عنه ستار الاعتقادات الباطلة وبددت الاقوال الساقطة بما سيكون من ورائه نشر لواء المعارف على جميع الامم بالسواء

ولا غرو ان كانت مجاهدتكم العقلية التى يفتخر بها بنو الانسان سببا متينا فى التعجيل بازالة تلكم الحواجز التى كانت تحول بين

المشرق والمغرب وقد أقامها بين التوأمين أرباب التعصب الاعمى من بعض الطوائف حتى كان يخال أنها كثيفة ثابتة ليس فى الامكان دك معالمها وتقويض دعائمها

وهاهى مصر الآن تقاسمكم عن طيب نفس كنوز علمها وذخائر عرفانها وترى من سعادتها ان تعاوضها أوروبا بعرائس تقدمها ونفائس تمدنها

وأنتم تعلمون أن قومكم كانوا يجهلون قدر ما عندنا ويحكمون علينا بما نحن براء منه حتى وقعت الالفة العلمية فانكشف لكم ما انطوى عليه العالم الاسلامى من جليل الشعائر المنبعثة عن الطوية الخالصة فأخلصتم لنا الودّ والصفاء كما أولينا كم الصدق والولاء

ولقد أحرزت جمعيتكم هذه فخارا من أول نشأتها وكللت أعمالكم بالنجاح وظهرت فوائدها للعيان ولا ريب انها ستفوز بتعميم شعائر الوئام على كافة الاقوام ونشر محامد الاخاء فى سائر الارجاء وقد نمت والحمد لله هذه المبادئ وأينعت أزهارها بين رجال المعارف على اختلاف الجنسيات وتنوع المشارب وأخذت فى السريان بين الامم وبعضها

وانى وان لم آل من فرسان هذا الميدان الا أنى أشد الناس غيرة وأكبرهم حفاوة بهذا المجمع وأعد نفسى من السعداء بانضمامى اليه ودخولى فى نوال غايته الجليلة التى هى تبادل الصلة العلمية بين المشرقيين والمغربيين ،

نحن أبناء مصر قد عرفنا جمعية المستشرقين من عهد غير بعيد وما زلنا الى الآن غير واقفين على أحوالها كما ينبغى وذلك لان

المؤلفات الخاصة بها والكتب التى تطبعها بالالسنة المشرقيـة لم تنل فى بلاد الشرق حظوة الاشتهار

ولهذا فانى أتمنى أن تكون احدى اجتماعات هذا المؤتمر المقبلة فى احدى مدائن المشرق حتى يتيسر لعلمائنا أن يروا بأنفسهم مزايا هذه الأعمال و يقدروا ما ينجم عنها من الفوائد لعموم بنى الانسان فينضم الى هذه العصابة التى هى طليعة الافكار السامية والمقاصد النبيلة الفاخرة جم غفير من أهل التدقيق والتحقيق فينال المستشرقون من موازرتهم ومعاونتهم فوائد تذكر فتشكر

وانى أعترف لكم بأنى لم أقف تمام الوقوف على أهمية جمعيتكم الزاهرة الابعد أن ارتبطت بالارسالية العلمية الفرنساوية بمصر القاهرة فانها فتحت امامى الطريق وكانت فيها مكاشفتى بهذه المزايا المفيدة العديدة

وغير خاف ان الشرق فى هذا الزمان لايخلو من رجال أفاضل قد نبغوا فى العلوم على اختلافها وضربوا من فنون العرفان بسهم وافر وحلاهم الله بالذكاء الفطرى والفطانة الطبيعية ولكن بعضهم معتكفون محتجبون فهم غير معروفين ولهم من الدنيا حظ قليل كما ان مؤلفاتهم و بنات أفكارهم منفردة عن بعضها مستورة فى خبايا الزوايا فليس فى الامكان ان تأتى بكل مافيها من الثمرات وهى بالحالة التى هى عليها الآن

ولما وقفت على الغاية الجليلة التى توخيتموها مالبثت ان انجذبت اليكم عواطفى وتوجهت نحوكم رغائبى فكانت أعظم أمنية تخالج فؤادى هى ان يتسنى لى مشاركتكم فى أعمالكم ، وقد نلت ولله الحمد المنى فى هذا اليوم السعيد بمحض فيض المكارم العباسية وعناية مولاى الافخم عزيز الديار المصرية

ولقد كان بودّى أن أجيئكم بمواد تليق بهذا البناء الفخيم الذى أخذتم على أنفسكم اقامته لنفع بنى الانسان ولكن بضاعتى الى الآن قليلة فى جانب أعمالكم ومع ذلك فاوفدت اليكم صفر اليدين خالى الوطاب

نعم لقد كان يحق لكم أيها السادة الاماجد أن تنتظروا منى فى هـذا النادى المشهود تصنيفا من الطبقـة الاولى فى الاهمية والخطارة أو أن أتحفكم بطرفة فريدة نادرة أكون عثرت عليها أثناء البحث والمراجعة ولكنى لسوء حظى ليس معى الامتاع قليل ولى فى ذلك عذر أبديه لكم وهو أن انتدابى لهذا المؤتمر لم يتقرر الا فى أوائل شهر يوليو الماضى فلم يكن لى وسعة من الزمن للشروع فى عمل كبير أو الاشتغال بأمر ذى بال ولكنى مع قصر الوقت قد بذلت ما فى طاقتى واستخدمت هذا الزمن القليل بما لا يخيب ظنكم فى هذا العاجز ولا يذهب بانتظاركم أدراج الرياح واليكم الآن بيان الاعمال التى أتشرف بعرضها على المؤتمر وهى

(أولا) - كتاب على المصحف الشريف سميته (مفتاح القرآن) وخصصته لتسهيل مراجعة الآيات الكريمة ومعرفة مواقعها، وأماكنها من غير أدنى تعب أو امعان نظر أو اعمال روية وفكر ولا يخفا كم أن هذا التصنيف ليس من المستحدثات المبتكرة فى هذا الزمان فقد تعرض لهذا الموضوع الشيخ محمد مراد النقشبندى وعبد الله باشا تكتهى أمير الحج والموسيو فلوجل الالمانى وقد جاءت مولفاتهم بفوائد عظيمة ولكنها كلها لاتفى إلا ببعض الغرض المقصود وذلك لان الاسلوب الذى جروا عليه فى تحرير تلك المؤلفات يستغرق وقتا طويلا فى البحث والمراجعة

وهذا الكتاب المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه هو عمادنا نحن معاشر المسلمين فى جميع أعمالنا واليه مرجعنا فى كل أمورنا ومعاملاتنا وهو دليلنا وإمامنا فى طول حياتنا ولذلك يحفظه بعضنا كله عن ظهر قلب ويقضون عمرهم فى هذه الرياضة المقرونة بالتقوى والاجر ويعرفون عندنا بالحفاظ ولكثير منهم فضل لا ينكر وهم يقومون بخدم عظيمة لأمثالنا الذين لم يتيسر لهم مجاراتهم فى اجهاد القوة الحافظة وابلاغها الى نهايتها فنراجعهم ونستفهم منهم عن مواقع الآيات الكريمة فى السور الشريفة بدلا من ان نضيع الوقت الطويل فى البحث والمراجعة على غير طائل فى كثير من الاحيان وهم يعرفوننا

فى الحال بمطلوبنا ولكن الانسان لا يتيسر له العثور على الحافظ دائما بل كثيرا مايرتبك الحافظ وتتعسر عليه الاجابة بسبب التماثل الواقع بين كثير من الآيات القرآنية

وكثيرا مايحتاج المستشرقون فى أعمالهم وتصانيفهم الى مراجعة الكتاب العزيز فمن منكم لم يضع أوقاتا ثمينة ولحظات نفيسة للعثور على الآية المطلوبة ؟

وقد تكفل فلوجل فى كتابه الذى سماه (نجوم الفرقان فى أطراف القرآن) ببيان عدد السور والآيات التى توجد فيها كل كلمة من كلام الله القديم ولما كانت الكلمة الواحدة كثيرا ما تتكرر فى عدد عظيم من السور والآيات كان من اللازم على كل من يستخدم نجوم الفرقان أن يصرف وقتا طويلا ويتجشم عناء ثقيلا فى البحث والمراجعة

وفضلا عن ذلك فقد التزم الرجل أن يرقم أعداد (نمر) السور والآيات بالحروف والاشارات الافرنكية فلذلك لا تتسنى مراجعة كتابه الا لعدد زهيد من الباحثين الذين لهم شأن فى هذه المواضيع أعنى الافرنج المشتغلين باللغة العربية دون سواهم والقليل من أبناء المشرق الذين لهم إلمام باحدى اللغات الافرنكية وهذا ماجعله قليل الانتشار فى ديار مصر

أما الشيخ محمد مراد النقشبندى وعبدالله باشا أمير الحج فقد اقتصرا فى كتابيهما (ترتيب زيبا) (أى الترتيب الجميل) على بعض بيانات

اجمالية بخصوص السور والآيات ولو أدخلت الاساليب المستحدثة في هذين الكتابين وبوشر طبعهما بعناية خصوصية واتقان زائد ربما جاءت مراجعتهما بكثير من الفوائد

وقد اطلعت في الكتبخانة الخديوية على نسخة من كتاب النقشبندي وتحققت أن المراجعة فيه من أصعب الصعوبات ومع ذلك فان العلماء المسلمين لايزالون يستخدمونه لعدم وجود ماهو أفضل منه وأوفى بالمراد وخصوصا في بلاد الاتراك لانه في مصر يكاد يكون مجهولا بالكلية

وقد رأيت في مكتبة حضرة الفاضل الاجل السيد محمد الهادي بيرم الكتاب المسمى (أنهار الجنان من منابيع آيات القرآن) الذي ألفه الوزير عبد الله باشا الشهير باسم (جته جي) في أواخر سنة ١١٦٤ في عصر السلطان محمود الاول ابن السلطان مصطفى خان قال فيه «لما احتجت الى وجدان آيات القرآن في أكثر الزمان سنح لخاطري الفاتر أن أجمع كتابا مع قلة البضاعة مشتملا على جداول في بيان مواضع الآيات» وقد رتبها على حروف الهجاء ثم أشار في الجداول الى بيان مواقعها في الجزء والحزب والعشر وعدد الآية في العشر واسم السورة . وقد وضع في أول الكتاب جدولا فيه الارقام النجومية وتفسيرها بالارقام الهندية والارقام النجومية هي عبارة عن حروف هجائية بحسب حساب الجمل وهي في الجدول من ١ الى ٧١ وفي آخر الكتاب هذه الجملة «تم ترتيب زيننا بعون الله العلي الاعلى — مؤلفه جته جي عبد الله باشا رحمه الله عليه وعلى ما (من) شاء — كتبه محمد بن ابراهيم البليانبولي في بلدة قسطنطينية في مدرسة قبوجي مرادباشا في ٥ ج سنة ١٢٦٤) وفي أول صحيفة من الكتاب عبارة تفيد ان النسخة

الاصلية محفوظة فى كتبخانه مدرسة (لاله لى) بدار الخلافة العظمى

هذا وقد رأيت مصحفا مطبوعا على الحجر فى مدينة طهران سنة ١٢٧٩ وفى آخره فهرست ببيان مواقع جميع الكلمات القرآنية فى هذه النسخة وهو على نسق (نجوم القرآن فى أطراف الفرقان) الذى طبعه فلوجل الالمانى وقد نسجوا على منواله بالتمام وأشير الى ذلك فى المقدمة الموضوعة فى آخر القرآن الكريم وفى أول الفهرست

وقد ألف العالم الحافظ الشيخ محمد بن شريف كتابا فى هذا الموضوع سماه (مصباح الآيات الجليلة الفرقانية ومفتاح التفاسير الجميلة القرآنية) وخصصه لبيان أسماء السور والاجزاء وعدد الصحيفة الموجودة فيها الآية المبحوث عنها ثم عدد الجزء وعدد الصحيفة فى ثمانية تفاسير (الرازى والقنوى وابن تمجيد وشيخ زاده وروح البيان وأبى السعود والتبيان والمواكب) ولهذا الكتاب مزايا خصوصية لاتنكر ولكن لاحاجة للقول بأنه يستوجب على الباحث فيه أن يستعمل نفس النسخ القرآنية والتفاسير التى استخدمها المؤلف وهو أمر متعسر بل متعذر لان المصحف الشريف قد طبع مئات ومئات من المرات فى أشكال مختلفة (سواء كان مجموعا فى مجلد واحد أومنقسما الى ثلاثين جزأ) وفضلا عن ذلك فان الذى يستعين فى أبحاثه بكتاب ابن شريف يلزمه أن يراجع هذه الثلاثين جزأ وكل جزء منها تبتدئ صحائفه بعدد ١ فان هذا الحافظ يسرد الآية ثم يقول انها فى صحيفة كذا من جزء كذا من سورة

كذا وتفسيرها فى الصحيفة الفلانية من الجزء الفلانى من تفسير الرازى أو القشرى الخ ❁ وقد طبعت الاجزاء القرآنية والمصحف الكريم وهذه التفاسير مرات كثيرة بما يوجب ولاشك تغيير صحائفها وحينئذ فالدلالة عليها لاتفيد الا من كان عنده نفس الطبعات التى استعان بها المؤلف وقد أشار الى السنوات التى ظهرت فيها فى فاتحة كتابه

واقد كنت على الدوام متأثرا من وجود هذه الصعوبات التى تعرض فى طريق الباحث بواسطة أحد هذه الكتب وكنت أفكر فى طريقة تزول بها هذه العوائق حتى أسعدنى حسن حظى بالعثور على نسخة من كتاب قديم بخط اليد لمؤلفه محمد على الكربلانى تمت كتابتها فى غرة شعبان سنة ١١٦٢ هجرية ورأيت فيها سدبعض الحاجات التى لم تتكفل بها الكتب الموجودة من هذا القبيل فشمرت عن ساعد الجد فى تنسيق مواد هذا الكتاب وتهذيبه وترتيبه على أسلوب حديث منتظم مرتبط بعضه وقد تيسر لى بحول الله اتمام ذلك العمل وفق المرام ثم أضفت اليه بيانات كثيرة أرجو أن تتم بها فائدته وتزيد فى وضوحه وظهور ثمراته

قسم المؤلف كتابه الى قسمين رتب فى الاول الآيات باعتبار أوائلها وأبان مواقعها فى الكتاب العزيز وخصص الثانى لترتيب الآيات باعتبار أواخرها أعنى الحرف الاخير فالذى قبله فالذى قبله

وهكذا حتى تسهل بذلك المراجعة على من لم يتذكر من الآية الآخرها فقط وأما الآيات المعروفة بـ(متشابه القرآن) فقد أوردها في كلا القسمين من أولها الى الموضع الذى يظهر فيه فرق بينها وبحسب الكلمة الفارقة بين الآيتين المتشابهتين تكون ترتيب أمثال هذه الآيات وراء بعضها . ثم انه رمز بحروف الجمل بالحبر الاحمر الى عدد الجزء والحزب ووضع بعدها هذه الحروف الثلاثة (أ ـ و ـ ر) بحبر اسود للدلالة على ان الآية فى أول الحزب أو وسطه أو آخره ثم رمز باشارات مختزلة الى أسماء السور القرآنية ووضع جدولا بهذه الاختصارات ولكن لم يرتبه على حسب حروف الهجاء بل بحسب الترتيب المتبع فى المصحف ولذلك فراجعة هذا الجدول تستوجب صعوبة زائدة فضلا عن أن كتابته جاءت متوالية وراء بعضها من غير فصل ولا فقرات بينها وأشباه ذلك من العلامات المميزة

وقد كنت حررت جدولا بأسماء السور تسهل مراجعته للغاية ثم عدلت عنه لانى آثرت وضع أسماء السور بأكملها حتى أريح الباحث من العناء فى تفسير الاختصارات والرجوع الى الجدول لتأويلها وبذلك يمتنع الاختلاط الذى ربما يحدث بسبب ان أسماء بعض السور تبتدئ بحرفين أو ثلاثة حروف هى واحدة

فى كل منها ولان أسماء بعض السور الاخرى تتركب من حرف واحد أو حرفين فقط

ولاشك أن هذا الكتاب هو أفضل بكثير من نظائره ولكنه فضلا عما وقع فى النسخة التى بيدى من الاغلاط التى لاتعد ولاتحصى لايزال ينقصه أمور بيانية كثيرة لاتمام فائدته فندبت نفسى لسد مافيه من الخلل واصلاح ماوقع به من الغلط (وسأودعه فى المكتبة الخديوية ليطلع عليه من يريد) وأظن أنى وصلت بعونة الله تعالى الى الغرض المطلوب وحينئذ فبعدان كان يحتوى على بيان اسم السورة وعدد الجزء والحزب وان الآية فى الاول أو الوسط أو الآخر أصبح الآن يشتمل على البيانات الآتية وهى

أولا — عدد الجزء (والقرآن ينقسم الى ثلاثين جزأ) . ثانيا — عدد الحزب (وكل جزء فيه أربعة أحزاب) (١) . ثالثا — موقع الآية فى أول الحزب أو وسطه أو آخره . رابعا — اسم السورة . خامسا — عدد السورة (لان أهل المشرق انما يعرفون السور بأسمائها ولكن أهل أوروبا

(١) تقسيم الجزء فى مصر انما هو الى حزبين بحسب البدعة الحسنة التى أحدثها الحجاج الثقفى وأما الترك والعجم فيقسمونه الى أربعة أحزاب وقد اخترنا طريقتهم لما فيها من زيادة التسهيل فى البحث والمراجعة لكون مراجعة الآية فى ربع الجزء أسهل منها فى نصفه وفى ذلك وفر فى الزمن بمقدار النصف وهو مانسمى وندعو اليه

لايشيرون الالعدد ترتيبها) . سادسا ـ عدد ترتيب كل آية بحسب القران المطبوع فى الاستانة العلية على نسخة الحافظ عثمان . سابعا ـ عدد ترتيب الآيات بحسب الطبعات العربية والترجمات الافرنكية التى ظهرت فى أوروبا

ولى أمل وطيد بأن يجىء عملى هذا وافيا بجميع الشرائط اللازمة لمراجعته بكل سهولة وفائدة فى بلاد المشرق والمغرب وأظن انه يكون مفيدا على الدوام حتى فيما يتعلق بالنسخ القرآنية الكثيرة الخالية من بيان أعداد الآيات فانه يشير بالضبط والتدقيق الى موقع كل آية ببيان عدد الجزء والحزب واسم السورة وبيان موضع الآية فى أوّل الحزب أو وسطه أو آخره

وإذ لم يكن لى متسع كاف من الوقت لم أتمكن من تبييض هذا التصنيف الذى يستدعى زيادة التدقيق لما هو محفوف به من الصعوبات وانما أقدم لكم الآن منه كراسين على سبيل النموذج والمثال ومتى عدت الى وطنى أتممته وأكملته بحيث يتيسر طبعه فى أقرب وقت بحوله تعالى (وقد تم إكماله كله بحمد الله)

(ثانيا) ـ نسخة معدة للطبعة الثانية من رسالتى الموسومة بـ(موسوعات العلوم العربية) وهى تكاد تكون غير الاولى بالمرة

وقد خصصتها لهذا المؤتمر بعد أن حليتها ونقحتها وشحنتها بكثير من الاضافات المهمة التى لم يسبق ظهورها الى الآن

ولا أذكر لكم على الطبعة الاولى من هذه الرسالة التى نفدت عن آخرها سوى الكتاب اللطيف الذى أتحفنى به جناب العلامة المسيو باربيبه دومينار عقيب ظهور هذه الطبعة وقد أعلمنى فيه بأنه أوسع لها مقاما كريما وخصنى بمزيد الثناء والتهانى على اتمام هذا البحث الدقيق وسأنشر كتابه هذا فى ملحقات الطبعة الثانية ان شاء الله

(ثالثا) — معجم (قاموس) جمعت فيه الكلمات العربية المضعفة التى تكرر فيها المقطع الاول مثل مرمر وبربر ورمرم وربرب وسمسم ومشمش الخ وانى بفضل الله أول من جمع باللغة العربية أكثر من ١٠٢٠ كلمة من هذا القبيل وفائدة هذا الصنيع يعرفها المشتغلون برد اللغات الى أصولها والباحثون عن كيفية ابتداء الانسان بتقليد أصوات الطبيعة وحكايتها والتدرج منها الى غيرها من المعقولات والخياليات وغير ذلك ولا أظن أنه يوجد تصنيف يماثله فى اللغات الاوروبية لان مادتها فى هذا الموضوع غير غزيرة

(رابعا) — معجم صغير ضمنته كل ما عثرت عليه من الكلمات

الخاصة بالكلاب وكان من نيتى أن ألحقه بالكتاب الذى أجمعه على هـذا الصنف من الحيوان ولكنى رأيت أن الاصوب جعله رسالة قائمة بذاتها بعد ان عنيت بتهذيبها بقدر ماسمح لى به الوقت وأضفت اليها قصيدة للسيوطى لم يسبق طبعها جمع فيها أسماء الكلب وسماها (التبرى من معرة المعرى) وذلك لان أبا العلاء المعروف بـ(مالئ الشرق) دخل ذات يوم عند أحد الكبراء فوطئ من غير ارادته قدم بعض الحاضرين فتألم الرجل وقال «من هذا الكلب» فأجابه المعرى فى الحال بهذه العبارة «الكلب من لايعرف للكلب سبعين اسما»

(خامسا) - معجم خصصته لتحرير الاعلام الجغرافية وردها الى أصولها المعتبرة المعروفة عند أهلها فان نقلها من لغتها الاصلية والنطق بها بالعربية أو الفرنساوية أو أية لغة افرنكية قد أوجب تطرق الفساد اليها ووقوع التحريف فيها بما يوجب ارتكاب متن الشطط والتورط فى الغلط أثناء ذكرها فى التراجم ومثل ذلك ان المدينة المعروفة عند العرب باسم المصيصة تعرف عند الافرنج بلفظ مو پسو پوست واقليم ماوراء النهر يسمى ترانزوكسان والجهة المعروفة برأس التين فى بلاد تونس تسمى عند الافرنج زوكسانين وكاتين وكابتين ونهر ملوية فى مراكش يسمى

مالؤيآنا ومدينـــة شمشاط تسمى ارزاموزات ونهر دينـبر يسمى فى كتب العرب القديمة نهر ازّو أونهر طنابرس وجبل الحرث (بفتح الثاء والراء) يسمى بالافرنكيـــة ارارات وقد أخطأ المترجمون فى نقله الى العـربيـــة فقالوا عراراط أونقلوه بلفظه مهملين الاصـل المتعارف فى كتب قومهم (وكثير من أمثال ذلك مما ذكرت نموذجا منه فى رسائلى المؤتمرية أثناء كلامى على برندزى ونابولى وروما وفلورانسة و بيزه وتورينو وطرف الغار) ومثل ذلك بلاد الانكليز تعرف فى كتب العرب القديمة بهذا الاسم (انكلطيرة وانكلاطيرة والانكتير) ولكنا الآن نتقرب كثيرا من اللفظ الفرنساوى فنقول انجلترة ولوندرة لاانجلند ولندن ونقول فلورانسة لافيرنتزا

ولا أظن أحدا من أهـل المشرق والمغرب تفوته فائدة هذا التصنيف الذى غايتــه تصحيح كثير من الاغلاط فطالما رأيت فى كتب مترجمة فى التاريخ والجغرافية اسم قرطبة المعروفة عندنا وفى كتبنا منقولة بحسب نطق الافرنج لها هكذا (كوردو) وهو اسم لايعرفه العربى مطلقا ومثل ذلك مدينة الأُبَيِّض (تصغير أبيض) فى بلاد السودان أخطأ المترجمون فى نقلها الى العربيـــة بحسب النطق الفرنساوى فقالوا العبيد ووردت فى خريطة رسمية محفوظة فى الكتبخانة الخديوية (العبياد) ومثـل ذلك انى رأيت فى بعض كتب الجغرافية التى كان التدريس بموجبها فى المدارس الاميرية

لفظة سوتا (للدلالة على مدينة ساحلية فى مراكش) بدلا من سبتة لان مؤلفى تلك الكتب راعوا اللفظ الفرنساوى وأهملوا اللفظ العربى الاصلى وهو سبتة وأقول هنا ان هذا اللفظ منقول عن كلمة لاتينية (سپتا) معناها الحظيرة والسياج

ولا حاجة لبيان المزايا التى تترتب على وجود كتاب من هذا القبيل يكون سببا فى تحقيق الاعلام الجغرافية والارشاد الى صحتها والتنبيه على حقيقتها والاشارة الى الفساد الذى اعتورها حتى لا يخلط المترجم بين الاسماء وبعضها أو يدل على المسميات باسماء غير معروفة بها وبذلك يمتنع وجود الخطا فى الابحاث التاريخية والجغرافية وانى أرجو أن أكون وصلت الى الغاية المقصودة وعلى كل حال فقد فتحت هذا الباب وهو حسبى

هذا ولما علم صاحب السعادة سليمان باشا أباظه بان الحكومة المصرية ندبتنى للنيابة عنها فى هذا المؤتمر تكرم وقدم لى كل الكتب النفيسة التى بخط اليد المحفوظة فى خزانته الثمينة ولكن ضيق الوقت لم يسمح لى الا باختيار بعض طرف لاتحف المؤتمر بنسخ منها بعد أن عنيت بتنقيحها وتهذيبها

﴿سادسا وسابعا﴾ — فأول ما انتقيته منها كتابان للمقريزى الشهير أولهما اسمه (ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى) وهو يختص باقطاع النبى صلى الله عليه وسلم بلدتين من الشام الى

تميم هذا قبل أن يفتح المسلمون هذه الديار والثانى (تاريخ الغلاء الواقع بمصر)، من أيام الفراعنـة الى زمان المؤلف وقد جاء فى صك الاقطاع لتميم مانصه (هذا ماأنطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخ) فهذه الكلمة (أنطى) مستعملة بدل أعطى بحسب لهجة اليمانين أهل تميم وقد رأيت فى معجم أبى السرور الصديقى الذى سأتكلم عنـه انه يقال نطشان بدل عطشان ورأيت فى كتب اللغة فى ترجمة ن ط ش أنه يقال فلان عطشان نطشان على سبيل المتابعة وعلمت من الموثوق بهم ان بعض عرب البادية فى بلاد الشام لايزالون الى الآن يستعملون أنطى بدلا من أعطى ولعلهـم من اليمن وربما كانوا من ذرية تمـيم صاحب الاقطاع فانه انتقل الى ورثته من بعده

وقد تكلم المقريزى على هـذا الاقطاع وصحته ببراعة علمية وتحقيق دقيق حتى انه يوجب للقارئ الملال ولكنه برهان جديد على فضل الرجل وواسع اطلاعه

ومن سوء الحظ أن النسخة الثانية التى تكلم فيها المقريزى على تواريخ القحط والغلاء ينقص منها الصفحات الاخـيرة ولكن هذا لايذهب بشئ من الفوائد الجليلة التى تضمنتها وأنا أظن أن هذه النسخة هى جزء من خططه المشهورة فقـد أشار فى مقدمتها

الى انه سيتكلم فى القسم السابع منها على أسباب خراب مصر وانحطاطها ثم لم يرد شئ من ذلك فى الكتاب المطبوع فى بولاق أو النسخ التى بخط اليد المحفوظة فى مصر وأروبا واذا صح هذا الظن كانت هذه الرسالة ذات فائدة عظيمة وقيمة خطيرة

(ثامنا) — ومما انتقيته من مكتبة سعادة أباظه باشا معجم أبي السرور الصديقي وهو يتضمن الكلمات العرفية الدارجة فى مصر التى تنطبق على أصول اللغة العربية الفصحى وقد اختصره من المعجم الذى ألفه الشيخ يوسف المغربى وسماه (رفع الاصر عن كلام أهل مصر) وبلغنى أنه يوجد منه نسخة عند بعضهم فى مصر ونسخة أخرى بمكتبة ليدن

وقد عنى صاحب المختصر بتجريد هذا الكتاب من الالفاظ اللغوية والشواهد والاشعار والاستطرادات والحكايات التى لا علاقة لها بالموضوع وسماه (المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب) ولما كان المستشرقون يهتمون بنوع خصوصى باللغة العربية الدارجة كنت واثقا من أن نشر مثل هذا الكتاب يقابل ببعض القبول ويصيبه شئ من الترحاب ولاجل ذلك أدخلت فيه بعض اصلاحات وتعديلات لاتمام الفائدة فأبدلت الترتيب المتبع فى صحاح الجوهرى وقاموس الفيروز ابادى الذى يترتب عليه ارتباك

المباحث وتعقيد المطالب بالاسلوب الهجائى الذى جنح اليه الزمخشرى فى أساس البلاغة والفيومى فى المصباح المنير وهو الاسلوب المتبع فى جميع المعاجم الاوروباوية وسميته (ترتيب المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغات العرب) وفى هذا السفر مزايا كثيرة لمعرفة تاريخ علم اللغة العربية لانه يدلنا على أن اللغة العرفية كانت فى الزمان القديم متقاربة من اللغة العربية الفصحى وبه نعرف مقدار ابتعادنا عن هذه فى كل يوم بكيفية محسوسة ظاهرة ومما يزيد فى الطين بلة ويوجب ازدياد هذا الابتعاد كثرة علاقاتنا مع أهل أوروبا فان اختلاطنا بهم ألزمنا بنقل جملة كلمات وتعبيرات ينبغى المبادرة بدرسها والنظر فيها فان كثيرا منها له نظائر فى العربية الصحيحة يجمل بل يلزم تفضيلها على غيرها واستعمالها ومالم يكن له مقابل فى العربية يمكن الاستغناء عنه بنحت ألفاظ جديدة بحسب قواعد اللغة وأصول القلب والابدال فان ذلك أولى من استعمال ألفاظ وعبارات محرفة فاسدة أصبحت لاتنتسب الى لغة من اللغات

وقد اجتهد صاحبى العالم الفاضل الاستاذ الشيخ محمد راشد بكتابة رسالة عن الكلام الدارج الآن فى مصر القاهرة وشحنها بأعمال الزجل والمواويل والاغانى والادوار والموشحات المستعملة عند العامة وبلسانهم ولاشك أن المقارنة بين هذين الكتابين توقفكم على الحركة اللغوية الحاصلة فى بلادنا

واليكم الآن نسخا من أربع رسائل انتقيتها أيضا من مكتبة سعادة أباظه باشا وهى

(تاسعا) — معجم يحتوى على ٥٩٤ اسم يعبر بها عن الاسد استخرجها من قاموس الفيروزابادى العلامة الشريف عبد الله ابن محمد بن حسين المغربى وقد نحا فى ترتيبها نحو صاحب القاموس ولكننى استبدلت هذا الترتيب بالاسلوب الهجائى السهل للاسباب التى شرحتها فيما قبل

(عاشرا) — معجم يحتوى على كلمات الاضداد مثل جبر و بسل وزحل وأسد وسجد الخ وقد طبع الموسيو هوسما (كتاب الاضداد) لابن الانبارى فى مدينة ليدن ولكن المعجم الذى أقدمه لكم الآن له قيمة خاصة به وقد استخرجه الشريف عبد الله المذكور من القاموس أيضا

(حادى عشر) — معجم الكلمات اللغوية الفصيحة التى يصح استبدال السين فيها بالشين ألفه العلامة الفيروزابادى صاحب القاموس وسماه (تحبير الموشين فيما يعبر فيه بالسين والشين) وهذا الكتاب النادر لا تنكر قيمته وأهميته

(ثانى عشر) — القصيدة الفارقة بين الضاد والظاء لناظمها الشيخ الامام على بن عبد الله المروزى وقد كانت النسخة

التي عثرت عليها سقيمة للغاية محرّفة مشوّهة فاجتهدت في اصلاحها وتهذيبها حتى أصبحت واضحة الفوائد ظاهرة المزايا ويمكن الانتفاع بمراجعتها وسأضيف اليها جداول هجائيا عند طبعها لتتميم نفعها وتسهيل البحث فيها

(ثالث عشر) — ثم انى أرجع الآن الى المقريزى وأذكر لكم انه حل لغزا فى (الماء) وقد عثرت على تفسيره فى نسختين بخط اليد فى الكتبخانة الخديوية الاولى تمت كتابتها فى رمضان سنة ١١١٢ (وهى محفوظة بنمرة ٨٣ فنون متنوّعة) والثانية فى رجب سنة ١٠٩٩ (وهى محفوظة بنمرة ٤١٨ مجاميع) وفى النسخة الاولى مقدمة موجزة قال المقريزى فيها ان أحد الكبراء أمره بحل هذا اللغز العسير وانه توصل الى ذلك مع قلة بضاعته وقال فى آخر الحل انه كتبه فى بضع ساعات من يوم الثلاثاء ١٤ محرم سنة ٨٢٣ من غير مراجعة أىّ كتاب ومن غير تعليق مسودات وهذه النسخة أجود بكثير من الاخرى ولكنها خالية من متن اللغز مجموعا على حدته كما فى صدر النسخة الثانية وقد تحكك المقريزى وتعمق فى الحل حتى جاء جوابه غير مقرون بالاقناع والسداد حررت التفسير وضبطته بحسب هاتين النسختين ولما كان الحل سقيما عقيما لم أر من فائدة فى ترجمته (الى الفرنساوية)

ولكننى حكمت بغير ذلك على نفس اللغز فترجمته لكم لاحاطتكم علما بمثال من غرابة ألغازنا العربية (والترجمة فى القسم الفرنساوى)

(رابع عشر) — وأقدم لكم الآن أيها السادة نسخة من قصيدة تحتوى على الكلمات العربية التى اتفق لفظها واختلف معناها نظمها العلامة الفاضل الشيخ أبوالحسن على بن محمد بن عبد الصمد الهمدانى المشهور بعلم الدين السخاوى وهذه النسخة لم تكلفنى أدنى عناء لان الاصل الذى نقلتها عنه كان بخط الاستاذ الكبير والعلامة الشهير عبد القادر بن عمر البغدادى وهو كتبها بخطه وأصلحها معتمدا على نسخة قديمة سقيمة قد مسخها النساخ وأجحف بحقها الزمان وقد أتم البغدادى نسخته فى يوم السبت ٣ رجب سنة ١٠٧٤ من الهجرة واست فى حاجة لاثبات فضل الرجل والاعلام بمقامه فانه فوق كل مديح يشهد له مصنفه الحافل المعروف بخزانة الادب المحتوى على أربعة أجزاء قد أودعها من طرف العلوم وتحف الفنون مايجعل له المكانة الاولى بين أرباب المعارف (١) وأقول ان عنايته بهذه القصيدة أصدق دليل على أهميتها وقد اشتغل كثير من الشعراء

(١) وقد وضع العلامة الطليانى المتبحر فى العلوم واللغات الشرقية السنيور أغناطيوس جويدى قاموسا مفيدا جدا ببيان أسماء الشعراء المنصوص عليهم فى هذا الكتاب المفيد وقد طبعه فى رومة سنة ١٨٨٧

بمسألة الكلمات المتفقة لفظا المختلفة معنى ولكن الجمهور منهم اقتصر على كلمة واحدة فان الازدى نظم قصيدة تكررت فيها كلمة (عجوز) ثنتين وستين مرة مع اختلاف المعانى وقد شرحها أبو حيان وأضاف اليها ١٣ معنى جديدا ونظم ابن تمام السبكى قصيدة فيها ٧٣ معنى ل(العين) والحصكفى أورد فى احدى قصائده عشرة معان ل(الهلال) وقد أضيفت اليها معان أخرى وقد أورد ابن معصوم فى كتابه (أنوار الربيع فى أنواع البديع) هذه القصائد كلها أما السبكى الذى نحن بصدد منظومته فقد أورد فيها أكثر من ٢٠٠ كلمة من هذا القبيل

(خامس عشر) ـ وأتكلم الآن على وصف مجالس المعددات والندابات فى مصر والمجموعة التى جمعت فيها أشعارهن ومراثيهن (١) نعم إن هذا الموضوع محفوف بالهموم والاحزان ولكن

(١) الذى دعانى للاهتمام بهذا الموضوع مارأيته من عناية أهل البحث والتدقيق من الافرنج بكل ماله صلة باحوال المشرق ولما كان كثير منهم قد يقع فى الخطا من حيث لا يشعر ويجعل للامور عللا وأسبابا يعزيها الى الدين الاسلامى عن قصور فهم أو تتبادر الى مخيلته بحسب مايصورها له الوهم من غير أن يكون له من المعرفة والاطلاع مايجعله قادرا على تمييز الفكر الصحيح من القول السقيم أحببت أن أستوفى فى هذه النبذة كل ماوصل اليه علمى من بعض عادات قومى فضلا عن الفائدة الادبية الجليلة التى قد لا يتنبه لها الانسان لاول وهلة وهى المحافظة على الاشعار التى تنوح بها المعددات والندابات أثناء الرثاء

البحث فيه يكشف القناع لارباب الاطلاع من علماء الاخلاق عن بعض أمور تهمهم معرفتها وهـذه العادات قد سبقني غيري الى الاشارة اليها غير أني لا أعلم أن أحدا درسها كما ينبغي أوجمع المراثي التي أقدمها لكم الآن

ولست أوّل من قال (لايعرف صدق الاخاء في أيام الهناء والرخاء بل عند وقوع المحن والبلاء) ولكني قد أكون أوّل من يؤكد لكم بان نساء العامة في مصر ربما كنّ المتفردات بالعمل بهذه الموعظة البالغة ومراعاتها بكل دقة كأنما هي فرض من الفروض وذلك لانهنّ في كل خميس (وهو يوم تجدد الحداد) يتجمعن زرافات زرافات ويسعين في بعض أزقة العاصمة ساكتات كأنما على رؤسهنّ الطير حتى يصلن الى دار صديقتهنّ التي طرق الموت بابها واختطف واحدا من أربابها

قال في كثير منها معاني دقيقة وأنظارا حكمية قد لا يجدها الباحث في المراثي الشهيرة التي يعمل الشعراء فيها فكرتهم ويصرفون الاوقات النفيسة الطويلة في سبكها وحبكها بحسب ماتقتضيه صناعاتهم وممارستهم بخلاف أقوال العامة فانها خصوصا في مثل هذا الموضوع صادرة عن الضمير مباشرة وليست الا ترجمة لما يكنه الفؤاد من عواطف الاشجان ولما كانت هذه الاشعار غير مدونة في ديوان رأيت من الفائدة ضم أشتاتها مع عدم الادعاء بالاحاطة بها وذلك أفضل من اهمالها اذ لا يبعد أن يأتي يوم تزول فيه هذه العادات وينمحي معها أثر هذه الاشعار الواجب حياطتها بالحفظ والتدوين

وكاهنّ يتدثرن بملابس سوداء ويضعن على رؤسهن مناديل زرقاء فان ذلك هو اللبس الرسمى المقرر عندهنّ فى مجالس الحداد

وقبل أن أتكلم على المعددات والندابات اللاتى خصصت لهن هذا الفصل أقول كلمة ثانية على العصبية التى يرتبط بها نساء العامة بالسليقة والغريزة عندما تحل شدائد الحياة باحداهن أو يقلب الدهر لها ظهر المجن

فليس من النادر أن يرى الانسان أية امرأة تأخذ فى الولولة عند ما تمر جنازة فى طريقها وفى بعض الاحيان تقف أمام الدار التى فجع الموت أهليها وهى لم يسبق لها الدخول فيها ولم تعرف أحدا من ذويها ولكنها لا تلتفت الى ذلك بل تتساقط الدموع سراعا من مآقيها ثم لا تلبث أن يتولاها الصياح والعويل وذلك لانها تتذكر بالمنظر الذى يتراءى أمامها أنها فقدت بعض أهلها فانجرح بفقده فؤادها جرحا لا يندمل بل ان الآلام القديمة التى كان يظن أن طول العهد محاها من ذكراها تتجدد فى الحال لان الضعف من طبيعتها والجزع من جبلتها فلا يمكنها أن تغالب نفسها وتكتم الحزن فى صدرها بل كثيرا ما تدخل الى الدار التى حصلت فيها الوفاة وتشارك أهلها فى أحزانهم ومصابهم

أما المعددات والندابات فليس لهنّ الآن من أثر فى ربوع

أوروبا ولكنهنّ فى مصر عبارة عن طائفة منتظمة مازالت محافظة
على كل مالها من الحظوة والتأثير والمرأة منهن فى حيتها
الاعتيادية وأعمالها الخصوصية تشابه غيرها من النساء على السواء
ولكنها متى تفرّغت لوظيفتها دبت فيها حياة أخرى وظهرت فى
نشأة ثانية بمظهر جديد فتضطرب وتنفعل وتتحرك ذات اليمين
وذات الشمال كمن أصابه المس أو الصرع أو الخبال حتى يخال
للرائى أنها أشبه بأولئك الكاهنات فى هياكل القدماء عند
ماتأخذهنّ الرعشة والرعدة بسبب حضور الهاتف الالهى الذى
جاء يوحى اليها أوامره ويلقى عليها مقاصده فان صوت النداية
وهى فى وسط عصابة من النساء قد هاجتهنّ الاحزان وولتهن
الاشجان يزيد فى غصتهنّ بما فيه من التقاطيع والتراجيع التى
تذوب منها القلوب وتنفطر لها الاكباد وتتشقق من هولها المرائر
بل ان كل كلمة من كلماتها ينقبض لها صدر الحاضرات ويوجب
زيادة الكآبة فى نفوسهنّ فتأخذهنّ الصيحة بالرجفة وتهب
عليهنّ أنفاس النداية كأنها إعصار فيه نار تحترق منه الافئدة ثم
ان النداية تنقطع عن الرثاء فى أويقات معينة فيكون سكوتها
موجبا لزيادة الجزع بين الحاضرات ويعبرن عنه بدموع متناثرات
وترديد صيحات متواليات

وكما أن العامة فى ليالى الافراح يلحون على المغنى بان يطربهم بدور مشهور أولحن مأثور فكذلك كل امرأة فى مجالس الحداد تلتمس من الندابة أن تذكر رثاء يختص بفقيدها العزيز فتجيبها الى ذلك فى الحال ومتى أتمت الرثاء وجب على تلك التى طلبته أن تغالى فى الصياح بصوت محزن صادر من فؤاد جريح وأما الجماعة فيشاركنها لاسناد عويلها ومقاسمتها فى حزنها

وتستمر هذه المجالس من الصباح الى وقت الظهر فى الايام الثلاثة الاولى التى تعقب الوفاة ثم تتكرر فى كل خميس الى انقضاء الاربعين (وهو ختام الحداد) وفى خلالها يستريح النساء بعض برهات قصيرة يتفرغن فيها لشرب القهوة والدخان ومتى حل الظهر تفرقن شذر مذر وتبدد شملهن فى كل أرجاء المدينة فيدهبن بعد أن فعل التأثير بهن ما يوجب انحناء الضلوع وبحة الصوت وضعف العيون ولكنهن ينصرفن مصاحبات للصمت والخشوع مقتنعات بأنهن قدقمن بأكبر الواجبات

ولاتظنن أيها السادة أنى توخيت المبالغة فى هذا الوصف لاحداث بما تعبرون عنه بالتأثير الأدبى كلا فان من أتيح أو يتاح له منكم حضور أحد هذه المجالس فى مصر يقر ويعترف بأنى ماوصلت قط الى

الحقيقة ولابدلى من أن أكون مقتدرا على الانشاء وخصوصا الاسلوب الوصفى ككتابكم المجيدين (مثل تيوفل جوتييه وأمبير) حتى أتوصل للتأثير على عقولكم وأفئدتكم كما تفعله الحقيقة وانى لاسارع فأخبركم بأن الاعتياد على الانفعال فى المآتم بهذه الدرجة الزائدة التى تقابل الصرع والخبال ليست فى شئ بالكلية من ديننا الحنيف فان النبى صلى الله عليه وسلم يأمرنا بأن نجعل الحزن فى قلوبنا وأن نمتثل لاحكام الله والاحاديث فى هذا الشأن كثيرة وليس هذا محل ايرادها

وأرى من الواجب على أن آتى الآن على ذكر ملحوظ دقيق عن لى أثناء طبع هذه الخطبة فيما يتعلق بأصل هذه الاصطلاحات فى المآتم وما هى الطريق التى أوصلتها الى الامة المصرية حتى جعلتها متمسكة بها لهذا الحد الذى هو مناقض لاحكام الشرع الشريف والسنة النبوية الكريمة

فأما مسألة الجنازة وسير الكفارات والفقهاء والفقراء وأولاد الكتاتيب وجماهير المعزين أمام النعش وجماعات النساء خلفه صائحات نائحات راخيات الشعور داعيات بالويل والثبور فذلك كله مأخوذ عن قدماء المصريين مع بعض تعديل قليل وكل من اطلع على ما أورده العلماء عن الفراعنة من هذا القبيل أخذه

العجب من محافظة أهل وادى النيل على عاداتهم مع توالى القرون وتعاقب الدهور

∴ وأما مسألة اقامة الاحزان مدة الثلاثة أيام التى تعقب الوفاة واختتام الحداد بحلول اليوم المتمم للاربعين فانى أحكم بأنها مأخوذة عن النصرانية وذلك لاننا لانرى لها أثرا فى البلاد الاسلامية المحضة بل لانجد فى سيرة السلف الاسلامى أصلا ما تستمد منه فان السنة جاءت بتعزية أهل الميت فى يوم الوفاة على القبر بعد الدفن ومن لم يتأت له ذلك يذهب الى بيت الميت لتعزية أهله وتسليتهم فوجب القول بانها خاصة بأهل مصر وحيث انها لم تكن فى أخلاق الفراعنة ولا مألوفاتهم وجب الجزم بانها جاءت عن طريق النصرانية وبيانه أن المسلمين لما افتتحوا مصر دخل فى دينهم فريق من قبطها وبقى هذا الفريق محافظا على أكثر عاداته (ولاتزال آثارها باقية بيننا الى اليوم)

ومن جملة هذه العادات ولاشك عادة الحداد مدة الثلاثة أيام ثم فى اليوم المتمم للاربعين فان المسيحيين يعتقدون أن سيدنا عيسى عليه السلام قال لتلامذته قبل الصلب انه سيقوم من القبر بعد ثلاثة أيام فاستمروا يتربصون ظهوره فى هذه المدة وهم فى غاية الحزن والقلق حتى حصلت قيامته فى أوائل اليوم الثالث ورآه

بعض النساء وأخبرن به بقية الذين آمنوا وهم يعتقدون أيضا أنه بقى بعد القيامة يظهر تارة ويختفى أخرى فى أوقات غير معلومة وأيام ليست معينة حتى حل اليوم المتمم للاربعين من يوم الصلب فارتفع الى السماء فى أجل المظاهر وأرفع الدرجات (انظر الاصحاحات الاخيرة من الاناجيل وأعمال الرسل) ولايزال الاقباط الى يومنا هذا يقيمون الحداد على موتاهم مدة الثلاثة أيام الاولى وفى اليوم المتمم للاربعين وبعده يعتبر أن الميت فاز بالزلفى وحظى باكرام المثوى كما حصل لسيدنا عيسى عليه السلام

أما مسألة اقامة الحداد فى الاخمسة فلا أراها الاسلامية اذ تستحب فى ليلة الجمعة تلاوة القرآن الكريم والتقرب من المولى بالادعية والتوسلات والاذكار التى يقصد بها أن الميت ينال النجاة وحسن العقبى ولان الناس يتمكنون من السهر وتعزية بعضهم فى هذه الليلة التى يصبحون بعدها وهم خلو من الاعمال منقطعون فى الغالب للرياضة التعبدية ولا بأس من التنبيه بهذه المناسبة أيضا الى ان المسيحيين يقولون ان الحواريين قد اجتمعوا فى يوم خميس عقيب ظهور سيدنا عيسى عليه السلام من القبر وتحدثوا فى شأن دينهم الجديد وفيما ينبغى عليهم اجراؤه من حيث الثبات على معتقداتهم أو النكوص على أعقابهم فترآى

لهم حينئذ سيدنا عيسى عليه السلام وأكد عليهم بوجوب المحافظة على ماجاء به ودعوة الخلائق اليه

وأقول هنا ان العادات التى أتيت على ذكرها هى الجارية فى المدن الكبيرة وانها قد يحدث فيها اختلافات وتنويعات فى الاقاليم والارياف سواء كان عند المسلمين أو عند الاقباط

﴿سادس عشر﴾ — ولقد كان أشار على المسيو بوريان رئيس الارسالية العلمية الفرنساوية بمصر والمسيو كازنوفا أحد أعضائها بجمع نبذة على عادات المصريين فى الاحتفال بزيادة النيل وأن أورد فيها بعض أقوالهم فى هــذه الازمنة الحديثة كما صنع ذلك بعض علماء العاديات المصرية فيما يختص بايام الفراعنة فاجتهدت فى جمع كثير من المواد وأضفت اليها بعض الاستعلامات الرسمية ثم اتفق لى العثور على كتاب مطبوع اسمــه (قطائف اللطائف) وليس فيه اسم المؤلف وقد تضمن كل ما كنت جمعته بل وزيادة فرأيت أن الغير لسعده قد سبقنى فيما كنت أظنه ملكا لى خاصا بى ولكنى لما علمت ان هذا الكتاب قد قامت بتأليفه وترصيفه احدى السيدات الشرقيات زال عنى ما كنت أجده وشمرت عن ساعد الجد فى ترجمة القطعة الخاصة بتفاصيل جبر الخليج فى مصر نقلا عن الفاضـلة مؤلفتــه اجلالا للروابط الادبيــة والعلاقات

التأليفية التى بين المشتغلين بالمباحث المفيدة (والترجمة فى القسم الفرنساوى)

هذا وانى أشكركم أيها السادة على تفضلكم بالالتفات والاصغاء الى ماألقيته عليكم وأختم خطبتى بأنى أتمنى للمستشرقين الفوز بالنجاح فى جميع الاعمال وانى قد أخذت على نفسى بأن أكون فى بلادى من أول العاملين على تبيان حسناتهم واظهار فضائلهم وكمالاتهم

بعض أقوال الافاضل والجرائد

«صورة ما كتبه حضرة الفاضل اللوذعى الجليل محمد بك ذهنى»
«مفتش عموم المعارف ومراقب المطبوعات والجرائد»
«فى ولاية أزمير الى حضرة صديق الطرفين»
«الاديب المهذب محمد أفندى كامل تيمور»
«من تجار الاسكندرية»

عزيزى كنت شائقا الى مطالعة كتاب «السفر الى المؤتمر» تائقا الى اقتطاف يانع ثمراته من آن ماتكرمتم ووعدتم بارساله وهاهو قد وافانى من بضعة أسابيع فتهافت اذ ذاك لاستلامه من البريد تهافت الفراشة الى نور السراج ولم أصدق أنه بيدى الاوأكببت على مطالعته كتابا لم يسبق له مثيل مدة حياتى فاتممته فى يوم واحد بحيث لم أشعر الاوسواد الصفحات قد انقلب بياضا فى النهاية وأنا غير منتبه الى ذلك فالفيته كتابا فريدا فى بابه قد فاز بقصب السبق فى هذا المجال على ماوضع فى هذا الباب مما عثرت عليه من المصنفات وذلك لترتيب ماهو جامعه من الابحاث والمواضع ترتيبا تدريجيا وللاسلوب الرائق الذى آثره حضرة المؤلف اللوذعى الاريب فى التحرير والافصاح عن أفكاره الفلسفية ووصف ماشاهده وتأمل من المعالم الشاهقة والمبانى الشامخة مع التنقيب الشديد والفحص الدقيق الذى تكبده لتحقيق ماوضعه العرب من الاسماء للبلدان الاروبية فى قديم الزمان ثم الغيرة العظيمة التى أبداها حضرته للدفاع عن حقوق الاسلام التى مسها الافتراق الشنيع الضارب أطنابه بين أفواج المسلمين ناصحا اياهم نصحا منبثا عن فؤاد سليم لاجماع كلمتهم واعلاء شأنهم واعظا لهم العظة الحسنة لطرح مساوى الاخلاق واعتناق مكارمها

فاستلذذت جدا من لطيف عباراته ورشيق اشاراته الى حد لا يقدر على وصفه الكلام ولا غرو فان حضرة المؤلف ممن اشتهر وافى صناعة التحرير وسائر المعارف على حداثة السن ويودى لو كان الكتاب أطول لكى أرتشف من حياضه زلال المعرفة استفادة وقد أريت هذه الرسائل متفاخرا الى بعض شبابنا المترينين أهل الكسل والبطالة الذين يذهبون أوقاتهم سدى فى سبيل الملاعب والملاهى راجيا أن تكون الوسيلة العظمى لحثهم على التحلى بالمعارف والفضائل . ولعمرى ان هذا المؤلف لقد أذكى فى صميم الفؤاد نار الاشتياق لاقتناء ماوعد حضرته من الرحلة التى لا ريب فى أنها تكون اكثر تفصيلا منه فيطفئ حينئذ باسهابه نار التوقان ويبرد غليل الاشتياق فمن الآن ألتمس من مكارمكم التى عودتمونى بها أن تشتروه مل تخطفوه آن بروزه فى ساحة المطبوعات فترسلوه الى الفقير على جناح السرعة وغاية رجائى ان تسعفونى أيضا بجميع آثار المؤلف التى صدرت الى يومنا هذا

قال الكاتب الفاضل والمنشئ المجيد البارع أمين أفندى شميل صاحب جريدة الحقوق الزهراء فى العدد ٣٥ الصادر فى يوم السبت ٢٨ اكتوبر سنة ٩٣ ما نصه

الرحلة الزكيه
فى المحاسن الاوروبيه

هى ست عشرة رسالة حررها حضرة اللبيب الفاضل والكاتب النحرير أحمد بك زكى مترجم مجلس النظار فى سياحته باوروبا وزيارته بالاخص مدينة لوندن الشهيرة مندوبا من قبل الحكومة المصرية لحضور المؤتمر المشرقى الدولى التاسع فاودع فيها من بديع الاخبار وجميل الفوائد والآثار وذكر ماهى عليه تلك البلاد من التقدم والرفاهية والثروة وبركات المدنية والراحة فى كل جهاتها ما يسحر المطالع ويستعظمه

السامع وقد جاءت شاهدة على ما الناظم نثرها وناثر نظمها من اتساع المطالعة ورفيع الميل الى نشر الفوائد اللامعة بما سمعه ورآه وشعر به واستحسنه ونبه أفكارنا الى ما فى تلك الاماكن من النادر والبديع والجليل والرفيع اذا قيس ببلادنا الشرقية ومعالمنا العظيمة توجد بينهما بعد شاسع وارتفاع واسع وقد أجاد حضرته فى كل ما ذكره عن المدن التى زارها وتركت فى قلبه حبا يكاد يقول معه

تملأ بعض حبك كل قلبى ❊ فان تردى الزيادة هات قلبا

وقد يظن القارئ انه أطنب فى أوصافه وبالغ فى تعظيمه ولا نظنه الا أوجز فاعجز فان فى المدن التى زارها من نابولى الى مدينة لوندرة عاصمة انكلترا ما يقصر اللسان عن مدحه والقلم عن ترقيمه فلا يقدر المطنب على الايفاء والمطيل على الايعاء فان ما جمعته تلك الديار من محاسن الوجود ووجود المحاسن لا يتصوره عقل من لا ينتقل اليها وينظر غرائبها وعجائبها وما اليها مما وصلت اليه قدرة الانسان

وما قاله فى لندن وباريس واسبانيا حقائق تاريخية قديمة وحديثة لا يختلف فيها اثنان ولذلك قد استحق هذا الكاتب البليغ شكران الرفيع والوضيع وانى أتخذ هذه الفرصة لانبه أفكار المصريين وغيرهم من سكان الممالك المحروسة العثمانية بان ما نشاهده من غرائب الصنعة وبديع الاختراعات وجليل النظام فى أوربا لم يكن كله بفعل حكوماتها وعدل دولها وانما هو عن اجتهاد رجالها وهمم علمائها واتحاد قلوب أهاليها للوصول الى قمة السعادة فانها الاقطار منذ خمسمائة سنة حتى وصلوا الى ما هم عليه فقد كانوا أقل منا درجة وقتئذ تتجاذبهم أنواع الغيرة والحسد وتهوى بهم الاميال الاعتقادية الى تجديد النزاع كلما سكن ونفد والعمل على انحطاط التقدم كلما ظهر حتى رأوا ان فى ذلك تأخرا وخرابا فقللوا من اختلافهم ونبذوا عنهم تلك الاهواء المضرة ورفعوا انظارهم الى ما حولهم من التمدن الشرقى ونظروا قوة ملوكه وسلاطينه فأرادوا التشبه بهم وجعلوا بازاء أعينهم مقاصد هى غير المقاصد الاولى ولم يعودوا ينظرون الى ما خلفهم

وكانت أول بعثتهم الى الامام فلبثوا عليها الى أن توصلوا الى النقطة الخاضرة التى تحسدهم عليها وكانوا هم الدافعين حكوماتهم الى تلك المراغب وتتميم تلك الرغائب

ثم استطرد حضرة الكاتب الفاضل الى نصيحة أهل الشرق وتنبيههم الى وجوب التعاون والتناصر والاستنارة بنبراس الحرية الحقيقية وهنأ نفسه وكل قارئ على مالاح من مبادئ التقدم وتعميم التعليم ثم قال

وتختم كلامنا هذا بالامتنان لحضرة زكى بك على ماأتحفنا به من درر رحلته ورسائله المذكورة نفعنا وجميع الامة بعدالة أفكاره ونافع تآليفه

وجاء فى جريدة الآداب الزاهرة الصادرة بتاريخ ٣٠ ربيع الثانى مانصه

(السفر الى المؤتمر)

هو عنوان للدائرة السفر الجليل الذى رقشه يراع حضرة الفاضل مثال الاجتهاد ودليل الساعين فى طريق النهضة المصرية الحديثة (أحمد أفندى زكى) مترجم مجلس النظار والنائب عن الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع الذى انعقد بلوندره السنة الماضية

قد طالعنا هذا الكتاب الجليل بالعناء مصدقا لما امتاز به حضرة مؤلفه البارع من الكتابة بارشاد العواطف وإلهام الانفعال المعسانى الماشئ من رؤية المناظر الجديدة الشائقة وتوخى التحقيق والتدقيق فى الاعلام الجغرافية والعلمية وهو البحث الجليل الذى يدل على سعة اطلاع حضرة المؤلف واحاطته بكتب المتقدمين من العرب ولنورد هنا أمثلة من تلك التحقيقات تختص باسماء البلدان التى لها أسماء معلومة فى كتب المتقدمين ثم عمد الى تسميتها بما ينطبق على تمثيل اسمها عند سكانها الآن فبلد برندزى الشهيرة فى ايطاليا بانها ممر السفن التجارية التى تمخر البحر الادرياتيكى تسمى فى كتب العرب ابرندس ونابولى نابل ونابل الساحلية ونابل الكتان وبيزة بشة وخنفة حنترة وبارز

بريس وتراففار الطرف الاغرالخ واما الاحصائيات التى وردت فى الكتاب فهى فى غاية الفائدة والنفع وقد مهدت لحضرة المؤلف استنتاج الحقائق واستقصاء الاسرار الاجتماعية ومن ذلك ما نقله عن تقويم ترويح النفوس (ونقات الاحصائية الواردة فى صحيفة ٩٦ و ٩٧) وبعد ان ترجم المؤلف انفعالاته من مناظر ايطاليا وفرنسا بما يخال معه القارئ انه كان رفيقاله فى السفر وعطف فى رسائل باريز الى الكلام على النساء الباريزيات فخص لها ولندرة فى مثال الضخامة والفخامة وروى لنا عنها أمورا تخلب عقل القارئ أهمها اجتماع الضدين وتوفر النقيضين فيها وانتقل الى الكلام على اسبانيا والبرتقال ولم يهمل حضرة المؤلف وصف المناظر الطبيعية والابنية الفخيمة والقصور والآثار الباذخة فى كل جهة مر بها

وحسن الاسلوب الذى اتبعه فى كتابه هذا لا يسعنا معه الا الاقرار بعجز هذا اليراع * عن استقصاء فضائله وتقريظه هنا بما يمثل للقارئ جزأ من أهميته ونفاسته فليعذرنا حضرة صديقنا الفاضل فى هذا التقصير الذى نامل منه ان يتخذه دليلا على ما تملكنا من استحسان رسائله لدرجة لم نتمكن معها الامن تخريج عيب واحد فى هذه الرسائل وهو ان لا عيب فيها

جاء فى جريدة الزراعة الغراء الصادرة فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ما نصه

(السفر الى المؤتمر)

اهدانا حضرة صديقنا الاديب الفاضل والكاتب المدقق احمد زكى أفندى مترجم مجلس النظار العالى هذا الكتاب الذى وضعه بعد عودته من اوروبا حيث كان مندوبا مصريا لدى مؤتمر المشرقيات وقد طالعناه مطالعة المنتقد الواضع لديه كفتى الاستحسان والاستهجان تاركين جانبا هوى القلب الخافق سرورا الذى أثره هذا الصديق الفاضل وقد حثنا الآن نظهر رأينا فيه

مزايا الكتاب — يظهر لمن يطالع كتاب السفر الى المؤتمر ان نية كاتبه الفاضل معقودة على إشراك مواطنيه فى كل ما رأى من مشاهد التمدن الاوربى ومظاهر الحضارة الغربية لانه يعلم ان القسم الاعظم منهم لم يردوا غير ماء النيل من مياه المعمورة . وقد أحسن كل الاحسان فى عدم الوقوف عند حد الاخبار عما رأى وما سمع بل قد وضع ما رآه وما سمعه على قوالب ارائه وأجال فيها نظره الحديدى الذكاء فامكنه أن يضع لدى مطالع كتابه مشهد العالم الاوربى بعناصر تقدمه ومجالى رونقه وبهائه والشهادة لله ان سفر سفر صديقنا الزكى الى المؤتمر كأنه معرض تشخص فيه الحضارة الاوربية او هو رسم فوتوغرافى منقول عما ارتسم على مخيلة كاتبنا الزكى من مشاهد اوروبا ومرئياتها ثم والكتاب فصيح العبارة لطيف الاشارة من أحسن ما كتب فى باب السياحات فهو اذا شبيه بكتابات المسعودى وابن بطوطة فى اسلوب كتابته فاشابهها فى شئ من جهة الصلة بالحقيقة والفوائد الجمة والبعد عن الاوهام وقد علمنا من ترتيب الكتاب ان كاتبه كان اذا نزل فى بلد او حل فى مدينة يزور كل ما هو عظيم وذا شأن فيها ويودعه مذكراته الا انه كثيرا ما رى فى الكتاب اثر الاقتضاب والاختصار كذلك كثير مما نعلم وجوب ذكره وليس مذكورا وكثير من ابحاثه مما يفيد تفصيله ليس مفصلا الا اننا نجد عذر الكاتب فى وقته القصير بجانب كثرة اشغاله واتساع جولاته وجسامة مهماته

وكان يود لو نترك القلم مع هواه فى الكلام على اثر من يهواه ولكن المضمار قصير والخاطر حسير لكنا لا نوقفه حتى نذكر للكاتب الزكى صفته الوطنية وغيرته الشرقية الظاهرتين فى كل عبارة من عبارات الكتاب . وسنعود الى مشاركته فى الكلام على البحث الذى هو أول طارق لبابه وهو المتعلق بلغة الامراء وآثارهم فى الاندلس

جاء فى جريدة الشرائع الغراء الصادرة فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٩٣

السفر الى المؤتمر

هو عنوان كتاب مجموع الرسائل التى بعث بها حضرة امام المترجمين ونخبة الشبان المصريين الكاتب الفاضل والاصولى المدقق أحمد أفندى زكى مترجم رياسة مجلس النظار حين كان ببلاد أوروبا اذ عهدت اليه رياسة الوفد المصرى الى مؤتمر المستشرقين بمدينة لوندرة جمعه حفظه الله بعد عودته بالسلامة وطبعه على نفقته بالمطبعة الكبرى فجاء كتابا جليلا يقوم برهانا ناطقا الشبان يتحدون به فى مقام الفخر باعمالهم بل الجامايرة جماح الذين يجحدون أن فى السويداء رجالا وفى الكنانة نبالا بل قدوة حسنة لمن يريد خدمة بلاده وسد أفواه حساده وماعسانى أن أقول فى سفر يصور لك حالة أوروبا أغلبها أكمل التصوير ماديها وأدبيها من الطبيعيات كوصف البلاد والمدائن والجبال والآبار والبساتين والطرق والطقوس والاهوية والاطعمة والاشربة ثم المصنوعات من قديمة وحديثة وجيدة ورديئة فالآثار وأصحابها وتواريخ تأسيسها من عجيبها وغريبها وعظيمها وصغيرها فالتجارة وروأجها وكسادها والصناعة والاقبال عليها أو العدول عنها والزراعة وأصنافها وهيآتها ومناظرها فحال البلد العام غناها أوفقرها ووفرة حاصلاتها أوقلة موجوداتها فطباع كل شعب حسنها ورديئها من ائتلاف الافراد أواختلافهم وتناصرهم أوتقاطعهم ونشاطهم أوبلادتهم واقبالهم على العمل أواعراضهم عنه ثم أفكارهم صحيحها وفاسدها واخلاقهم لينها وجافيها وأميالهم خيرها وشرها ثم غرائب ما عندهم على العموم من المعامل وتشغيلها والمحاجر وأصنافها على ما هو عليه مع ذلك كله من دقة المعانى وجزالتها وعذوبة الالفاظ وسلاستها ولا غرابة فقد كتب بقلم بليغ عربى واحساس شرقى مصرى ودافع قوى وطنى فيا حبذا الوينسج

شبابنا المصريون على منواله اذ فى هذا فليتنافس المتنافسون ولمثل هذا فليعمل العاملون وقدوة حضرة الكاتب أدامه الله خير قدوة للشبان فى كتابه هذا بطبع رحلته الكبرى فما ظنك بها اذا كانت هذه حال الصغرى * وان غدا لناظره قريب أكثر الله فى مصر من أمثاله انه سميع مجيب

ولقد يسرنا ان نظارة المعارف العمومية قد اشتركت فى . . . . نسخة من السفر المذكور لتوزيعها على طلبة المدارس افادة لهم وتعويضا لبعض ما أنفق حضرة المؤلف وتشجيعا لغيره فى الاقدام على مثل ذلك فلا عدمنا من يسهرون على تقدم البلاد ونجاح شبانها آمين

قالت جريدة المقتطف الاغر الصادرة فى أول اكتوبر سنة ١٨٩٣ ما نصه

السفر الى المؤتمر

هو مجموع الرسائل التى كتبها حضرة البارع فى ميادين المعارف أحمد أفندى زكى مترجم مجلس النظار فى سياحته باوروبا نائبا عن الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع الذى عقد فى العام الماضى وقد أطال الكلام فيها على لندن وباريس ومدائن اسبانيا فجاءت كتابا كبيرا فى أربعمائة صفحة جامعة لاشتات الفوائد (١)

وفى رسالته عن اسبانيا والبرتوغال (أى البرتقال) فوائد كثيرة ونكات بديعة من ذلك ما وقع له فى طلب أجرة المركبة منه ستمائة ريال (٢)

ويتلو ذلك نبذة بديعة فى امتزاج العرب بالعجم فى اسبانيا وسنأتى على ذكرها فى فرصة أخرى وجملة القول ان هذه الرسائل شاهدة لحضرة مؤلفها بسعة الاطلاع ودقة البحث وبانه لقى من الحفاوة والاكرام ما يفتخر به شبان مصر

---

(١) ثم أورد بعض نقول من المقدمة صحيفة ٤

(٢) ثم أورد القصة المسطورة فى صحيفة ٣٩٩

Du *Journal Officiel* du 6 novembre 1893.

Sous le titre : « *Départ pour le Congrès* », Ahmed effendi Zéki, chef du bureau de traduction à la présidence du Conseil des Ministres, vient de réunir en un volume publié en langue arabe par l'imprimerie nationale de Boulaq, ses impressions de voyage au cours de sa mission à Londres, où il avait été envoyé, l'année dernière, au Congrès des Orientalistes.

Le livre de Zéki effendi se distingue par un style élégant, mis au service d'un talent de description de bon aloi, et, par son intérêt soutenu, qui assure à l'avance son succès de lecture.

De l'*Egyptian Gazette* du 14 novembre 1893

(La traduction française a paru dans la partie française du même numéro).

Under the title of *Al Safar illa Al Motamar* (the journey to the Congres), Ahmed Zeki Bey, the head of the translating department at the President of the Council of Ministres, has pu-

blished in Arabic an account of his recent travels in Europe, which is very interesting from both scientific and literary points of views. In an elegant and clear style, the author gives his impressions of his journey when he proceeded to London to represent the Egyptian Government at the IXth Congress of Orientalists held in that city.

The work abounds with ethnographical and literary notes and gives a very correct idea of the state of civilisation in several countries of Europe, of their industrial and commercial progress and of the manners and customs of their inhabitants. Specially worthy of attention are the author's remarks respecting the beauties of Paris, the grandeur of London, his visit to the South Wales coal mines and the description of his journey through Spain and Potugal.

We compliment Ahmed Bey Zeki on the able manner in which he has compiled his work which shows great originality of thought on his part and which, as a book written by an Egypt-

ian for the benefit of his fellow countrymen, is one deserving of an extensive circulation among Egyptians.

Du *Phare d'Alexandrie* du 15 novembre 1893.

Bibliographie. — Les jeunes et vieux égyptiens qui n'ont pas eu l'occasion de contempler les merveilles de la civilisation européenne, feront bien de lire attentivement l'ouvrage qui a pour titre : *Départ pour le Congrès*.

L'auteur, M. Ahmed Zéki effendi, dont les divers et nombreux travaux littéraires et scientifiques ont déjà obtenu tant de succès, a réuni dans un remarquable ouvrage en langue arabe, les impressions recueillies au cours de son récent voyage en Europe.

Délégué par le Gouvernement égyptien au Congrès des Orientalistes à Londres, M. Ahmed Zéki, en homme intelligent, a su mettre à profit les courts instants dont il a pu disposer pendant son séjour en Europe. En lisant : *Départ pour le Congrès*, on demeure étonné de la somme de

travail fournie par l'auteur, pour recueillir tant de notes intéressantes, pour s'assimiler tant de détails de mœurs, tant d'observations d'un si haut intérêt.

Les récits, tout vibrants d'émotion, concernant la grandeur de Londres, les magnificences de Paris, les curiosités artistiques et archéologiques du Portugal et surtout de l'Espagne où l'on rencontre tant de vestiges de la civilisation arabe, tout est pensé et dit avec un grand charme infini.

M. Zéki sait communiquer son enthousiasme au lecteur.

Dans son ouvrage, M. Zéki s'adresse plus specialement aux Égyptiens, ses compatriotes, et, à ce titre, le travail de l'auteur est non seulement une belle œuvre, mais une bonne action.

Nous recommandons vivdment la lecture de : *Départ pour le Congrès*, à toute personne éprise d'art, de science et de littérature. On y rencontrera toutes les qualité, qui sont l'apanage des bons écrivains.

قالت جريدة الهلال الاغر فى العدد الصادر فى ١٥ ديسمبر سنة ٩٣ ما نصه

السفر الى المؤتمر

هو كتاب يتضمن الرسائل التى جادت بها قريحة حضرة صديقنا الكاتب الالمعى رفعتلو احمد افندى زكى رئيس قلم ترجمة مجلس النظار اثناء رحلته فى بلاد اوروبا مندوبا للنيابة عن الحكومة المصرية فى مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع الذى التأم فى لندرا اواخر العام الغابر. وقد أبرع الوسع فى وصف العواصم التى مر بها واقام فيها وصفا دقيقا لم يغادر فيه شاردة ولا واردة مما يهم المطالع معرفته عن أحوال تلك البلاد. ومن مزايا تلك الرسائل انه كتبها بقلم مصرى ينظر الى الاشياء بعينى مصرى بحث ينفعل بانفعال المصريين ويكتب للمصريين. واول مدينة نزل فيها ووصفها نابولى ثم رومة العظمى ففلورانسا فبيزة فجينوة فتورينو فودان فباريس فلندرا وبعض مدائن الانكليز ثم بلاد الغال ووصف بلاد الاندلس وآثار العرب فيها وغير ذلك من الفوائد التى لا يعثر عليها الا بالاسفار الشاقة والابحاث الطويلة

وقد اسهب الوصف بنوع خاص فى مدينة باريس فلم يغادر شيئا لم يصفه وصفا دقيقا من احوالها المدنية والسياسية والعلمية والتاريخية ومتاحفها ومعارضها وابنيتها وعوائد اهلها واخلاقهم رجالا ونساء حتى تمثلت المدينة لدينا تمثل العيان. وقد أجاد فى الكلام عن الاندلس وتأثير التمدن العربى على الاسبان واورد كثيرا من الاسماء العربية التى اختلطت بلغة هؤلاء الاقوام وردها الى اصلها العربى لغويا وتاريخيا

وبالجملة فانه قد اشبع الكلام وافاد فيه افادة يستوجب عليها الثناء ويليق من اجلها ان يكون قدوة ومثالا فى الاقدام والاجتهاد ودقة البحث

على ما نستأذنه بعد ان وفيناه بعض الواجب من الثناء ان نذكر طرفا مما رأينا فيه

وجها المقدا جابة لطلبه . ونحن على يقين أنه لا يستنكف من سماع ملاحظتنا لعلمنا أنه من يحبون البحث عن الحقيقة ولا يستعظم الرجوع الى الحق فنقول :

قد رأينا في وصف مدينة لندرا اجازا يكاد يبلغ حد الاخلال على حين انا كنا ننتظر الافاضة في وصفها أكثر من سواها لما حوته من الآثار والمتاحف والعظمة ولا سيما انها مقر المؤتمر ومحط رحال حضرة الكاتب في رحلته هذه فانه لم يذكر متحفها الشهير المعروف بالمتحف البريطاني الا بطريق العرض عند كلامه عن متاحف باريس ولم يشبع الكلام فيه ولا ذكر شيأ عن مسرحها (معرض الحيوان) ولا منبتها (معرض النبات) ولا غير ذلك مما يستغرق في وصفه المجلدات الضخمة وخصوصا المتحف البريطاني الذائع الصيت فانه من أعظم متاحف الدنيا ان لم نقل أعظمها وفيه آثار العالم على اختلاف الزمان والمكان

وقد قال اثناء كلامه عن لندرا تحت عنوان «تمويل الانكليز» صفحة ١٠٨ (١) «وأما جيش السلام فلا أتكلم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لندرا بقصد تمويل الانكليز (ان صح التعبير أي جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذه) وبلغني انهم هيكلا تقام فيه شعائرهم الدينية في حط ويستشبل المعمور بألوف من الخلائق وعلمت ان أعمالهم سائرة في طريق التقدم وان بعضا من رجال البوليس الانكليزي قد دخلوا في زمرتهم»

نقول ولا نعلم بوجود هذا الجيش في لندرا ولا شيء مما نسبه اليه ولعله أراد «جيش الخلاص» Salvation Army وليس جيش السلام أما جيش الخلاص فهو بريئ من تلك التهم اذ لا علاقة له بالبوذيين ولا مذهبهم وأما هو فعبارة عن جماعة من المسيحيين يدعون أنفسهم المبشرين المسيحيين Mission Christian وهم أخلاط من بقايا عدة جمعيات مسيحية تألفوا سنة ١٨٦٥ لتبشير أسافل الناس وقد نظموا أنفسهم على هيئة جيش له قائد (جنرال) وضباط وصف ضباط وعساكر وقائده أو رئيسه الآن

---

(١) من الطبعة الاولى ويقابلها ١٣٩ في هذه الطبعة

الجنرال «بوث» أو «بوذ» ولعل ذلك ما التبس على حضرة الكاتب بمذهب بوذة . وقد مرّ على هذا الجيش الآن زهاء ثلاثين سنة عاملا على خطته وله نفقات خصوصية من أوقاف محدودة وقاسى مشقات عظيمة فى سبيله ولكنه كان يكتسب أموالا طائلة يجمعها من أموال المحسنين تتجاوز مئات الالوف من الجنيهات ولم يقتصر انتشاره فى لندرا بل تجاوزها الى الضواحي والمستعمرات ومدن كثيرة من أوروبا فان منه فروعا فى كوبنهاجن وبرلين وهمبورج وغيرها وفى جنوبي أمريقيا واستراليا

ولا يزال الجنرال بوث قائما بأعمال هذا الجيش عاملا على نصرته الى هذه الغاية وقد شاهدنا من هذا الجيش أثناء زيارتنا عاصمة بلاد الانكليز سنة ١٨٨٦ جماعات يطوفون الشوارع يعزفون بالموسيقى العسكرية ورأيناهم يقفون على ملتقى الطرق وفى المتنزهات العمومية يعظون الناس ويحثونهم على الصلاح وربما كان بين وعاظهم من لا تليق به هذه المهنة وسبب ذلك ما قدمناه من ان الجيش تألف لهداية السوقة وأسافل القوم فانتظم فى سلكه جماعة منهم فنشوهوه وأمامهم فوق خط «ويتشبل»

على أن ما ذكرناه لا يحط شيأ من قدر حضرة صديقنا الفاضل ولا يقلل شيأ من قيمة مؤلفه الجليل ونحن نعلم انه كتب ما كتبه فى أضيق الاوقات وأقصر الفرص والعصمة لله وحده سبحانه وتعالى

ايضاح الحقيقة
عما ورد فى النبذة المتقدمة

لما اطلعت على ما كتبه الهلال الاغر أرسلت اليه رسالة مطولة ألخصها هنا فى كلمات وجيزة وسطور قليلة

الاعتراض الاول وهو الايجاز فى وصف لوندره ينفيه الاطلاع

على الكتاب ومقارنة الجزء المخصص فيه لها وحدها وهو لاشك كثير جدا بالنسبة لغيرها من البلدان الكثيرة التى زرتها وهذا لاينافى أن هذا الوصف مهما طال ومهما كثر فليس يستحق الذكر بجانب جسامتها وانى قد سبقت الى الاشارة الى ذلك فى صحائف ١٠٣ و١٠٧ و١١٣ و١١٤ و١١٥ و٢٠١ و٢٠٣ و٢٠٨ و٢١٥ (١)

أمّا ما يتعلق بالمتحف البريطانى فانى لم أذكره فقط بطريق العرض اثناء الكلام على متاحف باريس بل قد ذكرته وأشرت اليه فى صحيفة ٢٠٦ فى رسالة لوندره ولما كان وصف هذا المتحف قد أسهب فيه حضرة العالم الفاضل أمين بك فكرى فى «ارشاد الالبا الى محاسن أوربا» ما رأيت وجوبا لاعادة الكلام عليه بل آثرت الدخول فى مواضيع أخرى لم ترد فى الغالب فى كتاب حضرته كما أنى اذا اضطررت للكلام على موضوع قد سبق له الخوض فيه أجتهد فى شرح أمور جديدة وبيانات لم ترد فى كتابه حتى يكون لمن قد قرأ كتابه الانيق فائدة فى تلاوة كتابى أيضا . وكل من قابل بين الكتابين يعلم أن أحدهما لايغنى عن الآخر ولابد من الحصول عليهما معا . ومن رأيى أن القارئ العربى يكفيه أن يعلم عن المتحف البريطانى ما ورد فى ارشاد الالباء وأنه من الواجب أن يجد معلومات جديدة ومزايا أخرى فى

(١) اعلم أن النقول والنصوص الموجودة فى هذه الصحائف هى الواردة فى الطبعة الاولى حرفا بحرف

«السفر الى المؤتمر» وهو الامر الذى دعوت اليه فى خاتمة كتابى هذا لتكمل الفائدة. (ص ٤٦٦)

٢: أما الاعتراض الثانى فهو مبنى على كون صاحب الهلال الأغر ظنّ أننى جعلت أهل جيش السلام من البوذيين الوثنيين وتصوّر أن الذى أوجب عندى (أنا) حصول الالتباس أن قائد جيش السلام يسمى (بوث) ثم بنى على ذلك الشرح الذى علقه على عصابة هذا الجنرال وأحوالها بما فيه فوائد جمة كنت أدخر شرحها لرحلتى الكبرى فجزاه الله خيرا على هذا الاستعجال

غير أنى لم أقصد مافهمه حضرته بالمرة ولم يدر فى خلدى شئ من التهم التى تصورانى نسبتها لهم لان قولى « وأما جيش السلام فلا أتكلم عليه الآن وانما أقول ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى لوندره بقصد تبويذ الانكليز (ان صح التعبير أى جعل الانكليز كلهم على مذهب بوذة) وبلغنى أن لهم هيكلا الخ» وذلك لانه لو تدبر كتاباتى فى الرسائل لرأى أننى عند ما تزدحم علىّ المواضيع وتتوارد المطالب أجنح الى هذا الاسلوب من التعبير «وأما الامر الفلانى فلا أذكر عنه شيأ الآن - أو - فانى أؤخر شرحه لفرصة أخرى - أو - ما أشبه ذلك من العبارات » ثم أعقب هذه الجملة بقولى « وانما أتكلم على الامر الفلانى » الذى يكون غير

الاول ولكنه يكون منطويا تحته فى باب واحد وله به تمام الارتباط
وشواهدى على ذلك كثيرة فى الكتاب أكتفى بذكر واحد منها لكون
الاطالة لاطائل تحتها وهو « أما نزهتنا فى لوندره فلا أتكلم عليها
الآن وانما أذكر أنى شفيت الغليل برؤية شبه مدينة البندقية فى
احدى ضواحيها وهو محل متسع الخ » فقد أغفلت الكلام على النزهة
فى لوندره وذكرت شيأ عن النزهة فى ضواحيها وهذا له تمام المشابهة
فى كونى أغفلت الكلام عن جيش السلام وتكلمت على تبويذ
الانكليز (بحسب مذهب الهنود) لان سياق الكلام كان على «أفكار
الانكليز واعتقاداتهم وآرائهم ومقالاتهم »

هذا وان فى قولى «ان جماعة من البوذيين الوثنيين جاؤا الى
لوندره الخ) كفاية تامة للتعريف بمن أريد وانى لا أقصد أهل جيش
السلام الذين هم من طوائف النصارى كما هو اعتقادى الحقيقى الظاهر
فى عبارتى وهنا أرى وجوب الرجوع الى الاحق من حيث التسمية
لان الترجمة التى قال بها صاحب الهلال الاغر « جيش الخلاص »
هى فى الحقيقة أفضل وأدل على المراد من ترجمتى لاسمهم بقولى
« جيش السلام » لكن لفظة الخلاص هى خاصة بالاصطلاح
المسيحى فلذلك أعذر على كونها فاتتنى مع كون الكثير من الكتاب
يذكرون «جيش السلام» ويريدون به كتيبة الجنرال بوث وأهل
طريقته وهذه الترجمة متداولة معروفة

وقد أخبرني حضرته انه قرأ العبارة هكذا « وانما أقول انه جماعة من البوذيين » فلما وضع هو الضمير في لفظة «انه» توهم اني خلطت هذه الجماعة النصرانية بالطائفة البوذية وليس الامر كذلك فاني ماقلت الا « أن » في الطبعة الاولى والطبعة الثانية هذه

هذا ما رأيت ذكره بالاختصار بيانا للحقيقة التي أراني متفقا مع حضرة الفاضل صاحب الهلال الاغر على تحريها وتفضيلها على عواطف الوداد وروابط الاجتهاد واني أشكره في هذا المقام على توخيه هذا الاسلوب المفيد في الانتقاد فانني لاأزال أجاهر باني ممن يفتخر بمحبة الانتقاد ويرى وجوبه على الدوام فيما يتعلق بكل كتاب يظهر في عالم المطبوعات لان «الحقيقة بنت البحث» وياحبذا الانتقاد الصادر عن طوية خالصة ونية صافية بمقتضى قواعد العلم ونواميسه المعتبرة فانه مما يوجب ارتقاء المعارف ورفع مقام الكتاب أرشدنا الله جميعا الى السداد والصواب



كانت براعة الاستهلال فى هذا الكتاب الرسالة الفائقة التى كتبها تاج المنشئين وفخر الكاتبين الاستاذ الاجل الشيخ عبد الكريم سلمان والحمد لله الذى وفق له براعة ختام من أحسن ماتستطيبه العقول وتنتهى اليه المطالب ويكمل به اختتام هذا الكتاب على أجل منوال فقد جادت قريحة الذى لايصح أن ينتهى الشعر الا الى بابه ولا تقف مطايا العلم الا عند رحابه حضرة الفاضل الجليل اسمعيل بك صبرى وكيل محكمة الاستئناف الاهلية بهذه القصيدة الفائقة وهى

أهجر النوم فى طلاب العلاء * وصل الصبح دائبا بالمساء

والتمس بالمسير فى كل قطر * رتبة العارفين والحكماء

ان غض الشباب فقهه الستر * حال شيخ فى أعين العقلاء

ومقام الحسام فى الغمد يزرى * بالذى حازمتنه من جلاء

فدع الغمد يبذل العين من فضـ * ـلك ماكان فى زوايا الخفاء

ان أمضى الرجال من كان سهما * نافذا فى حشاشة الغبراء

واللبيب اللبيب من دار فى الار * ض لعلم يناله أو ثراء

انما الارض والفضاء كتاب * فاقرأوه معاشر الاذكياء

واقرنوا العلم بالسرى رب علم * لم تحزه قرائح العلماء

وأطيب الماكان من قصر العيـ * ـش بحث الركاب فى الانحاء

وطن المرء مهده وبقايا الـ * ـكون بيت له رفيع البناء

معيب ان تصرف العمر فى المهـ * ـد وتنسى البيت الوسيع الفناء

هذه الفلك يستحث خطاها * هزج الريح فى صحارى الماء

كم أطالت مدى الرحيل والنـ * ـه فعادت بالخير والسراء

وهلال السماء يزداد نورا * كلما خاض لجة الظلماء

لو ونى عزمه لما فاز بالقد * ح المعلى فى القبة الزرقاء

خلق المرء للتنقل فى الار * ض وللسعى لا لمحض الثواء

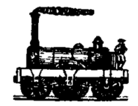
فتحرك بحكم طبعك أوكن * حجرا فى مجاهل البيداء

حبذا رحلة تمثل تمثيـ * ـلا مزايا الاسفار للقراء

قد أجادت فيها براعة منشيـ * ـها اختيار الاخبار والانباء

فأجل فى جمالها النظرات * فهى بكر الاداب والانشاء

وتفهم حديثها تم سافر * ليس من يسمع الحديث كرائى



جدول

اجمالى ببيان الاعمال المقدمة للمؤتمر

كتب أصلية ألفتها	كتب قديمة صححتها ونقحتها
١ — مفتاح القرآن	١ — ضوء السارى لمعرفة خبر تميم الدارى للمقريزى
٢ — النسخة المحررة للطبعة الثانية من موسوعات العلوم العربية	٢ — ذكر الغلاء الواقع بأرض مصر له
٣ — معجم الكلمات المصحفة	٣ — ترتيب المقتضب فيما وافق لغة مصر من لغات العرب (أصله للصديقى وقد غيرت ترتيبه)
٤ — معجم الكلمات الكلبية ويليه التبرى من معرة المعرى	٤ — أسماء الاسد مستخرجة من القاموس
٥ — معجم تحرير وضبط الاعلام الجغرافية بالعربى والفرنساوى	٥ — الاضداد مستخرجة من القاموس
٦ — وصف مجالس الندابات ومجموعة فيها أكثر من ٣٠٠٠ بيت من مراثيهن	٦ — تحبير الموشين فيما يعبر فيه بالسين والشين للفيروزابادى
	٧ — القصيدة الفارقة بين الضاد والظاء
	٨ — حل لغز الماء للمقريزى (وترجمته بالفرنساوى)
	٩ — قصيدة علم الدين السخاوى فيما اتفق لفظه واختلف معناه
	١٠ — الاحتفال بزيادة النيل وجبر الخليج (وترجمته الى الفرنساوى)

(استدراكات)

(١) سهوت ان أذكر فى حاشية صحيفة ٢٣ ان لفظة دار الصناعة كانت مستعملة أيضا فى الديار المصرية فخشيت ان يتصور القارئ ان مصر لم يكن لها شأن كبير فى ذلك فاخترت نقل ما أورده المقريزى فى صحيفة ١٨٩ من الجزء الثانى من خططه المشهورة المطبوعة فى بولاق سنة ١٢٧٠ هجرية تحت عنوان (ذكر المواضع المعروفة بالصناعة)

قال بعد ان عرف لفظ الصناعة من حيث اللغة (وأما فى العرف فالصناعة اسم لمكان قد أعد لانشاء المراكب البحرية التى يقال لها السفن واحدتها سفينة وهى بمصر على قسمين نيلية وحربية فالحربية هى التى تنشأ لغزو العدو وتشحن بالسلاح وآلات الحرب والمقاتلة فتمر من ثغر الاسكندرية وثغر دمياط وتنيس والفرما الى جهاد أعداء الله من الروم والفرنج وكانت هذه المراكب الحربية يقال لها الاسطول ولا أحسب هذا اللفظ عربيا وأما المراكب النيلية فانها تنشأ لتمر فى النيل صاعدة الى أعلى الصعيد ومنحدرة الى أسفل الارض لحمل الغلال وغيرها) ثم قال فى صحيفة ١٩٠ مانصه (وأول ما أنشئ الاسطول بمصر فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى الفضل جعفر بن المعتصم عند ما نزل الروم دمياط فى يوم عرفة سنة ثمان وثمانين ومائتين وأمير مصر يومئذ عنبسة بن اسحاق فملكوها وقتلوا بها جمعا كثيرا من المسلمين وسبوا النساء والاطفال ومضوا الى تنيس فأقاموا باشتومها فوقع الاهتمام من ذلك الوقت بامر الاسطول وصار من أهم مايعمل بمصر وأنشئت الشوانى برسم الاسطول وجعلت الارزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر الخ) وقال فى صحيفة ١٩٥ مانصه (قال ابن أبى طى فى تاريخه عند ذكر وفاة المعز لدين الله انه أنشأ بها دار الصناعة التى بالمقس وأنشأ بها ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر على مينا *

وقال المسبحى (١) ان العزيز بالله بن المعز هو الذى بنى دار الصناعة التى بالمقس وعمل المراكب التى لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ووثاقة وحسنا) وقد ذكر المقريزى فى صحيفة ٩٦ و ٩٧ تفاصيل أخرى عن دار الصناعة بالجزيرة أى جزيرة الروضة ودار صناعة مصر.

(٢) قلت فى صحيفة ٩٧ أن بهاء الدين العاملى وصف النساء فى الارجوزة الشهيرة التى كتبها على رحلته فى بلخ وأوردها فى أوائل الجزء الثانى من الكشكول وحقيقة الرحلة أنها كانت فى هراة والارجوزة اسمها الفاخرة وهى واردة فى الجزء الاول صحيفة ٧٢ و ٧٣ و ٧٤ من الجزء الاول من كشكوله المطبوع فى بولاق سنة ١٢٨٨ وهذه هى الابيات

نساؤها مثل الظباء النافرة * ذوات ألحاظ مراض ساحرة
يسلبن حلم الناسك الاوّاه * يسلمن جسمه الى الدواهى
من كل خود عذبة الالفاظ * تقتل من تشاء بالالحاظ
أضيق من عيش اللبيب ثغرها * أضعف من حال الاديب خصرها
فاتكة قد شهدت خداها * بما بنا تفعله عيناها
ترنو بطرف ناعس فتاك * يفسد دين الزاهد النساك
والصدغ واو ليس واو العطف * والشدى رمان عزيز القطف
والجسم فى رقته كالماء * والقلب مثل صخرة صماء
ولفظها وثغرها والر . . ف * سحر حلال أقحوان حقف
وقدها ونهدها والخد * غصن ورمان طرى ورد
والشعر والرضاب والاجفان * صوارم مدامة ثعبان
غيد حميدات خصالهن * طوبى لمن نال وصالهن

---

(١) اعلم أن حقيقة اسمه بالباء الموحدة بعد السين المهملة وقد وردت غلطا بالياء التحتية المثناة فى جميع المواضع فى طبع خطط المقريزى فليحرر ذلك

(٣) مسئلة تساؤل الانكليز بعضهم بعضا عن الوجود والصلاة فى الكنائس فى يوم الاحد (صحيفة ١٤٢) تشابه تساؤل المصريين بعضهم بعضا فى شهر رمضان (انت صايم والا فاطر ؟) يريدون مفطرا

(٤) يقول المغاربة فى تعظيم السيدات (للا) فربما كان ذلك أصلا للعبارة المكتوبة فى بورصة مدينة بورتو التى أوردتها فى صحيفة ٣٩٦

وقد راجعت مذكراتى فرأيت ان العبارة المكتوبة على زجاج البورصة هى (عز لانا السلطانة مريم ٢) وانى أوردهنا الابيات التى رأيتها على طرازات الزجاج فى دار البورصة المذكوره وذلك بناء على طلب أحد الاصدقاء الفضلاء وهى

« سعد الرجاء وساعد الاقبال * ودنا الهنا وأجابت الآمال »

وأقول ان أصل هذا البيت بحسب ما أورده السعد فى مقدمة شرح التلخيص هى

سعد الزمان وساعد الاقبال * ودنا المنى وأجابت الآمال

وهى أجود وأمتن فى بابها

ثم انه يوجد فى شبابيك البورصة المذكورة وردات من الزجاج وفى وسطها هذه العباره

((عز نصره))

وبهذه المناسبة أوردهنا ما عندى من النصوص العربية المعتبرة التى تدل على أن بورتو هى المعروفة عند العرب باسم برتقال بالباء الموحدة والراء المهملة والتاء الفوقية والقاف يتلوها ألف ولام والذى دعانى للتعجيل بايراد هذه النصوص فى هذا المقام مع أنى كنت وعدت فى صحيفة ٣٩٥ بأنى سأوردها فى الرحلة أن بعض الادباء قد طالبنى بها فلم أر مندوحة عن تعجيل الجواب

قال فى الجزء الثانى من البيان المغرب فى أخبار المغرب للمراكشى الذى طبعه

العلامة المحقق دوزى فى مدينة ليدن سنة ١٨٤٩ مانصه بالحرف «الى أن خرج»
«الحاجب المنصور أبو عامر ع وضع برتقال على نهر دويرة . . . . . . وقد كان»
«المنصور تقدم فى انشاء أسطول كبير فى الموضع المعروف بقصر أبى دانس من»
«ساحل غرب الاندلس وجهزه برجال البحريين وصنوف المترحلين وحمل»
«الاقوات والاطعمة والعدد والاسلحة استظهارا على نفوذ العزيمة »

وقال فى الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس المطبوع فى مدينة أوبسالا *Upsala* سنة ١٨٤٣ مانصه بالحرف الواحد « وفى سنة أربع وخمسين ومائة فتح الامير سير بن أبى بكر سنتريش»
«و بطليوس و برتقال و ناقورة والاشبونة وجميع بلاد العرب »

وفى هذا أكبر كفاية وأوفى غاية والله محيط بالمخلصين من عباده

(٥) يقول مؤرخو الافرنج ان الذى بقى مع بلاى أو بلايه أو بلايو Pélage أو Pelayo ٤٠٠ رجل فقط لا ٣٠٠ كما ذكرته عن مؤرخى العرب ولكن الطرفان متفقين على تمام القصة المذكورة فى صحيفة ٤٢١

(٦) قد قلت فى صحيفة ٤٢٨ أثناء الكلام على « ابن القوطية أحد مشاهير كتاب الاندلس « ان العرب أطلقوا اسم القوطية La Goda بالاسبانية و La Gothe بالفرنساوية على سارة Sara حفيدة الملك القوطى ويتيزا Witiza أو Vitiza المعروف عند العرب باسم غيطشة ور بما كان الرجل من نسلها»

والحمد لله فقد تحقق هذا الظن وصار الآن من اليقينيات فاليك أيها المحب للابحاث التاريخية ماأورده بهذا الخصوص العلامة ابن خلكان فى ترجمة أبى بكر محمد بن القوطية قال

(والقوطية بضم القاف وسكون الواو وكسر الطاء المهملة وتشديد الياء المثناة من تحتها وبعدها هاء ساكنة هذه النسبة الى قوط بن حام بن نوح عليه السلام نسب اليه

حـدة أبي بكر المذكور . . . . وهى أم ابراهـيم بن عيسى ابن مزاحم جدة أبي بكر المذكور وهى ابنة وبة بن غيطشة وكان من ملوك الاندلس . وكانت القوطية المذكورة وفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها ارطباس المذكور فتزوجها بالشام عيسى بن مزاحم المـذكـور وهو من موالى عمر بن عبـد العزيز الاموى رضى الله عنه وسافر معها الى الاندلس فكان ذلك سبب انتقال عيسى بن مزاحم الى الاندلس وانساله بها . . . . . . وغلب اسمها على ذريتها وعرفوا بها الى اليوم الخ)

(٧) قلت فى صحيفة ٤٣٠ انى لم أتعرف الاصل الافرنكى فى جملة اعلام أندلسية منها انجلينو ومردنيش وأقول الآن ان انجلينو مأخوذ من أنجيـل Angel بمعنى الملك بفتح اللام فى اللغة الاسبانية وهم يقولون بالتصغير Angelino وعنه أخذ اللفظ العربى ولا يزال هذا الاسم مستعملا فى التسمية عند الافرنج عموما وأما مردنيش فانى أظن انه مأخوذ عن Martin مرتين و Martinis مرتينيس ثم صارت مردنيش

(٨) بمناسبة ماذكرته فى صحيفة ٤٣٣ من ان بعض الاندلسيين أضافوا الى أسمائهم الواو والسين والياء والسين وان ذلك شبيه باللاتينية التى تنتهى الاعلام وأغلب الاسماء فيها بهذه الاداة Us أو Is أقول الآن انه يوجد فى نفس اللغة العربية ألفاظ تدخل عليها الواو والسين والياء والسين لزيادة التأكيد مثل قدم وقدموس والقط والقطوس والاس والاسيس والبقس والبقسيس والقس والقسيس وانى أورد لك الآن جملة كلمات من هـذا القبيل ترى معناها محفوظا فيها بعد حذف الحرفين الاخيرين منها فاحرص على ذلك وراجع كتب اللغـة بكل

عناية وتدقيق وهى سقوس . جعسوس . جمموس . حرقوس . حربنيس
عرسيس . حمقوس . حندوس . دحموس . خربسيس . خلبوس
خلبيس . حلنبوس . دردبيس . درعوس . دعبوس . درهوس . دلعوس
دلعبيس . ضبوس . طرطبيس . طرموس . طغموس . طاهس
طمروس . عبقوس . عتريس . عنتريس . مرمرس . عرسيس
سطوس . عيطموس . عفروس . كموس علطيس . عطوس . عطميس
عمروس . فرطوس . فلطوس . فجليس . قربوس . قرطبوس . عرقوس . قرعوس
قرنوس . قنطريس . هيجوس . هلبسيس . هاطوس .

واعلم ان من تتبع كتب اللغة علم ان الكلمات التى فى آخرها سين تدل فى أغلب الغالب على القوة والشدة والصلابة

(٩) تكلمت فى صحيفة ٤٦٩ على افطاع تميم الدارى وأقول الآن انى رأيت بعد ذلك فى الكتبخانة الخديوية رسالة السيوطى على هذا الاقطاع فى مجموعة نمرة ٥٣ ولكن شتان بين كتابة السيوطى والمقريزى فى هذا الموضوع الدقيق

(١٠) تكلمت فى صحيفة ٤٧٣ على لغز الماء الذى أورد المقريزى حله وأقول الآن انى رأيت هذا اللغز تحت عنوان (لغز فى ٢١٢) فى صحيفتى ٢٣ و ٢٤ من كتاب الكنز المدفون والفلك المشحون المطبوع فى بولاق سنة ١٢٨٨ فلتنبه لذلك غواة الالغاز وكذلك هو فى الكشكول

(١١) فاتنى أن أذكر أثناء الكلام على الكتب التى ترتبت فيها آيات القرآن الكريم ان الحاج صالح ناظم بن محمد بن اسمعيل رتب كتابا اسمه (ترتيب زيبا) ورأيت نسخة منه مطبوعة على الحجر فى القسطنطينية سنة ١٢٨٤ وفيه جدول يرمز به لاسم السورة ثم جدول آخر للآيات مرتبة بحسب حروف الهجاء فى أوائلها فقط ثم جدول ثالث لعدد الآية وهو كتاب مختصر مفيد

تصحيحات

صحيفة	سطر			
٣١	١٦	وقعت فيه كلمتا Naples الفرنساوية و Neapoli الطليانية كل منهما محل الاخرى		
٣٨	١٨	الصغر	صوابه	الصفر
٥٥	١٥	ثانديتها	«	ثانديتهما
٧٠	١٧	فيهاغيزت	«	فيهاتحيزت
٧٨	١١	نفطن	«	تفطن
١٠٧	١٦	(لندرس)	«	(لندرس = Londres)
١٠٧	١٧	Londres	«	London
١٣٧	١٣	البرزرق	«	البرزوق
١٣٩	١٢	تبويد	«	تبويذ
٣٤٦	١٣	ولم أو	«	ولم أر
٤٠٨	١٦	وهى	«	وهن

فهرست الكتاب

الفاتحة

الرسالة الاولى

مبدأ الرحلة

الرسالة الثانية

وصول أوروبا

الرسالة الثالثة

رومة

الرسالة الرابعة

فلورانسة

الرسالة الخامسة

مدينة بيزا

الرسالة السادسة

مدينة جنوه

الرسالة السابعة

من تورينو الى مودان الى باريس

الرسالة الثامنة

باريس

الرسالة التاسعة

من باريس الى لوندره وخلاصة وجيزة على المؤتمر

الرسالة العاشرة

لوندره

الرسالة الحادية عشرة

تجوّل فى بعض مدائن الانجليز

الرسالة الثانية عشرة

تجول فى بلاد الغال

الرسالة الثالثة عشرة

الرسالة الرابعة عشر

الرسالة الخامسة عشرة

العودة الى باريس

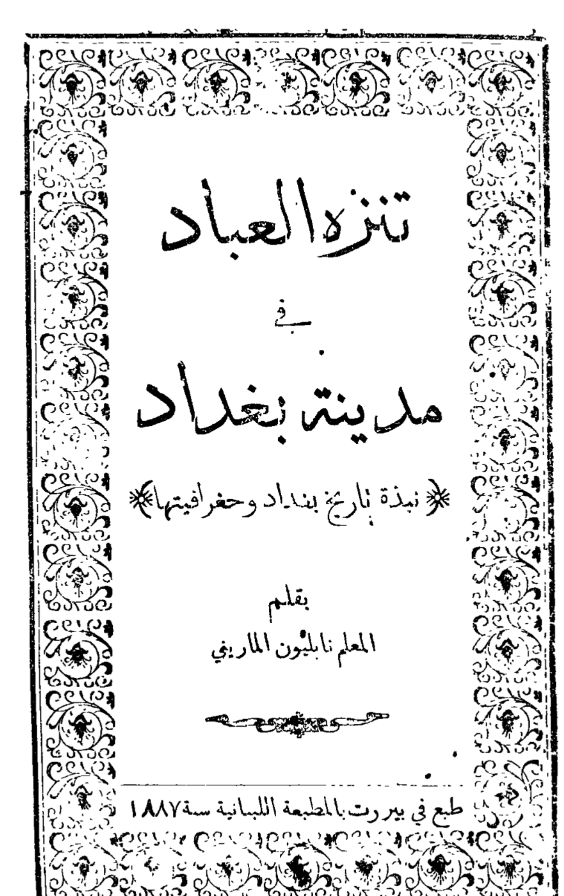
الرسالة السادسة عشرة

وداع باريس وذكر الاندلس والبرتقال بوجه الاجمال

الخاتمة

الخطبة المؤتمرية

بعض أقوال الافاضل والجرائد



تنزه العباد

في

مدينة بغداد

❊ نبذة تاريخ بغداد وجغرافيتها ❊

بقلم

المعلم نابليون الماريني

طبع في بيروت بالمطبعة اللبنانية سنة ١٨٨٧

الديباجة

بسم الله الابدي · الحي السرمدي

حمدًا لمن جعل التاريخ معادًا معنويًا يُعيد الاعصار وقد سلفت · وينشر اهلها وقد ذهبت آثارهم وعفت · وبهِ يستفيد عقول التجارب من كان غرًا · ويلقي من بعدهِ من الامم وهلمَّ جرًّا

اما بعد فيقول منشئ هذه النبذة : اني لما رايت مدارس بغداد بعدمها كتاب يتضمن تاريخ بغداد واحوالها القديمة والحديثة التي اعترتها الان · اخذتني الغيرة العربية · وهزتني المحبة الوطنية · لاضع نبذة تحتوي على جلّ ما تتطلبهُ الارادة · وترتادهُ الافادة · وتستوجبهُ العادة · فبعد ان صرفت يسيرًا من الوقت مجيلاً النظر في مطالعة بعض الكتب والجرائد التي قد ذكرت شيئًا عن بغداد · اختلست أفيح الازهار · وتجنَّيت من الطف الافنان الذ الأثمار · وصومعتهُ الى ما عندي فجاءت نبذة مفيدة في بابها · فريدة في فوائدها · لطيفة مستظرفة الاقوال · قليل ما يوجد منها على هذا المثال · ووسمتها بتنزه العباد · في مدينة بغداد · وهي

منقسمة الى قسمين لا اكثر لكي يتخرج الطالب فيها ويدرك ما قد اشتملت عليهِ من الفوائد الجمة باسهل ما يرام . ويستاصل في ذهنهِ كالنقش على الرخام .

هذا واني ارتجي من رصفائي الكرام ان يتجاوزوا عما يرونهُ لنا من خطاء ادى اليهِ الوهم . او قصر عنهُ الفهم . وان يقابلوا بالعفو . ما يرون من السهو . لان العصمة لله وحده وهو حسبي واليهِ أنيب

لقد اثرنا ان نقسم جغرافية بغداد وتاريخها الى قسمين .
قسم طبيعي وقسم ادبي . فالقسم الاول يتضمن احوال بغداد التي
كانت حاصلة عليها في الازمنة الحالية والتغيرات التي اعترتها
حديثًا وثمانية جداول . في الاول الخلفاء الراشدون . وفي الثاني
خلفاء بني امية . وفي الثالث الخلفاء العباسيون . وفي الرابع خلفاء
قرطبة . وفي الخامس خلفاء الفاطميين . وفي السادس السلاطين
العثمانيون . وفي السابع باشوات بغداد وفي الاخير مجامع ومدارس
بغداد .

واما القسم الثاني فيحتوي على تجارة بغداد ومعاملها ومصنوعاتها
ومدارسها ومعابدها ومقابرها ومزروعاتها واخلاق اهلها وغير
ذلك

القسم الاول

في بناء مدينة بغداد وتسميتها والعوارض التي وقعت عليها

اعلم ان ما ياتي من التفاصيل على مدينة بغداد مستخرجة كلها
عن الاستانستيق التركي اي جدول الوقائع فنقول

ان جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين بعد ان فرغ من
وقائع كانت قد تراكمت لديه واستتبت اموره . شد ازره و بذل
جهده في بناء بغداد . وقد قال ابن خلدون ان السبب ليس
كذلك بل لانهُ تجافى عن جوار اهل الكوفة ان مكان بغداد

اليوم . ومن قوله ايضاً : ثم ان الخليفة المذكور جمع من كان
هنالك من البطارقة فسالهم عن احوال مواضعهم في الحر والبرد
والمطر والوحل والهوام . واستشارهم فاشار عليه بمكانها وقالوا
تجيئك الميرة في السفن من الشام والرقة ومصر والمغرب الى المصرات
ومن الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل
في دجلة . ومن ارمينية وما اتصل بها في تامرا حتى يتصل بالزاب
وانت بين انهار كالخنادق ولا تعبر الا على القناطر والجسور
واذا قطعتها لم يكن لعدوك مطمع وانت متوسط بين البصرة
والكوفة وواسط والموصل قريب من البحر والبر والجبل فشرع
المنصور في عمارتها واحضر الصناع والفعلة واثر من ذوي الفضل
والعدالة والعفة والامانة والمعرفة بالهندسة منهم الحجاج بن ارطاة
وابو حنيفة الفقيه وامر بخطها بالرماد فتشكلت ابوابها وفصلانها
وطاقاتها ونواحيها . وجعل على الرماد حب القطن فاضرم نارًا ثم
نظر اليها وهي تشتعل فعرف رسمها وامر ان تحفر الاسس على ذلك
الرسم . ووضع بيده اول لبنة وقال . بسم الله والحمد لله والارض
لله يورثها لمن يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . وجعل المدينة
مدورة وجعل قصره وسطها ليكون الناس منه على حد سواء .
وجعل المسجد الجامع بجانب القصر وجعل لها سورين والداخل
اعلى من الخارج . واخرج الاسواق الى ناحية لما كان الغرباء
يطرقونها ويبيتون فيها . وجعل الطرق اربعين ذراعًا . وكان

مقدار النفقة عليها في المسجد والقصر والاسواق والفصلان والخنادق والابواب اربعة الاف الف وثلاثمائة الف وثلاثة وثلاثين الف درهم . اه

ومن ثم اننا اذا تبعنا رواية المنجم نوبخت وخالد البرمكي والحجاج بن ارطاة نقول ان الخليفة المنصور وضع اساس بغداد في طالع القوس ولذا ما توفي فيها من الخلفاء العباسيين . ولا غرو اذا قرنا هذا الامر يجب ان يعد من غرائب التاريخ اذ كل من الخلفاء الذين حكموا على بغداد قضى في بلدة دون بغداد .

وقد قيل ان الخليفة المذكور كان في اثناء البناء قد أوعز الى عملته ان ينقضوا ابنية طاق كسرى ليستعملوها للبناء فلما سمع خالد البرمكي بذلك ذهب الى الخليفة واستمد منه ان يحظر هذا العمل . اما الخليفة فما تاج من كلامه بشيء بل وما التفت اليه . وعندما اندفعت العملة في دك ابنية الطاق المذكور استلزمت له مصارفات جمة تزيد على مثلها لو أريد اقامة تلك الابنية جديدًا . فارادوا حينئذ ان يكفوا عن شغلهم لكن لما سمع خالد بما بذلك امر بدوام التخريب وقال للمنصور : كما انه قد صدر الحكم بهدم هذه الابنية وقد أخذ في العمل فليشتغلوا به ولا يقطعوا مهما بلغت مصارفاته . فجرى الامر كما نطق وعلى هذا المنوال نجز بناء بغداد في نحو سنة ١٤٩ وكانت مدة البناء ٢ سنين كاملة . فاتخذها مركزًا للخلافة وسنة ١٥٧ ابتنى المنصور قصره الواسع ولقبه

بالخلد .

في تسميتها وموقعها

لقد اختلف المؤرخون ، وارتبك راي المحققين . في سبب تسمية بغداد بهذا الاسم فمنهم من قال : ان كان هناك موضع يسمى بغداد فسميت المدينة باسمه . وذهب ابو الفداء في ذلك الى انها سميت بذلك لان كسرى اهدي اليه خصيٌّ من المشرق فاقطعهُ اياها وكان لهم صنم يعبدونهُ في المشرق يقال لهُ البغ . فقال ذلك الخصيُّ بغ داذ اي اعطاني الصنم . والفقهاء يكرهون هذا الاسم من اجل هذا . وسماها المنصور مدينة السلام لان دجلة كان يقال لهُ وادي السلام ولذلك يقال لهُ نهر السلام ايضاً . وقال بعضهم : ان بغ بالعجمية بستان وداذ اسم رجل يعني بستان داذ . اه . وقد لقبت بالزوراء لان الخليفة المنصور جعل ابواب المدينة الداخلة مزوّرة عن الابواب الخارجة . قال الشيخ عمر بن الفارض

أرجُ النسيم سرى من الزوراء سَحَرًا فاحيا ميت الاحياء

ولها سبع لغات وهي : بغذاد و بغداد و بغداذ و بغداذ و بغذين و بغذان و بغدان وهي على جانبي دجلة في عرض شمالي ٢٢° ١٩َ ٤٠ً وطول شرقي ٤٥° ٤٠َ ٤٤ً ومحيطها نحو ٥٥ كيلو مترًا وهي على بعد ١٦٠٠ كيلومتر من الاستانة الى الجنوبي الشرقي والجانب الغربي منها يسمى الكرخ وفيه يقول ابن زريق

البغدادي

استودع الله في بغداد لي قمرًا ، بالكرخ من فلك الازرار مطلعهُ

وبهِ كان سكنى ابي جعفر المنصور ويسمى الجانب الشرقي بالرصافة سماه بذلك هرون الرشيد وكان قد بنى فيهِ مقرًّا لهُ وكانت الرصافة يومئذٍ ذات بهجة عظيمة وفيها يقول ابو الحسن علي بن الجهم من مطلع قصيدة لهُ

عيون المهى بين الرصافة والجسرِ
جلبنَ الهوى من حيث ادري ولا ادري

اعدن لي الشوق القديم ولم اكن
سلوت ولكن زدنَ جمرًا على جمرِ

سلمنَ واسلمن القلوب كانما
تشق باطراف الردينية السمر

وقلنَ لنا نحن الاهلة انما
نضيء لمن يسري بليلٍ ولا نقري .

وما زالت الرصافة كذلك في عصر الخلفاء العباسيين حتى انقرضت دولتهم فانحطت عن عظمتها القديمة

في العوارض التي اعترتها

لما علم جعفر المنصور ان وفاتهُ قد ازدلفت استدعى ابنهُ محمد المهدي واوصى لهُ بان لا يغير مركز الخلافة بعد موتهِ . واما الاموال

والخزائن التي تركها المنصور لابنهِ فكانت تكفي لادارة الدولة عشر سنين

فلنرجع الان الى كلامنا عن المنصور ولنذكر بقية ابنية المدينة التي اقامها فنقول:

ان السور الذي ابتناه المنصور وقاية للمدينة كان يبلغ ثمانية اذرع عرضهُ وثلثين ذراعًا ارتفاعهُ وجعل لهُ اربعة ابواب يسمى الاول منها باب الكوفة والثاني باب خراسان والثالث باب البصرة والاخير باب الشام وكان الفرق بين كل باب من هاته الابواب يبلغ مسافة ميل .

وقد قسم الخليفة المنصور مدينة بغداد الى اربع وعشرين الف محلة وبنى في كل منها مسجدًا وباذائهِ حمامًا . ونصب مائة وخمسة وخمسين جسرًا على الانهار التي كانت تسقي بغداد . ومن جملة الانهار كان نهر يسمى بنهر عيسى وهو الان معروف بنهر المسعودية وإثاره باقية حتى الان . وكان فيها اربعمائة طاحونة ماء وفي خارجها الف كوزه خانة واربعة الاف شيشة خانة .

وفي سنة ١٦٠ بنى محمد المهدي بالجانب الشرقي سورًا حافرًا امامهُ خندقًا مع مسجد ايضًا .

وسنة ١٦٧ كان الوباء قد انشب اظفاره في سكان بغداد للمرة الاولى

وسنة ١٧١ وهي زمن خلافة هارون الرشيد اقيمت ابنية

عديدة شامخة باذخة وتزايدت النفوس وتكاثرت الدور.

وسنة ١٩٧ اصابت هذه المدينة الجسيمة محاصرة شديدة.
واخربة كبيرة صادرة من هجوم الرؤساء المتقدمين لدى المامون
وهم طاهر بن حسين وهرثمة بن اعين وزهران المسيب. وهذه هي
اول واقعة جرت في زمن الخليفة الامين بن الرشيد. واعترت
هذه المدينة في خلافة المستعين محاصرة ثانية مع تلف عظيم صادرة
من هجوم المعتز الذي نصبته عساكر الاتراك خليفة على سامرى
وكان ذلك سنة ٢٥١ وبهذه المحاصرة الثانية هجمت من بغداد
دور و بساتين بامر الرئيس محمد الحاكم على عساكر المعتز.

وسنة ٢٥٨ استولاها الوباء مرة ثانية

وسنة ٢٦٤ سقط برد هائل على بغداد مدة عشر ساعات
فتلف ما تلف مما وجد على سطح الارض من الخشب وغيره ومن
سقوطه هذا حصل برد زمهريرا بدل السائلات بالجامدات وما
شوهدت كمية منه منذ ذلك الوقت حتى الآن

وسنة ٦٨ فاض نهر الدجلة فيضانا كليا فاتلف الجانب
الشرقي من بغداد عن آخره

وسنة ٣٦٤ قام رجل من آل بويه وعمر ما هدك من
بغداد من الدور وغيرها

وسنة ٤١٧ وقعت مناوشة بين سكان الكرخ وعساكر الاتراك
فغزا هولاء اموالهم واغراضهم فامست هذه الواقعة سببا لخراب

بغداد والقت العصيان بين قطانها

وسنة ٤٤٣ نجمت مناقشة ومضاربة بين السنة والشيعة من سبب مسالة لتعزية الحسين وواقعة كربلا وهذه المنازعة جلبت مجيء الغرباء الى بغداد.

وسنة ٤٤٧ زحف طغرول بك السلجوقي بعساكره الى بغداد ودك ابنية من داخلها وخارجها ونهب اموال اهل المدن والقرى المجاورة لها من تكريت الى كوت العمارة

وسنة ٤٤٩ بلغ الغلاء غايته القصوى حتى من شدته اضطر الناس ان يحرسوا الموتى والكلاب والحمير وتلت هذه البلية فاجعة الوباء ففتك فيهم فتكًا ذريعًا حتى قصر الناس عن رفع الجيف وارهانها القبر

وسنة ٤٥١ شبت النار واضرمت جانبًا منها حتى أفضى سعيرها الى خزانة الكتب التي انشأها الوزير ازدشير فاكلها الى آخرها وكانت حينئذٍ هذه الخزانة مشتملة على عشرة الاف واربعمائة كتاب ونيف

وسنة ٤٥٨ ابتنى نظام الملك مدرسة عالية سماها بالنظامية ومن آثارها الموجودة الان دوائر الجمرك

وسنة ٤٦٦ طغى نهر الدجلة طغيانًا فاحشًا فعم القسم الاكبر من بغداد وأهلك انفسًا عديدة

وسنة ٤٦٧ استولاها الحريق مرة ثانية وسبب خسارات جسيمة

وسنة ١٥٥ ثارت محاربة شديدة ببغداد بين الخليفة والسلطان محمد ابن مسعود السلجوقي ولحقت بهذه المحاربة خسارات وافرة

وسنة ٥٥٣ التهمت النار مرة ثالثة واحرقت عدداً عديداً من محلات بغداد

وسنة ٥٥٧ طغا نهر الدجلة وكسر سدّات المستحكمة التي في الجهة الغربية من بغداد فدخلتها المياه واحدقت بها من كل جانب فاصبحت حينئذ المدينة جزيرة تامة . واندرست خمس عشرة محلة باسرها وما بقي لها اثر بعد عين . ومن بعد ما تغيضت مياه النهر وجفت ارض تلك المحلات تحيرت ارباب البيوت في تمييز املاكهم

وسنة ٥٥٨ وسنة ٥٦٩ اصبحت بغداد تحت حوزة الحريق مرة رابعة وفعل بها ما فعل من الاتلاف والإسراف

وسنة ٥٧٢ سقطت زلزلة على المدينة وتلفت منها ابنية وانفساً

وسنة ٥٩١ وسنة ٦٠١ شبت النار مرة خامسة وكانت قوتها جسيمة فاحرقت مخزن الاسلحة للخليفة .

وسنة ٦١٤ قامت مياه الدجلة وارتفعت كل الارتفاع حتى انها غرقت قصر الرصافة الذي في راس الجسر مع كثير من المحلات والدور ومن جملتها محلة الخيزرانة التي الان هي محلة الامام الفقيه الاعظم . والهمام الاقدم ابي حنيفة المشهور .

وسنة ٦٣١ أمست المدينة تحت حوزة الغرق

وسنة ٦٥٦ دخل المدينة الجاني هلاكو واخرب منها ابنية عديدة وقتل بعضاً من اهاليها وضل ظلم الكافر المذكور مدة اربعين يوماً .

هذا ما وقفنا عليه من اخبار بغداد وتاريخ حوادثها ووقائعها ناقلينها عن جدول الوقائع التركي المؤلف بعد الخليفة المنصور . فما اذاً على الناقل من سبيل . من مثل هذا القبيل .

الجدول الاول في الخلفاء الراشدين

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	مدة الخلافة سنة	مدة الخلافة شهر	مدة العمر	اسم الخليفة
١١	٦٣٢	٢	٣	٦٣	ابو بكر الصديق
١٣	٦٣٤	١	٦	٦٥	عمر بن الخطاب
٢٤	٦٤٤	١٢	.	٨٨	عثمان بن عفّان
٣٧	٦٥٥	٥	.	٦٣	علي بن ابي طالب
٤٣	٦٦١	.	٦	٤١	الحسن بن علي ابن ابي طالب

مدة ملكهم	سنة	اشهر	قاعدة ملكهم مكة
	٣٠	٢	

الجدول الثاني في خلفاء بني أمية

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	مدة خلافته		مدة عمره	اسم الخليفة
		سنة	شهر		
٤٢	٦٦١	١٩	٠	٧٥	معاوية بن ابي سفان
٦١	٦٨٠	٣	٦	٣٨	يزيد بن معاوية ابن ابي سفان
٦٤	٦٨٣	٣		٢٣	معاوية بن يزيد
٦٥	٦٨٤		٩	٦٣	مروان
٦٦	٦٨٥	١	٩	٦٠	عبد الملك بن مروان
٨٧	٧٠٥	٩	٧	٤٦	الوليد بن يزيد
٩٧	٧١٥	٩	٧	٤٥	سليمان بن عبد الملك
٩٩	٧١٧	٢	٨	٣٩	عمر بن عبد العزيز
١٠٢	٧٢٠	٤	١	٤٠	يزيد بن عبد الملك

في خلفاء بني أمية

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	مدة خلافته سنة	مدة خلافته شهر	مدة عمره	اسم الخليفة
١٠٦	٧٢٤	١٩	٩	٥٥	هشام بن عبد الملك
١٢٦	٧٤٣	١	٣	٤٢	الوليد بن يزيد
١٢٧	٧٤٤	.	٥	٤٦	يزيد ابن الوليد
١٢٧	٧٤٤	.	٤	...	ابراهيم بن الوليد
١٢٧	٧٤٤	.	١	٦٣	مروان بن محمد ابن مروان

مدة ملكهم ١٩ سنة

قاعدة ملكهم الشام

الجدول الثالث في الخلفاء العباسيين

١

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	مدة خلافته	اسم الخليفة
١٣٢	٧٥٠	٤	العباس الملقب بالسفاح
١٣٧	٧٥٤	٢٢	ابو جعفر المنصور
١٥٩	٧٧٥	١٠	المهدي
١٦٩	٧٨٥	١	الهادي بن المهدي
١٧٠	٧٨٦	٢٤	هرون الرشيد
١٩٤	٨٠٩	٤	الامين
١٩٨	٨١٣	٢٠	المامون
٢١٨	٨٣٣	١١	المعتصم بالله
٢٢٨	٨٤٢	٥	الواثق بالله
٢٣٢	٨٤٧	١٤	المتوكل على الله
٢٤٧	٨٦١	١	المستنصر بالله
٢٤٨	٨٦٢	٤	المستعين بالله
٢٥٢	٨٦٦	٤	المعتز بالله
٢٥٦	٨٦٩	١	المهتدي بالله
٢٥٧	٨٧٠	٢٢	المعتمد بالله
٢٧٩	٨٩٢	١١	المعتضد بالله

في الخلفاء العباسيين

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	مدة خلافته	اسم الخليفة
٢٩٠	٩٠١	٦	المكتفي بالله
٢٩٦	٩٠٨	٢٤	المقتدر بالله
٣٢٠	٩٣٢	٢	القاهر بالله
٣٢٢	٩٣٤	٦	الراضي بالله
٣٢٩	٩٤٠	٤	المتقي بالله
٣٣٣	٩٤٤	٣	المستكفي بالله
٣٣٠	٩٤٠	٢٩	المطيع لله
٣٦٤	٩٧٤	١٧	الطائع لله
٣٨١	٩٩١	٤٣	القادر بالله
٤٢٢	١٠٢١	٤٥	القائم بامر الله
٤٦٨	١٠٧٥	١٩	المقتدي بالله
٤٨٧	١٠٩٤	٢٥	المستظهر بالله
٥١٢	١١١٨	١٨	المسترشد بالله
٥٢٠	١١٢٥	١	الراشد

في الخلفاء العباسيين

تاريخ التملك بعد الهجرة	تاريخ التملك بعد المسيح	مدة خلافته	اسم الخليفة
٥٣١	١١٣٦	١٤	المقتفي امر الله
٥٥٥	١١٦٠	١١	المستنجد بالله
٥٦٦	١١٧٠	١٠	المستضيء بنور الله
٥٧٦	١١٨٠	٤٦	الناصر لدين الله
٦٢٢	١٢٢٥	١	الظاهر بالله
٦٢٣	١٢٢٦	١٨	المستنصر بالله
٦٤٠	١٢٤٢	١٦	المستعصم بالله
الى	الى		
٦٥٧	١٢٥٨		

مدة ملكهم ٥٠٥ سنة

قاعدة ملكهم بغداد

الجدول الرابع في خلفاء الاندلس

هجرية	مسيحية	مدة خلافته	اسم الخليفة
١٣٩	٧٥٦	٣٣	عبد الرحمن الاول
١٧١	٧٨٧	٩	هشام الاول
١٨٠	٧٩٦	٢٧	الحكم الاول
٢٠٧	٨٢٢	٢١	عبد الرحمن الثاني
٢٣٨	٨٥٢	٣٤	محمد
٢٨٢	٨٨٥	٢	المنذر
٢٧٦	٨٨٩	٢٤	عبد الله
٣٠٠	٩١٢	٥٠	عبد الرحمن الثالث
٣٥٠	٩٦١	١٦	الحكم الثاني
٣٦٦	٩٧٦	٣١	هشام الثاني
٣٩٧	١٠٠٦	٣	محمد المهدي
٤٠٠	١٠٠٩	١	سليمان
٤٠١	١٠١٠	٣	محمد المهدي من جديد
٤٠٣	١٠١٢	٢	هشام من جديد
٤٠٦	١٠١٥	٢	حمود
٤٠٨	١٠١٧	١	القاسم

في خلفاء الاندلس

هجرية	مسيحية	مدة خلافته	اسم الخليفة
٤٠١	١٠١٨	٢	يحيى
٤١٢	١٠٢١	٦	هشام الثالث
الى	الى		
٤١٨	١٠٢٧		

مدة ملكهم ٢٧٣ سنة

قاعدة ملكهم قرطبة

الجدول الخامس في خلفاء الفاطميين

هجرية	مسيحية	مدة خلافته	اسم الخليفة
٢٩٧	٩٠٩	٢٨	عُبيد الله } (١)
٣٢٥	٩٣٦	٩	القائم ابو القاسم } (١)
٣٣٤	٩٤٥	٨	المنصور } (١)
٣٤٢	٩٥٢	٢٣	المعز لدين الله
٣٦٥	٩٧٥	٢١	العزيز بالله ابي النصر
٣٨٦	٩٦٩	٢٦	الحاكم بامر الله
٤١٢	١٠٢١	١٦	الظاهر لاعزاز دين الله
٥٢٨	١٠٣٦	٥٩	المستنصر بالله
٤٨٧	٠٠٩٤	٨	المستعلي بالله
٤٩٥	١١٠١	٢	الآمر باحكام الله
٥٢٥	١١٢٠	١٩	الحافظ لدين الله
٥٤٤	١١٤٩	٦	الظافر باعداء الله

(١) هولاء الثلاثة استقلوا باحكام بلاد الغرب قبل افتتاح الديار المصرية

في خلفاء الفاطميين

هجرية	مسيحية	مدة خلافته	اسم الخليفة
٥٥٠	١١٥٥	٥	الفائز بنصر الله
٥٥٥	١١٦٠	١٢	العاضد لدين الله
الى	الى		
٥٦٧	١١٧١		

مدة ملكهم ٢٧٠ سنة
قاعدة ملكهم مصر

الجدول السادس في السلاطين العثمانيين

ولادته هجرية	جلوسه هجرية	ارتحاله	مدة سلطنته	مدة عمره	اسم السلطان
٦٥٦	٦٩٩	٧٢٦	٢٧	٧٠	عثمان خان
٦٨٠	٧٢٦	٧٦١	٣٥	٨١	اورخان
٧٢٦	٧٦٣	٧٩١	٣١	٦٥	مراد خان
٧٦١	٧٩١	٨١٥	١٣	٤٤	بايزيد خان
٧٨١	٨١٦	٨٢٤	٨	٤٣	محمد خان
٨٠٦	٨٢٤	٨٥٥	٣٠	٤٩	مراد خان الثاني
٨٣٣	٨٥٥	٨٨٦	٣١	٥٣	ابو الفتح محمد خان
٨٥١	٨٨٦	٩١٨	٣٣	٦٧	بايزيد خان
٨٧٥	٩١٨	٩٢٦	٨	٥١	سليم خان
٩٢٠	٩٢٦	٩٧٤	٤٨	٧٤	سليمان خان
٩٢٠	٩٧٤	٩٨٣	٥	٥٠	سليم خان الثاني
٩٥٣	٩٨٣	١٠٠٣	٣٠	٥٠	مراد خان الثالث
٩٧٤	١٠٠٣	١٠١٢	٩ اشهر	٣٧	محمد خان الثالث

(اننا) قد تخلينا في هذا الجدول عن الاشهر والايام اللاحقة بالسنين

في السلاطين العثمانيين

ولادته هجرية	جلوسه هجرية	ارتحاله	مدة سلطنته	مدة عمره	اسم السلطان
٩٩٨	١٠١٢	١٠٢٦	١٠	٢٨	احمد خان
١٠٠١	١٠٢٦	١٠٤٨	٢		مصطفى خان بن محمد خان
١٠١٣	١٠٢٧	١٠٣١	٤	١٨	عثمان خان الثاني
١٠٠١	١٠٣٢	١٠٤٨	١١	٤٨	مصطفى خان
١٠١٨	١٠٣٢	١٠٤٩	١٦	٣٠	مراد خان الرابع
١٠٢٤	١٠٤٩	١٠٥٨	٨	٣٤	ابراهيم خان
١٠٥١	١٠٥٨	١٠٩٨	٤٠	٥٢	محمد خان الرابع
١٠٥٢	١٠٩٩	١١٠٢	٣	٥٠	سليمان الثاني
١٠٥٢	١١٠٢	١١٠٦	٤	٥٤	احمد خان الثاني
١٠٧٤	١١٠٦	١١١٥	٨	٤٠	مصطفى خان الثاني
١٠٨٤	١١١٥	١١٤٣	١١	٦٥	احمد الثالث
١١٠٨	١١٤٣	١١٣٨	٢٥	٦٠	محمود خان
١١١٠	١١٦٨	١١٧١	٣	٦٠	عثمان خان الثالث

في السلاطين العثمانيين

ولادته	جلوسه	ارتحاله	مدة سلطنته	مدة عمره	اسم السلطان
١١٢٩	١١٧١	١١٨٧	١٦	٥٨	مصطفى خان الثالث
١١٣٧	١١٨٧	١٢٠٣	١٥	٦٦	عبد الحميد خان
١١٧٥	١٢٠٣	١٢٢٢	١٨	٤٨	سليم خان الثالث
١١٩٣	١٢٢٢	١٢٢٣	٣ شهر	٣٠	مصطفى خان الرابع
١١٩٩	١٢٢٣	١٢٥٥	٣٢	٥٥	محمود خان الثالث
١٢٣٧	١٢٥٥	١٢٧٧	٢٢	٤٠	عبد المجيد خان
١٢٤٥	١٢٧٧	١٢٩٣	١٦	٤٨	عبد العزيز خان
١٢٥٦	١٢٩٣		٣ اشهر	..	مراد خان الخامس
١٢٥٨	١٢٩٣	....	...	..	عبد الحميد خان الثاني (وهو سلطاننا الحالي)

الجدول السابع في باشوات بغداد

تاريخ ماموريته س هجرية	مدة اقامته سنة	شهر	يوم	اسم الباشا
١٠٤٨	٣	٤	٠	كوجك حسن باشا
١٠٤٩	٣	٠	١٣	درويش محمد باشا
١٠٥٣	٢	٠	٥	كوجك حسن باشا (مرة ثانية)
١٠٥٤	٠	٥	١٥	دلي حسين باشا
١٠٥٤	١	٠	١١	حيدر اغا زاده محمد باشا
١٠٥٥	١	٠	٢٣	كوجك موسى باشا
١٠٥٦	١	٣	١٥	ابرهيم باشا
١٠٥٨	١	١	٢١	سمز موسى باشا
١٠٥٩	٠	١٠	٢٨	ملك احمد باشا
١٠٥٩	٠	٦	٠	نوغا زاده ارسلان باشا
١٠٦٠	٠	١٠	٠	حسين باشا
١٠٦١	٢	٠	٢٣	سلحدار قره مصطفى باشا
١٠٦٢	٣	١١	٠	سلحدار مرتضي باشا
١٠٦٥	١	٤	١٥	اق محمد باشا

في باشوات بغداد

تاريخ ماموريته	مدة اقامته			اسم الباشا
س هجرية	سنة	شهر	يوم	
١٠٦٧	٢	٠	١٧	خاصكي محمد باشا
١٠٩٦	٢	٧	٣	سلحدار مرتضي باشا (دفعة ثانية)
١٠٧٣	١	١٠	١٨	قنبور مصطفى باشا
١٠٧٤	٠	٦	٠	يوق مصطفى باشا
١٠٧٥	٠	٨	٢٦	سلحدار قره مصطفى باشا (مرة ثانية)
١٠٧٧	٤	٣	١	اوزون ابراهيم باشا
١٠٨٣	٣	٤	٢٠	سلحدار قره مصطفى باشا (مرة ثالثة)
١٠٨٥	١	١٠	١٧	سلحدار حسن باشا
١٠٨٦	١	٩	٠٦	عبد الرحمن باشا
١٠٨٧	١	٦	٠	قبلان مصطفى باشا
١٠٨٨	٢	٩	٠	سلحدار عمر باشا
١٠٩٣	٢	٥	٠	ابرهيم باشا
١٠٩٥	٢	٠	٢٧	سلحدار عمر باشا (مرة ثانية)
١٠٩٨	١	٠	١١	كتخدا احمد باشا

في باشوات بغداد

تاريخ مأموريته	مدة اقامته			اسم الباشا
س هجرية	سنة	شهر	يوم	
١٠٩٩	١	٨	٢٣	سلحدار عمر باشا (مرة ثالثة)
١١٠٢	٢	.	.	بازركان احمد باشا
١١٠٥	٣	.	.	احمد باشا
١١٠٧	٢	.	.	علي باشا
١١١٠	١	.	.	اسمعيل باشا
١١١٠	٣	٤	.	دالطبان مصطفى باشا
١١١٥	.	.	٤	يوسف باشا
١١١٥	.	٧	٤	علي باشا (مرة ثانية)
١١١٦	١٩	.	.	حسن باشا
١١٣٥	١٣	.	.	احمد باشا
١١٤٧	١	.	.	اسمعيل باشا
١١٤٨	١	.	.	محمد باشا
١١٤٩	١٢	.	.	احمد باشا
١١٦١	.	٥	.	الحاج احمد باشا

في باشوات بغداد

تاريخ ماموريته	مدة اقامته			اسم الباشا
س هجرية	سنة	شهر	يوم	
١١٦١	.	٧	.	الحاج احمد باشا
١١٦٢	.	٨	.	الحاج محمد باشا
١١٦٣	١٢	.	.	احمد باشا
١١٧٥	٢	.	.	سليمان باشا
١١٧٧	٩	.	.	عمر باشا
١١٨٦	٦	.	.	اسنا قجي زاده مصطفى باشا
١١٩٢	.	.	٨	عبد باشا
١١٩٢	.	٦	.	عبدي باشا
١١٩٢	.	٦	١٢	حسن باشا
١١٩٣	٢٤	.	.	بيوك سليمان باشا
١٢١٧	٥	.	.	سليمان باشا
١٢٢٢	٣	.	.	حافظ علي باشا
١٢٢٥	٣	.	.	سليمان باشا
١٢٢٨	٤	.	.	سليمان باشا

في باشوات بغداد

تاريخ ماموريتو س هجرية	مدة اقامه سنة	شهر	يوم	اسم الباشا
١٢٣٢	١٤	٠	٠	داود باشا
١٢٤٦	١٦	٠	٠	علي رضا باشا
١٢٥٨	٦	٠	٠	محمد نجيب باشا
١٢٦٤	١	٦	٠	عبد الكريم نادر باشا
١٢٦٦	٠	١٠	٢١	وجيهي باشا
١٢٦٧	٠	٩	٥	محمد نامق باشا
١٢٦٨	٥	٠	٢٧	محمد رشيد باشا
١٢٧٣	١	٤	٠	اكرم عمر باشا
١٢٧٥	١	٤	٠	مصطفى نوري باشا
١٢٧٧	٠	٦	٢٣	احمد توفيق باشا
١٢٧٧	٧	٦	٠	محمد نامق باشا (مرة ثانية)
١٢٨٤	١	٠	٠	تقي الدين باشا
١٢٨٥	٣	٠	٢١	احمد مدحت باشا
١٢٨٨	١	٠٠	٠	محمد رؤوف باشا

في باشوات بغداد

تاريخ مامو ريته س هجرية	مدة اقامته سنة	شهر	يوم	اسم الباشا
١٢٨٩	١	١١	١٥	رديف باشا
١٢٩١	١	٩	٢٣	عبد الرحمن باشا
١٢٩٢	.	١٠	٧	عاكف باشا
١٢٩٣	.	٩	١٤	قدري باشا
١٢٩٤	١	١٠	٢٩	عبد الرحمن باشا (مرة ثانية)
١٢٩٦	٧	.	.	تقي الدين باشا (مرة ثانية)
١٣٠٤	.	.	.	عاصم مصطفى باشا (وهو الحنالي)

الجدول الثامن في مساجد الخ ببغداد

	المساجد	المدارس	المعابد	الجوامع
في البلدية الاولى	٣٦	..	٦	٣٨
في البلدية الثانية	١٩	١٩	١٥	١٣
في البلدية الثالثة	٣١	.	..	٩
تكون الجملة	٦٦	١٩	٢١	٤٩

القسم الثاني

في

تجارة بغداد

ان تجارة بغداد بابها متسع والمجال فيها على الناظر فسيح . تراها تمتد يوماً عن يوم حتى ان عدد التجار الذين فيها الان يبلغ الى ما ينيف على الاربعين . ليس فقط بغداد يتسع نطاق تجارتها بل

عدد سكانها ايضاً فانهُ الان في ازدياد كلي ومن بوالته اخذت الدور تتكاثر فراغ عددها . . . ٢٠٠٠ وحبوبها واطعمتها ايضاً غلت فاضحى سعر وزنة القمح الاستانبية (وهي عبارة عن ستين اقة) ثلاثمائة غرش (رائج) فضلاً عن مائة غرش وهي سعرها القديم . فيالفرق العظيم ويا للنجاح والفلاح وان سبب ذلك الا ازدياد سكانها فلئن ستمسي بغداد بغداد القديمة

ثم انهُ قد يسري الان في دجلتها نحو ثمانية مراكب بخارية وهي التي تجلب الى بغداد البضائع من البصرة واطرافها وعمارة وارجائها فامست مركزاً كبيراً واسعاً للتجارة بغداد واوربا وامركا وافريقية وايران والهند وغير ذلك من المدن والقرى التي لا يستقصى قدرها . وهي دائماً تراها تتدرس بالحسن والجمال . والعلم والكمال والمعارف وظرافة الاعمال . والصنائع وسرعة قضية الاشغال . الا وهي التي قد فاقت مدن العالم كلها . نعم وستراها عن قليل قد بلغت ذاك حدها الاصلي . واعتلت الامصار والاقطار

ويحصر متجرها في الارز والحنطة والماش والكثيراء والحرير والصوف والشال والزلالي والابريسم والغلات الواردة والقطنية واخيراً الحمير البيض والسود وغير ذلك . وهي تسفر بضاعتها الى الهند وبلاد العرب واوربا بواسطة البواخر وحلب ودمشق بواسطة القوافل المؤلفة من بغال او ابل . وقد تسفر الى حلب السبوت وجلود المعزى والحمل والصمغ والسمسم وانواع النحاس

والعفص سيما الصوف الذي تبعث منه كل سنة الى اوربا كمية وافرة على طريق حلب او البصرة

واما ما يرد اليها فمنسوجات القطن والكتان والنيل والنحاس والسكر والحرير وضروب الثياب منها السُحُل (جمع سَحل وهو الثوب المنسوج من القطن) والخُنف (جمع خنيف وهو ما غلظ من الكتان) والاردان (جمع ردن وهو ما غلظ من الخز) والغزل والسجادات والتنباك والافيون والصابون والزبيب والبن والصمغ والعقاقير والخُردات والفحم الحجري وغير ذلك من البضائع للزينة وقد بلغ الوارد سنة ١٨٧٧ :

			ليرة
من النحاس	١٣٤١٨٥	اقة قيمتها	٢١٠٢٥
ومن المنسوجات القطنية	١٤٤١٣٥	شقة "	٥٧١٧٣
ومن الشالات الافرنجية	٢٥٧٧٤٠	قطعة "	٢٧٢٦٣
ومن الفوط	٢٧٢٧٣	دزينة "	١٨١٧٣
ومن نسيج الكتان	١٣٣٤٢٠	برد "	٨٣٥٢
ومن القطن المقصور	٦٥٤١٥٥	اقة "	٩٢٠٦١
ومن النيل البنغالي	٢٨٣٨٧	اقة "	٣٤٨٦٨
ومن نيل مدراس	٧٤٧	اقة "	٣٠٥
ومن السكر ما يساوي			١٣٠٤٣
ومن الغزل المبروم	١٧٣٥	اقة "	٢٠٠٦

			لبرة
ومن السجدات ما قيمتهُ			٦٧٧٠٧
ومن حرير ايران ما يساوي			٦٣٠٠٠

وبلغت صادراتها في السنة المذكورة :

من التمر	٢٢٤٥٦٨٠	اقة قيمتها	١٨٥٧٠
ومن العفص ما يساوي			٤٨٤٧
ومن السمسم	١٦٥٤٢٧	اقة "	٨٩٦١
ومن الحنطة	١١١٠٥٦٧	كيلة "	١١١٠٥٥
ومن الفلفل	٢٤٨٨٩	اقة "	١٨٢٩٠٠

ودخل الحكومة عن البضائع يبلغ سنويا نحو ٦٠٠ الف لبرة

في معاملها

اما معاملها ففيها معامل للآجر والخزف تصنع فيها القاقم (اي الاجرار) والمقارض والاباريق الفاخرة التي لا مثل لها . وغير ذلك من الخزف الابيض والاخضر وفيها معامل حريرية تنسج فيها الأزر وغيرها من الملبوسات الدمقسية بانواع متفاوتة من ألطف واظرف الملبوسات سيما الازر المقصبة المنسوجة مع الابريسم فتراها تخادع الابصار وتذهل البصائر . ومعمل للأسر (اي الزجاج) والصبح (القناديل) وغيرها وخمسة معامل للبارود

ومعملان لاصلاح المراكب التجارية وفيها معامل اخرى افرنجية انشئت بهمة صاحب الدولة والابهة مدحت باشا فمنها في الجانب الشرقي (الرصافة) مطبعة نارية فيها اربع آلات اثنتان للطبع وواحدة لتحسين الانسجة واخرى لعمل غلف المكاتيب وفيها مطبعة حجرية جميلة للغاية . ومنها معمل يعرف بالعبخانة يصنع فيه الجيخ (الجوخ) والخام وتنسج فيه الملبوسات من الحرير والسدين (الصوف) والبرس (القطن) والقز وغيرها من كل لون وذلك بآلات نارية . وفيها آلة للتفصيل والخياطة . وفيها ايضاً معمل لتنظيف القطن وآخر للازرر ومطحنة نارية عسكرية . ومعمل لدباغة الجلود معروف عندنا بالدباغخانة وآلة لعمل الثلج . ومنها في الجانب الغربي (الكرخ) معمل لاصلاح المراكب العثمانية وعمل آلات جديدة وفيه ايضا تصنع الاجراس النحاسية و يعرف بالدمرخانة

في مصنوعاتها

اعلم ان البغاددة لهم اليد البيضاء في حياكة الكفيات (جمع كفية وهي ضرب من الكوفية للعمائم تكون احياناً منسوجة من حرير وخيوط ذهبية او من حرير وقطن فقط) والعباءات (جمع عباءة ضرب من الاردية منسوجة من صوف او من صوف وقطن .

والطفها واشهرها عباءات مشهد علي) التي تسفر الى سورية ومصر والحجاز . من الازرة (جمع ازار وهو كالعباءة للنساء تستتر به . وهو محوك من حرير وخيوط ذهبية او من حرير فقط . او من حرير وقطن او اخيرًا من قطن فقط) واللكات (جمع لكة وهي خام مخطط منسوج من القطن) والالاجات والمحذات القطيفة والكمرات (مطقات يتلمن بها النساء والبنات) والخياصات (جمع خياصة حزام يتمنطق به الرجال والبنون) والحاوليات جمع حاولي وهي مئزر الحمام والهيريات والحاموالكربشات والنطوحات والسخنيان وبرادات الماء والحررات والعقل والدسمالات وغير ذلك من المصنوعات الحريرية والابريسمية

دار الكتب العمومية في بغداد

لقد تجلى في ساحة الامل دليل واضح يعد على ان بغداد قد عاد عليها البرء والصحة التامة واخذت بالافاقة التي هي اخر السلامة وانقذت من علة الجهل المنحوسة التي ابتليت بها منذ مدة وكسبت حال العلة المزمنة بمر الايام وتماديها وان ظلام الجهل الذي استولى على آفاقها قد انقشع بالاشعة النورية التي نشرتها المعارف وبثتها على الاطراق وصار يتبدل بالضياء والنور شيئًا فشيئًا

وان من جملة الآثار السامية الموجبة للافتخار لحضرة ذات ملاذ الولاية الذي له المعارف سات الواصل الى أوج الكمال . والمرتدي برداء الزهد والكرم والافضال . انه قد تشكلت في بغداد دار كتب منتظمة بثمرة المساعي الجميلة المشهورة في امر ترقي المعارف لذي الفضيلة والمكارم الاثيلة حضرة محمد افندي آل جميل زاده مدير معارف ولايتنا الذي هو للفضائل سمير والموجود بالمسارعة بكل صورة الى امتثال الاوامر والافكار الجليلة للوالي العالي المشار اليه الساعي باقتفاء واتباع افكاره ونياته التي هي للمعالي ايات المعطوفة على فتح وانشاء باب سعادة ومعرفة في كل يوم

وان من اثر حمية ذي العزة علي بك نجل لطف الله بك انه اهدى لدار الكتب المذكورة ستة او سبعة مجلدات من الكتب وهذه الدار هي في المدرسة المشهورة في بغداد في جامع الحيدر خانة وهي الآن تحتوي على خمسمائة وعشرين مجلداً من كتب الفقه والتفسير والادب وغيرها من الفنون وعليها حافظات موظفات بذلك

الا وان فوائد هذا الاثر الجميل التي تحصل للعموم واضحة وجلية جداً . فلذا لا نرى حاجة لايضاحها وتعدادها سوى انا نقول هذا وانه اذا لم نمنع المعاونات من طرف اصحاب الحمية من الاهالي لتوسيع دار الكتب هذه وانتظامها وتكثير كتبها الموجودة

فان فوائدها المنتظرة والمأمولة تتزايد بدرجة تكون في كل حال جالبة لممنونية الجميع وافاداتهم

وهذه القصيدة الفريدة العربية التي انشدها الاديب الكامل الموسوم بالنجابة ضائل . ذو المكرمة الحاج علي افندي شبل ذي الفضيلة السيد نعمان خير الدين افندي آل الآلوسي احد علماء بلدتنا الاعلام . واشرافها الكرام . مؤرخاً بها فتح وتاسيس دار الكتب العمومية المذكورة

ولعمري انها قد اشتملت على الفاظ رائقة . ومعاني فائقة . تدل على ادب منشئها . وفضل محبرها وموشيها

ياحبذا مكتبة قد جمعت	العلم فيها كتب لطائفُ
يعم ارباب العلوم نفعها	فكل طالب عليها عاكفُ
كانها للطالبين موردٌ	فكل راوٍ من نداها غارفُ
أنعم بها من نعمة قد عرفت	للطف واليها بها عوارفُ
السيد التقي والقرم الذي	قد شهدت بحزمه الطوائفُ
العارف الخائف مولاه ومن	بعدله يلقى الامان الخائفُ
أحيا بغداد العلوم بعدما	تخطفتها للبلى خواطفُ
معارف بدت لنا بفضله	بفضله بدت لنا معارفُ
زاد له الفضل على محمدةٍ	يبقى لها شكر بها مرادفُ
شيدت بعزم ماجدٍ ذي همة	يعجز عن درك مداها الواصفُ
محمد نجل جميل من له	صنع الجميل تالد وطارفُ

قد اسست بعزمه فاستأنست | لها الورى واستيأس المخالفُ
تباشر الناس بها وأرّخوا | مكتبة جددها المعارفُ

١٣٠١

في مدارسها واشهر معلميها

ان سكان بغداد لا يعتنون ابدًا بالعلم ولا يشتغل بهِ الا القليل . فلذا لا يوجد فيها مدارس كثيرة سوى تسع عشرة مدرسة . وهنا نخص بالذكر ما شاع واشتهر منها وعددها ثمانٍ اربع منها تحت ادارة الحكومة السنية وهي

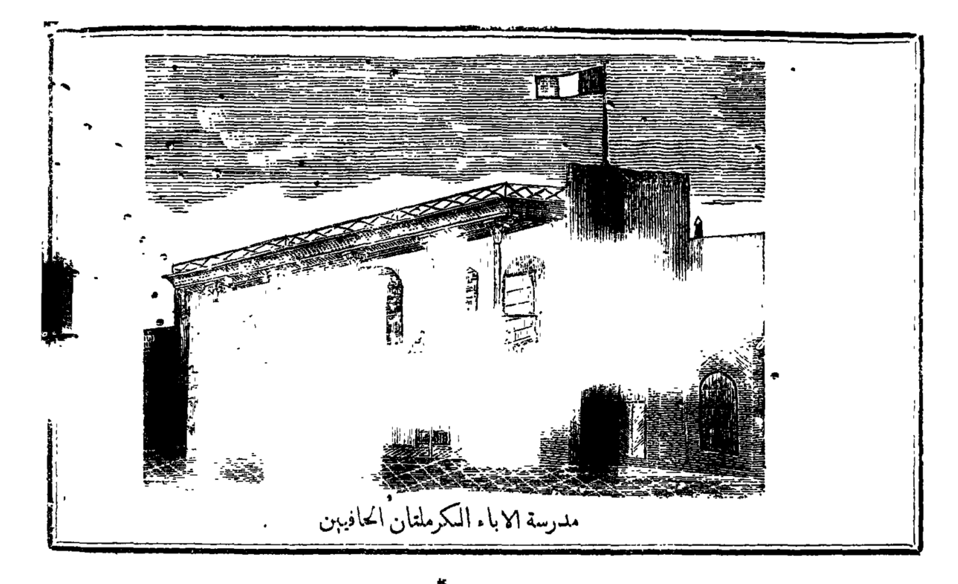
اولاً . المدرسة الاعدادية اي الحربية ويدرس فيها اللغة التركية والفرنسية والفارسية والعربية والجغرافية والحساب والمنطق والهندسة والجبر والتاريخ والتصوير

ثانيًا . المدرسة الرشدية العسكرية وتدرس فيها اللغة التركية والعربية والفرنسية ومبادئ بعض العلوم التي تدرس في المدرسة الاعدادية لانها كمدرسة ابتدائية لها

ثالثًا . المدرسة الرشدية وتدرس فيها اللغة التركية والعربية والفارسية و بعض العلوم .

رابعًا . مدرسة الصنائع ويعلم فيها بعض الصنائع كالحياكة والسكافة والخياطة وغير ذلك

واربع مدارس لاهل الوطن اولاها علمًا واشهرها صيتًا مدرسة الآباء الكرمليين اعلم ان هذه المدرسة بناها الآباء المذكورون سنة ١٨٥٩ فاشتهرت كل الاشتهار كنار على علم بعلومها وآدابها



مدرسة الاباء الكرملتان الحافيين

وفنونها واساليبها . وهي لم تزل حتى الآن ناجحة وفالحة بل وموردة لبني الوطن النهل . ومبرئة مرضهم الجهل . وقد خرج منها كثير من الكتاب والإدباء . والعقلاء والجهلاء . ألا وهي التي قد فاقت واعتلت مدارس العراق . وبانت بحسن تعليمها شنفناق . وقد تاتيها ابدًا التلامذة من كلّ الارجاء لما قد نالت هذه المدرسة من الاعتبار والقدر والشهرة . ولكن لسنا نتصدى في هذا المقام لوصف ما اشتملت عليهِ من كيفية تعليم تلامذتها واخراجهم منها فضاحل . وانما نقتصر من ذلك على ما هو من غرض هذه المجلة وما هو ادل على مقامها وان كانت غنية بشهرتها عن الدليل . واما دروسها فهي تعلم اللغة الفرنسية والعربية والانكليزية والتعاليم الدينية والجغرافية والرياضيات وبعض مبادئ العلوم كالفلسفة الطبيعية وعلم الهيئة والكيمياء وعلم النبات والموسيقى وغير ذلك . هذا هو تعداد دروسها الحقيقي بدون ادنى مبالغة وازدياد كما هو دأب بعض المعلمين عند مدة مدرستهم . وهذه العادة قد فشت في كُتّاب بغداد

ثم انهُ قد دخلها معلمون كثيرون . علماء مشهورون . واعظمهم شهرة بالفرنسية الاب دميانوس الكرملي والاب جان جوزيف الكرملي والآن فيها الاب بطرس الكرملي وهذا علامة جهبذ درس في كلية مدينة بردو اليسوعية ولهُ مقالات جمة . وروايات لطيفة . تاخذ رشاقة الفاظها بمجامع القلوب . وتثلج الصدور

وتلقي في المغموم الابتهاج والحبور ٭

واما الان فبقي علينا ان نذكر اشهر معلميها العربية فاولاهم علمًا . واشهرهم صيتًا . والجدير بذكر اسمهِ . البارع الاديب والكاتب النحرير الاريب المعلم بطرس الماريني مخترع القاعدة السهلة لمعرفة حركة عين المضارع . غير ان الحق احق يقال انهُ قد احيا في هذه المدرسة العلوم والفنون العربية . بل قد نشرها من الموت التي كان قد حلَّ اضلاعها ولاشاها احد المعلمين الذين قد ولجوها قبلهُ . وقد درس عليهِ كثير من الكتاب . ولا يسمح لي ان اذكر علمهم لان العصا من العصية . ولكن فاني اذكر واحدًا منهم ليكتفي بهِ القارىء . أبرعهم واشدهم ذكاء نجيب افندي شيحا صاحب مقالة التبلور والرسوب المدرجة في العدد ٨٨٦ من جريدة البشير المنير وغيره من الاذكياء والنجباء

ثانيًا . مدرسة الاتفاق الكاثوليكي ويعلم فيها اللغة العربية والكلدانية والسريانية والحساب والهندسة . وهذه المدرسة كانت في قديم الزمان قليلة الشهرة . واما الان فقد انحطت عما كانت عليهِ قبلاً من النجاح والفلاح . وسبب انحطاطها خروج مديرها منها وهو العالم العلامة . والحبر الفهامة . الشماس فرنسيس اوغسطين جبران الذي ذكره يغني عن وصفهِ . وهذا قد خرق الجرائد والمجلات من مقالاتهِ المشهورة بالمنطق وطي المعاني خصوصًا جريدة البشير الذي طبع فيهِ مقالتهُ التحرية ضد المقتطف فجذب

الالبائب برشاقة كلامها . وقنّع البصائر أغناطيس معناها . وغيرها من المقالات ذات الكلام المستظرف الذي اذا حل في القلوب احدث فيهِ حركة وهزةً . واذا سمعهُ ذو ذكاء وجد لهُ حسًّا ودبيبًا وقشعريرة (١) فهذا هو اذن سبب تأخرها وانحطاطها

ثالثًا مدرسة الاتفاق الاسرائيلي وتدرس فيها العربية والفرنسية والانكليزية والتركية

رابعًا . مدرسة الارمن غير الكاثوليك وتعلم فيها الارمنية والفرنسية والعربية والانكليزية والتركية وفيها خمسة معلمين وثمانون تلميذًا . وقد ابتنى في هذه الايام القاصد السيد الجليل . وراعي الرعاة السبيل . الذي لهُ في العلم اشتهار . ولدى الكاثوليكيين كبير اعتبار . والذي رنَّ اسمهُ بايديهِ في الاقطار . ذو الغبطة هنري ألطيير المشهور باحساناتهِ ودهائهِ . وفضلهِ ونذلهِ . قاعة المأوى المعروفة عند الفرنسيس بهذه اللفظة (salle d'asile) وهي رحبة جدًّا . في وسطها عامودان من المرمر . وقيل انهُ صرف على ابتنائها نحوًا من ثلثين الف فرنك . وكان مهندسها ومهندمها الاب الجليل هنري برنار الدومنكاني كاتم اسراره المشهور بفن الفوتغرافية والهندسة . واستمر البناؤون زهاء ستة اشهر يتنونها حتى نجزت . واما معلميها فالراهبات من رهبنة اخوات المحبة . غير ان اهالي الاولاد لما شاهدوا هذا الخير العظيم النائد

١ وقد ذهب سمعهُ في الناس فصارت لهُ شمة فيهم

دعوا لمؤسسها واطلبوا من الله سبحانه وتعالى ان يديم هذا الراعي الى سنين عديدة . وان خلفاءه يضاهونه لانه فريد بصنع الخير

في معابدها ومقابرها الخ

ومعابدها لنصاراها ستة معابد الاول

بيعة المرسلين الكرمليين : هذه البيعة بناها الخطيب المصقع الاب الرئيس ماريا يوسف ديسوع سنة ١٨٦٩ وتجزت سنة ١٨٧١ وهي شامخة جداً يبلغ ارتفاعها خمسة عشر متراً ويأتيها المسافرون من بعد شاسع مضنة الصعود عليها

والثاني بيعة السريان بناها سيادة المطران روفائيل جرخي الجزيل الشرف والاحترام سنة ١٨٦٢ في ٨ كانون الاول وهو عيد الحبل بلا دنس . والثالث كنيسة الارمن الكاثوليك . والخامس بيعة الكلدان . والسادس بيعة الارمن الغير الكاثوليك والسابع (كابلة) معبد الروم الملكيين الكاثوليكيين بناه المرحوم الخوري مكاريوس الراهب البغدادي سنة ١٨٨٦ . ولليهود فيها خمسة وعشرون معبداً واحد كبير جداً . وخمسة اصغر منه قليلاً وما بقي فبين بين ولهم مزارات خارج البلدة مثل مزار الكوهين هوشع وغيره يترددون الى زيارتها ايام موسمها . وللمسلمين

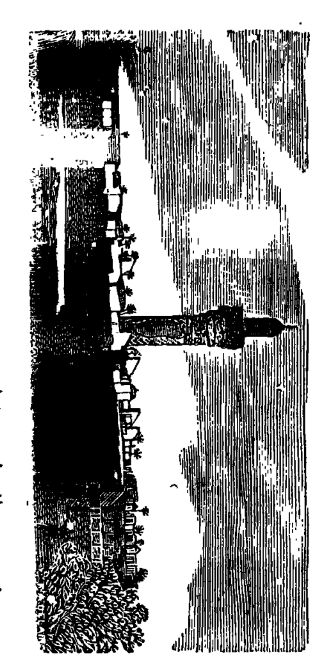
واما مقابرها فللنصارى الكاثوليك مقبرة رحبة جدًا وهي من الطف واظرف سائر المقابر وفي قلبها معبد صغير متقن البناء لكي يقدس فيهِ القسيس يوم جمعة الاموات قداسًا احتفاليًا يكون مقربًا عن ارواح الموتى . وقد يبلغ طولها اربعين مترًا وعرضها عشرين مترًا . وهي الان غير كاملة بناها سيادة المطران روفائيل جرخي الجزيل الشرف والاحترام . ولليهود اثنان وللمسلمين عدة مقابر وواحدة للانكليز وواحدة للارمن غير الكاتوليك

غيران حماماتها فتبلغ خمسة عشر حمامًا وكلها مشهورة وفيها حمامات اخرى في دور كثيرين من الاكابر . وفيها من الاطباء مقدار عشرين طبيبًا من فرنساوي وانكليزي ونمساوي ورومي وغيرهم . وصيادلتها سبع الاولى الصيدلية الاوربية . والثانية الصيدلية الانكليزية . والثالثة الصيدلية الشرقية . والرابعة الصيدلية السرفية . والخامسة صيدلية الخواجه فتح الله لوقا . والسادسة الصيدلية الفارسية . والسابعة صيدلية الخواجا ديمتري

في مزروعاتها واثمارها

واما مزروعاتها فالحنطه والشعير والدخن والسمسم والذرة والمرطمان والماش والبلس (اي العدس) والارز والفول (الباقلى)

٤٨ جامعًا لاغالبها مئذنات واعظم جوامعهم فسحةً جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني والامام المعظم . واكثر مئذناتهم علوًّا وارتفاعًا مئذنة سوق الغزل



مئذنة سوق الغزل وهي اعلى من بقية المئذنات التي في بغداد فيها ٧٤ درجة . قيل ان الذى اوعز بابتنائها الخليفة المستعصم بالله وهو آخر الخلفاء العباسيين

والطماطة والدجر (اللوبياء) والقرع (شجارزوم) والحمص والكهكم (الباذنجان) والفجل والجبس والبطيخ والخيار والبصل والثوم والبقدونس والكراث والريحان والسبسق (المزرنجوش) والكرفس والخرفتي (الحردل) والرشاد والعناع والخس والحلبة والسلجم (شلغم) والشمندور (شوندر) والجزر والباميا، وغيرها . وفي بساتينها التمر بجميع انواعه والليمون الحامض والحلو والبرتقان (البرتقال) خمسة والنارنج والاترج والتوت والزيتون والرمان والمشمش والفرسق (الخوخ) والكرم (العنب) والناهر (العنب الابيض) والوين (العنب الاسود) والكنار (النبق) والتفاح والاجاص والكمثرى والتين والحفص (الزعرور) والسفرجل والكرر والعبهر (النرجس) وغير ذلك من الزهور

وصادرات المدينة الخيل واللؤلؤ والبسذ (المرجان) والعسل والحرير والحمر والنفط وملح البارود وملح الطعام والفلفل والسنجكشت (القرنفل) والخشاف (الزبيب) والايدع (الزعفران) والعفص والسمراء والتمر والصوف ومنسوجات قطنية وغير ذلك

في اهلها وسكناها واخلاقهم الخ

ان سكان بغداد يبلغ عددهم نحوًا من ٥٠٠٠٠ او ١٢٠٠٠٠

نسمة من عرب وترك وعجم واكراد وهنود وافرنج. منهم من اليهود بين ٥٠ و١٨ الف نفس ومن النصارى الوطنيين ١٠ الاف منهم ٥٠٠٠ ارمن و ١٠٠٠ اسريان وكلدان و ٦٠٠ لاتين وقليل جداً من الفرنج والباقون مسلمون بين سنة وشيعة واكثرية الشيعة في ربض الكاضم

واما ابنية بغداد فكل من يراها يسلم انها غير منتظمة الا بعض ابنية قليلة ومعدودة واكثر الدور عبارة عن طبقة سفلى لا فوقانية فيها وتشتمل اعتيادياً على حجرتين صغيرتين او خمسة تشبهان برج الدجاج مع حجرة لاباب لها يسمونها ايواناً وظواهر هذه الحجر من الخارج كلها مصنوعة بالطين العادي او الكلس وقطع حجارة يخرجونها من تحت تراب الابنية القديمة وهي متغيرة اللون والقطع لاستخدامها في ابنية كثيرة مرة بعد مرة . وهذه الحجارة الصغيرة القبيحة القطع تخلط بالطين وتوضع بصورة غير موافقة للهندسه على الطرفين الخارج والداخل من الحائط . اما جوف هذا الحائط الذي يبقى خالياً فيلقى فيه كلما وصل الى اليد من الحجارة والتراب ومن مجموع هذا يبنى البناء

وكثيراً ما حدث ويحدث ان البناء فيما هو يبني هذا النوع من الجدران يسقط هو والحائط معاً واذا تم البناء وكمل البيت فعند اقبال الشتاء وهطالت الامطار المدرارة يكون هذا البيت هدفاً للتهدم كما هدمت دور كثيرة مثله وسقطت على اهلها فكانت

لهم قصورًا

واكثر ابنية بغداد على هذا النمط الا ان ابنيتها العالية المنتظمة كالكنائس والجوامع وغيرها التي بدرجة واحد في العشرة في والحق احق ان يقال حسنة ذات هيئة مفرحة ولا سيما المبنية بالحجارة التي هي بلون الذهب او الكهربا من الجديد المربعة الشكل التي بثخن ثلثة او اربعة اصابع على انها قوية مقطوعة بصورة مطابقة الهندسة وما بين كل مدماك ملاط من البورق البراق ذي اللون الفضي والكل منقوش ومرسوم على اشكال مربعة ومستطيلة ومتوازية ومتساوية . وكما ان جدران هاته الابنية الجميلة منتظمة بهذه الصورة فان شبابيك الحجر المرتبة والغرف الواسعة ونوافذها محلاة بادق ما في صنعة النجارين من النقوش والبدائع فضلاً عن ان كثيرًا من هاته الدور فيها الحدائق الحسنة والمياه الرائقة .

واما شوارعها فمنعجرة ضيقة جدًا غير مبلطة ولا نظيفة حتى ان بعضها لا يتجاوز عرضه مترًا واحدًا وفي طرفيها مخارج من خشب عرض الواحد منها متران او ثلثة وفيها ازقة متشعبة وغير مستقيمة مع ضيق مفرط بحيث لا يسع انسانين اذا مشيا معًا ولا يمكن ان يمر بها الانسان مع الدابة واذا استثنيت الجادتين او الثلاث الجواد الجديدة الانشاء التي طول الواحدة منها مئتا او ثلثمائة متر وعرضها خمسة عشر او ستة عشر مترًا فاكثر ازقتها بعرض متر او مترين او ثلثة ونادر فيها ما هو بعرض

اربعة امتار

غير ان هواء بغداد جاف سليم لكن بسبب فيضان دجلة يحدث بعض اضرار مهلكة. والهواء في الصيف شديد الحرارة حتى يقيم اهلها نهارًا في سراديب تحت الارض وليلاً على السطوح وفي الشتاء يشتد البرد حتى يلتزموا ان يضرموا النار للاصطلاء به وشربهم من ماء دجلة به يجعلونهُ في اوانٍ من خزف فيبرد فيها. وفي بعض الدور برك يتسرَّب اليها الماء

واما زيهم في الملبوس فالعمامة والجبة والنساء شديدات التحجب يتّزرن بالحبرات الحريرية الملونة والقبيرات بالاعبية والشيعة في غاية التعصب. ولكن الان اخذت اكثرية اهلها تلبس زي الفرنج خصوصًا البنات فانهن على جانب عظيم من التحسن والتجمل والاعتناء بملبوسهن وغيرهن من النساء والبنين والرجال. واعيان الاهالي يحسنون موانسة الغريب واكرامه كثيرًا ولو كان فقيرًا مسكينًا. وهم ذوو معروف واحسان واشفاق واخلاقهم طيبة على غاية ما يرام. غير انهم لا يزالوا على جانب من خرافاتهم وعوائدهم العامة المنكرة التي لدى المتمدنين هي فصل من التوحش. فمن تلك نذكر بعض تفصيل في اصول التعزية فنقول

ان اصول التعزية في بغداد جالبة النفرة. اما للفقراء فتجلب الاضطراب والمحنة. فاذا مات الانسان فان ذوي قرباه من الرجال يشتغلون ثلثة ايام مع لياليها لتدارك مراسيم قراءة الفاتحة

ويتقيدون بقيود ثقيلة الحمل كعدم الانفصال من الدار وعدم الاشغال بامر من الامور قطعاً

وبعد ان يجتمع كل من له ادنى معرفة مع المتوفى او اقارب المتوفى يتلون الفاتحة ثم يأخذون بشرب القهوة والتبغ وبعد التكلم والمصاحبة مدة غير يسيرة يقرأون الفاتحة مرة اخرى ثم يعودون الى منازلهم فلاجل هؤلاء يلتزم اهل البيت فرش جميع حجر الدار ومحالها والاتيان بمصلح القهوة مع عدته واحصار مقدار وافر من السيغارات والنارجيلات الى غير ذلك من النفقات التي وان كانت بالنسبة الى الاغنياء يعد اجراؤها مستحسناً فان اجراءها بالنسبة الى الفقراء حري بالتقبيح لان هوءلاء المساكين المفلسين المبتلين ببلاء اكبر يبيعون جميع ما يملكون ويستقرضون عليه فيصرفونه على رسم هذه التعزية التي هي عبارة عن شيء لامعنى له ذاهبين بذلك الى افكار واهية تدل على بلاهتهم قائلين : (ان لم نفعل ذلك نستحقر في اعين الناس ويسند الينا البخل .)

اما رسوم ماتم طائفة النساء فهي ان المريض المحتضر عند زهوق روحه يلتئم حوله جميع النساء الموجودات سواء كن من ذوي قرب المتوفي او غيرهن ويأخذن بالعويل صارخات باصوات موحشة كريهة تصدع الاذان شبيهة باصوات بنات آوى حين تعول في الغياض وتدوم هذه الحال حتى يخرج من الدار النعش وفي اثناء ذلك ترى بعض النساء اظهاراً للحزن والتأثر

يقطعن شعورهن ويمزقن اثوابهن ومنهن من ينشرن اثوابهن فقط ومنهن من يخضبن بالوداع الاسود وجوههن ورؤوسهن وايديهن والبستهن واما اقارب الميت من النساء فانهن يسودن جميع اثوابهن بالنيل فيلبسنهُ زمانًا طويلاً اما سنة واما سنتين الى العشرة وذلك بكيفهن

فتلك النساء العاريات من الثياب والمنكسات الرؤوس يجعلن الدار بالعويل والصياح والولاويل كبيوت الزنابير الى سبعة ايام

وفي غضون هذا الجفلق (اي الاسبوع) ترى النساء العارفات الميت والاجنبيات اذا بلغهن خبر المأتم يهتممن اهتمامًا مخصوصًا فيذهبن الى المأتم كانهن مدعوات الى عرس وسرور فياتين ذلك البيت ومعهن نادبة وهي امرأة تعدد مناقب المتوفى وتردد بعض الاقوال المؤثرة المبكية بصوت عال فيخالها السامع حزينة وحينئذ تتوجع قلوب من في المأتم من النساء يخمشن وجوهن اسفًا وحزنًا لكنهن لسن كلهن بمتأثرات بل حزنهن مصنع واكثر الآتيات من الخارج انما هن متفرجات بل هن فرحات بذلك. اما الموكلات على النارجيلة والقهوة والسيغارة فتراهن يدرن في وسط المجلس كالدوامة والكلام الذي يدور في جمعيات العجائز والبنات لهُ هنا المحل الاكبر

وبعد اليوم السابع من هذا المأتم الى مرور اربعين يومًا

بحدد الحزن على المنوال المذكور آنفاً مرتين في الاسبوع يومي الاثنين والخميس وليلتيهما وفي كل يوم عيد وسائر ايام الزيارات العمومية والايام المخصوصة وهذا يستمر الى مدة سنة . وغير ذلك من الاخلاق الجافية

ومن ثم ان العلم في انحطاط الا فيما ندر . والصناعة قائمة في الاكثر على دبغ السختيان الاحمر والاصفر والنصول والسروج والحرير والقطن والصوف ويتقنون البسط والشالات ويصنعون النحاس ومصوغات الذهب والفضة ..

في حيواناتها واطيارها

حيواناتها

فيها من الحيوانات الاسد وهو يدجن الغياض التي في طريق بصرة . والجمل وحمار الوحش والخيل الكريمة المشهورة بحسنها وفهمها وتركضائها السريع كانها غزال التي لا شبه لها في المسكونة باسرها والجاموس والبقر والبغال والثور والدب والخنزير والفهد والنمر والثعلب والحمار والذئب والغزال والايل والغنم والمعزى ومعزى كشمير التي تنسج منها الشالات الكشميرية . وهي

نادر الوجود في بغداد . والكلب وهو كثير فيها والسلوقي المشهور بخفته والقرد وابن آوى والارنب الاسود والابيض والجرذ والفار بضروبهِ والقاقم وغير ذلك

اطيارها

فيها من الطير ضروب واشكال . وانواع التي ليس لها مثال. منها الصقر الذي يصطاد الغزال بنوع مذهل . والاوز العراقي المشهور بطول رقبتهِ . وحسن عينيهِ . وبياض ريشهِ . ونعومتهِ ولينهِ وخفتهِ . والبط ذو الطعم اللذيذ . والصرّاخ (الطاؤوس) ذو الريش اللطيف الذي يغشي البصر ويخادع النظر . برونقهِ ولمعانهِ . والدجاج الهندي الذي يتأ بب منهُ ناظرهُ عند ما يكبر حوصلتهُ . ويبسط ذنبهُ . واللقلق والغراب والبازي والبوم والمالك الحزين (ابو شهيب) والحجلة والسمرمر الذي ياكل الجراد ويتلفهُ . والحمام بانواعهِ والقطاة والدجاج والدراج . والعصفور والزرزور . والقنبرة والهدهد المعروف بابي الاخبار وابي ثمامة وابي الربيع وابي روح وابي سجار وابي عباد . والجميلانة (البلبل) والهزار . وعصفور الجبل والخفاش والبشارات المتفاوتة الالوان . والزنبور والنحلة ودودة القز والبق والبرغش والزيز

في القرى التابعة لها

ان القرى والارباض التابعة لبغداد كثيرة عديدة اشهرها واعظمها :

المدائن قرية على مقربة من بغداد وهي الان خربة . وسلمان باك . قرية كانت قديمًا عاصمة الفرس . وهي الآن خربة ايضًا . ويعقوبة وديالة والعربزية والحسناء قديم منذ عهد الخلفاء العباسيين على ما قيل مبني على دجلة . والخدر قرية مبنية في موضع القادسية . وسوق الشيوخ قرية على الفرات فيها عرب البادية والنجد يتعاطون التجارة مع عرب العراق العربي . وهيت على غربي الفرات فوق الانبار وهي من فرضة الفرات . والحلة . مدينة يبلغ سكانها ١٢٠٠٠ نسمة على غربي الفرات ايضًا بنيت في نحو السنة ١٠٠٠ مسيحية على موضع قسم من اقسام بابل القديمة وهي مكتنفة بمعسكر من النخل الجبارى . ويوجد في مجاورها خرائب برج نمرود وقصر ملوك بابل والجنائن المعلقة وغيرها من المدائح وهي مدينة الشيخ صفي الدين بن سرايا الحلي صاحب الديوان المشهور في الشعر والمحبوكات الارتقية . وقيل انها مبنية من حجارة بابل القديمة . وموقع بابل الى الشرق منها وهي الى الجنوب الغربي من

بغداد على نحو ٥٨ ميلاً . وهناك اثار وتلال ورسوم كثيرة تدل على عظمة المدينة القديمة غير ان العلماء واهل السياحة اختلفوا كثيرًا على حقيقة موقعها بالحصر ولم يعلموا يقينًا الا انها كانت في تلك الناحية . والقادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق . وكذلك الحيرة وكانت هذه مدينة عظيمة ذات زروع وانهار وهي مقام الملوك اللخميين من آل نعمان بن المنذر . وهي الان خراب . والكوفة قرية خربة اسستها العرب سنة ١٢٦ وصارت قاعدة الخلفاء قبل بغداد . والى الكوفة تنسب جماعة من النحاة وكان اهلها ممن يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم وهي مولد احمد بن الحسين المعروف بالمتنبي المشهور بالشعر وكان مولده بها ٣٠٣ للهجرة . وبالقرب منها مسجد علي وهو مدفن علي بن ابي طالب وابنه الحسين . الانبار فهي على شرقي الفرات بقرب مخرج نهر عيسى وقد نسب اليها جماعة كثيرة في كل فن وكان بها مقام السفاح اول خلفاء بني العبّاس . وعكبري بليدة على دجلة فوق بغداد . وبقربها قطربل الى جهة بغداد . وبقرب بغداد الى الشمال منها سامرى بناها المعتصم العباسي وهي الان خراب ليس فيها غير القليل من البناء العامر . والبردان قرية كانت على شاطي دجلة الشرقي . وصرصر على طريق الحج من بغداد بالقرب منها . ومشهد علي ومشهد حسين وكربلاء والسماوة والكوت والديوانية ولمنونة وعانة وعرقة وكوت الحي وشيخ ساعد وعلي

الغربي وقلعة صالح واخيرًا عمارة قرية واقعة على سواحل نهر الدجلة بين بصرة وبغداد . وفيها عدا الحصن والسراية والمستشفى العسكري تشاهد عددًا عديدًا من البيوت الجميلة قد قامت في شكل مستقل مهيب على شاطي النهر الشمالي . ويبلغ عدد سكانها نحوًا من عشرة الاف . وقد أحيطت برياض وجنينات تجري في وسطها السيول والسواقي . وفيها مركز تلغرافي ومعبد للنصارى الكاثوليك مع مدرسة صغيرة واجناس اهلها اسلام ويهود ونصارى وصبّة (هي فئة تتبع طقس يوحنا المعمدان)

في انبياء واولياء وعلماء وشعراء الاسلام المولودين في بغداد والمدفونين فيها في ترجمة أشهرهم

يوشع بن نون بن افرائيم بن يوسف . وابن مقلة (هو ابو علي محمد بن علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور . وهو اول من نقل الكتابة من القلم الكوفي الى هذه الصورة المتعارفة ويضرب به المثل في حسن الخط . وكانت ولادته في ٢١ شوال سنة ٢٧٢ ببغداد وتوفي في يوم الاحد في ١٠ شوال سنة ٣٢٨ .) وذو الكفل وسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان العبسي . وسهل بن خيف .

والامام علي بن ابي طالب . وعقبة بن عمر . واشعث بن قيس بن
معدي كرب بن معاوية بن الحارث الاصغر بن معاوية بن الحارث
الاكبر بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن ثور بن عفير
الكندي الاصحابي . كان من انباع نبي الاسلام في زمانه توفي
بالكوفة سنة ٤٢ هجرية) وخباب بن الارث التميمي . والمغيرة بن
شعبة وعبد الرحمن بن ابزي الخزاعي . وسويد بن مقرن . وقرظة
بن كعب . وسهل بن خيثمة . وطلحة بن عبيدالله بن عثمان . والزبير
بن العوام والامام حسين علي بن ابي طالب . وخالد بن عرفطه
وزيد بن ارقم . وعدي بن حاتم الطائي . والاحنف بن قيس
(هو ابو بحر الضحاك بن قيس بن معاوية بن حصين ابن عبادة
بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحرث بن عمرو بن كعب بن
سعد بن زيد مناة بن تميم التميمي وقيل اسمه صخر . وهو الذي
يضرب به المثل في الحلم . كان من سادات التابعين ادرك عهد
نبي الاسلام . مات بالكوفة سنة ٦٧ هجرية وقيل ولد الاحنف
ملتصق الاليتين حتى شق وكان احنف الرجل يطأ على وحشيها
ولذلك سمي الاحنف . وكان متراكب الاسنان صغير
الراس مائل الذقن .) وزيد بن خالد الجهني . وسعيد بن
رحريث . والبراء بن عازب بن الحارث الانصاري الاوسي .
وجابر بن سمره بن جنادة العامري . و وهب بن عبد الله . ومحمد
بن حاطب . وعبدالله بن يزيد الانصاري . والاسود بن زيد

بن قيس بالنخعي (هو ابو عبد الله الاسود بن يزيد بن قيس بن عبد الله بن مالك بن علقمة بن سلامان ابن كهيل النخعي الكوفي التابعي الفقيه الامام الصالح . وكان ثقة من اهل الخير . صواماً قواماً يختم القرآن في كل ليلتين وتوفي سنة ٧٤ وقيل ٧٥ هجرية) والامام عباس بن علي بن ابى طالب . وعمران بن علي بن ابي طالب . وعون بن علي بن ابي طالب . وعمر ابن حريث . وعبد الله بن ابي اوفى الاسلمي . والقاضي شريح . وسعيد بن جبير وعبد الله بن عتبة . وعلي بن علي بن الحسين . وابو عمرو وعامر الشعبي . وابو الخطاب قتادة السدوسي . وربيعة بن عبد الرحمن وعبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن ابي طالب . وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام . والامام الاعظم نعمان بن ثابت الكوفي . ومنصور بن الحسن . وسعيد بن حسن السبط . وابو بكر محمد بن اسحق بن يسار المدني . وابو عمرو بن العلاء . (اختلف في اسمه وذكروا له عدة اسماء منها العريان ويحيى ومحبوب وجنيد وعيينة وعتيبة وعثمان وعيار وجبر وخير وجز وحميد وعقبة وعمار وفائد ومحمد وقبيضة وزيان والصحيح ان اسمه كنيته وهو ابو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحصين التميمي المازني البصري احد القراء السبعة . وكان اعلم الناس بالقرآن والعربية والشعر وايام العرب وهو في النحو في الطبقة الرابعة من علي بن ابي طالب . وله اخبار ونكت كثيرة

وكانت ولادتهُ سنة ٧٠ بمكة وتوفي سنة ١٥٤ .) وعبد الله بن محمد واهبان بن أوسي . وعبد العزيز بن عبد الله . وداود الطائي وابو يوسف يعقوب بن ابي سلمة . والامام ابو يوسف يعقوب بن ابرهيم (وهو يعقوب بن ابرهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة الانصاري القاضي الفقيه صاحب الامام ابي حنيفة كان من اهل الكوفة وكان فقيهًا عالمًا حافظًا . ولهُ اخبار كثيرة لا حاجة الى استيفائها . وكانت ولادته سنة ١١٢ للهجرة وتوفي يوم الخميس وقت الظهر في ٥ ربيع الاول سنة ١٨٢ ببغداد وهو على القضاء . وكان قد وليه سنة ١٦٦ .) وعبد الله بن المبارك والامام موسى الكاضم . وابن السماك (هو عثمان بن احمد الدقاق كان محدث بغداد في وقتهِ . وتوفي سنة ٢٤٤ هجرية .) وابرهيم بن سعد . وعباد بن العوام . وابرهيم النديم الموصلي . (هو ابن ميمون بن بهمن بن منسك التميمي الولاء الارجاني المشهور بالغناء ويعرف ايضًا بالمغني . وكانت وفاتهُ ببغداد سنة ١٨٨ هجرية ولهُ من العمر ثلاث وستون سنة .) وعبد الله بن أدريس . والامام ابو القاسم بن الامام موسى الكاظم . والامام حمزة بن الامام موسى الكاظم . والقاسم بن موسى الكاظم . وابرهيم واسمعيل اولاد موسى الكاضم . وابرهيم المجاب . والسيد ابرهيم . والحسن بن هاني الحكمي . ومعروف الكرخي بن فيروز . وداود بن علي الظاهر وعلي بن عبد الله . وشجاع بن رليذ . والزبيدة . وابو عمر واسحق

بن مرار الشيباني . (هو اسحق بن مرار الشيباني النحوي اللغوي
وكان من الائمة الاعلام في فنونهِ وهي اللغة والشعر . ولهُ تصانيف
مفيدة منها كتاب الخيل . وكتاب اللغات وهو المعروف بالجيم
ويعرف ايضاً بكتاب الحروف وكتاب النوادر الكبير وكتاب
غريب الحديث وكتاب خلق الانسان وكتاب النحلة وكتاب
الابل وغير ذلك . وكانت وفاته ببغداد يوم الشعانين سنة ٢١٠
هجرية وقيل كان عمره ١١٠ سنين) والامام محمد الجواد بن علي
الرضا بن موسى الكاظم . واحمد بن يونس . وبشر الحافي (هو ابو
نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن
ماهان المروزي الزاهد احد رجال الطريقة كان من كبار
الصالحين واعيان الاتقياء المتورعين . وكانت ولادته سنة ١٥٠
هجرية ووفاته سنة ٢٢٧ ببغداد .) وعبد الله بن الجعد الجوهري
وابو يعقوب بن يوسف بن يحيى . وزهير بن حرب والامام احمد بن
محمد بن حنبل الشيباني . (هو الامام ابو عبد الله احمد بن محمد
بن حنبل الشيباني المروزي الاصل . ولد ببغداد في ربيع الاول
سنة ١٦٤ . وكان علامة لم يكن في اخر عصره مثلهُ في العلم والورع
وتوفي سنة ٢٤١ ببغداد ودفن في مقبرة باب حرب .) وعبد الله
بن عمر بن ميسرة القواريري البصري . والحارس المحاسبي . والسيد
الطائف جنيد البغدادي وابو الحسن محمد النوري . واحمد
بن يحيى الراوندي . وابرهيم ابو ثور ومحمود بن خداش . وابو الحسين

السري السقطي . والامام علي الهادي بن محمد الجواد . وابو علي
الحسن الزعفراني والامام حسن العسكري بن علي الهادي . ومحمد
بن الحسن العسكري . واحمد بن يحيى . وعبد الله بن مسلم
الدينوري . واسمعيل بن اسحق . واسمعيل بن جعفر . وابو القاسم
عثمان الانماطي . وابو العباس احمد بن مسروق . وروبح بن
احمد . وابو موسى سليمان بن محمد النحوي البغدادي . والشيخ
ابو العباس احمد بن سريج . (هو ابو احمد بن عمر بن سريج الفقيه
الشافعي كان من عظماء الشافعيين وايمة المسلمين وكان يقال له
البازي الاشهب وله نظم حسن وتصانيف عديدة وكانت وفاته
لخمس بقين من جمادي الاولى سنة ٣٠٦ ببغداد وعمره سبعون
سنة والسيد علي بن اسمعيل بن جعفر الصادق . والحسن بن علي
وعبد الله بن سلمان السنجري . وابو جعفر محمد الطبري . (هو
ابو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري وقيل يزيد
بن كثير بن غالب صاحب التفسير الكبير . والتاريخ الشهير
كان اماماً في فنون كثيرة منها التفسير والحديث والفقه وغير
ذلك وله مصنفات نفيسة في فنون عديدة تدل على سعة علمه وغزارة
فضله وكان من الايمة المجتهدين . وولد سنة ٢٢٤ بآمل طبرستان
وتوفي في ٢٦ شوال سنة ٣١٠ ببغداد) وابو اسحق ابرهيم الزجاج
والامام ابو الحسن علي الاشعري (وهو ابو الحسن علي بن اسمعيل
بن ابي بشر اسحق بن سالم بن اسمعيل بن عبد الله بن موسى بن

بلال بن ابي بردة عامر بن ابي موسى الاشعري البصري ولد سنة ٢٦٦ هجرية بالبصرة وتوفي ببغداد فجأة سنة ٣٢٠ وله من المصنفات ٥٥ منها كتاب اللمع وكتاب الموجز وكتاب ايضاح البرهان وغير ذلك) وابو هاشم عبد السلام بن محمد الجبائي . ونفطويه الملقب بابرهيم بن محمد . وابو بكر محمد بن الانباري . والشيخ علي الخضراوي . وابو علي الحسن الفارسي (هو الحسن بن احمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن ابان الفارسي النحوي ولد بمدينة نسا . وله تصانيف جيدة منها كتاب المسائل الحلبيات وكتاب المسائل الشيرازيات وكتاب المسائل البغداديات وغير ذلك وكان مولده سنة ٢٨٨ وتوفي في ١٧ ربيع الآخر وقيل الاول سنة ٣٧٧ ببغداد) وابو علي محسن القاضي التنوخي . وابو الحسن علي . وابو طالب محمد المكي وابو الحسين محمد بن احمد بن سمعون . والحسين بن الحجاج . وابو الفتح عثمان بن جني الموصلي وابرهيم بن محمد بن عبيد . والقاضي ابو بكر محمد الباقلاني . وابو الحسن علي المعروف بالماوردي (هو علي ابن حبيب الامام الجليل القدر الرفيع الشان ابو الحسن الماوردي صاحب الحاوي والاقناع في الفقه وأدب الدنيا والدين والاحكام السلطانية وقانون الوزارة وسياسة الملك وغير ذلك وكان اماماً جليلاً رفيع الشان له اليد الباسطة في المذهب والتفنن التام في سائر العلوم . ولد سنة ٣٦٤ وتوفي سنة ٤٥٠ هجرية) وابو حامد الاسفرائيني . وابو محمد جعفر

بن احمد . ويحيى بن علي. واحمد بن محمد البرقاني . وابو الحسين احمد القدوري (هو احمد بن محمد بن جعفر بن حمدان الفقيه الحنفي . كان حسن العبارة في النظر وسمع الحديث . وكانت ولادته سنة ٣٦٢ هجرية وتوفي في رجب سنة ٤٢٨ ببغداد) وابو عبد الله الحسن بن محمد القرضي الحاسب . وابو بكر احمد الحافظ وابو اسحق ابرهيم الشيرازي الفيروزبادي . (هو الشيخ ابرهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزبادي الملقب جمال الدين . وله تصانيف مفيدة منها المهذب في المذهب والتنبيه في الفقه وغير ذلك وكانت ولادته بفيروزباد سنة ٣٩٣ وتوفي ببغداد سنة ٤٧٦) وابو القاسم عبد الله . ومحمد بن نصر الحميدي الاندلسي وابو القاسم هبة الله . والشيخ محمد الدوري . وابو محمد جعفر . وابو الفضل محمد بن ناصر السلامي المعروف بالقيسراني الشامي والحسين بن علي الطغرائي (هو مؤيد الدين الاصبهاني المنشيء المعروف بالطغرائي كان عزيز الفضل لطيف الطبع فاق اهل عصره بصنعة النظم والنثر وله ديوان شعر جيد . وكانت ولادته ٤٥٥ وقتل في سوق بغداد عند المدرسة النظامية في سنة ٥١٣ هجرية) والشيخ خليفة بن موسى النهرملكي . وابو الفتوح احمد بن علي . وحماد الدباس . والحسن بن ابراهيم بن برقوق . واسمعيل بن احمد . وابو الحسين محمد بن علي المصري وابو منصور موهوب بن ابي طاهر الجواليقي . وهبة الله بن علي الشجري البغدادي .

وابراهيم بن محمد الدقي . والشيخ مطر البادرائي . والشيخ بقا بن بطو . وعبد الاول . والشيخ أبو سعيد القيلوي والشيخ ماجد الكرديه . والشيخ عبد القادر الكيلاني . والشيخ ابو النجيب عبد القاهر السهروردي . والشيخ علي الهيتي . وابو محمد القاسم بن عبد المصري . وابو محمد عبد الله . وعبد الرحمن بن محمد الانباري . وابو بكر محمد بن ابي عثمان . وابو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (هو عبد الرحمن بن ابي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادى بن احمد بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ . كان علامة عصره وامام وقته في الحديث وصناعة الوعظ . وقد اشتهر من تاليفه اكثر من مائة مؤلف . وله اشعار لطيفة كثيرة وكان له في مجالس الوعظ اجوبة نادرة وكانت ولادته تقريبًا سنة ٥٠٨ وتوفي في ١٢ رمضان سنة ٥٩٧ ودفن بباب حرب .) وابو الفرج الاصبهاني (هو علي بن الحسين بن محمد بن احمد بن الهيثم بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم بن ابي العاص بن امية بن عبد شمس ابن عبد مناف القرشي الاموي الكاتب الاصبهاني صاحب كتاب الاغاني . وهو اصبهاني الاصل بغدادي المنشا كان من اعيان الادباء وافراد المصنفين . وكان عالمًا بايام الناس والانساب والسير وكان متشيعًا وكان يحفظ

من الشعر والاغاني والاخبار والاثار والاحاديث المسندة والنسب
شيئا كثيرا جدا . وكان عالما بعلوم اخرى مثل النحو واللغة
والخرافات والسير والمغازي وشيئا كثيرا من آلة المنادمة وشيئا
من الطب والنجوم والاشربة وغير ذالك وله شعر جيد ومصنفات
جيدة مفيدة منها كتاب الاغاني وكتاب القيان وكتاب الاماء
الشواعر وغيرها وكانت ولادته سنة ٢٨٤ . وتوفي يوم الاربعاء
رابع عشر ذي الحجة سنة ٣٥٦ ببغداد وكان قد خلط قبل موته)
وابو الفرج الحراني (هو عبد المنعم بن ابي الفتح عبد الوهاب بن
سعد بن صدقة بن الحصين بن كليب الملقب شمس الدين الحراني
الاصل البغدادي المولد والدار الحنبلي المذهب . كان تاجرا وله
في الحديث السماعات العالية وانتهت الرحلة اليه من اقطار الارض
وكانت ولادته في صفر سنة ٥٠٥ وتوفي في ٢٧ ربيع الاول سنة ٥٩٦
ببغداد ودفن بمقبرة الإمام احمد بن جنبل بباب حرب) والشيخ
جاكير والشيخ عبد الرحمن الطفسونجي . والشيخ ابو الحسن الجوسقي
والشيخ ابو محمد المغربي . والشيخ محمد الازهري . والشيخ محمد
البقلي اليماني . والشيخ سراج الدين . وجوانمرد . والشيخ محمد
الوتري والشيخ سكران . وابو البقاء العكبري وابو بكر بن ابي خيثمة
(هو ابو بكر احمد بن زهير بن حرب النساءي البغدادي الحافظ
الامام العلامة المصنف المشهور صاحب التاريخ الكبير المعروف
به وتاريخ رواة الحديث وهو كبير ايضا . وكان من المشايخ الاجلاء

وتوفي سنة ٢٧٩ هجرية .) والشيخ ابو الحسن علي بن ادريس
اليعقوبي والشيخ الشهاب عمر السهروردي . ونصر الله المعروف
بابن الاثير . (هو الوزير ضياء الدين ابو الفتح نصر الله بن ابي
الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني
الجزري . ولد بجزيرة ابن عمر . وله تآليف جمة منها الكتاب
المشهور المعروف بالمثل السائر في ادب الكاتب والشاعر .
وكتاب الوشي المرقوم في حل المنظوم وكتاب المعاني المخترعة في
فن الانشاء وغيرها . وكانت وفاته سنة ٦٣٧ هجرية ببغداد .)
وقنبر علي . والشيخ ناصر الدين والخوجه نور الدين . والشيخ عبد
الرزاق . والشيخ محمد الالفى والشيخ محمد الجولاني والشيخ عبد
العزيز . ومحمد بن عبد الله بن عمر البغدادي . وجمال الدين
عبد الله بن محمد العاقولي . والشيخ غياث الدين محمد بن عبد
الله بن محمد العاقولي . والشيخ محمد المجنون . وبيرداود . والشيخ
محمد المغربي والسيد ابرهيم النصله . وبابا فخرولي . والشيخ حمزة
والشيخ جميل . والشيخ محمد جركين والشيخ صندل . وابو سيفين
والشيخ محمد الاحسائي . والشيخ احمد الموصلي . والسيد محمود
افندي الالوسي . واحمد خان الكيلاني . وابن البواب (هو ابو
الحسن علي بن هلال الكاتب المشهور لم يوجد في المتقدمين ولا
المتاخرين من كتب مثله ولا قاربه واقرّ له الجميع بالسابقة
وعدم المشاركة في حسن الخط فانه هو الذي هذب الخط ونقحه

بعد ان نقله ابن مقلة من خط الكوفيين الى هذه الصورة المتعارفة .
وكانت وفاته يوم الخميس ثاني جمادى الاولى سنة ٤٣٢ ببغداد
بجوار احمد بن حنبل .) و (ابو نواس (هو ابو علي الحسن بن هاني
بن عبد الاول بن الصباح الحكمي الشاعر المشهور . وكانت ولادته
سنة ١٤٥ هجرية ووفاته سنة ١٩٥ وقيل سنة ١٩٦ وقيل ١٩٨
هجرية ببغداد . ودفن في مقابر الشونيزي ولهُ نوادر كثيرة مشهورة
في شهرتها غنى عن ذكرها . وشعره كثير واكثره حسن . وهو في
الطبقة الاولى من المولدين وشعره عشرة انواع وهو مجيد في العشرة
وانما قيل لهُ ابو نواس لذوابتين كانتا له تنوسان على عاتقيهِ . وصفهُ
ابو عبدالله الجماز قال : كان ابو نواس اظرف الناس منطقًا
واغزرهم ادبا . واقدرهم على الكلام واسرعهم جوابًا واكثرهم حياء
وكان ابيض اللون جميل الوجه مليح النغمة والاشارة . ملتف
الاعضاء بين الطويل والقصير . مسنون الوجه قائم الانف .
حسن العينين والمضحك . حلو الصورة لطيف الكف والاطراف
وكان فصيح اللسان جيد البيان . عذب الالفاظ حلو الشمائل
كثير النوادر . واعلم الناس كيف تكلمت العرب . رواية للاشعار
علامة بالاخبار كان كلامهُ شعر موزون .) وابو العتاهية (هو
اسمعيل ابو القاسم بن سويد بن كيسانة مولى عنزة وكنيته ابو اسحق
وابو العتاهية لقب غلب عليهِ قيل لانهُ كان يحب الشهرة والمجون فلقب
لعتوه بذلك . وكان ابو العتاهية غزير البحر كثير المعاني لطيفها

سهل الالفاظ كثير الافتنان قليل التكلف الا انهُ كثير الساقط المرذول مع ذلك وكان نظيفاً ابيض اللون اسود الشعر لهُ وفرة جعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة . ولهُ في الزهد اشعار كثيرة وهو من مقدمي المولدين في طبقات بشار وابي نواس وغير ذلك وشعره كثير وكان مولده سنة ١٣٠ ووفاته في يوم الاثنين لثمان من جمادى الاولى وقيل لثلاث من جمادى الاخرة سنة ٢١١ ودفن حيال قنطرة الزياتين في الجانب الغربي من بغداد) وابو بكر المقرى البغدادي (هو ابو بكر احمد بن موسى بن العباس بن مجاهد الامام المقري المشهور . كان اماماً في معرفة القراءات وتوفي سنة ٣٢٤ هجرية في خلافة الراضي بالله العباسي) وابو القاسم العبسي (ذو جمال الملك علي بن افلح الشاعر المشهور كان حسن المديح كثير الهجاء مدح الخلفاء ومن دونهم من ارباب المراتب ولهُ نوادر كثيرة . وتوفي ثاني شعبان سنة ٥٣٥ وقيل غير ذلك وعمره ٦٤ سنة و٣ اشهر و١٤ يوماً وكانت وفاته ببغداد ودفن بالجانب الغربي في مقابر قريش) واحمد بن محمد بن سعدان (كنيتهُ ابو بكر . وهو بغدادي المحتد صحب الجنيد والنوري وهو من اعلم شيوخ وقتهِ بعلوم طائفتهِ وكان عالماً ايضاً بعلوم الشرع مقدماً فيهِ . وكان عائشاً في القرن الثاني من الهجرة) والامام ابو حنيفة نعمان بن ثابت (هو النعمان بن ثابت بن زوطى بن ماه . الامام الفقيه مولى تيم الله بن ثعلبة وهو من رهط حمزة الزيات .

ولد سنة ٨٠ للهجرة . وكان عالماً عاملاً زاهداً عابداً ورعاً تقياً
كثير الخشوع . دائم التضرع حسن الوجه والمجلس والثياب طيب
الريح لانه كان يتعطر كثير الكرم حسن المواساة لاخوانه . وكان
ربعة من الرجال وقيل كان طويلاً تعلوه سمرة احسن الناس
منطقاً واحلاهم نغمة ومذهبه شائع مشهور وقد اتبعه قوم لا يحصى
عددهم الا الله . وهو مذهب الدولة العثمانية . وكانت وفاة ابي
حنيفة في رجب وقيل في شعبان سنة ١٥٠ ه على الاصح ببغداد ورجحوا
انه مات في السجن لكونه ابى القضاء . وقيل ان وفاته كانت في اليوم
الذي ولد فيه الامام الشافعي ودفن في مقبرة الخيزران وقبره هنالك
مشهور بزار . وبنى شرف الملك ابو سعد محمد بن منصور الخوارزمي
مستوفي مملكة السلطان ملك شاه السلجوقي على قبر ابي حنيفة ٤٥٩
مشهداً وقبة ومدرسة كبيرة للحنفية . واما ربض ابي حنيفة فهو
المعروف عندنا بباب المعظم او المعظم . وهو منسوب الى ابي حنيفة
احد قواد المنصور العباسي ومحلة ابي حنيفة بلصق مقابر الخلفاء
العباسيين ببغداد بالجانب الشرقي منسوبة الى الامام وبها
قبره .)

رسالة الآباء الكرمليين في بغداد

اعلم ان المقالة الآتية مستخرجة عن الفرنسية وهي انشاء احد الاباء المذكورين

في سنة ١٦٢٨ قامت امرأة تقية فرنسية السيدة دي ركوار وسلمت ٦٠٠٠ ليرة الى الاب برنار دي سانت تريزية الكرملي من عشيرة جان دي وال وحرضته على السفرة الى هذه الارجاء خيرًا لسكانها وخلاصًا لانفسهم الضالة . وفي تلك السنة عينها سيم الاب المذكور أُسقفًا على بابل وخول له ايضًا اسم النائب الرسولي لمدينة اصبهان

ثم ان سيادة الاسقف جان دي وال ذهب الى اصبهان محل ادارته حيث الاباء الكرمليون الحافيون قد اسسوا رسالة فيها منذ سنة ١٦٠٤ . وفي غضون ذلك الوقت ما كان حاكم بغداد يؤذن لحضرات الاباء المذكورين في الدخول بمدينته ولا الاقامة فيها . فاضطرت حينئذ خلفاء الاسقف المذكوران يقيموا في اصبهان مدة حتى سنة ١٦٤٢ وهي السنة التي سيم فيها الاب عمانوئيل دي سان ألبر الكرملي اسقفًا على بابل

اما رسالة بغداد فقدت ابتدأت في نحو سنة ١٧٣١ وذلك

دخلها حضرة الاب يوسف ماريا دي يسوع الكرملي الفرنسي
من اقليم برغونيا في تلك السنة عينها . وهذا هو اول نائب رسولي
سمي المرسالة الكرملية وكان محل ادارتهِ في بغداد ولكن لم يكن
هذا محله ثابتاً اذ انهُ كان خالياً عن معبد ومنزل وغيرهما . وكان
يقدس ويرسم الاسرار في بيوت النصارى الموحدين في المدينة .
واستمر على هذه الحالة مدة سنين حتى تشنج علباؤه . واندرست
اعضاؤه . فاضطر حينئذ ان يؤوب الى مسقط راسهِ وكان
خروجه منها في ٢٠ ايلول سنة ١٧٠٧ . ثم عقبه الاب عمانوئيل
دي سان آلبر من عشيرة بايلة في تلك السنة . ثم سافر هذا الاب
الى مدينة بنديشيري من اعمال الهند مستمداً من حاكم هذه المدينة
كلاماً لحاكم بغداد احمد باشا حتى ياذن هذا الاخير لحضرة الاب
عمانوئيل في اقامة منزل المرسلين . فنال امنيته . وحصل على
رغبته ... بناء المنزل وكان هذا الاب المذكور
قد ابتاع سنة ١٧٢١ بيتاً في محله نصرانية تسمى بعبد الله عزيز بن
كرومي . وكان ثمن ذلك البيت يبلغ زهاء ٥٠٠ شام (ضرب من
الصكوك العثمانية) المائتين منها انقدها الاب يوسف ماريا الكرملي
المار ذكره . واما البقية الثلثمائة فقد سلمها الاب عمانوئيل عند
مآبهِ من الهند وذلك في ٥ تموز سنة ١٧٢١

ولما راى الاب عمانوئيل ان المنزل كاد يسقط من تلقاء
نفسهِ . اصلحهُ وانشأ معبداً (كابلة) ظريفاً فاحتفل فيهِ اول

قدّاس في ١٤ تموز وجعله تحت حماية مار توما الرسول

وفي سنة ١٧٤٢ اصبح كرسي بابل فارغاً بوفاة السيد دومنيك ورلي فسيم اذ ذاك الاب عمانويل بايلة اسقفاً على بابل وتخلفهُ على الكرسي وبعد مرور يسير من الزمان جعلهُ ملك فرنسة لويس الرابع عشر قنصلاً فرنسياً ببغداد وكان هو اول قناصل فرنسة فيها . ثم توفي السيد الجليل المذكور سنة ١٧٧٣ بالوباء في عيد الفصح المقدس . ثم قضى بعده الاب انج والاب فيودل الكرمليان بهذا المرض المرهب المعدي الذي اتلف بغداد وما بين النهرين

وفي شهر حزيران من تلك السنة اي ١٧٧٣ وفد على بغداد الاب هنري وسنة ١٧٧٤ الابوان جستين وأزيدور والثلاثة هم فرنسيون كرمليون

وفي نحو سنة ١٧٧٥ وفد على بغداد الاب فرديناند الكرملي الايطالي وسنة ١٧٨٠ الاب ونجانس دي سانت ماريا الكرملي الالماني من اقليم كولونيا . وهذا الاخير بات النائب الرسولي على بابل ثم لعبت اصبعه بالبصره في شهر آب سنة ١٨٠٢

ثم اتى الاب ولفانج الالماني من اقليم بويارة وتخلف الاب ولجانس تحت اسم نائب رسولي حتى ترك الرسالة في سنة ١٨٠٩ ثم تخلف بعده الاب بياجيودي سان متياس من اقليم نابلي وله اسم النائب الرسولي لما بين النهرين

فلنرجع الان الى الكلام عن المنزل التي سبقت اليه الاشارة

فنقول

ان المعبد المذكور رمم ووسع مرات عديدة فالمرة الاولى كانت بعد الوباء . ووسعة الاب اغناطيوس المرسل الكرملي من ماردين الذي كان يدير رسالة بغداد تحت اسم نائب وقتي . والمرة الثانية كان توسيعة على يد الاب والفانج . ثم رمم ووسع مرة ثالثة سنة ١٨٠٩م

ومن بعد ذلك الوقت اقيم فيه مذبحًا مرمريًا وكانت مصاريف هذه الاصلاحات والانشاءات كلها صادرة من خزنة الاباء الكرمليين الحافيين

وقبل الثورة الفرنسية كان للاباء الكرمليين في بغداد دخلاً قدره ١٠٠ ريال . ولكن بعدها فقدوا هذا الدخل فاخذوا يقتاتون من زكاة قطان بغداد

في ما جاء بشان بغداد من مدح وغيره

قال ابن بطوطة :

بغداد مدينة دار السلام . وحضرة الاسلام . ذات القدر المنيف . والفضل الشريف . مثوى الخلفاء . ومقر العلماء . قال ابو حسين بن

جبير رضي الله عنه وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حاضرة الخلافة العباسية ومثابة الدعوة الامامية القريشية . فقد ذهب رسمها . ولم يبقَ الا اسمها . وهي بنسبة الى ما كانت عليه قبل انحناء الحوادث عليها . والتفات اعين النوائب اليها . كالطلل الدارس . او تمثال الخيال الشاخص فلا حسن فيها يستوقف البصر . ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر . الا دجلتها التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين . او العقد بين لبتين . فقال القاضي التنوخي يصف الدجلة في الظلام والقمر يلمع عليها

أحسن بدجلة والدجى متصوِّب والبدر في افق السماء مغربُ
فكانها فيهِ بساط ازرق وكانهُ فيها طراز مذهبُ

وقال ايضاً

كم ليلة سامرت فيها بدرها من فوق دجلة قبل ان يتغيبا
والبدر يجنح للأفول كانهُ قد سلَّ فوق الماء سيفاً مذهبا

فهي تردشا ولا تظمأ . وتنطلع منها بي مرآة صقيلة لا تصدأ . والحسن الحريمي بين هوائها ومائها نشأ . قال ابن جزي وكان ابا تمام حبيب بن اوس طلع على ما آل اليه امرها حيث قال فيها

لقد اقام على بغداد ناعيها فليبكها لخراب الدهر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة والنار تطفأ حسناً في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة فالآن اضمر منها الياس راجيها
مثل العجوز التي ولت شبيبتها وبان عنها جمال كان يحظيها

وقد نظم الناس في مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا ووجدوا مكان القول ذا سعة فأطالوا واطابوا وفيها يقول الامام القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر المالكي البغدادي رحمة الله مرات

طيب الهوى ببغداد يشوقني قدمًا اليها وان عاقت معاذيرُ
وكيف راحل عنها اليوم اذ جمعت ٭ طيبي الهوائين ممدود ومقصورُ

وفيها يقول ايضًا

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني السلام المضاعفُ
فوالله ما فارقتها عن قلى لها واني بشط جانبيها لعارفُ
ولكنها ضاقت علي برحبها ولم تكن الأقدار فيها تساعفُ
وكانت كخل كنت اهوى دنوه واخلاقه تنأى به وتخالفُ

وفيها يقول ايضًا مغاضبًا لها

بغداد دار لاهل المال واسعة وللصعاليك دار الضنك والضيقِ
ظللت حيران امشي في ازقتها كانني مصحف في بيت زنديقِ

وفيها يقول القاضي أبو الحسن علي بن النبيذ من قصيدة

انستُ بالعراق بدرًا منيرًا فطوت غيهبًا وخاضت هجيرًا
واستطابت ريّا نسائم بغدا د فكادت لولا البرى ان تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضًا لم يزل ناضرًا وماء نميرًا
واجتنت من ربا المحول نورًا واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد في ذكرها

آهاً على بغدادها وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات باوجه تبدو اهلتها على اطواقها
متبخترات في النعيم كانما خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفسي الفداء لها فاي محاسن في الدهر تشرق من سنا اشواقها

وقيل في وصف بغداد لما حلت فيها الطامة الكبرى

بكيتُ دما على بغداد لما فقدت نضارة العيش الانيق
تبدلنا هموماً من سرور ومن سعة تبادلنا بضيق
اصابتنا من الحساد عين فافنت اهلها بالمنجنيق
وقوم احرقوا بالنار قسوًا ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي او صباحًا وباكية لفقدان الشقيق
وحوراء المدامع مع ذات دل مضمخة المجاسد بالخلوق
تفر من الحريق الى انتهاب ووالدها يفر الى الحريق
وسالبة الغزالة مقلتيها مضاحكها كلألاء البروق
حيارى هكذا اومنكرات عليهن القلائد في الحلوق
ينادي الشفيق ولا شفيق وقد فقد الشفيق من الشفيق
ومغترب قريب الدار ملقى بلا راس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعًا فمايدرون من اى الفريق
فما ولد يقيم على ابيه وقد فر الصديق من الصديق
ومهما انس من شيء تولى فاني ذاكر دار الرفيق

وقال ابو سعد النيرماني في مدح بغداد من قصيدة لهُ

وخبرتماني ان تيماء منزل لليلى اذا ما الصيف القى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا قد انقضت
فما للنوى ترمي بليلى المراميا
فدى لك يا بغداد كل مدينة من الارض حتى خطتي وداريا
فقد سرت في شرق البلاد وغربها وطوفت خيلي بينها وركابيا
فلم ارَ فيها مثل بغداد منزلاً ولم ارَ فيها مثل دجلة واديا
ولا مثل اهليها ارق شمائلاً واعذب الفاظاً واحلى معانيا
وكم قائلٍ لو كان ودك صادقاً لبغداد لم ترحل وكان جوابيا
يقيم الرجال الموسرون بارضهم وترمي النوى بالمقترين المراميا

قال منشئ هذه النبذة الفقير الى عفوه تعالى نابليون بن ميخائيل بن يوسف بن المار بني هذا ما رغبت نفسي تعليقهُ في هذه النبذة . وناقت أليهِ الدارسون في هذه البلدة . وكان الفراغ من طبعها في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٨٧٠ مسيحية
وبالله التوفيق والكمال ذي
القدرة والجلال